

يبرز ما

الاجتماعيات

ترجمة: عايدة لطفي

مراجعة: د. أمية رشيد • د. سيد البحر اوى



نقا



دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

مكتبات مكتبة العرب

www.library-arab.com

النقد الاجتماعي
نحو علم اجتماع للنص الأدبي

مكتبات كلية العرب

www.library-arab.com

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٩١
جميع الحقوق محفوظة

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

القاهرة: شرماء لبيب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

تليفون: ٢٧٣٥٠٧٤

الغلاف : عماد حلم

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة



مكتبات
حديثة

www.library-tarab.com

پیرزیمما

النقد الاجتماعي

نحو علم اجتماع للنص الأدبي

ترجمة: عايدة لطفي

مراجعة: د. أمينة رشيد • د. سيد البحر اوى

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع



مكتبات
كلية
البحر

www.library-harab.com

ترجمة كتاب

Collection Connaissance des Langues
sous la direction de Henri Hierche

MANUEL DE SOCIOCRITIQUE

par
Pierre V. Zima

Publié avec le concours du
Centre National des Lettres

PICARD
82, rue Bonaparte
Paris VI^e
1985

مكتبات
الحمدية
البحر

www.library-arab.com

مقدمة للقارئ العربى

يشعر القارئ / الناقد المتابع لحركة الترجمة فى ميدان النقد الأدبى، وخاصة هذا الذى يعتمد على هذه الترجمة للإطلال على حركة النقد فى العالم، يشعر فى الآونة الأخيرة بنوع من القلق المتزايد ، وفقدان الاتجاه . ولهذا الشعور مبررات موضوعية تكمن فى طبيعة حركة الترجمة إلى العربية من ناحية، وطبيعة حركة النقد الأدبى فى اللغات المترجم عنها فى اللحظة الراهنة من ناحية أخرى .

أما فيما يختص بحركة الترجمة ، فإن المراقب يلاحظ كثرة وفيرة من كتب النقد الأدبى المترجمة عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية بصفة خاصة فى العقدين الأخيرين ، سواء للكتب أو فى المجلات . ولاشك أن هذه الترجمات قد قدمت للقارئ العربى بعض النظريات النقدية الحديثة والمعاصرة ، كان أبرزها دون شك البنيوية ، ثم مابعداها ، كما قدمت كثيرا من المفاهيم الحديثة التى أضافت إلى المفاهيم النقدية التى حملتها العربية من قبل . غير أن هذه الترجمات قد خضعت لمجموعة من المؤثرات ، جعلت فائدتها محدودة ، إن لم تكن عكسية فى كثير من الأحيان .

إن كثيرا من الترجمات التى تمت قد تمت فى ظل إحساس عام أساسى، لدى المترجم العربى بالانبهار بما يقدمه الغرب وما تحمله اللغة المترجم عنها . ومثل هذا الإحساس ، الذى يعنى نوعاً من العلاقة غير المتكافئة - ضمناً - بين اللغتين المترجم عنها والمترجم إليها ، جعل نقل محتوى النص المترجم غير دقيق أو مشوهاً فى كثير من الأحيان ، حيث نستطيع أن نجد - بسهولة - أخطاءً فادحة فى ترجمة المصطلحات، أو أن

نجد ترجمة حرفية للكلمات دون القدرة على وضعها فى نسق شبيه بالنسق الأصيل لها ، أو أن نجد - وهذا هو الأخطر - غياباً للوعى بالسياق العام الذى تنطلق منه المصطلحات أو المفاهيم أو النظريات المنقولة.

كذلك لا بد من الإشارة إلى أن عملية الترجمة تقوم - فى الغالب - على الجهود والاختبارات الفردية ، وإن كان هناك نوع من السلطة المعلنة أو الضمنية لبعض المؤسسات التى ترعى هذه الترجمة كبعض المؤسسات الأجنبية أو دور النشر أو المجلات .. إلخ . ولكن الملاحظ أن تعدد الأهواء والمصالح الفردية أو الجماعية قد جعل اختيار النصوص التى تخضع للترجمة عشوائياً وأقرب - من ثم - إلى التشتت ، بحيث يصعب أن تقدم مثل هذه الترجمات تراكماً واضحاً فى ميدان معرفى محدد أو فى إطار اتجاه نقدى بعينه . ومن هنا فإن القارئ غير الملم بأصول الترجمات يصبح أقرب إلى القشة فى مهب الريح يذهب يميناً ويساراً ، دون أن يمتلك قدرة الاختيار ، وإن اختار لم يمتلك القدرة على تحقيق اختياره وإكماله وتأصيله .

ورغم أن المترجمين العرب والمؤسسات التى تقف خلفهم مسئولون إلى حد كبير عن هذه الفوضى التى تؤدى إلى تكريس أزمة المنهج فى النقد العربى الحديث ، والتى سبق لنا أن وصفناها باعتبارها أزمة تكامل وتأصيل ، أى وقوع فى إطار الترقيع أو التوفيق أو التلفيق فى كثير من الأحيان إلا أنهم وحدهم ليسوا هم المسئولين ، وإنما يقع جانب من المسئولية ، خاصة فى اللحظة الراهنة ، على عاتق حركة النقد الأدبى فى غرب أوروبا بصفة عامة .

يستطيع المتابع لحركة النقد الأدبى المعاصر فى غرب أوروبا أن يكتشف انهيار مجموعة القيم التى قامت عليها المناهج النقدية التى أعلنت من شأنها الثقافة الأوروبية المعاصرة خلال نصف القرن الماضى ، سواء كانت الشكلية أو النقد الجديد أو البنيوية أو السيميوطيقا . هذه القيم التى عمادها الإيمان بالنص الأدبى كبنية لغوية مغلقة يجب على الدارس أو الناقد الوصول إليها كحقيقة موضوعية مطلقة قائمة بذاتها منعزلة عن مبدعها أو سياقها

الخارجى أو متلقيها . وفى المقابل نجد فى العقدين الأخيرين ، أى نفس العقدين اللذين شهدنا نحن فيهما نشاطا فى نقل الشكلية والبنوية والسيميوطيقا ، نجد تراجعا يكاد يصل إلى حد العداة لتلك القيم " القديمة " فى إطار مجموعة من النظريات مثل التفكيكية أو الهرمينوطيقا أو القراءة .. الخ . وهى نظريات تصل صراحة أو ضمنا إلى إلغاء هيمنة النص ، أو حتى وجوده كحقيقة موضوعية قائمة ، وتعطى الأولوية إلى بذوره المتفرقة فى الثقافات الممتدة أو إلى القارىء أو القراء المتعددين أو إلى التؤيلات المختلفة التى تنفى أن هناك أى معنى حقيقى فى داخل النص ، وإنما هو فى داخل المؤول أو القارىء .

وفى الوقت الذى يقدم فيه بعض أصحاب هذه النظريات نظريتهم باعتبارها ما بعد بنوية ، ونقيضا لها ، فإن المؤكد أن هذه النظريات ليست إلا وليداً للفكر الذى أنبت البنوية ، وأن هذه الأخيرة كامنة ، وممتدة فى كثير من أصولها ومفاهيمها فى داخل هذه النظريات الجديدة ، وليس أدل على ذلك من أن كثيراً من أصحاب هذه النظريات كانوا هم أنفسهم - من قبل - أصحاب نظريات بنوية أو سيميوطيقة .. الخ . ومن المؤسف أن هذا الوعى الأخير ليس متحققاً لدى مترجمينا ونقادنا الذين يقدمون النظريات الجديدة كموضات حديثة تلى الموضات القديمة ، ولا تضيف تراكمات علمياً حقيقياً ، واعياً بمنابت النظريات (إن كانت كذلك حقاً) وأصولها وأفاقها ، والأهم من ذلك جدواها بالنسبة لنا نحن وثقافتنا ونقدنا وأدبنا .

وهنا تكمن بعض عناصر أهمية الكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القارىء العربى . فالكتاب حديث إلى حد كبير صدر سنة ١٩٨٥ ، وهو متابع إلى حد كبير للتطورات الأخيرة فى ميدان النقد الأدبى ، ويقدم بشأنها معرفة تفصيلية أحياناً وموجزة فى أحيان أخرى ، ولكنها عميقة على كل حال . ولكن الأهم من ذلك هو أنه يتابع ويقدم هذه التطورات لا من منظور سلبى وإنما أساساً من منظور نقدي ، إذ أنه يمتلك إزاءها موقفاً واضحاً ، سواء بالقبول أو الرفض أو التعديل بحيث يجوز له وصفه بأنه نموذج للناقد المنهجى الذى

يمتلك أسساً واضحة لمنهجه دون انغلاق ، بل بقدره منفتحة على إكمال منهجه وإغنائه وتطويره دائماً بما يتناسب معه ويغنيه من التطورات الجديدة.

على هذا الأساس يصير زيمّا على الانطلاق من الإنجاز الهام الذى حققه النقد الأدبى فى نصف القرن الماضى أو أكثر ، ألا وهو أهمية النص . غير أنه يقدم مفهوماً مختلفاً للنص ، لا باعتباره بنية لغوية مغلقة ينبغى البحث عن تجريدها المثالى ، وإنما ككيان ملموس وحى يعيش حياته عبر قوانينه الخاصة ، ولكن يحمل فى هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التى يعيش فى إطارها ويبدع ويتلقى . ومن هنا فإنه يسمى منهجه ، علم اجتماع النص الأدبى . ولكنه يحرص على الاستفادة - الإنجاز هذا العلم - من مناهج أخرى مثل المنهج السيميوطيقى ومن البنيوية ومن التحليل النفسى ومن نظريات القراءة . ورغم أنه يرفض الأسس الفلسفية لنظريات القراءة - على سبيل المثال - إلا أنه يحرص على تحقيق هذه المهمة ، مهمة دراسة القراءة ، ولكن من خلال تحليل النص نفسه وإبراز إمكانيات القراءة المختلفة من داخله ثم من خلال العلاقة مع القراء بعد ذلك . وكذلك يفعل مع الإنجاز "النقدى" لمدرسة فرانكفورت ، الذى يبدو معجباً به ومستفيداً منه إلى حد كبير ، سواء فى نقده للماركسية التقليدية أو فى إجراءات دراسته ، فهو مع ذلك يرفض كثيراً من المفاهيم التى يعتبرها ذات أصول كانطية فى منهجهم كما يقول فى المقدمة .

وهكذا ، فعبر هذا التوجه المنهجى الواعى والنقدى يقدم لنا زيمّا محاولة جديدة وأصيلة (نحو علم اجتماع للنص الأدبى) محدداً المهمة الجوهرية للنقد الأدبى ، وعارضاً لمفاهيمها الأساسية وإنجازاتها الكبيرة فى ميدان علم اجتماع الأنواع والأشكال والنصوص المحددة ، والتى يغلب عليها فى نماذجها التطبيقية - الرواية أساساً ، وأصلاً دون أن يذكر صراحة ، إلى قضية بالغة الأهمية لا بد من التوقف عندها ألا وهى قضية التخصيصية أو التجزئية التى يسعى إليها العلم الوضعى فى الغرب منذ فترة طويلة ، والتى تصل - فى حالة الدراسة الأدبية - إلى إقامة الحدود والحوارج بين علم مثل

علم اجتماع الأدب (كما هو الحال لدى الامبيريقين مثلاً) والأسلوبية (أو علم الأسلوب كما يحب البعض أن يسميه) والنقد الأدبي والسميوطيقا - الخ.

إن البعض سواء عندنا أو في الغرب يصور هذه المناهج وكأنها علوم مستقلة ينفصل بعضها عن البعض الآخر ، ويختص كل منها بجزئية أو جانب لا ينبغي أن يقترب منه سواه . وهذه التخصصية المفيدة دون شك في تدقيق إجراءات الدراسة والبعث عن التعميمية ، تصل لدى أمثال هؤلاء إلى نوع من التفتيت للظاهرة الأدبية ، لا يستطيع معها ، أى من هذه التخصصات الوصول إلى الوعى الشامل بالظاهرة في تعقدها وتعدد جوانبها ، وهذا ما يسعى إليه بيير زيمبا في " علم اجتماع النص الأدبي " .

إن النقد الأدبي ، حسب زيمبا ليس إلا دراسة سيميوطيقية أو أسلوبية بمنظور اجتماعي . وتنطلق دراسته بصفة أساسية من تحليل الخطاب اللغوي أو اللغوي / الاجتماعى أو اللهجات الجماعية فى النص ، باعتبارها بنى اجتماعية بالماهية ، تحمل خصائص اللحظة التاريخية التى تنتمى إليها . فمن تحليل الأسلوب أو اللغة داخل النص يصل إلى الدراسة التركيبية الدلالية المتكاملة القادرة على كشف النص والمجتمع فى نفس الوقت ، ودون انفصال . وهو بهذا يواصل بجهد ملحوظ ومفيد ، خاصة فى الدراسات التطبيقية على الروايات ، إنجاز ميخائيل باختين وغيره من منظرى الاتجاه الهام الذى يبحث عن العلاقات الاجتماعية فى داخل البنى النصية ، باعتبار أن العلاقة بين المجتمع والنص ، ليست علاقة انفصال أو تأثير وتأثر وإنما هى علاقة كمون بصفة أساسية .

ومع ذلك فإننا نود أن نختم هذه المقدمة بملاحظة مهمة على منهج زيمبا وخاصة فى الجانب التطبيقي ، حيث إن تركيز زيمبا - فى هذا الجانب - كان بصفة أساسية على اللهجات الجماعية ، التى من خلال دراستها المعمقة ، استطاع أن يصل إلى الوضع الاجتماعى وضمئه وعى المؤلف الروائى . وبالإضافة إلى أن هذه اللهجات ليست هى الوحيدة المهمة فى النص الروائى (حيث يغفل زيمبا جوانب أخرى مهمة أيضاً مثل الزمان

والمكان والحدث والشخصيات . . . إلخ) كما أنها لن تكون هي المهمة إطلاقاً في حالة الشعر الذي يعتمد على المجاز والإيقاع أساساً ، أقول بالإضافة إلى ذلك ، فإن هذا التركيز على هذا الجانب يقلل من مصداقية طموحه "علم اجتماع النص" فليس هذا هو وحده هو النص ، وإلا كان علينا أن نتراجع مرة أخرى ونستسلم للمقولة الشكلية أو البنيوية تماماً .

ومع ذلك ، فإن الزاوية التي ركز عليها زيمبا تبدو لنا هامة أكثر من سواها وخاصة للنقد العربي المعاصر ، لأن الجوانب الأخرى في النص الأدبي يمكن أن يكون لدينا بشأنها بعض الدراسات المؤلفة أو المترجمة . ولكن الأهم من الزاوية هو منهج دراستها كما أشرنا ، حيث يتحقق بالفعل درس أسلوبى بمنظور اجتماعى عميق قادر على التقاط جوهر العملية الأدبية . والأكثر أهمية من هذا وذاك هو نموذج زيمبا (*) نفسه كتوجه منهجى ، نموذج لناقد نقدى واعٍ وغير مستسلم يملك منهجاً ويسعى دائماً إلى تطويره وإغنائه ، وهذا هو النموذج "النقدى" الذى نأمل أن يسود حياتنا ، كطريق وحيد لمستقبل أفضل على كافة المستويات .

سيد البحرأوى

الجيزة فبراير ١٩٩١

* بىر. فى. زىمبا ولد فى براغ سنة ١٩٤٦ ، ودرس علم الاجتماع والأدب فى جامعة أدنبرج بباريس . وعمل بجامعةات بيلفيلد وكلاجنفورت بالنمسا ، ومعهد الأدب العام بجامعة جروننج بهولندا ، وله دراسات متعددة مذكورة بالبليوجرافيا الشارحة .

www.librarytarab.com

مقدمة

يمتلك الفصلان الأول والثاني من هذا العمل بعض خصائص المقدمة، إذ يعتبر الأول منهما مقدمة اصطلاحية في حين أن الفصل الثاني يقدم المناهج الأساسية في علم اجتماع الأدب ومن هنا فإنه يتبقى لهذه المقدمة وظيفة محددة ألا وهي شرح مصطلح النقد الاجتماعي Sociocritique للنصوص والذي يبدو لأول وهلة أنه يناقض مفاهيم راسخة مثل علم اجتماع الأدب Sociologie de la littérature وعلم اجتماع النص Sociologie du texte. لقد اخترنا في هذا الفصل كلمة النقد الاجتماعي للنصوص - التي وجدت منذ عدة سنوات - لسببين :

الأول هو أن نميز نقداً اجتماعياً، هو بمثابة نظرية نقدية للمجتمع (ومن ثم نقد أدبي) عن علم اجتماع الأدب الإمبريقي الذي قُصت أبعاده النقدية، والثاني هو أنني أود أن أقدم هنا نقداً اجتماعياً للنصوص يتطلع لأن يصبح علم اجتماع النص الأدبي.

- النص

فلنقل انطلاقاً من النقطة الثانية إن النقد الاجتماعي للنصوص Sociocritique وعلم اجتماع النص هما مترادفان ، وأن كلمة Sociocritique والنقد الاجتماعي أصبحت أكثر تداولاً من غيرها لأنها أقصر من مصطلح " علم اجتماع النص " Sociologie du texte على الرغم من أنه يذكرنا بالنقد النفسي للنصوص Psychocritique لشارل مورون. فإن المدخل المقترح هنا لا يقترب من مدخل مورون إلا في الاعتناء عموماً بوضع

البنيات النصية فى الاعتبار (انظر فى هذا الموضوع الفصل الخامس ، حيث أحاول أن أمزج المدخل التحليلى النفسى مع المدخل الاجتماعى للنص) خلافاً للمناهج الموجودة فى علم اجتماع الأدب التى تتوجه إلى الجوانب الموضوعاتية أو الفكرية للعمل؛ فإن علم اجتماع النص يهتم بمسألة معرفة كيف تتجسد القضايا الاجتماعية والمصالح الجماعية فى المستويات الدلالية والتركيبية والسردية للنص .

إن هذه القضية لا تتعلق بالنص الأدبى فحسب ، إنها تستهدف أيضاً البنى اللغوية (الخطابية) للنصوص النظرية ، والأيدولوجية أو غيرها . فعلم اجتماع النص باعتباره علم اجتماع نقدى يسعى إلى تحديد علاقات الخطاب بين النظرية والأيدولوجية وبين النظرية والتخييل . هو إذن وفى الوقت نفسه نقد للخطاب الذى تتعدى اهتماماته ومشاغله المجال الأدبى . (انظر فى هذا الموضوع الفصل الرابع من هذا العمل : " نحو علم اجتماع للنص") .

وفى مجال القراءة ، فإنه يعمل على إقامة علاقة بين البنية النصية وظروف إنتاجها مع النصوص الشارحة Métatextes المختلفة لدى القراء بحيث يمكن (مثلاً) إظهار أن ردود فعل بعض المجموعات إزاء " الغريب " كما يمكن شرحها انطلاقاً من البنى الدلالية والسردية للرواية (الفصل السادس) .

٢ - النقد

إن النقطة الأولى أى المساحة النقدية للمدخل النظرى المقترح هنا لا تقل أهمية عن الثانية ، فخلافاً لبعض المناهج الإمبريقية التى تدعى إمكانها استبعاد الأحكام القيمية (ولكنها تنتهى غالباً بتمويه بادعاء الموضوعية الاصطناعية) ، لا يفرض علم اجتماع النص التعليق النقدى .

هذه الجهود لفهم وشرح النص داخل موقف اجتماعى ولغوى خاص تولى ، فى أغلب الأحيان ، إلى التقييم ، وهذا لا يرفع بالضرورة مسألة معرفة إذا كان الإنتاج الأدبى " جيداً " أو " سيئاً " : إنه يسعى بالأحرى إلى

إظهار الأوجه الأيديولوجية للنص وتمييزها عن مساحاتها النقدية. داخل هذا السياق فإن التعريف Sociocritique " النقد الاجتماعي للنصوص " يبدو أيضاً أكثر ملاءمة من " علم اجتماع النص " Sociologie du texte الذي هو أكثر حيادية ولا يتبقى غير استخراج وجهة النظر التي بدءاً منها يتم نقد النص والمجتمع.

وجهة النظر هذه قريبة جداً من وجهة نظر النظرية الأدبية لمدرسة فرانكفورت كما شكّلها أدورنو ، هوركهايمر وماركوز . ينبغي التأكيد على أن هذه النظرية تنطلق في رفضها للتماثل مع القوى الاجتماعية والسياسية القائمة، من مبدأ التمايز non-identité ومع ذلك فإن علم اجتماع النص يتميز عن هذه النظرية في نقطة أساسية :

إنه دون عزل المسائل الجمالية والفلسفية يرفض أن يظل في الحدود المفهومية Conceptuelle (الخطابية discursive) للنظرية النقدية -Théo- riev Critique التقليدية والتي ثبت أن اصطلاحها الفلسفي ذا الأصل الكانطي الهيجلي المتمركس لا يتلاءم مع موضوعها .

إن قضية معرفة ما إذا كانت هذه المحاولة لتطوير وتوسيع النظرية النقدية في اتجاه علم علامة استدلالى sémiotique discursive (علم علامة اجتماعى " sociosémiotique ") تقتضى تغييرات اجتماعية وسياسية، يجب أن تظل مفتوحة طالما علم اجتماع النص يتطور من عام لآخر.

مكتبات مكتبة العرب

www.library-arab.com

الجزء الأول
مناهج ونماذج

مكتبة العرب

www.library4arab.com

الفصل الأول

مفاهيم اجتماعية أساسية

١ - تقديم

إن المفاهيم الاجتماعية الأساسية - ولا مجال هنا إلا لتلك التي تهم علم اجتماع الأدب والنظريات المقدمة في هذا الكتاب - يجب ، من أجل الدقة، وضعها في موقعها في تاريخ الفلسفة، لأنها توشك في حالة فصلها عن أصولها التاريخية أن تظل مجردة، وعلى الرغم من أنه من المستحيل الجمع بين مقدمة للنقد الاجتماعي (علم اجتماع النص الأدبي) ومقدمة لعلم الاجتماع العام، فإنني سأحاول أثناء الحديث عن مفاهيم مثل " النظام " (" النسق ") أو " الأيديولوجية " أن أراعي الأصول التاريخية والاجتماعية للمصطلح.

إن طريقة التعريف بشكل ملموس لمفاهيم مثل " الطبقة الاجتماعية"، "الوعي الطبقي" (ماركس) " الوعي الجماعي"، " اللامعيارية" anomie (دور كهايم)، "الموضوعية" Wertfreiheit (فيبر) تتوقف على وضعها في موقعها في إطار التحول التدريجي من الفلسفة إلى علم الاجتماع (إلى العلوم الاجتماعية) وفي ضوء الاختلافات المنهجية التي تفصل بين علم الاجتماع وعلم النفس.

بدءً من الفصل الأول نحن بصدد توضيح العلاقة بين المصطلح الذي نتعرض له والتطبيق المعاصر له في النقد الاجتماعي، وأرجو أن أتمكن على هذا النحو من تجنب الفجوة الكبيرة بين المفهوم وتطبيقاته، ومع ذلك فإن مناقشة تطبيق النقد الأدبي بالتفصيل لن يتم إلا في الفصل الثالث .

٢ - علم الاجتماع والفلسفة

حتى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، اهتمت الفلسفة بالمسائل السياسية والاجتماعية دون أن يميز أحد بشكل قاطع بين " التأمل الفلسفى " و " البرهان العلمى " . ولاشك أن مفهوم العلم قد ظهر فى الكتابات الفلسفية لديفيد هيوم David Hume (إن السياسة يمكن أن تختزل إلى علم) وكذلك كتابات سبينوزا Spinoza : " حسب منهج الهندسة " (More geometrico) وتوماس هوبز Thomas Hobbes الذى أراد أن يؤسس فلسفته السياسية على قواعد تحليلية - تركيبية (" هندسية ")، ولم يكن هو الوحيد فى هذا التفكير .

بعد ذلك بكثير ، كان أوجست كونت Auguste Comte (١٧٨٩ - ١٨٥٧)، الذى يعتبر عادة أحد رواد علم الاجتماع الحديث، ينادى بعلم للاجتماع أطلق عليه اسم " علم الاجتماع " Sociologie هذا المفهوم كان عليه أن يحل محل التعريف القديم " الفيزياء الاجتماعية " - Physique Sociale الذى يشهد على علاقة القرابة بين الأول " العلم الاجتماعى " وعلوم الطبيعة. وعلى الرغم من هذا التغيير الاصطلاحي، بقى كونت متمسكا بالفكرة العقلانية القائلة بأن علوم الطبيعة هى نموذج للعلوم الاجتماعية (علم الاجتماع). ويقدم فى كتاباته براهين على أن هناك علاقات وثيقة بين البيولوجيا (كعلم الإنسان) وعلم الاجتماع الذى يكون موضوعه فى نظر كونت " جسداً جماعياً " Organisme Collectif يمكن مقارنته بالجسد الفردى - البيولوجى -، وفى السياق الحالى ما تزال فكرة كونت التى ترى التفكير الإنسانى يتطور من المرحلة اللاهوتية (الدينية) إلى مرحلة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية والفلسفية) ومنها إلى مرحلة ثالثة يطلق عليها العلمية، تلعب دوراً هاماً . فمن ناحية عاد إلى الاهتمام بها بعض ممثلى الوضعية الحديثة Néopositivisme الذين يطالبون بالفصل الواضح بين الفلسفة (التأمل الميتافيزيقى) والعلم . إنهم يطورون الفكرة الكونتية عن علم وضعى Science Positive إمبريقى موجه نحو علوم الطبيعة، ومن ناحية أخرى، نتج

فى نهاية القرن الماضى انشقاق فعلى بين الفلسفة والعلوم التى يطلق عليها تجريبية (التى تعتمد على التجربة) ، مثل علم النفس وعلم الاجتماع. إن دوركهايم، أحد مؤسسى علم الاجتماع الحديث، درس ظاهرة الانتحار بشكل منظم مستعيناً بمناهج تجريبية (إحصائية) ، مما هو من خصائص هذا التحول العام (دوركهايم: الانتحار، دراسة سوسولوجية، باريس ١٨٩٧).

وعلى الرغم من هذا الانشقاق التاريخى الذى لا يمكن إغفاله، فإن هناك العديد من ممثلى العلوم الاجتماعية (والطبيعية) الذين يعتبرون التفكير الفلسفى ضرورياً، وهؤلاء بشكل خاص الذين يتمسكون بعلم اجتماعى نقدى يرفضون التخلى عن التفكير الفلسفى والأحكام القيمية التى يحتويها. (انظر فى هذا الموضوع الفصل الرابع ، ٢ ، ب).

٣ - علم الاجتماع وعلم النفس

اتفق علماء الاجتماع وعلم النفس الأوائل على التسليم بأنه يجب التمييز بين التفكير العلمى والفلسفات " التأملية " أساساً عن طريق البحث التجريبى، لكن التعارض ظهر جلياً فى نقطة أخرى بين اهتماماتهم، أى بين المدخل الفردى الخاص بعلم النفس والتحليل النفسى من جانب، والمدخل الجماعى لعلم الاجتماع من جانب آخر .

وقد أخذ هذا الخلاف مكاناً مركزياً فى عمل دوركهايم الشاب (١٨٥٨ - ١٩١٧) ، ويلعب دوراً هاماً جداً فى المجادلات اللانهائية بين بعض المنظرين الماركسيين وبعض ممثلى التحليل النفسى . فى مؤلفه عن الانتحار أعلن دوركهايم نفسه بدون التباس انه ضد شرح سيكولوجى لهذه الظاهرة التى لا يختزل انتشارها فى محيط معين إلى مشكلة الأفراد المنعزلين. ليس هناك أى شرح سيكولوجى لواقعة اختلاف عدد المنتحرين من بلد لآخر وبخاصة اختلاف سياق ثقافى عن آخر .

ويظهر دوركهايم من خلال دراسته ارتباطاً مدعماً بالاحصائيات بين الثقافات العقائدية الفرعية Subcultures ونسبة الانتحار فى الجماعة

الاجتماعية التي تشكل جزءاً منها . إن أعلى عدد من المنتحرين يمكن ملاحظته داخل الجماعات البروتستانتية ضعيفة الاندماج التي يتجه أعضاؤها إلى سلالم من القيم الفردية، في حين أن عدد المنتحرين يقل نسبياً في قلب المجتمعات الكاثوليكية واليهودية بصفة خاصة ، حيث يظهر لأسباب دينية تماسكاً جماعياً أقوى .

وثمة عنصر آخر هام في هذا البحث هو التقابل بين المدينة والريف : ففي المجتمعات الريفية تكون الروابط الإنسانية أقوى وأكثر دواماً منها في المجتمع الحضري والنسب المرتفعة نسبياً في المدن ترجع أسبابها إلى تضامن (أو تماسك) اجتماعي أضعف .

إن النقد الموجه لأبحاث دوركهايم ثانوي هنا ، حيث أشرت إليه لأظهر الفرضية المنهجية لمعظم علماء الاجتماع - تقريباً - الذين يؤمنون بأن ظواهر اجتماعية كالانتحار أو الصراعات السياسية أو المدارس الفلسفية أو التيارات والأعمال الأدبية لها أصول جماعية ولا يمكن بالتالي وصفها وشرحها بشكل كاف عن طريق مناهج علم النفس (من منظور فردي) .

ولنذكر من أجل توضيح هذه النظرية المجادلات العديدة حول النقد الجديد Nouvelle Critique حيث نجد نظرية التحليل النفسي لشارل مورون Charles Mauron الذي يميل إلى شرح النصوص الأدبية (أشعار مالارمييه ، أو مسرحيات راسين) في علاقاتها بالنفس الفردية في إطار نقد نفسي للنصوص في جانب ، وفي جانب آخر المحاولة الماركسية للوسيان جولدمان من أجل توضيح أن العمل الأدبي ، على أساس أنه بنية جمالية ونظام قيمي ، هو قبل كل شيء ظاهرة اجتماعية لا يمكن فهمها وشرحها إلا في علاقاتها بالجماعة (انظر جونز " بانوراما النقد الجديد في فرنسا " . باريس ١٩٦٨ ، والفصل الخامس من هذا العمل) .

٤ مفاهيم اجتماعية أساسية

المجتان الأساسيتان اللتان قدمناهما حتى الآن : أي كون الظواهر الاجتماعية لها صفة اجتماعية وأن علم الاجتماع يجب أن يتطلع لأن يصبح

إمبريقياً (دون أن يتخلى عن التفكير الفلسفى والنقدى) يشكلان معاً نظام الإحداثيات التى ستوضع فيها المفاهيم كل على حدة.

فبالنسبة لعلم اجتماع النص المنادى به هنا ، سيكون عليه أن يصبح علماً إمبريقياً ونقدياً وفى الوقت نفسه قادراً على أن يأخذ فى الاعتبار البنية النصية والسياق الاجتماعى الذى انبثقت منه .

أ - النظام الاجتماعى والمؤسسة .

بعد ظهور الدولة القومية (البورجوازية) ، بحثت الفلسفة (من هوبز حتى هيجل) عن تمثيل المجتمع المدنى الموضوع تحت سيطرة الدولة ككل متجانس نسبياً : كنظام . يرتبط لدى هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) هذا التمثيل للمجتمع " كنظام من الأنظمة " (السياسية ، القضائية ، الدينية ، إلخ) . إرتباطاً وثيقاً بمفهوم انتظامى وجدلى للسيرورة التاريخية .

ومع ذلك فعلم الاجتماع الحديث وبخاصة النظرية الوظيفية لعالم الاجتماع الأمريكى تالكوت بارسونز (١٩٠٢ - ١٩٧٩) هو الذى قدم للمرة الأولى تحليلات على قدر كبير من الدقة والفهم للنظام الاجتماعى ومؤسساته .

يحاول بارسونز إثبات أن النظام الاجتماعى هو مجموعة من الأنظمة الفرعية Subsystemes التى يعيد كل منها إنتاج بنية الكلية الشاملة -to talité englobante (من حيث هى جزء يمثل الكل Pars ProToto) وهكذا فإن الأسرة تعتبر نظاماً فرعياً ينظر إليها كنموذج مصغر للمجتمع القومى بمقدار ما تؤدى وظيفتها بفضل كفاءات ودوائر فعل محددة بدقة، ويمكننا أن نميز داخل الأسرة (كما هى فى المجتمع) دائرة سياسية (سلطة الأبوين)، دائرة اقتصادية (الميزانية)، ثقافية (وسائل الترفيه) أو اجتماعية.

وهناك أنظمة فرعية أخرى كالتربية ، النقابات ، اتحادات أرباب العمل، الجيش، الكنيسة، إلخ ...

وبقدر ما تعترف الدولة رسمياً بهذه الأنظمة الفرعية، فإنها تشكل مؤسسات . ووجود تنظيمات غير شرعية فى الخفاء ، يوضح أنه من الممكن

وجود أنظمة فرعية بدون الصفة المؤسسية وأن الشرعية التي تعطيها السلطة الحاكمة هي من المظاهر الأساسية للمؤسسة.

وعلى الرغم من أن بارسونز يحل بالتفصيل التوترات الاجتماعية التي تكاد تنتج عن متطلبات المؤسسة المتعارضة على مستوى الفعل الفردي (ويعطى كمثال الطبيب الذي تتنازعه واجباته الأسرية وأخلاقيات مهنته)، إلا أنه لا يتمكن من عرض تطور النظام فيما يخص الصراعات الاجتماعية فهو يميل مثل إيميل دوركهايم من قبله إلى الإلحاح الشديد على التماسك الاجتماعي (على "الإجماع" consensus الاجتماعي) وإلى تقديم صورة متجانسة ساكنة للمجتمع. وفي هذا الشأن فإن مفهومه للنظام الاجتماعي يختلف جذرياً عن المفهوم - التاريخي - لهيجل، والذي ينادى به بعض الماركسيين.

إن الانتقادات الماركسية لبارسونز ولعلم الاجتماع الوظيفي ركزت (أو أصرت) على ضرورة النظر إلى المجتمع ككل متحرك يمكن لمؤسساته أن تنقلب بفعل الصراعات التطبيقية. فهم يبحثون عن تفسير التطور التاريخي للنظام في ضوء هذه الصراعات بالتحديد (انظر الفقرتين ج، د من هذا الفصل) ولسوف نرى في تحليلات النظام الفرعي النوعي (الأدبي) أن إيريك كوهلر، إذ يعتمد الحجج الماركسية مع محاولة فهم شامل للنظام الفرعي للأنواع الأدبية، يحاول أن يقدمه كرهان داخل الصراعات التطبيقية وبالتالي كوحدة تاريخية متغيرة (انظر الفصل الثالث، ١) ولا ينفصل مفهوم النظام عن مفهوم المؤسسة الذي أدخله في علم اجتماع الأدب هاري ليفين (الأدب كمؤسسة الجزء السادس، ١٩٤٥ - ١٩٤٦) ومنذ هذا الوقت تم تطبيقه داخل سياقات نظرية مختلفة: في ألمانيا حاول بورجر تفسير ظواهر أدبية مثل الطليعة السورية و " النزعة الجمالية " (بروست، قاليري) في علاقة مع مفهوم المؤسسة أصبحت تاريخية تتجنب الرؤية السكونية للوظيفيين. وفي الدول الغرانكفونية يسعى جاك دوبوا. وفي الدول الفرانكوفونية يسعى جاك دوبوا، Jacques Dubois (L'institution de la littérature, Bruxelles

Renée Balibar (Les Français fictifs, Paris, 1978) ورينيه باليبار (1974) إلى إدخال دراسة المؤسسة الأدبية فى النظرية الألتوسرية " للأجهزة الأيديولوجية للدولة " (انظر الفقرة " و " من هذا الفصل) ولنقترب من المدخلين.

فى نظريته عن الطليعة , Francfort , (Theorie der Avantgarde , 1974) وغيرها، يسعى بورجر Bürger لشرح العلاقة بين مؤسسة الفن وبعض الحركات الأدبية مثل السورريالية والنزعة الجمالية وينطلق من فكرة أن الطليعة السورريالية حاولت تحطيم المؤسسة البورجوازية للفن (المركزة على المتاحف، المكتبات ، المعارض ، الخ .) ومحو الحدود بين الواقع والتخييل وباعت محاولتها بالفشل ، باعتبار أن البورجوازية نجحت فى إعادة السورريالية إلى مؤسسة الفن لتحتل النصوص السورريالية مكاناً فى المناهج الجامعية على نفس الدرجة التى للوحات السورريالية فى المتاحف.

إن مشكلة المدخل المؤسسى لبورجر تكمن فى أنه - مثل مدخل ليثين - يتجنب البنى النصية للأدب والسياق الاجتماعى . وحيث يؤكد فى كتابه Aktualität und Geschichtlichkeit (فرانكفورت ١٩٧٧) أن بروسست يحل محل الواقع اليومى واقع الفن وأنه ينظر إلى العالم بعين "الهاوى" Blick des Ästheteten فهو يؤكد على حقيقة قدم الكتابات التى تناولت بروسست .

إن مشاكل البروستية تمر دون إدراكها (انظر فى هذا الشأن الفصل الخامس) ، وبعكس تحليلات بورجر حيث تظل المؤسسة خارج النصوص الأدبية، فإن أعمال چاك دوبوا Jacques Dubois ورينيه باليبار Renée Balibar تهدف بالتحديد إلى شرح الوظيفة النصية فى إطار المؤسسات التى تحكمها الدولة مثل المدرسة والجامعة أو النقد الأدبى . وفى رأى رينيه باليبار فإن الكتابة الأدبية لا تنفصل عن توظيفها فى المؤسسة المدرسية التى تشكل بدورها جزءاً من الأجهزة الأيديولوجية للدولة . تقول فى كتاب اللغات الفرنسية الأدبية Les Français Fictifs إن الحكبات التأويلية أو الأمثولية

allégorique للنصوص وكذلك حياة المؤلفين ونواياهم وإمكانية تعبيرهم الخيالي، تشكل جزءاً متداخلاً من أعمال التخيل الأدبي التي يتم تطويعها للمؤسسة في تعليم الأدب { ... } " (باليبار: ١٩٧٤: ١٤١).

هذه الطريقة لربط الكتابة نفسها بالبنى الاجتماعية (المؤسسات) تمت بصلة - في مواقع كثيرة - للإجراءات المنهجية لعلم اجتماع النص، كما يتم عرضها هنا. (هناك ملاحظات نقدية حول مدخل باليبار في الفصل الرابع ٦ هـ).

أما چاك دوبوا فيلخص بشكل ما نظرية المؤسسات الأدبية للألتوسريين بقوله: { ... } في خط ألتوسير، يوضع الأدب هنا كجهاز أيديولوجي للدولة، خاصة أنه يرتبط بالجهاز الأيديولوجي المسيطر للدولة الذي هو كما نعرف، المدرسة { ... } " (دوبوا، ١٩٧٨: ٣٠).

وهكذا فإن جميع المؤلفين المذكورين هنا يبدوون متفقين على تأكيد أن مسائل الأدب والكتابة لا يمكن تناولها على المستوى الفردي ولكنها تحيل إلى الوعي الجماعي، ويبدو لي من الضروري أن أذكر شيئاً عن هذا المفهوم المفتاح لعلم اجتماع الأدب على الرغم من أنه تعرض كثيراً للنقد بل والدحض من قبل المنظرين الفرديين.

ب - الوعي الجماعي، معايير وقيم .

لقد سبق أن تطرقنا إلى محاولة دوركهايم لإثبات أن بعض الظواهر الاجتماعية لا يمكن شرحها بشكل كاف إلا في ضوء عوامل جماعية، ولكن ماهي هذه العوامل؟ وكيف نكشف وجودها؟ ونحن في المقام الأول بصدد قيم ومعايير تقبلها في مجملها جماعة اجتماعية، وتحدد بدورها وعي كل من أعضاء هذه الجماعة. فقيم مثل " الحرية " و " الاستقلال " و " المبادرة " والكفاءة " تميز وعي البورجوازية الليبرالية وتظهر كثيراً في شكل معايير تم تطويرها للمؤسسة (قواعد اللعبة) في المدرسة، في الجامعة وفي المشاريع العامة.

ويمكن إذن تعريف المعيار على أنه الوجه الضابط للقيمة ، والمعايير القضائية هي الأكثر وضوحاً في تعريفها : حرية الصحافة وخصوصية الرسائل وأسرار المهنة وسرية البنوك هي جميعاً جزء من النظام القضائي لمجتمع لعبت فيه البورجوازية الليبرالية ومصالحها دوراً هاماً .

في المجتمعات الأسطورية، على سبيل المثال، تعبر التابوهات عن الجانب الضابط لبعض القيم الدينية (الطقسية). وعند خرق أى من المحرمات أو القوانين، يطبق المجموع عقوبات لها وظيفة نموذجية ورمزية. وتؤكد الجماعة نفسها عن طريق العقوبات التي تطبق باسمها في مواجهة الأفراد الذين لا يخرمون هذه القوانين . وهذا ما سمح لدور كهانيم أن يقول إن العقاب له في كثير من الأحيان وظيفة طقسية تقوى من التضامن داخل الجماعة.

ما الأهمية التي يمكن أن تكون لمفهوم الوعي الجماعي بالنسبة لعلم اجتماع الأدب والنظرية الأدبية عموماً ؟ في الفصل الثالث ، سنتطرق إلى جون دوفينيو Jean Duvignaud وهو عالم اجتماع في مجال المسرح، حاول أن يشرح الدراما الإغريقية القديمة والمسرح الإليزابيثي ومسرح العصر الذهبي الإسباني في ضوء وعي جماعي ضعيف جعل الوصول إلى تعريف أحادي للقوانين والقيم المتبعة مستحيلاً .

ولقد اكتشف موكاروفسكى Jan Mukarovsky الفيلسوف وعالم العلامات التشيكي أهمية المفهوم الدوركهائمي بالنسبة لنظرية التلقى الأدبي . فهو يعتقد أن النص الأدبي باعتباره "حيلة فنية" Artefact كرمز مادي Symbote Matériel ، يمكن مقارنته بالبدال Signifiant لدى سوسور Saussure . إنه علامة متعددة وبالتالي قابلة للتفسير وللتجسيد إلا أن الشروح (" التجسيديات ") لنص ما لا تتوقف فقط على القارئ الفرد ولكن على الوعي الجماعي المتلقى أى على جماعة معينة تُعرّف معنى النص عن طريق قيمها ومعاييرها الجمالية وغير الجمالية . وكان موكاروفسكى يعنى

بموضوع جمالى هذا المعنى الجماعى للنص (انظر فى هذا الموضوع الفصل السادس، الفقرة الثانية) .

ج - تقسيم العمل ، الدور والتضامن

إن المفهوم الدوركهايمى للوعى الجماعى له بعد تاريخى ، فالوعى فى المجتمع الأسطورى ليس هو نفس الوعى فى المجتمع الصناعى . فى المجتمع الأول يكون الأفراد متماسكين لأنهم يتشابهون ويقومون بنفس أشكال العمل ويؤمنون بنفس القيم والمحرمات ، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى نظام الأدوار فإن أى عضو من أعضاء هذا المجتمع قادر تماماً على فهم أدوار - دوائر الفعل التى توليها الجماعة للفرد - العضو الآخر وينطبق هذا الوصف للمجتمع الأسطورى فى جزء كبير منه على المجتمع الإقطاعى فى أوروبا . فى حين يختلف هذا الوضع جذرياً فى المجتمعات الصناعية التى تتسم بتقسيم متزايد للعمل ، ولا يتضامن الأفراد مع بعضهم البعض لأنهم متشابهون بل لأن أدوارهم ومهامهم تعتمد على بعضهم البعض . ففى كثير من الأحيان يجهل مؤلف أحد الكتب كيف تبدو المطبعة من الداخل والطابع يجهل كيف تكتب الرواية أو الرسالة النظرية ، وبالرغم من ذلك فإنهما يعولان على بعضهما البعض ويرتبطان (اقتصادياً وفنياً) . إن التضامن الذى ينشأ من هنا لا يركز إذن على القيم والمعايير المشتركة ولكنه اعتماد متبادل للمهام والأدوار، ويستخدم دور كهائيم للنمط الأول من التضامن مفهوم التضامن الميكانيكى ، والثانى التضامن العضوى (أو الوظيفى) .

ب - اللامعيارية Anomie

إن القيم ونظم المعايير يمكن أن تتغير بسرعة فى مجتمع يتسم بتقسيم العمل وتخصص متزايدة . إن زوال مهنة من المهن (الإسكافي، صانع القدر) يمكن أن يتسبب فى اختفاء أخلاقيات بكاملها تخص مهنة معينة ونظام بأكمله من المعايير، ويمكن لمثل هذا التحول الاجتماعى الاقتصادى أن يثير توترات ويخلف إحباطات ويثير العدوانية فى قلب بعض

الجماعات . إن الفرد الذى ينظم سلوكه وفق قيم ومعايير تفقد شيئاً فشيئاً صلاحيتها، يرغم نفسه هباءً على الوصول إلى تعويض وإعادة تعرف على الوضع ، فى حين نجد شخصاً آخر يستنتج من ذلك أن القوانين القديمة والقيم لم تعد كما كانت من قبل ويفكر فى أن يضع على هواه معايير وقيمه الخاصة فيكتشف فى كثير من الأحيان أن الوضع الاجتماعى الذى يوجد فيه يحرم عليه ذلك وأن المجتمع يطلق عليه صفة المجرم.

ويطلق دوركهايم لفظ اللامعيارية Anomie على ذلك الوضع الذى تتغير فيه سلالم القيم والمعايير وتصبح غير قابلة للتعريف. وبالطبع لا يعنى هذا اختفاء كل المعايير بل استحالة الوصول إلى تعريف أحادى وثابت لها وسنرى فى الفصل الثالث ، كيف أن چون دوقينو فى مؤلفه " الظلال الجماعية " Les ombres collectives (باريس، ١٩٦٥) حاول تطبيق مفهوم اللامعيارية على مسرح النهضة من أجل إثبات ظهور الشخصية الإجرامية فى هذا المسرح.

هـ - الطبقة الاجتماعية

إن مفهوم الطبقة الاجتماعية الذى أصبح موضوعاً للنظريات بفضل Alexis de Tocqueville (١٨٠٥ - ١٨٥٩) و كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) يمكن دراسته فى ضوء المفهوم الدوركهايمى للوعى الجماعى. يحاول ماركس، عن طريق نقد النظريات الاقتصادية الفردية لمدرسة ريكاردو وسميث البريطانية، أن يظهر أن الاقتصاد الرأسمالى والمجتمع البورجوازي لا يعتمدان على علاقات بين الأفراد أو بين الأفراد والدولة. ولكن العامل الاجتماعى (الجماعى) هو الذى يقوم بوظيفة مركزية فى مجتمع السوق. وبكلمات أبسط، يمكن النظر إلى المجتمع الرأسمالى فى القرن التاسع عشر فى إطار تعارض تاريخى بين طبقتين ، إحداهما تمتلك قوة الإنتاج فى حين أن الأخرى، البروليتاريا، لا تمتلك إلا قوة عملها ذات القيمة المعنية (المتغيرة) فى السوق.

وبدءً من هذا النموذج الثنائى المستنتج من الوضع الاجتماعى -
الاقتصادى للقرن التاسع عشر يحاول ماركس أن يفسر التطور الاجتماعى
للإنسانية على ضوء مفهوم الصراع الطبقي ويظهر هذا التطور بالتالى
كصراع دائم بين الطبقات السائدة Dominants و الطبقات المسودة -Domi-
nés : بين البورجوازية الإغريقية - الرومانية والعبيد ، بين النبلاء الإقطاعيين
(الإكليروس Le Clergé) والفلاحين، بين البورجوازية والبروليتاريا .

إن العلاقات بين الطبقات تعتمد على علاقات الإنتاج Rappports
de Production (Produktionsverhältnisse) التى تعتمد بدورها على
قوى الإنتاج Forces de Production (Produktivkräfte) وعلى وسائل
الإنتاج (Produktionsmittel) Moyens de Production .

إن وسائل الإنتاج ليست فقط الآلات والأدوات التقنية: إنها جميع
الوسائل المادية (كنوز التربة، مصادر الطاقة، الآلات) التى يمتلكها مجتمع ما
من أجل إخضاع الطبيعة لحاجته. فى حين أن الآلات تلعب دوراً مركزياً
ونتذكر كلمة ماركس الجيدة القائلة إن المحراث يولد الإقطاع والآلة البخارية
تولد الرأسمالية وإن وسائل الإنتاج كمصادر مادية متجددة تحدد قوى
الإنتاج: يقابل الوظيفة السائدة للتقنية الزراعية تلك التى للفلاحين، ويقابل
انطلاق الآلة انطلاق البروليتاريا الحضرية، ونرى علاقات الإنتاج تتحول
بشكل مواز، حيث تحل العلاقة غير الشخصية بين المقاول والعامل (المضطر
إلى بيع عمله فى سوق مجهولة) محل العلاقة الأبوية (الشخصية) بين الفلاح
والسيد الإقطاعى، وبالطبع كان كل من ماركس وإنجلز على وعى بأن علاقات
الإنتاج التى يحللونها هى بالطبع أكثر تعقيداً من التخطيط الثنائى schéma
dualiste المعروض هنا وأنه حتى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر
للبنت طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين دوراً اجتماعياً وسياسياً هاماً إلى جانب
البورجوازية والبروليتاريا، ولكنهما كان يدركان مثل توكفيل (فى L' Ancien
régime et la révolution ، ١٨٥٦) أن النبالة يجب أن تترك السلطة

الاقتصادية ثم السلطة السياسية للبورجوازية وأن سكان البوادي والقرى قد تناقصوا في عددهم، في حين أن بروليتاريا المدن تصاعدت بدون توقف.

هذه النزعة التاريخية هي التي ألهمت النظرية الماركسية عن الإفقر (Paupérisation (Verelendungstheorie) التي انتقدت فيما بعد وعلى الأرجح تم دحضها. إن البروليتاريا «جيش العاطلين» يجب أن ينمو باستمرار، وعدد الرأسماليين في المقابل يجب أن يقل، بحيث تستطيع في نهاية المطاف الأغلبية الكبيرة من المستغلين Exploités خلع الأقلية المتزعمة من المستغلين Exploiteurs بعنف ثورى أو بدون.

وتلك هي الوسيلة الوحيدة لإزالة عملية الاستلاب Aliénation (انظر الفصل الأول، الفقرة ٤، ج) في اعتقاد ماركس أنه «ليست هناك غير وسيلة واحدة واضحة تماماً لإزالة هذه العملية: دراسة آلية المجتمع الرأسمالى، الذى أدى في البداية إلى تحرير البيان الشيوعى، وتنظيم البروليتاريا التى عانت أكثر من غيرها من الاستلاب، فهى لذلك الطبقة القادرة بامتياز على غلبة الطبقات الأخرى والوصول من ثم إلى مجتمع بدون طبقات، حيث يمكن أن يجد الفرد نفسه «بكل حرية» (Romein ١٩٧٦: ٣٤) بتعبير آخر: إن انتصار البروليتاريا يجب أن يعنى ليس فقط هدم المجتمع الطبقي بل وأيضاً الفكر الطبقي.

و - الوعى الطبقي والأيدولوجية

إن الطبقة البورجوازية وفق ماركس لا تمتلك فقط وسائل الإنتاج، بل تحوز أيضاً الوسائل غير المادية، السياسية والثقافية التى تقوى من وضعها الاقتصادى إن خيرات الإنتاج تشكل جزءاً من الأساس المادى، فى حين أن المؤسسات السياسية، القضائية، والثقافية تتبع البنية الفوقية -superstruc-ture (uberbau) وينطبق هذا أيضاً على المعايير والقيم التى تعطى هذه المؤسسات شرعيتها وعلاقات الإنتاج (إن العلاقات الطبقيّة) الموجودة.

ويطلق ماركس وإنجلز اسم أيدولوجية على وظيفتها التبريرية، ولكن هذه الأيدولوجية هى فى نفس الوقت وعى زائف conscience fausse لأنها

تمثل بعض المفاهيم وبعض الأفكار والقيم (الملكية، الأمة، الدولة) على أنها كيانات طبيعية وكونية entités naturelles et universelles وأنها لا تسمح بإظهار صفتها التاريخية النسبية الخاصة. إن الوعي الطبقي يلتقى مع أيديولوجية جماعة اجتماعية معينة وبفضلها (الأيديولوجية) يتمكن أعضاء أى جماعة من تحديد اتجاههم فى الواقع (واقعهم).

إن الأيديولوجية كفكر تبريرى يمكن إذن اعتبارها أداة سيطرة «إن الثقافة السائدة هى ثقافة السائدين»، بمعنى أن ثقافة الطبقة أو الطبقات السائدة وأيديولوجيتها معترف بها، على الأقل جزئياً، من الطبقات المسودة.

ز - القاعدة والبنية الفوقية

كان انطونيو جرامشى Antonio Gramsci (١٨٩١ - ١٩٣٧) الماركسى ومؤسس الحزب الشيوعى الإيطالى يتساءل حول هذا الموضوع، كيف يمكن للهيمنة الثقافية Hégémonie Culturelle والأيديولوجية للطبقة الحاكمة أن تنفجر تحت ضغط تطور الثقافات المحكومة (ثقافات نقدية ومعارضة). لقد آمن بأن البنية الفوقية التى وفق ماركس وأنجلز تحتوى على المؤسسات الثقافية (الدين والفلسفة والأيديولوجيات السياسية) هى مستقلة نسبياً عن القاعدة الاقتصادية.

وهذا يعنى بشكل ما أن التعليم والدين والأيديولوجيات السياسية والأنظمة القضائية ليست محددة آلياً عن طريق التطورات الاقتصادية لكنها تلعب دوراً فعالاً ويمكنها بدورها إحداث تغييرات اقتصادية، لقد اهتم جرامشى بصفة خاصة بالأهمية الأيديولوجية والسياسية للفيلسوف الإيطالى بنديتو كروتشى Benedetto Croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢)، الذى كان نائباً برلمانياً ووزيراً للتعليم القومى (١٩٢٠ - ١٩٢١)، ومؤسساً ورئيساً (حتى ١٩٤٧) للحزب الليبرالى.

وقد حاول جرامشى فى كتاباته تحديد الوظيفة التى مارستها مثالية كروتشى فى قلب الهيمنة الثقافية البورجوازية وإظهار كيف أن هذه المثالية

سيطرت على المؤسسات الثقافية (المدارس، الجامعات) لبلاده فى بداية القرن العشرين.

ح - الأيديولوجية والعلم :

رغم التقارب الموجود بين جرامشى ولويس ألتوسير حول إبراز الدور الأيديولوجى للمؤسسات (أنظر الفصل الأول، ٤، أ) فإن المفهوم الألتوسيرى للأيديولوجية يختلف تماماً عنه لدى جرامشى والجرامشيين.

إن بحث ألتوسير عن الأيديولوجية والأجهزة الأيديولوجية للدولة (١٩٧٦) يتضمن ثلاث حجج أساسية:

١ - تعاش الأيديولوجية لدى أغلب الأفراد (غير العلميين) كشىء طبيعى، يمثل جزءاً من محيطهم الاجتماعى اليومى، فهم يميلون إلى اعتبار القيم الأيديولوجية التى تحدد أفعالهم على أنها معطيات إنسانية وصالحة كونياً ويجهلون صفتها التاريخية الخاصة والعرضية، إنهم يعيشون فى الأيديولوجية.

٢ - الخطاب العلمى وحده هو القادر على النظر إلى الأيديولوجية من الخارج والتعرف على صفتها النسبية والخاصة، ففى رأى ألتوسير يمكن الفصل الجذرى بين الأيديولوجية والنظرية العلمية عن طريق القطع المعرفى coupure épistémologique (يستعير ألتوسير هذا المفهوم من جاستون باشلار).

٣ - إن الأحكام القيمة الأيديولوجية، والأيديولوجية كلية، أياً كانت درجة اتساقها، تسمح للأفراد بالتصرف كذوات Sujets يتماثلون عن غير وعى مع بعض القيم والمعايير التى تجعل منهم نواتاً مسئولة عن بعض الأفعال. وفى إطار هذا السياق يجب علينا قراءة الجملة الشهيرة لألتوسير: «الأيديولوجية تنابى الأفراد كذوات».

ويرى ألتوسير على غرار جرامشى (الذى يشير إليه) أن الأيديولوجية ومنتجاتها على درجة كبيرة من الأهمية فى موقع تاريخى يتميز بالصراعات

الاجتماعية حيث بإمكانها أن تساهم فى يقظة وعى طبقة معينة (البروليتاريا، مثلاً). وكما سبقه جرامشى ولينين، يؤكد بالتالى هو أيضاً على القيمة العملية للأيديولوجية.

من البديهي إذن أن يتخذ مفهوم الأيديولوجية مكاناً هاماً فى كل علم اجتماع ينتمى إلى ماركس والماركسيين، إن ماركس، وإنجلز والماركسيين الأكثر حداثة كانوا يولون أهمية كبيرة للوعى الأيديولوجى للطبقة العاملة، حيث يجب أن تفهم هذه الطبقة أين تكمن مصالحها (فى إزالة المجتمع الطبقي) وكيف يمكنها أن تحميها. من هنا نفهم كيف أن ماركسيين مثل جرامشى ولينين أولوا أهمية قصوى للمنتجات الثقافية التى يمكن أن تطلق وعى الطبقة الثورية: للأفكار الثورية والنقدية، للأعمال المسرحية النقدية (بريخت)، للروايات والأعمال الفنية عموماً. إن الفلسفة النقدية يجب أن تصبح واقعاً بفضل الطبقة الثورية: ومن هنا تأتى فرضية وحدة النظرية والتطبيق.

ولكن ما معنى «نقدى» أو «ثورى»؟ بالنسبة لأغلب الماركسيين هذه النعوت تطلق على النظريات أو النصوص الأدبية التى تعيد إنتاج «الواقع» بشكل «ملائم»، أى بشكل يصف العلاقات الاجتماعية كما تقدمها النظريات الماركسية، وللأسف فإن مسألة معرفة إذا ما كانت هذه النظريات نفسها واقعية أو ملائمة لم تطرح عملياً أبداً. ويسهل فى إطار هذه الظروف فهم الأسباب التى دفعت أوائل الماركسيين المهتمين بنظرية الأدب، (بليخانوف G. Plekhanov مثلاً) إلى دراسة الماركسيين الأوضاع الطبقيّة للأعمال الأدبية والتساؤل فيما إذا كان المؤلف قد تبنى وجهة النظر الأيديولوجية للبورجوازية المحافظة أو تلك الخاصة بالبروليتاريا.

إن ملاحظات ماركس وإنجلز حول «الكوميديا الإنسانية» لبليزك، تشير إلى أنه لا يمكن أبداً اعتبارهما مسئولين عن هذا النوع من التبسيطات. وعلى الرغم من أن بليزك كان كاتباً تقليدياً يؤيد طبقة النبلاء الشرعية (مدافعاً عن أيديولوجية محافظة)، فقد تمكن من كتابة روايات «واقعية» - فى رأى ماركس وإنجلز - تظهر النبلاء فى ضوء نقدي. نرى إذن أن الماركسية، خاصة فى

بدايتها لم تحل مشكلة العلاقة بين الأدب والأيدولوجية. (انظر فى هذا الشأن الفصل الثالث، ٤ ، أ، ب).

ط - أيدولوجية وتوسط عبر قيمة التبادل

من المهم أن نعرف كيف وفى أى ظروف اجتماعية ولغوية نشأ مفهوم الأيدولوجية فى نهاية القرن الثامن عشر لدى دى تراسى Antoine Destutt de Tracy (١٧٥٤ - ١٨٣٦)، وهذا المفهوم لم يكن له وجود بالطبع فى المجتمع الإقطاعى الذى كان يدور فيه الحديث بالأحرى عن «الاعتقاد»، «الدين» و«الحقيقة» و«الإيمان» و«الهرطقة». كلمة «أيدولوجية» لم تكن لتنشأ إلا فى وضع بدأ فيه التفكير فى إطار العقلانية الناشئة، فى الوظيفة الاجتماعية للفكر وحول العلاقة السببية بين الفكر والتنظيم الاجتماعى. ومثل معاصره الأصغر كونت، آمن دى تراسى بأن الثقافة والفكر الإنسانيين يخضعان لقوانين يمكن مقارنتها بقوانين الطبيعة: وكان عليه أن يظهر هذه القوانين. مثل هذا المشروع لم يكن من الممكن تخيله إلا فى ظل وضع اجتماعى يرفض فيه السكان نظام القيم الكونى الغابر وتدافع فيه الجماعات المتباينة عن سلالم قيمة تتفق مع مصالحها الخاصة.

وفى مثل هذا الوضع الاجتماعى الخاص بالنظام البورجوازى الدنيوى Sécularisé يمكن أن نتحدث عن أزمة قيم، تتضح من خلال التناقضات بين الليبرالية والإكليروسية Cléricalisme، الرأسمالية والإشتراكية، المسيحية والإلحاد، الخ، كيف نشرح هذه الأزمة على المستوى التاريخى والاجتماعى؟ لقد سبق أن تطرقنا إلى أحد الشروح الممكنة التى تقدمها نظرية تقسيم العمل التى طرحها دوركهايم والتى تشرح ضعف التماسك الاجتماعى وظاهرة اللامعيارية Anomie غير أن هناك تفسيراً آخر محتملاً تقدمه نظرية ماركس التى تنطلق من فكرة أن قيم الاستعمال فى المجتمع البورجوازى أو الرأسمالى (بعد الإقطاعى) أى القيم الكيفية والمادية والعرفية والأخلاقية أو الجمالية، تخضع لقوانين السوق والقيمة الوحيدة التى

تحكم هذه القوانين: قيمة التبادل valeur d'échange ولكن ماذا يحدث فى الممارسة؟

فى مجتمع السوق، يميل الأفراد إلى عدم الاهتمام بالصفات الفيزيائية، الجمالية أو المعنوية (أو الأخلاقية) للشئ، ويميلون إلى تفضيل قيمته التبادلية. هذه القيمة تحددها بالكامل آليات العرض والطلب ويمكن أن تتغير (فى المكان والزمان) من الصفر وحتى اللانهاية والكثير من التجار وحتى هواة جمع اللوحات لا يهتمون بقيمة الاستعمال للتحف الفنية ولا يتسألون حول ما إذا كان الذى يشترونه يعجبهم. ما يهمهم هو القيمة السلعية valeur marchande للتحفة الفنية: اللوحة كاستثمار، وفى هذا السياق نفسه، يعتقد بعض القراء أن الكتاب الرائج bestseller هو أيضاً «كتاب جيد»، له صفات جمالية، أخلاقية أو نظرية، وليس هذا هو الحال دائماً، ففى أغلب الأحيان هو مجرد كتاب يباع جيداً، ويميل المستهلكون إلى نسيان هذا الواقع بحيث تظهر فى كثير من الأحيان القيمة التجارية (قيمة التبادل valeur d'échange لكتاب ما كصفة زائفة - pseudoqualité) قيمة استعمال زائفة. ينطبق هذا أيضاً على جميع الموضات التى يزيد الطلب على منتجاتها لا لمميزاتها (الفيزيائية أو الجمالية) ولكن لأنها تباع بكميات كبيرة، لأنها نادرة الوجود فى بعض الأحيان، مما يستثير الطلب عليها، ويطلب المستهلك المتوسط ما هو نادر وفريد فى نوعه لكى يتميز عن الآخرين على المستوى الرمزي، وأثبت جون بودريار Jean Baudrillard أن هذه الرغبة فى التميز تتجه إلى قيمة التبادل: «(...) ليست العلاقة بالحاجات، أى قيمة الاستعمال، بل القيمة التبادلية الرمزية، أظهر الامتيازات الاجتماعية المنافسة، وفى النهاية قيمة التمايز الطبقي، هذه هى الفرضية المفهومية الأساسية لتحليل اجتماعى «للاستهلاك» (بودريار: ١٩٧٢ : ٩).

فى سياق ثقافى تسوده قيمة التبادل (عبر قانون السوق) يصبح مهما أن تقارن الصفات الأكثر تنوعاً وتعارضاً وتجتمع فى السوق، وهكذا تصبح جميع التعارضات بين القيم مشكوكاً فيها، وبخاصة التعارض بين الكيف

والكم الذي يميل لأن يفقد مصداقيته. الرائج bestseller أى «أفضل كتاب» هو فى الحقيقة الكتاب الأكثر مبيعاً، إنها ظاهرة ملتبسة على نحو خاص، بمعنى أن كيف يتحول إلى كم (وهذا ينطبق أحياناً على نظريات بأكملها أو على تيار أدبى).

فى تعليق على وظيفة المال لدى شكسبير، يقول ماركس: {...} يؤكد شكسبير على مظهرين للمال. إنه الألوهية المرئية، تحول كل الصفات الإنسانية والطبيعية إلى عكسها، استبدال كل شىء وتشويبه، مصالحة مالا يمكن أن يتصالح «(ماركس ١٩٧١ : ٢٩٩). فى هذه القطعة يظهر ماركس طمس التعارضات الثقافية ومصالحة القيم المتناقضة: الخير والشر، الجمال والقبح، الحقيقة والكذب، الديمقراطية والدكتاتورية، كل هذا يصبح ملتبساً ويميل لأن يصبح محايداً. بمعنى آخر، فى مجتمع تحكمه قوانين السوق يزداد ازدواج القيم ويميل إلى الحيادية ويثبت فى نهاية المطاف أن هذه الحيادية الاجتماعية الثقافية هى حيادية قيمة التبادل.

فى ظل هذا الوضع، ما هو دور الأيديولوجيات؟ إن الخطابات الأيديولوجية تدافع عن سلالم القيم الموجودة برفضها للازدواج والحيادية، وبخلق تعارضات صارمة (مانوية manichéennes) بين الخير والشر، الجمال والقبح، الديمقراطية والدكتاتورية، الاشتراكية والرأسمالية، ويسعى الأيديولوجيون إلى إحلال الثنائيات Dichotomies التى تطرحها على بساط البحث قوانين السوق وقد أصر كتاب مثل أومبرتو إيكو Umberto Eco (١٩٦٦) وأوليفييه ريبول Olivier Reboul (١٩٨٠) مراراً على الصفة الثنائية والثانوية للخطابات الأيديولوجية التى يشبه بعضها الملاحم الإقطاعية التى تتسم بتعارض صارم بين البطل والبطل الضد (Antihéros) وبين الخير والشر.

وعلى الرغم من ذلك فإن الثنائيات (Dichotomies) الأيديولوجية المتصورة من أجل إنقاذ القيم المأزومة، ينتهى بها الأمر إلى الازدراء المتبادل وإلى كشف النقاب بالتبادل كوسائل مناورة، عن طريق تحريك اللغة للوصول

إلى أهداف سياسية عابرة. إن الأيديولوجيين يساهمون بشكل قاطع فى تصاعد الالتباس والحيادية الدلالية، إن كلمات مثل «الحرية الواقعية»، أو «الديمقراطية» تتعرض فى الخطاب المروجّه commercialisés والأيديولوجية للتفريغ التدريجى من المعنى désémantisation.

وإذا تأملنا فى التضاد: الديموقراطية/ الديكتاتورية، والذى ينمى من المفهوم اللينينى لـ «المركزية الديموقراطية» فإن الديموقراطية تلتقى مع عكسها.

ومن المهم فى إطار علم اجتماع للنص تقديم أزمة القيم كظاهرة لغة وإظهار أن وجود القيم الاجتماعية والثقافية لا يستقل عن التغييرات اللغوية، والتحليل اللغوى لمسألة القيم يسمح - وحده - بدراسة نص أدبى أو نظرى والتساؤل حول ماهية المشكلات التى تسببها هذه الأزمة على المستويات الدلالية والتركييبية، وهذه المسألة سنتعرض لها فى الفصل الرابع من هذا العمل، حيث سنعمل على تحليل ردود فعل نصين روائيين «الغريب» لكامو، و«المتلصص» لروب جرييه إزاء القيم الاجتماعية اللغوية وسأحاول فى هذا الفصل أن أعيد تعريف مفهوم الأيديولوجية على المستوى الاستدلالي، إلا أن التعريفات الموجودة لهذا المفهوم ظلت مبهمة للغاية.

ي - التشيؤ والاستلاب

فى مجتمع تحكمه قيمة التبادل، فإن القيمة الداخلية للأشياء وقيمتها الاستعمالية تتجه إلى أن تُطمس فى نظر الأفراد. إلا أنه منذ ماركس اعتبرت قيمة التبادل كنتيجة للعمل الإنسانى المستثمر فى الشيء. أما فى اقتصاد السوق، فإن هذا العمل الإنسانى المستثمر الذى يشكل قيمة الاستعمال لرداء، أو كتاب، أو لوحة يبلأشى أمام قيمة التبادل للمنتج. فالرداء لا يُشترى لأن نوعيته جيدة أو لأنه جميل ولكن لأنه مطلوب من عدد كبير من المستهلكين. وقد رأينا أن هذا ينطبق أيضاً على التحفة الفنية التى يتوازى امتلاكها مع التخمينات حول قيمتها التبادلية فى المستقبل.

فى ظل هذا الوضع، تتجه الأشياء إلى اتخاذ «طبيعة ثانية» مستقفاً عن العمل الإنسانى والمتطلبات المادية للأفراد. هذه الطبيعة الثانية هى القيمة التجارية أو الكمية التى تقابل قيمتها الكيفية: أى العمل المستثمر فى السلعة ومن ثم إلى موضوعات رواج وتبادل objets de circulation والتى لا تتوقف قيمتها على صفتها الداخلىة: ولا على الاحتياجات الملموسة التى من المفترض أن تشبعها ولكن على القوانين الخفية للعرض والطلب.

وعدم التعريف anonymity لهذه القوانين هو أصل تشيؤ الأشياء حيث تمحى صفتها كمنتجات إنسانية صنعت من أجل إشباع بعض الاحتياجات لكى تبقى صفتها السلعية كموضوعات للتبادل، وفى عدم التعريف هذا للسوق، تبدو الأشياء مستقلة عن الإرادة والنية الإنسانية كموضوعات طبيعية، كأشياء. بعض التعبيرات التى نجدتها فى قاموس البورصة مثل «ارتفاع الذهب» أو «إنخفاض القمح» يشهد على غرابة الأشياء - السلعية وعلى استقلالها النسبى فى مقابل عالم النوايا والاحتياجات الإنسانية.

لقد إتخذ لوسيان جولدمان من ظاهرة التشيؤ نقطة البدء فى تحليله للروايات الجديدة لآ لان روب جرييه والتى يمكن قراءتها كتجسيد أدبى للتشيؤ فى عصر الرأسمالية الاحتكارية للدوله. إن اختفاء الشخصية فى الرواية الجديدة يشهد وفق جولدمان على العملية السريعة للتشيؤ التى تزيل أى مبادرة إنسانية، لتميل بالفرد إلى السلبية: {...} بالنسبة له أيضاً (بالنسبة لروب جرييه) فإن اختفاء الشخصية هو بالفعل حدث ولكنه يستنتج أن هذه الشخصية أحل محلها واقع مستقل (هو الذى لا يهتم نتالى ساروت): العالم المتشئ للأشياء {...} « (جولدمان، ١٩٦٤: ٣٠٢) إن مفهوم الاستلاب يمكن استنباطه من مفهوم التشيؤ حيث أن سيطرة قوانين السوق على الحياة اليومية تؤدى إلى تحول العمل الإنسانى والفرد نفسه إلى موضوع تبادل، إلى شئ، المادة التى ينتجها الفرد (العامل) تبدو بعد ذلك للمنتج نفسه على أنها مستقلة عن نشاطه وإرادته: كغريب عما صنعت يدها.

فى مؤلفه الهام عن «التشيؤ» يكتب جولدمان: {...} لقد سلط ماركس الضوء بشكل كافٍ على أن النشاط الإنسانى فى العالم الرأسمالى لا ينفصل فقط عن إنتاجه ولكنه يوضع فى كفة واحدة مع الأشياء بقدر ما تتحول قوة العمل إلى سلعة لها قيمة وسعر خاص بها {...}» (جولدمان ١٩٥٩: ٨٠) فى سياق اجتماعى ينظر للفرد من وجهة نظر السوق (قيمة التبادل) حيث يتم تجريده من كل صفاته الشخصية (الأخلاقية، العاطفية، الفكرية)، تتسم العلاقات الإنسانية بالاستلاب. وبعكس هيجل الذى آمن بأنه يمكن تجاوز الاستلاب على المستوى الفكرى عبر فهم شامل للواقع، يؤكد ماركس فى انتقاده للفلسفة الهيجلية، أن تجاوز الاستلاب لن يتم إلا على مستوى الممارسة الاجتماعية والثورية). (سيكون من المفيد مقارنة مفهوم الاستلاب Aliénation الذى استنبطه ماركس وماركسيو نظرية التوسط Médiation والتشيؤ Réification مع مفهوم دوركهايم لغير المسمى (أنظر الفصل الأول، ٤، د)، المرتبط ارتباطاً وثيقاً بانطلاق التماسك العضوى وبالتالى بتطور مجتمع السوق).

فى الفصل الثالث، سنرى كيف يستخدم تيودور أدورنو Theodor W. Adorno مفاهيم التشيؤ Réification والنكوص Régression (بالمعنى الفرويدى للكلمة) ليثبت اختزال الشخصية والفعل الدرامى فى «نهاية الحفل» لبيكيت. وسنرى أيضاً إلى أى حد يمكن ربط السببية المتشيئة causalité réifiée للغريب لكامو ولروب جرييه بأزمة القيم وبالتوسط عبر قيمة التبادل (انظر الفصول الرابع و السادس و السابع).

ك - الموضوعية (Wertfreiheit)

بالموازاة مع التناولات الجدلية والماركسية التى ترغب فى أن تكون نقدية وترغم نفسها على كشف النقاب عن المصالح الخاصة التى تخفيها الأيديولوجيات، تكونت مناهج داخل العلوم الاجتماعية تبحث عن استبعاد الأحكام القيمية من الخطاب العلمى.

هذه المناهج المستوحاة من عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ومفهومه للموضوعية العلمية (Wertfreiheit)، ليست لديها الزعم بإمكانية تغيير الواقع أو دفع الجماعات الثورية إلى حيز الفعل، إنها تستهدف فهم الظواهر الاجتماعية التي ترفض الأحكام القيمية الذاتية. لهذا سمي فيبر علمه للاجتماع Verstehende Soziologie السوسولوجيا الفاهمة Sociologie Comprenante ونحن حين نتحدث عن موضوعية Wertfreiheit فيبر يجب تجنب نوعين من سوء التفاهم: ليس هناك مجال لرفض دراسة القيم الاجتماعية أو نظم القيم، وقد نشر فيبر نفسه تحليلات هامة حول الأخلاق البروتستانتية في فترة التزمتم الانجليزي (L'Éthique protestante et l'esprit du capitalisme, 1904 - 1905, Paris 1964).

يجب أن نتمكن من فهم قيم الغير دون أن نحاكمها وننتقدها. كما لا يصح أيضاً أن يتنازل الباحث من حيث هو باحث) عن مصالحه الشخصية والأحكام القيمية التي تفرضها. في رأي فيبر أن المناقشة العلمية يجب أن تظهر في كثير من الأحيان القيم المتعارضة للمشاركين: لأن ذلك هو المعنى الحقيقي للمناقشة حول القيم: فهم ما يرغب الطرف المقابل في قوله بالفعل (أو ما نرغب أن نقوله نحن أنفسنا)، أي القيمة التي يتمسك بها كل واحد من المشاركين وليس فقط في الظاهر حتى يتسنى عموماً اتخاذ موقف تجاه هذه القيمة» (فيبر ١٩١٧، ١٩٧٣: ٢٦٧).

ومن البديهي أنه يجب أن تكون لدينا المقدرة على التحدث عن البروتستانتية التاريخية دون تطابق مع البروتستانتين، دون الاستهانة بهم، وكذلك القدرة على تحليل تطور الماركسية الأوروبية دون التطابق مع الماركسية. إلا أن مفهوم الموضوعية Wertfreiheit يظل إشكالياً: لأن أي تصوير استدلالى (نظري) لمشكلة من المشاكل الاجتماعية التاريخية سيكون أساسه انتقادات واستبعادات وتصنيفات تتضمن أحكاماً قيمية وحيث يعرض فيبر نفسه تطوراً تاريخياً ما، واضعاً البيروقراطية في مقابل الفرد الكاريسي

charismatique عند قوله عنه إنه «القوة الخالقة، الثورية للتاريخ» (قيبر، ١٩٢١-١٩٧٦، ٢٠١: ٦٥٨) فإنه يعبر عن أحكام قيمية. وتظهر هذه الأحكام على مستوى سرده التاريخي، حيث يفضل (على عكس دوركهايم أو ماركس) الفعل الفردي (الفرد «الكاريسي» العظيم) وعلى المستوى المعجمي حيث يتضمن مفهوم الكاريسما Charisma تصويراً فردياً للتاريخ. (وأعترف عن طيب خاطر أن قيبر لا يتطابق مع الفرد الكاريسي، انه لا ينتقده: ولكننا سنرى - في الفصل الرابع - إلى أي حد تتضمن البنية الخطابية نفسها أحكاماً قيمية أيديولوجية، غير أن قيبر يهمل تماماً هذه البنية).

وفي إطار هذا السياق الذي قدمناه هنا (والذي لا اعتبره موضوعياً) فإن نظرية قيبر الخاصة بالموضوعية يمكن تفسيرها كرد فعل لأزمة القيم: كمحاولة للانفلات من أسر الصراعات الأيديولوجية.

ومن هنا تظهر هذه النظرية كنتاج للوضع الاجتماعي اللغوي الذي تُعتبر فيه القيم الاجتماعية الأساسية عارضة، وغير جديرة بالخطاب العلمي. وبشكل غير مباشر فإن مفهوم الموضوعية يستنبط من قيمة التبادل غير المبالية بالقيم الكيفية: الأخلاقية، الجمالية، أو السياسية ويعيد «العلم» الموضوعي إنتاج هذه اللامبالاة ساعياً إلى استبعاد هذه القيم من خطابه. في حين أن الخطاب الموضوعي «المحايد» غير ممكن في مجال العلوم الاجتماعية التي تجسد لغاتها مصالِح خاصة، مصالِح جماعية، ومع ذلك فإننا نستطيع خلق وهم بالموضوعية أو الحيادية هو في الحقيقة أيديولوجي.

ودون الرجوع إلى المواقف الماركسية التي تتضمن على الأقل تطابقاً جزئياً بين الخطاب العلمي وبعض المصالح التي تخص الطبقات الموصوفة بأنها تقدمية «أو متقدمة»، سأحاول في الفصل الرابع أن أقدم موقف نظرية نقدية تتجنب فرضية الموضوعية وكذلك الفرضية الماركسية القائلة بوحدة النظرية والتطبيق.

الفصل الثانى

المناهج الإمبىرىقىة والجدلىة فى علم اجتمع الأدب

١ - الموضوعىة وعلم الاجتماع الإمبىرىقى للأدب

إن الفرق الأساسى بين المناهج الإمبىرىقىة والجدلىة فى علم اجتماع الأدب يمكن فهمه على أساس أن الأولى تتجه صوب فرضىة قىبر القائلة بالموضوعىة العلمىة (Wertfreiheit) مستبعداً لى حكم قىمة جمالى أو غيره، فى حىن أن الثانىة تطور من بعض النظرىات الجمالىة والفلسفىة الموجودة مستعينة ببعض المفاهىم الاجتماعىة والسىموظىقىة .

لقد سبق وأن تطرقنا إلى هذا الانشقاق بين الفلسفة من جانب والعلم (علم الاجتماع وعلم النفس) من جانب آخر. لقد حاول أنصار علم الاجتماع الإمبىرىقى للأدب وبخاصة فى الستىنىات ، وضع تفرقة واضحة ودقىقة بين المداخل الجمالىة (الفلسفىة) والحجج النابعة من علم اجتماع الفن حىث يحاولون بهذه التفرقة تحويل علم اجتماع الأدب والفن إلى علم إمبىرىقى وموضوعى بمفهوم ماكس قىبر، الذى اهتم هو نفسه بعلم اجتماع الفن (الموسىقى والعمارة) . لقد نادى فى كتاباته بالفصل الواضح بين الأبحاث الإمبىرىقىة والأحكام الجمالىة . وىلاحظ فىما يخص التطور التقنى للموسىقى أثناء عصر النهضة : " إن التاريخ الإمبىرىقى للموسىقى يمكنه بل وىجب علیه تحليل هذه المكونات للتطور ، دون أن يعلن موقفه من القىمة الجمالىة للأعمال الفنىة الموسىقىة " (قىبر ١٩١٧ ، ١٩٧٣ ، ٢٨٩ - ٢٩٠) . عن طرىق الأحكام

القيمية يسعى إذن تغيير إلى استبعاد نقد الأعمال . وليس غريباً أن يحاول علماء اجتماع الأدب أنصار فيبر، الفصل بين النقد الأدبي وبين جمالية علم الاجتماع الأدبي بحصر المعنى. فقد كتب Hans Norbert Fügen على سبيل المثال : " حيث إن مادة (أو موضوع) أبحاث علم الاجتماع هي الفعل الاجتماعي ، أي الفعل المتبادل بين الذات action intersubjective فهو لا يعتبر العمل الأدبي كظاهرة جمالية ، لأنه بالنسبة له يكمن معنى الأدب فحسب في الفعل الخاص المتبادل بين الذات الذي يثيره الأدب " (Fügen ، ١٩٦٤ : ١٤) .

وحيث إن المنهج الإمبريقي يرفض أن يكون نظرية للأدب أو علماً للجمال فإن هذه الحقيقة تفسر سبب عدم أخذه في الاعتبار لبنية العمل (لنص نفسه) : " لهذا السبب فإن التفسيرات التي تخص العمل الفني نفسه ، وبالتالي بنيته، تظل خارج الأبحاث الاجتماعية حول الفن " (سيلبرمان Silbermann ١٩٦٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٣ :) .

وبعكس فوجن وسيلبرمان أهم الممثلين الألمان للتيار الإمبريقي ، فإن تيودور أدورنو Theodor W . Adorno ممثلاً للفلسفة الجدلية (" للنظرية النقدية ") ، يرى أنه من المستحيل إهمال العناصر المكونة للعمل الفني ، ومن المستحيل كذلك - في رأيه - استبعاد الأحكام القيمية الجمالية في علم اجتماع الأدب ، لأن الدراسة الجمالية للكيف تشرح في كثير من الأحيان المظاهر الكمية للعمل : فمثلاً واقعه أن نصاً طليعياً ، صعب القراءة ، لا يلقى أى نجاح في السوق في حين أن إنتاج الأدب البذء trivial يباع بفضل كليشاته الأيديولوجية وقوالبه القابلة للتسويق - stéréotypes commerciales ويتخذ أدورنو في " Thesen zur Kunstsoziologie " (رسائل حول سوسيولوجيا الفن) موقفاً ضد المبادئ المنهجية لسيلبرمان (وبطريقة غير مباشرة ضد فيبر) . وبعكس سيلبرمان الذي يعلن تأييده للموضوعية Wertfreiheit ، يؤكد أدورنو على ضرورة علم اجتماع نقدي للأدب والفن : « إن سيلبرمان يتفق معي في أن إحدى المهام الرئيسية لعلم اجتماع الفن

تكمُن في نقد النظام الاجتماعي القائم . إلا أنه يبدو لي أن هذه المهمة لا يمكن تحقيقها مادام يُهمل معنى الأعمال ونوعيتها حيث يتعارض التخلي عن الأحكام القيمية مع الوظيفة الاجتماعية النقدية " (أورنو ، ١٩٦٧ : ١٠٠) ولا يهتم إن علم الاجتماع الجدلي للأدب بنوعية النص الأدبي فقط لمجرد شرح وظيفته الاجتماعية (تأثيره أو نجاحه) ولكن أيضاً من أجل تعريف وظيفته الأيديولوجية (التبريرية التأكيدية) أو النقدية .

وهذان المظهران لا يمكن فصلهما . ويميل الكاتب الذي يستهدف أساساً النجاح التجاري إلى استعمال الكليشيهات الشعبية (القابلة للتسويق) ، والقوالب السردية بسهولة أكثر من الكاتب الذي يسعى لحل مشكلة وجودية ، سياسية ، فلسفية أو جمالية ومن يفكر في المقام الأول في القيمة الاستعمالية للكتابة وليس في قيمتها التبادلية .

إن علم الاجتماع الإمبريقي للأدب أهمل كثيراً (أو في كثير من الأحيان) الارتباط بين الكم والكيف والكم ، لقد درس المظاهر الكمية للإنتاج والاستهلاك الأدبي بمعزل (مستقلاً عن الكيف) .

ولقد تمت أبحاث هامة حول العناصر الكمية ليس فقط في ألمانيا والسويد K.E. Rosengren , Sociological Aspects of the Literary System , Stockholm , 1968) ولكن أيضاً في فرنسا ، خاصة مدرسة بوردو Ecole de Bordeaux التي يديرها اسكاربيت Robert Escarpit ولكن يبدو أن أعضاء هذه المدرسة لم يصلوا بعد إلى حل المشاكل التي طرحتها العلاقات بين الكم والكيف وبذكر العدد الكبير من النصوص القابلة للتسويق ، فإن زالامانسكي Henri Zalamansky ، أحد معاوني اسكاربي يؤكد أنه ليس هناك أي معيار كيفي من النوع الجمالي يمكن تطبيقه في دراسة أدب الجماهير Littérature de masse . ففي رأيه أنه في حالة دراسة الأعمال "العظيمة" يمكن تناول المظاهر الجمالية، ولكن «حين نكون على العكس بصدد دراسة مجموعة أعمال من أجل فحص تأثيرها على

الوعى الجماعى، لا يمكن الاهتمام بالمعيار الجمالى ، لأننا بصدد مسألة كم وليس كيف " (زلامانسكى فى : اسكاربيت ١٩٧٠ : ١٢٧) .

إن الحجة التى يسوقها أدورنو ضد سيلبرمان ، بمعرفة أن كم الأدب الرخيص لا يمكن شرحه مستقلاً عن كلفيته الجمالية (عن مظاهره الأيدولوجية أو النقدية) تظل صالحة فى حالة زلامانسكى .

ولنتذكر بهذا الشأن دراسة أمبرتو إيكو Umberto Eco حول روايات جيمس بوند لإيان فلمنج Ian Fleming التى تبين أن هذا الأدب الشعبى (أو الرائج) يتكون من كليشيهات سياسية متعددة ، تقابلها قوالب سردية تفسر النجاح التجارى لمؤلفات فلمنج كلها (انظر بهذا الشأن الفصل الرابع) . إن حجج هانى Franziska Ruloff - Häny تتخذ نفس الاتجاه - فهى تظهر بشكل مقنع كيف تتداخل فى الروايات الشعبية، الكليشيهات الأسلوبية المثيرة جنسياً والأيدولوجية وتكمل بعضها بعضاً ،

(F . Ruloff - Häny , Liebe und Geld . Der moderne Trivialroman , Stuttgart , 1976)

إن النظريات الجدلية لا تهتم فقط بالوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للأدب البذئ litterature triviale بل تسعى لشرح العلاقة بين بنياتها الدلالية والسردية من جانب والمصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لبعض الجماعات من جانب آخر .

٢ - نماذج جدلية

فى أى مؤلف تقديمى يقدم جزؤه الثانى الأفكار الأساسية لعلم اجتماع النص لابد أن تحتل فيه المناهج الجدلية المتوجهة إلى النص وبنياته مكان الصدارة ، ومن الخطأ افتراض أن المناهج الإمبريقية ليست لها إلا أهمية ضئيلة بالنسبة لنظرية الأدب وأنها فى الأساس تتبع علم الاجتماع . ولنقل عموماً إن تحليل النص نفسه هو نشاط إمبريقى يجب أن يتخلى فيه الحدس الذى يحتل مكاناً هاماً فى " النقد الجامعى " ، عن مكانه للتحليل

البنوي (دون أن يتم استبداله بالكامل به) إلا أن إعادة اكتشاف أهمية المناهج الإمبريقية تحدث على الأخص فى إطار علم اجتماع التلقى والقراءة من أجل دراسة السلوك الجماعى للقراء فى الحاضر وفى الماضى .

وسنرى فى الفصل الأخير ، كيف يستخدم كل من چاك لينهارت Jacques Leenhardt وچوزيف جورت Joseph Jurt فى أعمال حديثة بعض الأساليب الإمبريقية لتوضيح تلقى عمل ما أو رواية فى وضع اجتماعى تاريخى معين . حيث يتوصلان إلى أنه بعيداً عن أن يكون كلاً متجانساً، فإن الجمهور الأدبى يعيد إنتاج الصراعات الاجتماعية والسياسية لمجتمع ما، كما يبينان كذلك أن مفهوم الوعى الجماعى الذى سبق ذكره فى الفصل الأول، ليس تجريبياً: بل يمكن تجسيده عن طريق الأبحاث الإمبريقية التى تظهر التناسق الثقافى والأيدولوجية " للجماعات " الاجتماعية المهنية .

هذا التوجه الإمبريقى للمناهج الجدلية (والذى نجده بوضوح فى الشخصية التسلطية The Authoritarian Personality وهو عمل جماعى نشره أدورنو بالتعاون مع بعض المنظرين الآخرين ١٩٤٩ - ١٩٥٠) لن يؤدى أبداً لرفض النقد الاجتماعى .

أ - الجماليات الهيكلية والنماذج الجدلية فى علم اجتماع الأدب

من الصعب بل من المستحيل فهم النظريات الجدلية لچورچ لوكاش ولوسيان جولدمان أو أدورنو إذا لم ندرك بعض مبادئ ومفاهيم فلسفة هيكل النسقية وبخاصة فلسفته الجمالية. إحدى الأفكار الأساسية لفلسفة هيكل هى أن الواقع لا يمكن فهمه إلا ككل متسق ، ككلية دالة. والفكر الذى لا يفهم العالم الموضوعى ككلية بل يعزل الظواهر الفردية بعضها عن بعض يظل تجريبياً، والمدخل الذى يتناول الظواهر فى علاقتها بكلية تتخذ فيها معناها من أجل إقامة علاقات فيما بينها ، هو وحده الذى يقدم بشكل عيى. ولقد وصفت هذه الفلسفة بالعقلانية والواقعية ، وفى رأى هيكل فإن واجب

الفيلسوف هو فهم العالم ككلية متنامية ذات دلالة ككلية تاريخية والجملة التالية المعروفة جيداً والمذكورة في "ظاهرية الروح" *Phénoménologie de l'esprit* تصبح إذن مفهومة:

"Das Wahre ist das Ganze . Das Ganze aber ist nur das durch seine Entwicklung sich vollendende Wesen " (Hegel , 1970 : 24)

" الحقيقة تكمن في الكلية ولكن الكلية ليست إلا الجوهر الذي يتحقق في الصيرورة " وتلك الفلسفة التي تفهم الكائن ككل بإمكانها وحدها أن تفهم بشكل ملموس الجوهر المختلف وراء الظواهر . والأساس ، أن هيجل عرف وظيفة الفن بواسطة معايير فلسفية خاصة بجدليته . فهو يرى أن الفن مثله مثل الفلسفة يتبنى وظيفة معرفية يجب أن تضمن فهماً أفضل للواقع ومثله مثل الفلسفة (الفكر المفهومي) ، فإن العمل الفني يجب أن يظهر الجوهر خلف الظواهر ، وفيما يخص الوظيفة المعرفية *fonction cognitive* للفن يلاحظ هيجل في جماليته مايلي : " وهكذا ، مرة أخرى ، بصرف النظر عما هو بالنسبة للواقع العادي ، مجرد مظاهر بسيطة وأوهام ، فإن مظاهر الفن تمتلك حقيقة أسمى ووجوداً أكثر صدقاً " (هيجل ١٩٦٤ : ٣٨ - ٣٩) .

مثله مثل الفلسفة ، فإن الفن يتغلغل حتى يصل إلى الواقع الحقيقي ، حتى إلى الجوهر . العمل الفني الناجح " العمل العظيم " ، يظهر قانوناً عاماً (" *allgemeine Maxime* " هيجل) ، في ظاهرة معينة : في صفة أو في فعل أو في موقف . وفي ذلك الحين يصبح القانون العام ، المفهومي ، الذي اتخذ شكلاً خاصاً قابلاً للفهم .

في المجال الجمالي ، يطالب هيجل إذن بالجمع بين العام والعقل من جانب والشعور من جانب آخر (*Gemüt , Empfindung*) فهو يؤمن بأن الفن ينتمي لمجال آخر غير التفكير الفلسفي : " الجمال الفني بالفعل يخاطب الحواس ، الإحساس ، الحدس ، الخيال وما إلى ذلك ، إنه جزء من مجال آخر

غير الفكر { ... } " (هيجل ١٩٦٤ : ٢٧) . على الرغم من ذلك فإن غرابة الفن بالنسبة للتفكير المفهومي ، للفلسفة ، ليس فى النهاية إلا مظهرياً : لأن الروح فى النهاية تتعرف فى الموضوع الجمالى على إبداعها الخاص : " لهذا فإن العمل الفنى الذى يغترب فيه الفكر عن نفسه ، يمثل جزءاً من مجال الفكر المفهومي والروح حين تخضعه للفحص العلمى ، لا تعمل إلا على إشباع حاجة طبيعتها الأكثر خصوصية " (هيجل ، ١٩٦٤ : ٣٢) هذا الخضوع للإبداع الجمالى ، الأدبى للخطاب المفهومي للفلسفة يظهر بوضوح فى مجال آخر حيث يعبر هيجل عن نفسه دون التباس حول العلاقة التراتبية التى يقيمها هو نفسه بين الفن و " العلم " الجدلى : " إلا أن الفن ، كما سنرى بوضوح فى موضع آخر ، بغض النظر عن كونه أكثر الأشكال سموماً بالروح ، لا يحصل على تقديره إلا فى العلم " (هيجل ، ١٩٦٤ : ٣٢) .

هذه المحاولة لإخضاع الفن للخطاب الفلسفى تظهر أهمية خاصة لشرح ونقد الجماليات الماركسية (للوكاش وجولدمان) . إنها جماليات تكمل التراث الهيجلى بادعاء أن كل النصوص الأدبية لها " معادلها " المفهومي وأنه يمكن تحويله إلى مدلولات (أيديولوجية ، فلسفية أو لاهوتية) . ويستبعد هؤلاء الممثلون تعدد معانى النص الأدبى عن طريق مطابقته بمعنى معين ، محدد فى إطار الخطاب الماركسى .

ب - الكلية La totalité والنمطى Le typique عند لوكاتش

يمكن اعتبار جماليات ماركس وإنجلز تكملة مادية لجماليات هيجل ، أثناء مناقشة أثيرت بسبب الدراما Franz von Sickingen (١٨٥٩) . عتب ماركس وإنجلز على الكاتب (فرديناند لاسال ، أحد قادة الحركة الاشتراكية فى ذلك العصر) أنه جعل من البطل شخصية مجردة ، ناطقة بلسانه الخاص وليست شخصية حية ، بتعبير آخر ، لقد انتقدها لأنه جعل شخصياته تعبر عن أفكار ومبادئ عامة بدلاً من تركها تظهر من خلال ملامح خاصة أو عن طريق أحداث ومواقف معينة .

ونلاحظ فى تعليهما أنهما اهتما بصفة خاصة بمطلب هيجل بأن الفنان يجب ألا يعبر عن الأفكار العامة إلا بطريقة خاصة يتوجه فيها إلى الحواس وليس إلى القدرات المعرفية. لوكاتش فيلسوف وعالم جمال مجرى بعد فترة مثالية (كتب فيها جمالية هيدلبرج - L' Esthétique de Heidelberg والروح والأشكال L'âme et les formes ونظرية الرواية La Théorie du roman وضع جمالية نسقية Systématique ومادية ، وأعاد اتخاذ مفهوم النمط (" der Typus ") الذى أدخله ماركس وإنجلز وطوره عن طريق استنباطه من مقولة الكلية الهيجلية أملاً أن يسمح له هذا المفهوم بتمييز الأدب التجريدى والطبيعى naturaliste عن الأدب الواقعى الذى يعكس الواقع بشكل محسوس (بالمعنى الهيجلى) . ما هو الفرق إذن بين الانعكاس التجريدى abstrait " الطبيعى " naturaliste والانعكاس الملموس concret ، " الواقعى " ؟ إن الأدب الطبيعى الذى لا يتضمن فحسب أعمال كاتب مثل زولا بل يتضمن أيضاً التيارات الطليعية الحديثة - يكتفى بإعادة إنتاج أحداث ووقائع وأفعال أو ملفوظات énoncés منعزلة دون إدراجها داخل كل متسق . فهو عبارة عن انعكاس جمالى لا يتجاوز الظاهرة ، ولا يتغلغل إلى الجوهر . ومن ثم فهو لا يتجاوب مع مطالب الجماليات الهيجلية التى يتخذ لوكاتش أفكارها الأساسية فى تعريفه للواقعية (والطبيعية) .

وليس إميل زولا الوحيد الذى يعيد إنتاج الواقع بشكل تجريدى فى ريبورتاجاته التى تستهدف التفاصيل وثراء الحياة الاجتماعية أكثر من اتساقها ، فالطليعة التعبيرية avant - garde expressioniste والسوريالية أيضاً خلدت التجريد الطبيعى باستعمال التجميع والكولاچ والتقنيات التى تؤدى إلى تفجير اتساق العالم بدلاً من تأكيد المثال الكلاسيكى (الهيجلى) للكلية . (وتتخذ هذه الفكرة اللوكاتشية ، بأن الوسائل الأسلوبية للطليعة تجريدية وطبيعية ، موقعاً هاماً فى نظرية ليوكوفلر Leo Kofler (١٩٧٠) الماركسية وفى الواقعية الاشتراكية ، كما تكونت فى ألمانيا الشرقية وفى الاتحاد السوفيتى . ويمكن أن تعتبر الجماليات الماركسية اللينينية " لهذه الدول

ذات جذور هيكلية قد تأثرت مصطلحاتها بلوكاتش (P.V. Zima) (١٩٧٨).

وبعكس الكاتب " الطبيعي " فإن الكاتب الواقعي يبني مواقف وأفعالاً وشخصيات نمطية بمفهوم ماركس وإنجلز ولا تعنى إذن لدى لوكاتش كلمة " إنعكاس " (" Widerspiegelung ") " تصويراً فوتوغرافياً " للواقع ولكن " تشكلاً للنمطى " ("das Typische" Construction du typique der Typus) والذي يصبح أساساً لأسلوب واقعي).

ويوضح لوكاتش المتقدم فى مقطع من " الجماليات " حيث يصوغ فى سياق مادى المصطلح الإنسانى والمثالى " لجماليات هيدلبرج " ، كيف أنه يستخدم المفاهيم الهيكلية من " جوهر " و " كلية " لتعريف " النمطى " : " لأنه حين تكتسب التفصيلى صفة دلالية وأساسية كاشفة عن جوهر معين ، يتم آنذاك رفع الشىء بوصفه كلية منظمة بطريقة عقلانية وقائمة على علاقات عقلانية ، إلى مستوى الخاص والنمطى " (لوكاتش ١٩٧٢ ، الفصل الرابع : ١٦٩) . يمكن من هذه القطعة استنباط أن الخاص (das Besondere) ، باعتباره مقولة جمالية ، يشكل تركيبية بين الظاهرة المفردة والمبدأ النظرى العام . وحسب رأى لوكاتش ، فإن الشكل الفنى القادر على بناء الخاص فى النمطى هو وحده الذى يجوز أن يسمى واقعياً .

من الواضح أن جماليات لوكاتش لها كآية جماليات من أصل هيكلى - طابع معيارى وخاضع لقوانين خارجية فى نفس الوقت حيث إنها تختزل مهام الأدب إلى مهام الفكر المفهومى (الماركسى) .

إن ثنائيات مثل الطبيعية / الواقعية ، المجرى / الملموس ، الجوهرى / غير الجوهرى ، هى أساس نظرية لا تخفى التزامها السياسى : حيث تختار أن تقف فى صف ما تعتبره القوى التقدمية للمجتمع . وبعكس هيكل الذى لا يولى أى اهتمام للمهام الثورية للفن ، فإن لوكاتش يرى أن الوظيفة المعرفية

للأعمال ترتبط حتماً بوعي الشعب. إن الفن الواقعي كما يراه ويتمناه، يساهم في دفع الديمقراطية و " الاشتراكية " .

إن المفهوم اللوكاتشي " للواقعية " يمكن التشكيك فيه لسببين :

١ - إنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الأدبي الذي يسميه لوكاتش وممثلو " الواقعية الاشتراكية " : " الواقعية النقدية " والتي تنتمي إليها أعمال بلزاك ، وسكوت ثم توماس مان الأحدث . لقد حاول لوكاتش - في مرات عديدة - إرساء قواعد جماليات صالحة كونياً انطلاقاً من نصوص هؤلاء الكتاب ، وكان يجب على هذه المعايير أن تطبق أيضاً على الإنتاج الأدبي المعاصر . ولم يكن عبثاً عتاب بريخت وبلوخ وغيرهم على لوكاتش بأنه خصص بشكل مثالي ودوجماتيقي بعض الأشكال الأسلوبية للماضي وبالتالي لم يتمكن من فهم التطورات الحديثة وخاصة الطليعة التعبيرية أو السورالية (انظر بهذا الشأن : H.J. Schmitt, éd., Die Expressionismusdebatte, Franc-fort , 1973

٢ - إن مفهوم الواقعية نفسه هو إشكالي للغاية لأن مسألة معرفة ما إذا كان العمل الفني واقعياً وما إذا كان يمثل مواقف " نمطية " ، لا يمكن تحقيقها إلا في ضوء تعريف خاص (مجرد ممكن وليس ضرورياً) " للواقع " . والمنظرون (أدورنو ، أوبلوخ على سبيل المثال) الذين تبناوا تعريفاً آخر للواقع مخالفاً لتعريف لوكاتش ، يميلون إلى إضفاء صفة الواقعية على أعمال أدبية مختلفة تماماً (مثل كافكا وبيكيت على سبيل المثال) .

ج - الكلية ورؤية العالم عند جولدمان

تتخذ مقولة الكلية مكاناً هاماً في البنائية التوليدية structuralisme génétique لدى لوسيان جولدمان والذي ينطلق من كتاب لوكاتش الشاب، وعلى غرار هيجل في " ظاهرة الروح " La Phénoménologie de l' esprit ولوكاتش في " التاريخ والوعي الطبقي " (١٩٢٣) Histoire et conscience de classe ينطلق جولدمان من فكرة أن الظواهر الفردية لا يمكن فهمها بشكل ملموس إلا في إطار تجانس كلي .

ولكن جولدمان يختلف عنهما حين يؤكد في مقدمة مؤلفه الرئيسي، "الإله الخفى" (١٩٥٥) Le Dieu caché على أنه يجب عند تفسير النص أن لا تخضع العناصر الفردية للمجموع أو أن تُستقَى ببساطة منه : يجب أيضاً توضيح كيف يظهر المجموع كله فى كل العناصر ، ويعنى هذا بشكل ملموس أن إشكالية قصيدة ما ، يمكن أن تظهر بشكل مصغر فى بيت من هذه القصيدة .

فى " الإله الخفى " يدرس جولدمان بالتفصيل " الأفكار " لباسكال ويسعى لأن يبين أننا يمكن أن نجد كل إشكالية الفلسفة المأسوية لباسكال فى بعض من " أفكاره " والتي يتبناها بشكل فردى ، إن الحركة الداخلية -inter-action بين الكلية la totalité وبين أجزائها تتخذ إذن مكاناً هاماً فى تأويلية (herméneutique) جولدمان .

وفيما يخص تحليله " للأفكار " ، يوضح أنه من الممكن التمييز بين عمليتين معرفيتين متكاملتين : الشرح explication والفهم compréhension وبشكل أبسط يمكن أن نقول إن وصف الاتساق الداخلى لبنية معينة (لبدأ أو لفكرة مثلاً لدى باسكال) ، يؤدى إلى فهم هذه البنية وإلى تعريفها الداخلى إلا إنه لكى نتمكن من شرح هذه البنية لابد من وضعها فى علاقة مع البنى الشاملة : تكون البداية مع كامل نص " الأفكار " ويتم شرح النص ومحتواه بدورهما فى علاقتهما ببنية أعم ، أى رؤية العالم الجانسينية Janséniste التي لعبت دوراً أساسياً هاماً فى النصف الثانى من القرن ١٧ والذي يربطه جولدمان بالوضع الاجتماعى والمصالح الاجتماعية لطبقة نبلاء الرداء -No- blesse de robe (انظر الفصل الثالث ، ٢ ، ج) من بين جميع الكليات الممكنة التي ترتبط بعضها ببعض فى عمليات الفهم والشرح تبرز إثنان لهما أهمية خاصة : البنية الدلالية structure significative ورؤية العالم vision du monde الأولى يجب أن تكون رداً على السؤال التالى : كيف يمكن أن نفهم عملاً فلسفياً أو أدبياً ككل متسق كشمولية متماسكة ؟ فى رأى جولدمان ،

فإن البنية الدلالية يمكن اعتبارها مبدأ منسقا ، عاملاً محدداً يمثل كلاً متماسكاً للنص الفلسفي أو الأدبي .

وفي أثناء مناقشة مع أدورنو خلال مؤتمر " رويامون " حول " علم اجتماع الأدب " قال جولدمان : " إن العمل الفني هو عالم كلي وهذا العالم الكلي والذي يُقيم ويتخذ موقعا ، ويصف ويؤكد وجود بعض الأشياء يلزمه عند ترجمته نسق فلسفي " (جولدمان ، ١٩٧٣ : ٥٣٢) .

" نسق فلسفي " : هاتان الكلمتان مهمتان جداً ويجب أن يتم فهمهما في السياق الهيجلي .

في رأي جولدمان يحتوى كل عمل أدبي على نسق تصوري يمكن تعريفه بشكل أحادي ويتجسد هذا النسق من خلال البنية الدلالية والتي هي "بنية من المدلولات" structure de signifiés ، حسب مصطلح رولان بارت في (S / Z) وبتعبير آخر ، فإن الأعمال الأدبية يمكن ترجمتها بشكل أحادي المعنى إلى أنساق فلسفية .

ونجد هنا فكر هيجل القائل بأن الفن يعبر عن مفاهيم بشكل عاطفي مخاطباً الحواس . وإذا لم يفعل هذا يكون غير متسق وتافه .

أسوة بهيجل ، ينطلق جولدمان من فكرة أن تعدد معاني Polysémie النص التخيلي ليس إلا ظاهرياً ، وأنه في الواقع كل إنتاج أدبي يمكن تعريفه بواسطة معادل مفهومي . ولقد سبق أن أشرت - في " من أجل سوسيولوجيا للنص الأدبي " - (Pour une Sociologie du texte littéraire, Paris 1978) أن هذا التفكير وهمي لا يمكن أن يقبل به علم اجتماع النص .

وفي رأي جولدمان ، فإن النظام الكامن للعمل الفني له وظيفة مزدوجة: فهو ينظم وحدة العمل من جانب ويعبر عن رؤية للعالم ، عن وعي جماعة اجتماعية من جانب آخر . إن العمل الفني ليس نتاج مؤلف بوصفه

فرداً ولكنه يكشف الوعي الجماعى والمصالح والقيم الاجتماعية لجماعة أو طبقة، والأعمال العظيمة وحدها هى التى تعبر باتساقها عن رؤية للعالم ووعى جماعة ما .

وأسوة بهيجل ولوكاتش فإن جولدمان يبدأ من حكم قيمى جمالى مؤكداً أن الفن والأدب يجب أن يسعيا إلى تحقيق أفضل اتساق . ومن المؤكد أن هذا الحكم هو تعميم غير مقبول ، لا يضع فى اعتباره فن الطليعة avant - garde (السورىالى ، التعبيرى expressioniste أو المستقبلى Futurist) حيث يرفض أصحابه الفرضية الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة عن الاتساق .

إن رؤية العالم كما عرفها جولدمان، ليست واقعة (أو حدثاً) إمبريقياً . وهى لا تتبع عالم التجارب اليومية التى تتصف بالسلام القيمية المستقرة إلى حد ما . إن العمل " العظيم " هو وحده الذى يحتوى على بنية للوعى الجماعى الاجتماعى تظهر " رؤية للعالم " كلية دالة من القيم والمعايير .

ولهذا السبب فإن رؤية العالم التى نجدها فى "رواية عظيمة " لا تعبر عن الوعى الإمبريقى الواقعى لأعضاء الجماعة ولكن الوعى المثالى ، أقصى الوعى الممكن ، فنحن بصدده وعى ممكن لأننا نجده باطنياً فى العمل حيث يحلله ويعيد بناءه عالم اجتماع الأدب .

وسنرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . كيف يجد جولدمان رؤية العالم الجانسينية متمثلة فى التراچيديات ومسرحيات راسين وكيف يربطها بالمستوى الوظيفى، بنبلأ الرداء ، ويتحدث جولدمان عن تماثل بنيوى ho- mologie structurelle بين العمل (بنيته الدالية) ورؤية العالم التى نجدها داخل أعمال راسين مثلما نجدها خارجها (فى اللاهوتية الجانسينية théo- logie janséniste) .

ولنا هنا أن نلاحظ إلى أى حد تمثل البراهين المقدمة من جانب بعض النقاد لإثبات أن النظريات الأدبية الماركسية تعتبر النصوص إعادة إنتاج

ميكانيقة للواقع هي تبسيطات ظالمة. والدليل على ذلك أعمال لوكاتش وجولدمان حيث يظهر الأدب فيها كشكل إنتاجي (وليس كأعادة إنتاج سلبية) تتخطى عالم التجربة اليومية. إنها تظهر الجوهر (لوكاتش) أو أقصى الوعي الممكن (الوعي المثالي) لجماعة (جولدمان)، إنها تلعب إذن دوراً فعالاً، بما أنها تعتبر نشاطاً بناءً يحول ويتجاوز الواقع. {انظر أيضاً

K. Kosik , Dialectique du concret, Paris, 1970 P.V. Zima, Goldman . Dialectique de l'immanence, Paris , 1973

د - أدورنو للجماليات الهيكلية

أدورنو (T.W. Adorno) هو أحد أهم أعضاء مدرسة فرانكفورت (تأسست في ١٩٢٣) وهو يتبنى وجهة نظر مختلفة تماماً في مواجهة جماليات هيجل ولعل أحد أهم براهينه الرئيسية يخص إمكانية اختزال الفن (الأدب) إلى فكر مفهومي فلسفي، لاهوتي أو علمي. ففي رأيه أنه من المستحيل التوصل إلى معادلات مفهومية لإنتاج أدبي ما. وهو يختلف تماماً مع جولدمان فيما يزعمه من أن كل نص أدبي، متخذاً ككلية متجانسة، يمكن اختزاله إلى نظام مفهومي (إلى "رؤية للعالم").

إذا عممنا يمكن أن نقول إن أدورنو T.W. Adorno « يُعرّف الأدب على أنه نفي يتسم بمقاومته للأيديولوجية وللأسطورة وللأسطورة وللأسطورة باختصار. وعند قراءة أدورنو يجب مراعاة أنه ينطلق من الإنتاج الأدبي للنزعة الجمالية Esthétisme وللطبيعة وأنه لا يهتم - إذن - إلا بالأدب النقدي (لما لارميه وچورچ وكافكا وبيكيت) والذي يسعى، بوعي في كثير من الأحيان، (وخاصة ما لارميه وچورچ) إلى التخلص من قوالب اللغة الاتصالية: من لغة الأيديولوجية والتجارة.

كيف نشرح هذه المقاومة للنص الأدبي النقدي للاتصال؟ - إن وجود عناصر إيمائية mimétique لمفهومية داخل النص يضعف من وظيفته

الاتصالية (" وظيفته كعملة سهلة وممثلة حسب تصور ما لارميه) وتؤدي إلى انفصال لا رجعة فيه بين التخيل والأيدولوجية.

إن مؤيدي النظرية الماركسية للأدب نادراً ما يلاحظون هذه القطيعة، وفي رأى أدورنو فإن هيجل أيضاً لم يلاحظ ذلك ، مما يفسر لماذا تمكن من أن يلعب دور الرائد لجماليات يحكمها قانون خارجي *hétéronome* مثلما تم تطويرها على يد ماركسيين مثل لوكاتش : " اعتبر هيجل الروح فى الفن كدرجة من درجات طريقتها فى الظهور ، قابلة للاستنباط انطلاقاً من نظام، وبسيطة بمعنى ما فى جميع الأنواع ، وممكنة فى كل عمل فنى على حساب الصفة الجمالية للازدواج ("Vieldeutigkeit") (أدورنو ١٩٧٤ : ١٢٦).

ونستخلص من نقد أدورنو أن قناعة الجماليات الماركسية لخضوع الأدب لعوامل خارجية (اختزاليته *réductionisme*) لا ترجع فقط إلى فرضية الالتزام السياسى ، بل ربما على الأخص لفكرة نجدها لدى هيجل ولوكاتش وجولدمان تلك التى تقول إن الأعمال يمكن ترجمتها إلى أنساق مفهومية متجانسة . وعلى العكس يرفض أدورنو أولوية المفهوم فى الفن لكى يبرز اللحظات غير المفهومية ، غير الاتصالية الإيمائية للغة التخيلية { أو الأدبية } أى فى لغة علم العلامة (السيموطيقا) : فإنه يصر على دور الدوال *Signifiants* المتعددة المعانى *polysémiques* على حساب المدلولات *Sig-nifiés* والمفاهيم وهو يتبع فى هذه النقطة الشكليين الروس ومنظرى دائرة *Cercle du Prague* وبخاصة موكاروفسكى (*Jan Mukarovsky*).

ويتعارض الأدب النقدى (الخاص بالطليعة مثلاً) بوصفه لغة التباسية وغير اتصالية ، مع الاتصال الاجتماعى وأهدافه النفعية، وينطوى هذا النقد على مظهرين. فهو أولاً لا يتفق مع مبدأ السيطرة ("Herrschaftsprinzip") (أدورنو، هوركهايمر) الذى يمكن أن يتخذ شكل المناورة الأيدولوجية. وثانياً إنه يرفض فرضية المنفعة الكامنة خلف الاتصال الخاضع للسوق ويميل إلى أن ينأى بنفسه عن قانون السوق وعن التوسط *Médiation* عبر قيمة التبادل (انظر الفصل الأول ، ٤ ط).

لقد حاول هوركهايمر وأدورنو أن يوضحا في كتابهما جدلية العقل la Dialectique de la raison (أمستردام ، ١٩٤٧) أن معظم أشكال الفكر الفلسفى التى وجدت منذ عصر التنوير ، هى أدوات للسيطرة ولما يسميه ماركوز " مبدأ الكفاءة " (" Performance Principle ") . إنه فكر يسعى إلى الفعالية التقنية التى تصنف وتحسب وتقيس ، للتمكن من حبس الواقع فى نسق معين .

ويحابى هذا الفكر سيطرة الإنسان على الطبيعة المتحولة إلى مادة خام ، وتتخذ أهمية أكثر فأكثر فى الفلسفة وفى العلوم الاجتماعية المعاصرة الموجهة للفعالية التقنية والمرتبطة فى كثير من الأحيان بالمصالح العظمى للصناعة والتجارة .

ويؤكد كل من أدورنو وهوركهايمر (بحق فيما أعتقد) أن هذا الفكر الذى يسميانه أدواتياً ، (" Instrumentelle Vernunft ") ينقلب ضد من يفكر فى استخدامه للسيادة: ضد الإنسان بوصفه ذاتا مهيمنة ومؤلفاً لخطاب عقلانى ، نسقى . إذ إنه ينغمس فى نظام يدور فيه كل شىء حول الفعالية وهو ما تواكب فيه سيطرة الإنسان على الطبيعة استغلال الإنسان للإنسان .

إن النظريات ومفاهيمها لا يتم إذن الحكم عليها إلا بالنظر إلى فائدتها التقنية ، أما محتواها النقدي وأهميتها بالنسبة للسعادة وللتناسل الإنسانية ، فلا تؤخذ فى الاعتبار لدى فكر ينادى بالعلوم الدقيقة وبنجاحه (Habermas, La Technique et la science comme idéologie, Paris, 1973) ولكن أدورنو يعتقد أنه من الممكن منح النظرية توجهاً جديداً إذا اهتمنا بالبعد الإيمائى للفن : " فى الأعمال الفنية ، لم تعد تظهر الروح على شكل العداوة القديمة للطبيعة ، إنها تهدىء من نفسها إلى أن تتصلح " . (أدورنو ، ١٩٧٤ ، ١٨١) .

كيف يجب أن نفهم هذه الجملة الواردة فى كتاب " النظرية الجمالية " ، إنها تعنى أن الأدب والفن بفضل جوهرهما الإيمائى غير المفهومى يتبنيان

موقفاً آخر في مواجهة الواقع ، غير الفكر المفهومى : موقف غير مسيطر ،
مصالح ، يتسم بغيبية أى خطاب نسقى وتصنيفى .

(إنه من المهم استنتاج أن النقد الأدورنى للعقلانية يلتقى فى بعض
النقاط مع النقد الذى يوجهه دريدا J. Derrida إلى " مركزية العقل " "
Logocentrisme فى الفلسفة الأوروبية .

(J . Derrida , L'Écriture et la différence , Paris , 1967)

ويستنتج أدورنو أن النظرية النقدية التى ترفض أن تخدم الأهداف
الخارجية للأيدولوجية وللسيطرة يجب أن تمتص اللحظات غير المفهومية ،
الإيمائية للأدب .

أن النقد التأملى (critique essayiste) الذى مارسه أدورنو
ومحاولته للتفكير فى نماذج وكذلك البنية المتوازية paratactique وغير المرتبة
فى نسق تراتبى (non hypotactique , non hiérarchique) لنظريته
الجمالية، كل هذا يشهد على جهوده من أجل مصالح مبدأ إيمائية الفن
principe mimétique de l' art مع البناء المنطقى والمفهومى للنظرية .

٢ - إن المظهر الأداة للنظرية لا يمكن فصله عن النفعية التى تسود مجتمع
السوق. والتواجد الضئيل للغاية لعلم اجتماع الأدب والفن فى كليات علم
الاجتماع ومعاهده يرجع إلى كونه لا يفيد الاقتصاد وإدارة الدولة.

إن النظريات التى لديها إمكانية كبيرة للازدهار هى تلك التى ليس
هناك أدنى شك فى منفعتها .

إن أدب الطليعة، يميل إلى إضعاف الوظيفة المفهومية المرجعية للغة
مع تفضيل المدلول المتعدد المعانى signifiant polysémique والقابل
للشرح، فهو ينتحى جانباً خارج نظام الاتصال المحكوم بقوانين السوق.
وحسب رأى أدورنو فإنه يختار أن يكون غير ذى نفع فى مجتمع تسوده قيمة
التبادل . وبفضل غموضه يكون شعر الطليعة (مالارميه، ريمبو أو سلان)

متعارضاً مع الفكر الأداتي (التسويقي أو الأيديولوجي) وباختصار مع الاتصال.

إذن تتخذ مقاومة الفن للفكر الأداتي النافع، في جماليات أدورنو، مظهرين: إنها رفض للأيديولوجية وفي الوقت نفسه رفض لقيمة التبادل التي يعبر عنها الاتصال التجري.

هذان المظهران للرفض النقدي ، للنفي الجمالي يلعبان دوراً هاماً في شروح أدورنو للأشعار التي سوف نتناولها في الفصل التالي. إن الالتباس وصفة الوحشية للشعر النقدي يفصلانه في آن واحد عن المناورة الأيديولوجية وعن الاتصال التجري. ويعتقد أدورنو أن محتواه للحقيقة -Wah (" rheitsgehalt يكمن في تمايزه (Nichtidentität) ونفيه للقوالب الأيديولوجية وقوانين السوق.

ه - النقد والأيديولوجية عند ماشرى

وقد رفض بيير ماشرى مثل أدورنو أن يعتبر النص الأدبي كلاً متجانساً وتعبيراً عن رؤية للعالم (جولدمان) أو عن أيديولوجية ، ومثله مثل أدورنو، فهو يعارض الجماليات التقليدية لهيجل التي تؤكد على اتساق العمل ووحدة دلالاته monosémie. لقد كتب مع باليبار: " مايجب البحث عنه في النصوص ليس علامات لتمامسكها ولكن دلالات التناقض المادي (المحدد تاريخياً) الذي أنتج هذه النصوص والذي يظهر فيها شكل صراعات تُحل بشكل متفاوت" (باليبار وماشرى ١٩٧٤ ، ٣٧).

بالنسبة لماشرى وباليبار الألتوسريين فإن مفهوم "العمل" نفسه (الذي نجد في مقابله " الكاتب ") يُشكل جزءاً من " الأيديولوجية الأدبية " التي يجب كشف النقاب عنها كأداة لسيطرة البورجوازية.

بعيداً عن التعبير عن أيديولوجية متسقة (تخص البورجوازية مثلاً)، فإن النص يظهر رغماً عنه ورغم نوايا الكاتب ، التناقضات الأيديولوجية التي لا يمكن حلها في الواقع الاجتماعي . فهو لا يمثل الأيديولوجية ولكنه يعرض

لها مع إظهار تناقضاتها وفجواتها: " من هنا كانت فكرة أن النص الأدبي ليس تعبيراً عن الأيديولوجية (" صياغتها في كلمات ") بقدر ما هو إخراج لها mise en scène وعرض لها في عملية تنقلب فيها الأيديولوجية بشكل ما ضد نفسها { ... } " (باليبار وما شرى، ١٩٧٤ : ٣٩).

أسوة بالنظرية الماركسية ولكن على مستوى آخر وبوسائل أخرى يظهر النص الأدبي إذن حدود الأيديولوجية ويسمح للقارئ (الناقد) بتجاوزها وتأملها " من الخارج " . في هذه الحالة فإن الأيديولوجية تكف عن الظهور على أنها طبيعية ومنتفة مع ذاتها : " إنها تظهر عرضيتها وتاريخيتها Historicité . هذه الآثار للنص الأدبي لا توجد إلا في وعي القارئ الناقد (الألتوسيري ؟) لأن البعد النقدي للنص حسب رأى ماشرى لا يرجع إلى بنية المؤلف بل إلى كونه يعبر عن " الحقيقة " (تناقضات الأيديولوجية) دون أن يعنى ذلك .

وفيما يخص بلزاك فإن ماشرى يلاحظ في كتابه : " من أجل نظرية للإنتاج الأدبي " Pour une Théorie de la Production littéraire " إن عمل بلزاك أفضل نموذج يمثل الاضطرار الذي يجد الكاتب نفسه فيه : إنه لكى يقول شيئاً يجب أن يقول أشياء أخرى في نفس الوقت » (ماشرى، ١٩٦٦ : ٢٠٦) .

في روايته " الفلاحين " لا يعنى بلزاك بالمرّة نقد الأيديولوجية البورجوازية الصاعدة بل أنه يسعى (من وجهة نظر ماشرى) لإثبات أن فلاحى إقليم «مورقان» يشكلون خطراً على النظام الاجتماعى إلا إنه يثبت فى الواقع دون أن تكون لديه النية على ذلك ، أن طبقة الفلاحين فى طريقها إلى الزوال وأن السبب الرئيسى لاختفائها هو انطلاق الرأسمالية البورجوازية (انظر الفصل الثالث ، ٤ ، ب) .

ومع قبول فكرة ماشرى أن النص الأدبي هو بنية غير متجانسة

ومتناقضة ، يبدو من الضروري تقديم بعض الملاحظات النقدية للمدخل الألتوسيرى فى نظرية الأدب:

١ - عن طريق إعادة إنتاج فكرة الألتوسير بدون تحفظ (والتي يدين بها للاكان) والقاتلة بأنه يجب وضع الأيديولوجية فى اللاوعى وأن الفرد (الكاتب) يتقبل بشكل غير واع بعض الافتراضات الأيديولوجية ، لايرى ماشرى أن التطبيق الأدبى يمكنه أن يكون ، وأنه كثيراً ماكان ، نقداً واعياً للخطاب الأيديولوجي ، وقد كان كذلك لدى بلزاك الذى قدم للقارىء نقداً مفصلاً - وواعياً تماماً - لطبقة النبلاء الشرعية التى حصلت على تعاطفه السياسى . (ونعنى هنا على وجه التحديد ، الجزء الأول " الاجتماعى " تقريباً - من دوقة دولانجيه La Duchesse de Langeais) لذلك كان نقد الأيديولوجية واعياً لدى كتاب مثل موزيل و سارتر وكامو ، حيث يتخذ شكلاً أكثر فطنة عنه لدى بلزاك بوصفه لا يشتمل فقط على " الوقائع التاريخية " ومعانى النص بل أيضاً البنى السردية للنص الذى يبدأ هو نفسه فى التفكير فى تركيبه الخاص ومازقه apories.

٢ - يميل ماشرى ، مثله مثل رينيه باليبار فى " اللغات الفرنسية الأدبية " Les Français fictifs (انظر الفصل الأول ٤ ، أ) إلى اختزال النشاط الأدبى إلى الأيديولوجية مع التأكيد على أنه يشكل جزءاً من " الأجهزة الأيديولوجية للدولة " وانطلاقاً من فكرة أن كل كاتب يستهدف (دون أن يصل لذلك) حل التناقضات الأيديولوجية فى نصه . وفى هذا الشأن فإن تناول أدورنو الذى قدمناه سابقاً ، يبدو لى أكثر دقة : مع الاعتراف بأن النص الأدبى (أشعار ستيفان جورج مثلاً) له مظاهر أيديولوجية وقمعية ، فإنه يعتبره ظاهرة مزدوجة " ambivalent " تؤلف بين عناصر نقدية وعناصر أيديولوجية (تأكيدية).

وفى المقابل نجد عند ماشرى ، أن الأدب هو قبل كل شىء نشاط

أيدولوجى وطموحه للاستقلالية هوعملية مؤسسية فى إطار السيطرة الثقافية البورجوازية. والأدب فى نظر أدورنو هو فى الوقت نفسه "حدث اجتماعى" (من أصل بورجوازى) وعالم مستقل يظهر من خلاله ما وراء النظام الاجتماعى القائم وبعكس الألتوسريين الذين يميلون فى كثير من الأحيان إلى اختزال الفن إلى أصله (" البورجوازى ")، فإن أدورنو يعتبره موازياً للفلسفة الجدلية الحديثة التى، برغم مولدها داخل مؤسسات بورجوازية، يمكن فى كثير من الأحيان اعتبارها نفيًا لهذه المؤسسات .

الفصل الثالث

علم اجتماع الأجناس الأدبية

١ - نظام الأجناس والنظام الاجتماعي

ليس من الغريب أن تهيمن على هذا الميدان النظريات الجدلية (وبعضها لا يمكن وصفه بالماركسية) فمعظمها يرجع أصلاً إلى ميدان الجماليات الهيكلية : حتى تلك التي انتهت، مثل جماليات أدورنو، بالانقلاب ضد هيكل . إن أصل هذه النظريات التاريخية الممتد إلى الهيكلية يعنى، ضمناً، أن هذه النظريات تتجه قبل كل شيء إلى الصفات الجمالية للأعمال، باعتبارها كليات دلالية وليس إلى الوظائف الوثائقية والإشارية *dénotatives* للأدب.

ومن هنا يمكن تعريف علم اجتماع الأدب الجدلي على أنه نقد اجتماعي *Sociocritique* وأسوة بالنقد النفسى لشارل مورون، إنه يسعى إلى إظهار اتساق النص أو وظيفة الأجناس المختلفة ، وهو يختلف عن علم الاجتماع الإمبريقي للأدب من حيث إنه يهتم بتطور الأجناس وبنية العمل الفردي فهو بالتالي يقترب من النقد الأدبي عموماً .

وأول من وضع الخطوط الرئيسية لعلم اجتماع الأجناس كان على الأرجح الماركسى الروسى مدقديف P.N. Medvedev فى أواخر العشرينات، وكان مدقديف ينتمى إلى جماعة ميخائيل باختين فى ليننجراد وقد نشر فى عام ١٩٢٩ (بالاشتراك مع ميخائيل باختين على الأرجح)

مؤلف " حول المنهج الشكلي فى علم الأدب " (Formalniy metod v literaturovedenii,) فى هذا المؤلف الذى يعتبر نقداً للشكلية الروسية ، وضع مدقديف الخطوط العريضة لنظرية اجتماعية لنظام الأجناس. انطلاقاً من فكرة باختين أن كل نص منطوق أو مكتوب لا يمكن فهمه إلا على أنه رد فعل لنصوص أخرى، يؤكد مدقديف أن الأجناس الأدبية يجب أن يضعها عالم الاجتماع داخل سياق حوارى أو اتصالى وحسب رأيه فإن هذا السياق يتسم بالصراعات والحوارات الجدالية بين الأيديولوجية (انظر الفصل الأول، ٤، ط) ويكتسب كل جنس وظيفة اجتماعية خاصة ويتفاعل مع مصالح جماعية تتجلى فى عملية الاتصال.

وقد كتب مدقديف : " إن مستمعى شاعر ، وقراء رواية والجمهور المستمع لحفلة موسيقية هم دائماً أشكال مهمة لتنظيم خاص وتتميز هذه الأشكال بسمات اجتماعية معينة ، ولا توجد بدون هذه الأشكال من التفاعل الاجتماعى قصائد { بالروسية : " Poëma " } ، ولا أناشيد ، ولا روايات، ولا سيمفونيات. تضىف بعض أشكال التفاعل الاجتماعى أهمية خاصة على معنى الأعمال الفنية " (مدقديف ، ١٩٢٩ ، ١٩٧٦ : ١٢). هناك ملاحم ومسرحيات أو أشعار غنائية تظهر لدى مدقديف كأشكال من التفاعل الاجتماعى : كأشكال من الاتصال .

فى موضع آخر من كتابه يذهب مدقديف أبعد من ذلك محاولاً إظهار أن الأجناس المختلفة يمكنها فى مواقف تاريخية خاصة ، التعبير عن رؤى جماعية للعالم . (بالطبع فإن مفهوم " رؤية العالم " الذى يستخدمه مدقديف ليس مرادفاً للمفهوم التأويلى والمثالى "Weltanschauung" الذى أدخله ديلتى W. Dilthey ، فهنا نحن بصدد مفهوم اجتماعى).

وبتعبير آخر فإن الجنس بوصفه " شكلاً " يجسد معنى اجتماعياً محدداً ، مما يسمح باستنتاج أنه فى كوكبة تاريخية معينة حيث تتعارض بعض الجماعات مع جماعات أخرى فإن الأجناس المختلفة يمكن أن تجسد مصالح جماعية متعارضة .

وبعكس علماء فقه اللغة Philologues الذين يعتبرون الأجناس كيانات شكلية خالصة ، فإن مدقديف يتعامل معها كأشكال تعمل داخل نظام الاتصال الاجتماعي كأشكال تسمح للجماعات بتحديد اتجاهها في الواقع ويكتب: "الجنس هو إذن مجموع المناهج لتوجه جماعى فى الواقع، توجه يستهدف الكلية { .. } ولهذا فإن البويطيقا الحقيقية للأجناس لا يمكن أن تكون إلا علم اجتماع الأجناس " (ميدفيدف، ١٩٢٩ ، ١٩٧٦ : ١٧٧) .

إن أجناساً مثل الكوميديا والتراجيديا أو الرواية يتم تعريفها كأساليب لتأمل الواقع . فى هذا السياق يمكن أن نرى فى الملحمة الإقطاعية (La Chanson de Roland) تعبيراً عن قيم نبالة السيف وفى تراجيديا القرن السابع عشر الفرنسى تجسيدا لمشاكل نبلاء البلاط وفى روايات القرن الثامن عشر تمثيلاً للفردية البورجوازية .

إن أفكار مدقديف لم تفقد شيئاً من معاصرتها . حيث تبدو لى بعض المحاولات المعاصرة لتشكيل نظرية اجتماعية للأجناس أقل واقعية بكثير وأقل إقناعاً .

ريموند ويليمز Raymond Williams مثلاً كان على حق تماماً حين نبهنا فى (1977) Marxism and Literature أنه هناك بالطبع استمراريات للأشكال الأدبية تتجاوز المجتمعات والعصور التى تقيم معها علاقات من هذا النوع. وفى نظرية الأجناس يتوقف كل شىء على صفة وتطور هذه الاستمراريات " (ويليمز ، ١٩٧٧ : ١٨٣) .

وبخلاف مدقديف لا يسعى ويليمز إلى إرساء علاقات وظيفية بين الأجناس والمصالح الجماعية : إن مدخله المبهم جداً فى رأى لىس ، فى مجال الأنواع ، إلا توفيقية بين فرضيات شكلية وأخرى ماركسية .

إن المدخل النظرى الذى طوره إريك كوهلر (Erich Kohler) فى ألمانيا يبدو لى أكثر تماسكاً وأكثر تفصيلاً ، فى كثير من الأوجه . أكمل كوهلر فى أكثر من موضع اجتهادات مدقديف ليفسر تحول الأجناس على

المستوى الاجتماعى والوظيفى ، وما يميزه عن مدقديف هو المنظور النسقى Perspective systématique الذى يرى من خلاله تطور الأجناس فى دراسة عنوانها " نظام الأجناس ونظام المجتمع " (Gattungssystem und Gesellschaftssystem, (1977) وقد سعى لتطبيق نظرية النظم الاجتماعىة التى شكلها نيكلاس لوهمان Niklas Luhmann على تاريخ الأدب .

كان هدف كوهلر الأساسى هو الترابط الوظيفى بين النظام الاجتماعى والنظام الأدبى (نظام الأجناس) . إن السؤال وراء عمل كوهلر هو التالى : كيف يتم تعريف وظيفة الجنس الأدبى فى قلب نظام الأجناس وكيف نوضح تطور النظام الأدبى (بوصفه نظاماً ثقافياً فرعياً) داخل النظام الاجتماعى ؟

وكوهلر إذ يطرح هذا السؤال يفترض استقلالية نظام الأجناس الذى يخضع لقوانين لا تختزل لتلك (الاقتصادية والاجتماعية) الخاصة بالنظام الشامل . إن وضع النظامين فى ترابط ، لا يمكن تحقيقه إلا إذا أخذنا فى الاعتبار هذه الاستقلالية .

ولقد استخدم كوهلر من أجل وصف العلاقات الوظيفية فى قلب هذين النظامين النظرية التى قدمها لوهمان Luhmann فى " مفهوم الواقع وعقلانية النظام " (Zweckbegriff und Systemrationalität 1973) أحد المظاهر الهامة لهذه النظرية هى فكرة أن كل نظام (بوصفه نموذجاً للواقع) هو أداة جماعية خلقت لشرح الواقع وللسيطرة عليه . يرى لوهمان أن النظام بوصفه نموذجاً فمن وظيفته اختزال تعقد العالم الإمبريقى لجعل توجهه وفعل جماعى ما أو فرد ما ممكناً .

وفى إطار هذا المنظور تظهر أجناس العصور التاريخية المختلفة كمحاولات جماعية لحل المشاكل الاجتماعية ، من أجل التعرف على الاتجاه فى واقع متغير ولتعلييل بعض المواقف والأفعال على المستوى الثقافى .

وهكذا فإن الملحمة الإقطاعية تبرر بعض المعايير والقيم والمواقف لنبالة السيف في مواجهة بعض التجمعات الأخرى في المجتمع ومحاولات إنقاذ الملحمة (في إطار بويطيقا معيارية Poétique Perscriptive) بالدفاع عنها ضد أشكال أدبية أخرى ، تحركها المصالح الجماعية للنبالة .

ويمكن أن نستخلص هنا ارتباطاً بين كوهلر وتناول مدقديف . فكل منهما ينطلق من فكرة أن الجنس هو واقعة أيديولوجية وأن أى شكل من الأجناس (الملحمة و التراجيديا و الكوميديا) يحرض القارئ على تبني وجهة نظر ورؤية للواقع تتمشى مع مصالح جماعية معينة . كيف يكون رد فعل نظام الأجناس إزاء التحولات الاجتماعية ؟ قد تخترع تقنيات جديدة (مثل فن الطباعة) ، ويتغير التنظيم الاقتصادي وتخضع العلاقات الاجتماعية لتحولات متفاوتة الأهمية . ويوصفه نظاماً مستقلاً فإن العالم الأدبي يتفاعل مع التغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

ويجب عليه أن يتفاعل ويتأقلم حتى لا يفنى ويسمى لوهمان هذا الاضطرار للتأقلم "Anpassungsdruck" (انظر بهذا الشأن مؤلفه، Zweckbegriff und Systemrationalität ، فرانكفورت ١٩٧٣ : ٢٩٤ { ... } تأقلم النظم المركبة مع تحولات بيئتها)

نظام الأجناس ليس إذن " سلبياً " فهو لا يعكس بشكل آلى الأحداث الاجتماعية أو الاقتصادية بل يتأقلم مع الوضع الجديد بفضل عمليات اختيار: بانتقاء بعض الخيارات التي يحتوى عليها هو نفسه . هكذا فهو يستبدل تدريجياً التراجيديا بالملحمة كرد فعل لتحول نبالة السيف إلى نبالة البلاط تحت الحكم المطلق. وقد قدم كوهلر مثلاً آخر لازدهار الرواية فى القرن السابع عشر خاصة القرن الثامن عشر: فى عصر اتسم بالصعود الاقتصادي والسياسى للبورجوازية. (هذه الفكرة فى حد ذاتها، ليست جديدة: فى أوروبا الوسطى ، قدم چورچ لوكاتش قبل كوهلر بكثير، تحليلات تفصلية للعلاقة بين البورجوازية والرواية ، وفى بريطانيا العظمى أرسى Ian Watt روابط بين نجاح روايات فيلدنج وريتشاردسون والانجذاب إلى الحياة

الخاصة للبورجوازية الصاعدة . وأهمية المدخل الذى وضع خطوطه كوهلر يكمن فى أنه يسعى للمرة الأولى إلى شرح التطور الأدبى فى إطار نظرية النظم- Richard (Watt, The Rise of the Novel, Studies in Defoe , son and Fielding, لندن، ١٩٥٧). كيف نفهم التغيرات داخل النظام ؟ يمكن وصفها كتحويلات وظيفية نتجت عن تغيرات اجتماعية . وبعض الظواهر الهامشية للنظام يمكن ان تنتقل إلى المركز بينما تستبعد ظواهر سائدة إلى المحيط . لكى يوضح تمييزه بين الظواهر الهامشية السائدة ، يحلل كوهلر تطور الملحمة فى العصور الوسطى والتي يعتبرها السائدة فى نظام الأجناس حتى القرن السابع عشر ، وعقب التحولات الاجتماعية التي ذكرناها سابقاً فإنها تنتهى بأن تستبدل بالتراجيديا ، التراجيكوميديا والرواية : إن مآثر نبالة السيف التي يشيد بها هذا الجنس الأدبى تفقد وظيفتها فى مجتمع ما بعد الإقطاع ويسجل نظام الأجناس هذا التغير عن طريق خلع الملحمة عن مقامها .

إن التراجيديا ، السائدة الجديدة ، تتفق مع إرساء الحكم المطلق تحت حكم لويس الرابع عشر ومع تطلعات نبالة البلاط التي حلت محل نبالة السيف القديمة . وأثناء انحدار الحكم المطلق الذي استتبع سقوط البلاط بوصفه النواة الثقافية للمجتمع الفرنسى ، ظهرت البورجوازية كقوة ثقافية جديدة مسئولة عن فكر التنوير وعن " الجدل بين القدماء والمحدثين " . وبشكل مواز فإن الكوميديا استبدلت بالتراجيديا وبعد ذلك الرواية .

ويستعرض كوهلر فى دراسته ، التحولات التي يمكن عن طريقها لنظام الأجناس أن يتأثر بالتغيرات الاجتماعية . ويمكن تلخيص هذه البراهين على الوجه التالى :

١ - تزداد قدرة الأنواع الفردية مما يسمح لها ، على الأقل جزئياً ، بملء وظائف الأنواع التي تسقط فى طى الإهمال وأن تتفاعل مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة .

٢ - يتكون نوع جديد يتفق شكله وموضوعاته مع تطورات جماعة اجتماعية جديدة أو مع وضع جديد لجماعة كانت موجودة وتسعى للتحرر .

٣ - يمكن لأشكال هجينة (مثل التراجيكوميديا) أن تظهر في فترة انتقالية ، حيث تسمح بإنقاذ التوازن داخل نظام نوعي مهدد من قبل التقلبات الاجتماعية .

٤ - يمكن دحض النظام بأكمله مثلما حدث في بداية عصر النهضة ولكن عموماً التحولات التدريجية أكثر من التبدلات التي ترجع في كثير من الأحيان إلى إرساء نظام جديد " مستورد " (E . Kohler ، ١٩٧٧ : ١٨) .

وعلى الرغم من أن النظريات الاجتماعية للدراما وللنص الغنائي وللقصيدة القصيرة والرواية التي أنوى عرضها والتعليق عليها في هذا الفصل لم يتم استنباطها من دراسات الأجناس *approches génériques* لمؤلفيها وكوهلر، إلا أن هذه الدراسات يمكن اعتبارها على الأقل مقدمات لما هو آت. هكذا فإن الفكرة التي قدمها أدورنو عن أن مسرح بيكيت يتفاعل مع التشيؤ الاجتماعي والمحاكاة الساخرة للمقولات المسرحية التقليدية ، هذه الفكرة يمكن تجسيدها في إطار نظرية كوهلر عن نظام الأجناس : في ظل وضع تختزل فيه الحرية الفردية بشكل واضح بفعل قيود اقتصادية واجتماعية ، ويصبح مفهوم " البطل الدرامي " مشكلة. ومن أجل توضيح علم اجتماع الأجناس بالأمثلة أود أن أقدم واحد من آخر تحليلات إريك كوهلر فهو بوصفه متخصصاً في تاريخ القرون الوسطى ، كان أفضل من استطاع توضيح وظيفة الأجناس في المجتمع الإقطاعي .

في دراسة تفصيلية لأغنية من أغاني "الكانتزو" (Canzo) من القرن الثاني عشر لبرنار دي فنتادور Bernart de Ventadour يتساءل حول الوظيفة التي يقوم بها هذا النوع الأدبي في مجتمع النبلاء في ذلك العصر . هذه التحليلات لا تستهدف مباشرة الأيديولوجية أو رؤية العالم التي تعبر عنها أغنية التروبادور *La chanson des troubadours* ولكن وظيفة "الكانتزو" في النظام الاتصالي للنبالة .

يتسم هذا النظام بعدم توازن شديد بين النبالة القديمة القوية وبين طبقة فرسان جديدة الـ (Joven) التي لا تتفق طموحاتها مع إمكانياتها الواقعية وسلطتها السياسية ومن ثم نجد التروبادور الذي يجعل نفسه الناطق بلسان الفرسان سعياً إلى إزالة الفجوة بين الرغبة والواقع، ويمدح الجدارة وروح النبالة لدى الشباب الفرسان من أجل تبرير طموحاتهم الاجتماعية والثقافية في عيون الأرسقراطية القائمة: إنه ينادى بإدراجهم في مجتمع النبلاء ويسعى إلى إضفاء الشرعية على " حراك اجتماع " (Social Mobil-ity) ترفضه الجماعات السائدة . ولكي يحقق هدفه فإنه يستخدم " الكانتزو":

١ - إن التروبادور يجعل من نفسه الناطق بلسان الفرسان Joven تلك الجماعة الطموحة والتي تتشابه في عقليتها الاجتماعية النفسية مع الهامشين.

٢ - إن الجمهور الذي يتوجه إليه خطابه الغنائى ليس متجانساً إلا بمقدار ما يولد الترابط بين النبالة القديمة القوية والفروسية الجديدة مجتمعاً من المصالح الجزئية يضيف قاسماً أخلاقياً وجمالياً مشتركاً إلى الخصومة الاجتماعية الأساسية دون أن يمحيها.

٣ - ومن نتائج ضرورة التجانس المفروض بفعل هذه الكوكبة أن يتخذ الكانتزو- وهو يعبر عن المصالحة تعبيراً ممتازاً - الشكل السائد فى قلب نظام الأجناس لشعر التروبادور ، وفى انتقالها إلى مستوى " المفارقة العاطفية " فإنها تحتفى فى نفس الوقت بالصعود الاجتماعى بوصفه مكافأة مستحقة وبروح الرفض بوصفه برهان النبالة (كوهلر ، ١٩٨١ : ٤٦٣) .

إن أهمية تحليل كوهلر لا تكمن فقط فى توضيحه للوظيفة الاجتماعية والاقتصادية والاتصالية لنوع أدبى ما بل أيضاً فى إظهار إلى أى حد يمكن لمشكلة اجتماعية (الاندراج التخيلى أو المتنبأ للفرسان) أن تتسامى وتتحول إلى مشككة تخيلية أدبية. وهذا التحول هو أحد الموضوعات الأساسية لعلم اجتماع الأدب.

إن الذين لا يهتمون كثيراً بأدب العصور الوسطى ويتوجهون بالأحرى إلى الفن الحديث ، وحتى إلى فن الطليعة هم على حق في اعتقادهم أن سوسولوجيا الأجناس لم يعد من الممكن تطبيقها على ظواهر الأدب المعاصرة : أولاً لأن كتاب الطليعة سعوا دائماً إلى الانفلات من الحدود التي فرضتها الأجناس المقننة : أية وظيفة نوليها لقصة "نادجا" (Nadja) في إطار نظام أجناس من الممكن أن يكون غير موجود ؟ كيف نعرف "الفجر" (Point du Jour) في إطار نفس المنظور ؟ كيف نصنف أعمال أدبية من أمثال "أوبرا بوف" (Opéra Bouffe) لموريس روش أو (H) لفليب سولرز دون السقوط في التعسفي؟ ثم إنه يجب مراعاة التطور الأدبي الذي فقد خلاله تعريف الجنس نفسه تجانسه .

ومن أفضل الأمثلة الرواية : الذي تم تطبيقه على نصوص متعارضة - من وجهة النظر التاريخية والبنوية - مثل " دون كихوت " لسرفنتيس والبحث لبروست وطوبولوجيا المدينة الشبح لروب جرييه "Topologie d'une cité" Robbe - Grillet " fantôme " ان كلمة رواية لم تعد مفهوماً إجرائياً إذا استخدمناه بمعنى عام جداً وحتى إذا تحدثنا، بشكل أدق ، عن رواية حديثة أو معاصرة ، تظل هناك بعض الصعوبات : هل هناك بالفعل قاسم مشترك بين الغثيان La Nausée لسارتر والمتلصص Le Voyeur لآلان جرييه ؟ وسنرى كيف أن علم اجتماع النص يستخدم تعريف الرواية كعنصر موجه heuristique فحسب، تحسباً لاكتشاف اختلافات هامة تشكك في مفاهيمه.

٢ - علم اجتماع المسرح

إن مفهوم النوع يبدو خصباً بشكل خاص حين يطبق في إطار تاريخ للأدب، على نصوص نبعت من مجتمع مستقر نسبياً (من مجتمع إقطاعي أو ريفي) تحتل فيه كل جماعة وضعاً محدداً قَلَّ أو جَلَّ. على الرغم من التحولات الهامة التي تطرأ على المجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر، فإن عالم اجتماع مثل لوسيان جولدمان يمكنه في دراسته لمسرح هذا المجتمع، أن ينطلق من الفكرة القائلة إنه يمكن ربط الأعمال المسرحية بقضايا

ومصالح معينة ، محددة بوضوح وإن بعض الأجناس الأدبية تتفق (كما فى تحليل كوهلر) مع مصالح جماعية . وتستحيل مطابقة كهذه فى المجتمع الحديث المتسم بالحركة الاجتماعية والتغير السريع للقيم الثقافية .

ويمكننا تمييز تيارات عديدة فى مجال علم اجتماع الدراما اخترت من ضمنها ثلاثة تيارات تبدو لى على درجة خاصة من الأهمية : المدخل الدوركهايمى لجان دوفينييو ، والبنىوية الماركسية التوليدية للوسيان جولدمان والنظرية النقدية لتيودور أدورنو وليو لوفنتال .

أ - الدراما واللامعيارية: علم اجتماع المسرح لجان دوفينييو

على عكس ممثلى علم اجتماع الأدب الماركسى فإن دوفينييو لا يتساءل حول العلاقات بين الأعمال الدرامية والوعى الطبقي فهو يعتبر الدراما نوعاً من الميزان الثقافى الذى يسجل أزمة القيم والمعايير لعصر معين . ليست الدراما النوع السائد للقرن الذهبى Siglo de Oro أو للعصر الإليزابيثى فى إنجلترا لأنها " تعكس " أو " تمثل " المعايير والعادات السائدة بل لأنها تظهر فضائح الخلاف مع الأخلاق الرسمية .

إن أبطال شكسبير ولوبى دى فيجا Lope de Vega وكالديرون دى لباركا Calderón de la Barca هم أفراد هامشيون أو مجرمون ليس لهم أدنى قاسم مشترك مع أبطال أدب العصور الوسطى . " إنهم جمعياً غرباء عن المعايير المقبولة إما لعدم إمكانهم الاستمرار فى الالتزام بها أو أنها تبدو لهم عبثية أو وهمية . جمعياً شخصيات لا نمطية Atypique وznادقة " (دوفينييو، ١٩٧٣ : ١٧٠) .

كيف يمكن تفسير أن معظم الأبطال الذين يجسدهم كتاب الدراما فى عصر النهضة هم مجرمون : خونة ، قتلة أو مجانين ؟ يعتقد دوفينييو أنه من الواجب شرح أعمال ذلك العصر الدرامية على ضوء وعى جماعى مريض (انظر الفصل الأول ، ٤ ، ب) نظامه القيمى فى طريقه إلى الانهيار . كتب دوفينييو يقول: " ألا يجب أن نعكس الموقف المأخوذ به عموماً القائل إن هذه

الفترة هي فترة ظهور تشخيص الفرد individuation لنقرأ في هذه الفردية دليلاً على وعى جماعى مريض يسعى عن طريق الشخصيات اللانمطية atypique لمواجهة الجديد؟ وألا يجب معرفة كيف ولماذا اخترع الناس مسرحاً يدور حول الشخصيات المدانة من المجتمع التي ربما تكتسب جاذبيتها بسبب هذه اللعنة ذاتها { ... } " (دوقينيو ، ١٩٧٣ : ١٧٠) .

ويبحث دوقينيو عن إجابة هذه الأسئلة في إطار الرؤية النظرية التي أطلقها إميل دوركهايم والتي قدمنا خطوطها العريضة في الفصل الأول. إن الأبطال المجرمين الهامشيين الذين فتن بهم جمهور شكسبير، لوبى أو كالديرون والخارقين لبعض المعايير الجماعية ، والنافين للقيم الاجتماعية الراسخة تتم معاقبتهم في مجرى الحدث الدرامى على مرأى من المشاهدين بوصفهم ممثلين للمجتمع .

مثلاً يحدث في الأحداث أو الطقوس القضائية ، حيث يدان " المذنب " علناً ، فى " المجتمع " ، بهدف تقوية الوعى الجماعى حسب نظرية دوركهايم عن طريق فرض - وفق بعض المعايير - عقاب نموذجى على فرد معين ، فى هذا السياق فإن الدراما تساهم إذن فى إرساء النظام القائم بجعل القيم الرسمية أقل التباساً .

وفى النهاية يؤكد موت "تامرلان" لدى مارلو Marlowe أو موت "هاملت" لدى شكسبير هذه القيم . نستخلص إذن أنه دون تبنى وجهة النظر الوظيفية لدى مدقديف أو كوهلر ، فإن دوقينيو يطور بعضاً من أطروحاتهم، وهو يعتقد مثلهم أن الدراما بوصفها " رؤية للعالم " ، بوصفها مفهوماً للواقع، يمكن أن تفيد فى توجيه الواقع والفعل الجماعى (مدقديف) وأنها فى الوقت نفسه قادرة على تقديم إجابات عن بعض المشاكل الاجتماعية (كوهلر) .

ولكن كيف نشرح ضرورة تعزيز المعايير والقيم ؟ لماذا تتوجه دراما النهضة إلى الفرد الهامشى (المجرم) الذى ينفى القيم المعمول بها ؟

يسعى دوقينيو إلى الإجابة على هذه الأسئلة فى أحد فصول كتابه الذى عنوانه " المسرح واللامعيارية " Théâtre et anomie ويستخلص أنه فى

مسرح العصر الذهبى كما فى مسرحيات العصر الإليزابيثى نكون أمام ظواهر تجسد غير المسمى للنظام الاجتماعى (انظر الفصل الأول ، ٤ ، ب). ويشرح الوضع المركزى للمجرم فى المسرح على ضوء مفهوم غير المسمى: "فى هذا الوضع بالذات علامة غير المسمى ، فى هذا التعاطف مع الشخصية المجرمة وهو علامة على انحراف فى المجتمع بأسره" (دوقينيو ، ١٩٧٣ : ١٩٢).

إن مسرح النهضة الإسبانى أو الإنجليزى لا " يعكس " إذن المعايير والقيم الرسمية ولكنه على النقيض من ذلك: يظهر مخاطر أزمة اجتماعية على وشك أن تتسبب فى انفجار الإطار المعيارى للحياة الفردية والجماعية. فى نفس الوقت فإن تجسيد Mise en scène الفعل الإجرامى له وظيفة خاصة بالنسبة للوعى الجماعى ، فالبطل الضد Antihéros الذى يرمز للأزمة الاجتماعية، هو بالتحديد الذى يؤدى إلى تضامن المشاهدين الذين هم فى الوقت نفسه مفتنون بالجريمة ومذعورون من العقاب الأقصى. بتعبير آخر: العقوبات التى يتلقاها الأبطال تساهم فى تقوية الوعى المعيارى لدى الجمهور.

ولكن كيف نشرح تصوير اللامعيارية (أزمة القيم الثقافية) داخل سياق اجتماعى وتاريخى؟ أسوة بدوركهايم فإن دوقينيو ينطلق من فكرة أن التضامن الاجتماعى، فى مجتمع تسوده الفردية، يضعف بالتدرج بفعل تقسيم العمل الذى يؤدى إلى التحول من تضامن ميكانيكى (آلى) إلى تضامن عضوى أو وظيفى . (انظر الفصل الأول ، ٤ ، ت).

ويسعى دوقينيو لإظهار اللامعيارية كما جسدها الكتاب الإنجليز والإسبان فى عصر النهضة فى علاقتها بالتحول من التضامن الآلى إلى التضامن العضوى، فيقول : " إن الكتاب على حد سواء فى حياتهم أو فى إبداعهم يتحملون عبء الرقابة { ... } وهى لم تعد تناسب مجتمعاً يقل تجانسه وتتغير فيه أبسط العلاقات الإنسانية تغييراً جذرياً بفعل التقسيم المتزايد

للمهام". (دوقينييو، ١٩٧٣ : ١٩٤) . تقسيم العمل يفسر إذن، بوصفه السبب الرئيسي للامعيارية، الطابع العنيف والإجرامى فى كثير من الأحيان للعالم الدرامى فى عصر النهضة.

إن الدراما مثلها مثل ملحمة العصور الوسطى ومثل الحكايات الخرافية Fabliaux ، يمكنها أن تفقد وظيفتها الثقافية فى وضع اجتماعى متغير وحيث لم تعد تقنيات ولغتها تتفقان مع مصالح الجماعات الاجتماعية المختلفة . ويتساءل دوقينييو فى كتابه " المسرح والمجتمع " Spectacle et société (١٩٧٠) حول مستقبل المسرح فى المجتمع الحديث منطلقاً من الأطروحة الأساسية القائلة إن ثمة اختلافاً كبيراً بين الحدث الدرامى والحدث الاجتماعى : " إن الحدود بين المسرح والحياة الاجتماعية تمر إذن عبر التسامى بالصراعات الواقعية : إن الاحتفاء الدرامى هو احتفاء اجتماعى مؤجل ومعلق . إن الفن الدرامى يدرك أنه يزدهر على هامش الحياة الواقعية " (دوقينييو ، ١٩٧٠ : ٣١).

إن الفن الدرامى له طابع رمزى : إن أحداثه تقلد الأحداث الواقعية، ولكنها فى الوقت نفسه تختلف عنها بوصفها لا تغير من الوضع الاجتماعى: إنها تصوره على المستوى الرمزى بإظهار مشاكله وتناقضاته.

ما الدور الذى يمكن أن يخصصه للدراما المجتمع المعاصر المحكوم بالاتصال الجماهيرى Communication de masse الذى يميل إلى إزالة الحدود بين الواقع والخيال عن طريق إضفاء الطابع الدرامى للأحداث الواقعية التى يمنحها صفة الرمزية ؟

ووفقاً لدوقينييو فإن التليفزيون يُحول مظاهرات الجماهير الانتخابيات والحروب لأحداث مهيبة Spectaculaire بالمعنى الدرامى للكلمة . هذه التقنيات تسمح له بإضفاء بعد تخيلى على الواقع.

ماذا يتبقى من إمكانيات للدراما إزاء تنافس الاتصال المرئى السمعى؟ كانت الدراما فى الماضى تصور بعض المواقف الاجتماعية عن

طريق نقلها إلى المستوى الرمزي. ولكن التليفزيون بإضافته طابع درامى على مشاهد من الحياة اليومية، يجعلنا فى غناء عن العنصر المركزى فى المسرح.

ولهذا فمن غير المستبعد فى رأى دوفينيو احتمال فقدان الدراما لوظيفتها تدريجياً، أو تحويلها إلى ظاهرة هامشية: " { ... } إن التليفزيون، باستحضاره للواقع الفورى، قرب بين الخيالى والحدث تقريباً لا رجعة فيه { ... } . لم يعد من الممكن الآن استبعاد البطل وإقصائه كما حاول بريخت. فيدور العرض على مستوى الحدث ولا أحد يستطيع غض النظر عنه" {دوفينيو ١٩٧٠ : ١٥٩} .

ويبدو لى أن الأعمال النقدية لدوفينيو تحتوى على نقطتى ضعف ترجعان، على الأقل جزئياً، إلى الرؤية الدوركهايمية التى يتبناها فى "الظلال الجماعية" Les ombres collectives : فتركيز دوفينيو على تحليل الوظيفة الاجتماعية للأعمال وعلاقتها بالوعى الجماعى جعله يهمل دورها فى التطور الأدبى وفى نظام الأجناس الذى يعتبره كوهلر الموضوع الرئيسى لعلم اجتماع الأدب . ويبدو بالتالى أنه ارتكب أحد الأخطاء التقليدية لعلم اجتماع الأدب التى تكمن فى إقامة علاقات مباشرة بين النص و "الواقع" الاجتماعى (وهذا ليس فى معظم الحالات إلا أحد التعريفات الممكنة للواقع والنابعة من خطاب سوسولوجى معين) .

ويجوز اتخاذ النظرية الدوركهايمية لتقسيم العمل واللامعيارية كنقطة انطلاق. ويبدو لى على الرغم من ذلك أن هذه النظرية لا يجب تطبيقها كما هى بل يجب وضعها داخل سياق نظرى وتاريخى أوسع، حيث تكمل أعمال ماكس فيبر وكارل ماركس. هكذا فإن تمييز فيبر بين الـ Wertrationalität (التوجه إلى بعض القيم التقليدية) والـ Zweckrationalität ("عقلانية الأهداف": التوجه إلى الفاعلية التقنية) يستكمل ويجسد فى كثير من النواحي التمييز الدوركهايمى بين "التضامن الآلى" و"التضامن العضوى".

وفى النهاية يمكن توضيح رجحان التضامن الوظيفى بربطه بازدهار اقتصاد السوق والتوسط عبر قيمة التبادل التى وصفها ماركس الشاب . إن مفاهيم الاستلاب واللامعيارية ليسا بالطبع مترادفين (لأنهما نبعا من نظريتين متعارضتين جزئياً) ولكنه من الواضح أن تقسيم العمل الذى يعتبره دوركهايم مسئولاً عن غير المسمى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بآليات مجتمع السوق الذى يجذب المنافسة والتخصص : حيث يتبع السوق المتخصصين ، والخبراء (هؤلاء الذين يمتلكون "معرفة كيف" Know how وليس الأفراد المثقفين أو الهواة، أولئك الذين يطلق عليهم ماكس فيبر "رجال الثقافة" Kulturmenschen).

ب - تحولات الفردية : ليولوفنتال

تشكل أزمة الفرد المثقف فى العصر الليبرالى خلفية علم اجتماع الأدب لدى ليولوفنتال Leo Lowenthal . لقد ساهم بصفته عضواً فى معهد البحث الاجتماعى Institut für Sozialforschung "بمدرسة فرانكفورت" مع هوركهايمر وأدورنو فى ازدهار النظرية النقدية للمجتمع: "Kritische Theorie".

إن هذه النظرية النابعة من أزمة الفردية الليبرالية التى ظهرت مع مقدم الفاشية قد اهتمت بإنقاذ تراث التنويريين وتطويره Aufklärung . ويسعى بعض الكتاب أمثال أدورنو وهوركهايمر ولوفنتال عن طريق نقدهم لعقلانية التنويريين وعلى سبيل المثال فى جدلية العقل "Dialectique de la raison" (١٩٤٧ ، باريس ، ١٩٧٤) إلى إنقاذ الاستقلال الفردى : قدرة الفرد على التفكير النقدى، واستقلاله عن الأيديولوجيات وقوانين السوق. وأعتقد أنه من الواجب قراءة كتاب لوفنتال : "الأدب وصورة الإنسان" Lit-erature and the Image of Man (١٩٥٧) فى إطار هذا السياق الاجتماعى والتاريخى، حيث يحلل الكاتب انحدار الفردية فى مسرح العصر الذهبى الإسباني وفى مسرح العصر الكلاسيكى الفرنسى.

إن تفسيرات لوفنتال تذكرنا فى أكثر من موضع بالبراهين التى قدمها ماكس هوركهايمر فى "الملحوظات" Notizen (١٩٥٠ - ١٩٦٩).

إن مؤلفي النظرية النقدية ينطلقان من فكرة أن الفرد في خصوصيته هو الملجأ الأخير للوعي النقدي الذي لا يمكن أن يتماثل مع أي من القوى السياسية أو الاقتصادية القائمة .

وفي ظل عالم تسيطر عليه كتلتان عظيمتان (حوالي عام ١٩٥٦)، فإن الأسئلة النقدية التي طرحها هوركهايمر لا يمكن فهمها إلا في إطار سياق دولي : " من ينظر في اتجاه الشرق يجد نفسه في مواجهة إرهاب ديكتاتورية عسكرية ، هل يفرض عليه رعبه بالضرورة حينئذ، أن يندمج في غرب متدامج بما أن هذا الغرب المتدامج يمثل القوة التاريخية النقيض الوحيدة في العالم ؟ أليس النقد الذي يرفض مثل هذا الإندماج خرافة بلا جدوى ، مثل الفرد العاجز الذي نبعت منه ؟ " (هوركهايمر ، ١٩٧٤ : ٣٩) .

إن إجابة هوركهايمر يمكن أن تقارن بإجابة لوفنتال أو أدورنو : إن الفرد ، في اللحظة الراهنة هو الأساس الوحيد لنظرية نقدية تستهدف جميع أشكال السيطرة والاستلاب. وليس من قبيل الصدفة أن تتخذ الحكمة الأخيرة في الملاحظات العنوان التالي : من " أجل اللامطابقة " Für den Nonkonformismus . هذه " اللامطابقة " ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتمايز - non-identité والنفي Négativité (في مواجهة الأيديولوجيات) التي ينادى بها أدورنو في " جدلية النفي " Dialectique négative (١٩٦٦ ، باريس ، ١٩٧٥) . وفي تحليله لمسرح بيكيت والذي سنتطرق إليه في نهاية هذا الجزء .

وإذا كان الفرد كما يعتقد كل من هوركهايمر ولوفنتال وأدورنو هو حارس الروح النقدية وممثل الذات الإنسانية Gesamtsubjekt (أدورنو)، فإن مصير الفرد هو في مركز أي فكر نقدي. ويسعى لوفنتال بتحليل أعمال لوب دي فيج وكالديرون دي لباركا وسرفانتس ومولبير وكورنى وراسين وشكسبير وإبسن وهامسون إلى تقديم " الصورة المتغيرة للإنسان بالنسبة للمجتمع كما يظهر في جزء من الأدب { ... } " (لوفنتال ، ١٩٥٧ : المعرفة) ومن

بين المؤلفين الإسبان للعصر الذهبي لوب ديفيج وكاليرون دي لباركا وميجل دي سرفنتس وهم يمثلون بشكل ما ثلاثة نماذج مثالية . إن مسرح لوب والذي يرى فيه لوفنتال دفاعاً عن الملكية المطلقة ينطلق من التجانس بين المصالح الفردية من جانب والمجتمع الملكي من جانب آخر: " إلا أن موضوع لوب ينشأ من فكرة التوافق الممكن بين الحياة الخاصة والحياة العامة للفرد، وعلى الرغم من ذلك ففي حالة الشك فإن المجتمع هو الذي ينتصر. حين تمت إبادة اليهودية فإن الدولة استفادت من تصفيتها { ... } " (لوفنتال، ١٩٥٧:٥).

ويسعى لوفنتال بإصراره على وجود ترابط بين مسرح لوب والفلسفات السياسية لهوبر وميكياقللي إلى إثبات أن علم السياسة لعصر النهضة ليس الوحيد الذي نادى بخضوع الإنسان للدولة : وأن الأدب ليس بريئاً . على الرغم من أن موقف كالديرون يختلف تماماً عن موقف لوب حيث إن مؤلف " الحياة حلم " La Vida es sueno ينطلق بشكل رومانسي باحثاً عن واقع يتخذ مكانه خارج المجتمع ، إلا أن لوفنتال يعتبر عليه قبوله للقوى القائمة . وكذلك أيديولوجيته الإقطاعية والتي هي أصل مفهومه للشرف .

أما سرفنتس فهو يشكل نقيضاً لهذين المؤلفين المسرحيين . فهو يعلن في روايته (دون كихوت) El ingenioso hidalgo Don Quijote de la Mancha الحرية الفردية الناشئة عن تفكك النظام الإقطاعي . فعلى الرغم من أن دون كихوت فارس متنقل فإن عالمه لم يعد هو عالم الفارس الإقطاعي "أماديس دي چولا" Amadis de Gaula بل عالم الفرد البورجوازي الذي لا يزال وضعه الاجتماعي المزعزع في إسبانيا الخارجة للتو من الإقطاعية. إن التوتر بين المظاهر الإقطاعية لبطل سرفنتس وطابعه الفردي يولد السخرية الروائية: " إن سخرية سرفنتس تكمن في أنه إذ يناهض النظام الجديد (المظاهر الأولى للحياه البورجوازية) باسم النظام القديم (النظام الإقطاعي) فإنه يسعى في الواقع لإقرار مبدأ جديد . وهذا المبدأ هو أساساً مبدأ الفكر

والإحساس الفرديين. إن حركية المجتمع تفرض تحولاً فعالاً للواقع، والعالم يجب أن يعاد بناؤه بلا توقف (لوفنتال، ١٩٥٧ : ٢٢).

ويعيد لوفنتال في تحليلاته للمسرح الكلاسيكى فى فرنسا مثمناً فى تفسيراته للأدب الإشباني رسم خطوط تحولات الأيديولوجية الفردية . وبعكس كورنى الذى يبدو مكملاً للتراث المطلق " للعصر الذهبى " Siglo de Oro فى مطالبته بخضوع الفرد للدولة بافتراض التجانس القائم مسبقاً بين المصلحة الفردية والنظام الاجتماعى (على طريقة هيغل)، فإن " راسين هو شاعر العصيان . إن شخوصه تبدأ بالتشكيك فى العلاقة بين المصلحة العليا ومصالحهم الخاصة الشرعية " (لوفنتال ، ١٩٥٧ : ١١٧).

ويرجعنا هذا الأسلوب لشرح المسرح الكلاسيكى إلى نقد أدورنو وهوركهيمر وماركوز للنظام الهيكلى حيث يقوم هذا النظام مثله مثل مسرح كورنى (كما يفسره لوفنتال) على فكرة تماثل جوهرى بين المصلحة الفردية الخاصة والمصلحة العليا . يجب إذن اعتبار أحكام لوفنتال حول مسرحيات كورنى ولوب الموضوعية فى إطار النظرية النقدية الفرانكفورتية على أنها موازية للنقد الفلسفى الهيكلى .

إن لوفنتال بتأكيدده على مناهضة أبطال راسين للنظام السياسى يستبعد بعض موضوعات كتاب لوسيان جولدمان الهام " الإله الخفى " Le Dieu caché الذى يعتبر محاولة لربط البنى المسرحية الراسينية برؤية العالم الجانسينية .

ولكن على العكس من جولدمان الذى يجتهد لإظهار تماثلات بنيوية، يكتفى لوفنتال فى كثير من الأحيان بتحليل بحث للتيما، يتحول معه النص الأدبى إلى وثيقة تاريخية أو اجتماعية .

هذا التصور لعلم اجتماع الأدب ليس بالطبع عقيماً: إلا أنه يميل إلى اختزال العلاقة بين الأدبى والاجتماعى إلى الحجم أو البعد المرجعى

dimension dénotative (الوثائقي) للنص ، ويتم إهمال جميع الأبعاد الأخرى (السياق الاجتماعي اللغوي مثلاً أو وظيفة التراجم في نظام الأجناس).

وبهذا الصدد يبدو أن هناك فجوة بين النظرية والتطبيق لدى لوفنتال الذي كتب نصين نظريين لاشك في أهميتهما بالنسبة لعلم اجتماع النص كما يفهمه هنا : " في الأساس الاجتماعي لمعرفة الأدب " و " مهام علم اجتماع الأدب " (١٩٤٨) " Zur gesellschaftlichen Lage der Literaturwissenschaft " (1932) " Aufgaben der Literatursoziologie " (1948).

ويدعو لوفنتال بشكل خاص في الدراسة الأولى إلى علم اجتماع " الأشكال الأدبية : " يجب على المدخل المادي أن يأخذ أيضاً في اعتباره المسائل الخاصة بالشكل، التيمة والمادة الخام " (لوفنتال ، ١٩٨٠ : ٣٢٠).

كما أنه كان له السبق حول برنامج علم اجتماع النص بكتابة مايلي حول الكاتب الألماني جوتزكو K. Gutzkow : " ربما كان جوتزكو هو أول من أدخل الحوار الحديث للمجتمع البورجوازي في عالم الأدب الألماني " (لوفنتال ، ١٩٨٠ : ٣٢١).

ورغم الأسف الذي يمكن أن نبديه لكون لوفنتال لم يطور المظاهر الشكلية (النوعية) واللغوية لبرنامج اجتماعي إلا أننا يجب أن نعترف بفائدة مدخله " التيمي " (المتجه إلى المضامين) عند تحليل ونقد الأدب الرائج في السوق commercialisé ، أدب الجماهير Littérature de masse.

وبالطبع فإنه لا يمكن إهمال الآليات اللغوية حتى في مجال الأدب الرائج في السوق. ولكن بقدر ما يتجه تحليل هذا الأدب إلى الكم وتكرار القوالب وليس إلى إنتاج بنية فريدة لا يمكن تقليدها تعد التحليلات التيمية التي نشرها لوفنتال تحليلات كاشفة.

ويستنتج لوفنتال، من خلال دراسة سير حياة المشاهير الذين يعجب بهم الجمهور الأمريكي والذين يظهرون باستمرار في المجلات الرائجة في

الولايات المتحدة (سير ذاتية فى المجالات الرائجة) Biographies in Popular Magazines، أن كتاب السير ما بين ١٩٠١ و ١٩٤١ يولون ظهرهم فى اختيار تيماتهم لمجال الإنتاج ليفضلوا بشكل أحادى (فى ١٩٤١) قطاع الاستهلاك. وفى أثناء الحرب العالمية الثانية فقد المنتج، المقاول الحر tycoon مكانته المركزية فى عالم السير ليحتل محلها نجوم السينما والرياضة أى بشكل عام أبطال الاستهلاك. كتب لوفنتال : " لقد أشرنا إلى أبطال الماضى بمصطلح " أبطال الإنتاج " ونشعر بحقنا فى الإشارة إلى أبطال الحاضر بمصطلح " معبودى الاستهلاك " (لوفنتال، ١٩٦١ : ٧٣). ويستنتج لوفنتال أن الانتقال من الإنتاج إلى الاستهلاك ، من الفعالية إلى السلبية ، هو مظهر آخر من مظاهر انحدار الفردية الليبرالية فى عصر رأسمالية الاحتكارات.

ويبدو لى أن أبحاث لوفنتال فى مجال الأدب الرائج هى أكثر إقناعاً من تحليلاته للأعمال المسرحية " العظيمة " : ففى الأولى يسمح تكرار القوالب والكليشيهات بوضع قاعدة إحصائية قوية ، فى حين يظل التحليل التيمى فى الأخرى مبهما للغاية واعتباطياً من حيث إنه لا يأخذ فى اعتباره البنى اللغوية (الحوارية والفاعلة actantielles) للنصوص .

ج - رؤية العالم فى المسرح

"الإله الخفى" للوسيان جولدمان

بعكس دوفينيوى الذى اهتم بشكل خاص بالعلاقات بين الممثل المسرحى وجمهوره ، أى بالموقف الاتصالى المتسم بغير المسمى ، يسعى جولدمان لربط تراچيديات راسين بمصالح جماعية . ومثله مثل دوفينيوى ينطلق من فكرة أن مفهوم الوعى الجماعى (أو "عبر الفردى") transindividuelle يجب أن يلعب دوراً هاماً فى علم اجتماع الأدب ، وأن التطور الأدبى لا تشرحه بطريقة مناسبة نظرية تتوجه فقط إلى الفرد دون اعتبار للظواهر الجماعية. ولكن

المنظور الذى يضع فيه جولدمان هذه الظواهر يختلف عن منظور دوركهايم، فهو يسعى إلى فهم مسرح راسين وتطوره فى ضوء المفهوم الماركسى للطبقة.

فى الإله الخفى Le Dieu caché (باريس، ١٩٥٥) يهتم جولدمان بمسألتين أساسيتين : ماهى رؤية العالم الكامنة فى مسرح راسين وكيف يمكن شرح هذه الرؤية ككلية متسقة مرتبطة بجماعة اجتماعية معينة فى القرن السابع عشر؟

وقد وردت مسألة التماثل Homologie فى عرض المنهج الجولدمانى (للبنيوية التوليدية Structuralisme génétique انظر الفصل الثانى، ٢. ج.)، أى العلاقة البنيوية بين الكليات الدلالية . والمقصود هو وضع ربط كلية الأفكار والمواقف لجماعة معينة ورؤية العالم الجماعية بـ " شبه كلية النص " التى تحكمها حسب رأى جولدمان، البنية الدلالية .

ولقد انتقدت كثيراً هذه العلاقة التشابهية أو التماثلية وبخاصة من جانب شارل بوازيس Ch . Bouazis الذى لم يلاحظ العلاقة الوظيفية بين الكليات الدلالية التى يفترضها جولدمان وقد تحدث فى تعليقاته النقدية عن تجاور Juxtaposition بين الأبنية وبين " التوازى البسيط للأبنية " (بوازيس فى Escarpit، ١٩٧٠ : ٨١٤).

ودون تبنى وجهة نظر جولدمان ، يجب الإصرار (ضد بوازيس) على أهمية التشابه وضرورته فى العلوم الاجتماعية : فما هو مصير الدراسات التحليلية النفسية لشارل مورون (وفرويد نفسه) إذا منع التشابه ؟ يضاف إلى ذلك أن مفهوم التماثل Homologie لدى جولدمان ليس اعتباطياً ولا بديلاً جذاباً عن " التشابه " إذ عليه أن يوضح العلاقة الوظيفية بين العمل الأدبى ومصالح جماعة معينة . فراسين فى عمله المسرحى يسعى لحل المشاكل الجماعية الجانسينية Janséniste – لنباله الرداء Noblesse de robe – وتحتاج براهين جولدمان إلى فحص أدق.

الجماعة الاجتماعية والوضع الاجتماعى: فى صراع ملوك فرنسا ضد النبالة الإقطاعية، أى نبالة السيف Noblesse d'épée المدافعة عن استقلالها وحريتها احتاجوا إلى طبقة معادية للنظام الإقطاعى أى البرجوازية، ونتج عن هذا التحالف السياسى بين الملك والبرجوازية انطلاق نبالة الرداء: وهى جماعة اجتماعية مستقلة نسبياً يلعب أعضاؤها الذين منحوا ألقاب النبالة دوراً هاماً فى الإدارة الإقليمية (فى البرلمان) وقد أدى تعزيز الملكية والتحول من ملكية لا مركزية إلى ملكية مطلقة، إلى انحدار نبالة الرداء. ولم يعد لويس الرابع عشر فى حاجة إلى جماعة البرجوازية التى منحها أسلافه ألقاب النبالة فاستبدل بهم وكلاء عالة عليه مباشرة، فوجدت نبالة الرداء نفسها خلال عملية إعادة التنظيم والمركزية هذه، مدفوعة إلى محيط الحياة السياسية. ويعتقد جولدمان أن وضعها الهامشى يشرح سبب ابتعادها عن الحياة السياسية وإدانتها لها باسم بعض القيم المسيحية.

رؤية العالم: يسعى جولدمان فى المرحلة الثانية من تحليله إلى الإجابة على سؤال .. ماهى ردود فعل نبالة الرداء («البرلمانيين» و«الموظفين») إزاء هامشيتها السياسية التى جلبت لأغليبتهم، إحباطات وجودية. فى هذا الوضع فإن رؤية العالم، بوصفها شكلاً أيديولوجياً ذا اتساق خاص، معبراً عن أقصى درجات الوعى الممكن للجماعة، تلعب دوراً هاماً للغاية: إنها القوة الإدماجية للجماعة، وتكتشف نبالة الرداء الجانسينية Jansénisme، وهى مذهب لاهوتى سلبى يربط بين عالم السياسة والسلطة وقوى الشر ويدعو المسيحى إلى العفة والابتعاد عن العالم الفاسد، إن الجانسينية الفرنسية تظهر كأيديولوجية معادية للعالم الذى تعتبره من الأصل كاذباً ومتعارضاً مع حقائق الدين المسيحى والإرادة الإلهية.

وفى رأى جولدمان، هناك إذن تجانس بين الوضع الهامشى لنبالة الرداء فى ظل الملكية المطلقة وسلبية الجانسينية، هذا التجانس يمكن اعتباره وظيفياً.

إن الجانسينية بوصفها مذهباً لاهوتياً نبع من دير Port - Royal des Champs هي في الحقيقة أقل تجانساً ويميز جولدمان بين أربعة تيارات مختلفة في أيديولوجية نبالة الرداء . الأول يتسم بالمساومة غير المأسوية: " التكيف - على مضض - مع شر العالم وكذبه { ... } " إنه شعار الجانسينية المعتدلة التي يمثلها كل من چلبير دى شوازول Gilbert de Choiseul وأرنو دانديه Arnauld d'Andilly " الكفاح من أجل الحقيقة والخير في عالم لهما فيه وجود - متضائل بالطبع - ولكنه واقعي { ... } " (جولدمان، ١٩٥٥: ١٥٨)، هذا هو موقف أرنولد ونيكول اللذين يستشفان إمكانية للدفاع عن الحقيقة والخير وسط عالم منحط . الوضع الثالث هو موقف چاكلين باسكال Jacqueline Pascal ويقوم على " إقرار الخير والحقيقة في مواجهة عالم شرير لا يعرف إلا اضطهادهما ونفيهما { ... } " (جولدمان، ١٩٥٥ : ١٥٨) أما رؤية باركوس Barcos فهي في النهاية أكثر الكل جذرية " السكوت في مواجهة عالم لا يمكنه الاستماع لكلمة المسيحي { ... } " (جولدمان ، ١٩٥٥ : ١٥٨) وتتفق جميع التيارات الأربعة للجانسينية في الاقتناع بعدم وجود أى أمل تاريخي في تغيير العالم.

غير أن الجانسيني لن يتمكن من الفرار من الحياة التي يدينها ويرفضها، عليه أن يعيش في عالم هو في نظره فاسد ومتعارض مع إيمانه. هذا الوضع المتناقض للجانسيني يولد مفارقة وهي : رفض داخل دنيوى intramondain (رفض للعالم داخل العالم) ويتجسد بأوضح شكل في الأفكار les Pensées لباسكال وفي بعض تراچيديات راسين . حسب جولدمان فإن هذا الرفض داخل الدنيوى يشكل البنية الدلالية للأفكار ولتراچيديا راسين.

البنية الدلالية في الجانسينية وفي مسرح راسين: بقدر ما تظهر البنية الدلالية معانى كل من رؤية العالم الجانسينية وتراچيديات راسين، يمكن أن يكون هناك ، في رأى جولدمان ، تماثل بين العالم اللاهوتى وعالم التخيل الدرامى: الثانى يمتص الأول بتطويره وجعله أكثر اتساقاً.

ولقد سبق أن ذكرنا التيارات المختلفة في الجانسينية: التيار المعتدل، التيار المجاهد، تيار الرفض داخل الدنيوى و تيار الرفض الجذرى، المطلق. ويسعى جولدمان فى الإله الخفى إلى شرح تطور الجانسينية فى ضوء النزعات المتنافسة داخل المذهب ، ويميز ثلاث مراحل: بين ١٦٦٦ ، ١٦٦٩ ، حيث يسود الجانسينية التيار المتطرف لباركوس الذى يرفض أية مساومة مع العالم الاجتماعى، بين ١٦٦٩ و ١٦٧٥ تطراً فترة مساومة (" سلام الكنيسة" Paix de l'église) يرجع خلالها التيار المعتدل لأرنولد ونيكول (تيار غير مأسوى، «درامى») . وفى ١٦٧٥ حيث ظهرت أوائل علامات الاضطهاد، اتجه جانسينيو Port - Royal أيضاً إلى التيار داخل الدنيوى، "المعتدل" لأرنولد ونيكول، إلا أنهم لا يبحثون هذه المرة عن أيديولوجية مساومة بل عن فكر مجاهد لا يأبى أن ينصر القانون الإلهى La loi divine فى العالم.

وفى مقابل هذه المراحل الثلاثة للجانسينية هناك ثلاث (أو على الأدق أربع) مراحل فى تطور مسرح راسين ويلخصها جولدمان فى مؤلفه المسمى راسين Racine (١٩٥٦ ، ١٩٧٠) : " إن عمل راسين الذى تماثل فى البداية مع الأوضاع المأسوية لباركوس ، والذى اتبع مع تحفظات قوية، المساومة الدرامية لسلام الكنيسة ، الذى حقق الموازنة المأسوية فى " فيدرا " ، تماثل بعد ذلك مع دراما الجانسينية الأرنولدية كما يبدو فى العودة إلى الاضطهاد فى " أستر " Esther فى " أثاليا " Athalie وفى "مختصر تاريخ پور رويال" Abrégé de l'histoire de Port-Royal (جولدمان، ١٩٥٦ ، ١٩٧٠ : ٦٧).

فى إطار الرؤية الجولدمانية لا يمكن ربط مسرحيتى راسين الشاب (مصرع طيبة) La Thébaïde والإسكندر (Alexandre) بالأيديولوجية الجانسينية . حيث لم ينقل راسين رؤية العالم الجانسينية على المستوى الجمالى إلا بعد مقاطعته پور رويال، ربما لإحساسه بالذنب . (ولنقل هنا إن هذا الاستثناء الاعتباطى إلى حد ما لأعمال راسين الشاب، يمكن اعتباره

ضعفاً نظرياً : ومن السهل جداً الاستغناء عن دراسة نصين لا يدخلان فى إطار النموذج النظرى . ولنفرض إنهما يعبران عن رؤية أخرى للعالم: (ولكن ما هى ؟).

ويميز جولدمان أخذاً فى اعتباره مؤلفات فترة الشباب (غير الجانسينية) خمس مراحل فى تطور مسرح راسين :

١ - مؤلفات الشاب غير المأسوية : "مصرع طيبة" La Thébaïde ، و"إسكندر" (Alexandre) .

٢ - التراجيديات الثلاثة الجانسينية : "برينيس" Bérénice ، "بريتا - نيكوس" Britannicus ، "أندروماك" Andromaque

٣ - مسرحية المساومة والمسرحيتان التاريخيتان . وثلاثتهم غير مأساوية .

٤ - العودة للتراجيديا : "فيدرا" Phèdre

٥ - المسرحيات المقدسة للانتصار الداخلى دنيوى ولوجود الله: "إستر" Esther و" أتاليا "Athalie .

هذا النموذج يتضمن التمييز بين " الدراما " و " التراجيديا " . فى الأولى هناك إمكانية لحل داخلى-دنيوى وللمساومة وهو ما يستبعد فى الثانى . وفى المسرحيات المقدسة إستر و أتاليا ، تستحيل التراجيديا بفعل التواجد الإلهى والوجود الداخلى للقانون الإلهى . إلا أن تجاوز التراجيديا (صوب الله والمجتمع الإنسانى) متضمن فى التراجيديا نفسها : " إن مراهنه پاسكال ، وفرضية كانط العملية ، المؤكدة لوجود إله غائب يمكن أن نلقاه فى كل لحظة من حياتنا والتي يحيلانها إلى أسباب إنسانية (عملية أو شعورية) ، هى نفس كينونة الشخصية المأسوية . إنه يحيا للرب ويرفض العالم لأنه يعلم أن الله يمكن أن يتحدث فى كل لحظة ويسمح له بتخطى التراجيديا " (جولدمان ١٩٥٥ : ٣٦٨) .

فى مؤلفات راسين ، تحتل فيدرا ، «تراجيديا ذات تحول واعتراف» ، مكانا مركزيا . ويؤمن جولدمان بعودة راسين من هذه التراجيديا المكتوبة بعد

فشل " سلام الكنيسة " " Paix de l'Église " إلى الأوضاع الجذرية بعد أن اعترف بوهمية المساومة مع العالم (مع الدولة والكنيسة).

ولا يأتي رفض العالم في فيدرا في بداية الحدث ولكن بعد التحول Péripétie في اللحظة التي تكتشف فيها البطلة أن بحثها عن المساومة وعن التعايش مع السلطة (مع العالم) قد بنى على أوهام . وبانتحارها تولى فيدرا ظهرها لواقع فاسد وتتخلى عن المساومة . ويلاحظ جولدمان في هذا الموضوع قائلاً : " أيضاً حين تظهر أولى بوادر الاضطهاد في ١٦٧٥ نرى رأسين يتجه بسرعة صوب فيدرا ، صوب هذه التراچيديا ذات التحول والتعرف التي ربما بحث عنها منذ زمن طويل والتي تنقل في عالم التراچيديا ، ليس المذهب الجانسيني المتطرف الذي لم تعد له أية أهمية فعلية ، بل تجربة هذه السنوات الأخيرة من المساومة بين الجانسينية الأرثوذكسية وبين السلطات وهي تجربة بنيت على وهم إمكانية حياة أصلية في العالم " (جولدمان ١٩٥٦ ، ١٩٠ : ٧٣) .

ويعتبر الإله الخفي للوسيان جولدمان عملاً هاماً على أساس أن كاتبه كان على الأرجح أول من حاول المدخل البنيوي في مجال النقد الاجتماعي . حيث تخطى حدود علم اجتماع أدب يدرس التيمات فقط (" الأرستقراطية لدى بلزاك " و " البرجوازية لدى توماس مان ") ولا يراعى وحدة استقلال العالم الأدبي .

إن نقاط ضعف " البنيوية التوليدية " تكمن كلها في عدم قدرتها على تحليل ونقد النص الأدبي على المستوى اللغوي : الدلالي والتركيبى والسردى ، مع مراعاة أن الإله الخفي قد نشر في ١٩٥٥ إن قبل علم الدلالة البنيوي Sémantique structurale (١٩٦٦) ، S/Z (١٩٧٠) أو تقديم الشكليين الروس عن طريق تودوروف في ١٩٦٥ ، فمن المستحيل عند قراءة جولدمان في الوقت الحالي ، إغفال وجود علم العلامات الأدبية ونظرية الخطاب Théo-rie du discours .

وهكذا فإن المفهوم المركزي " للبنية الدلالية " يفسح المجال لبعض الأسئلة التي لا تحمل صفة تقنية خالصة مثل : ما هو بالتحديد معنى " البنية الدلالية " ؟ هل هناك نظرية للدلالة Sémantique تسمح بتعريف هذه البنية الدلالية في نص أدبي أو فلسفي ؟ وكيف نخزل النص المتعدد المعنى -Poly- sémique إلى بنية مفهومية واحدة Structure Conceptuelle (أى بنية من المدلولات Signifiés) أليس من الأفضل التوصل إلى بنى دلالية متعددة مع القراءات المختلفة للنص والتي لا تكف عن التناقض والتنافس ؟ .

وتخص جميع هذه الأسئلة البنية الدلالية Sémantique للنص: خاصيته المتعددة (متعددة المعنى) وتناقضاته : لأنه ليس مؤكداً أبداً، كما يظن جولدمان أن جميع " الأعمال العظيمة " يمكن اختزالها إلى أنظمة مفهومية (بنى دلالية أو عقلية) أحادية.

وقد حاول أدورنو على سبيل المثال تحليل الخاصية العميقة المزدوجة لأشعار ستيفان چورچ ، كما أننى حاولت فى كتاباتى أن أظهر التناقضات وعدم الاتساق فى رواية مثل " الغثيان " لجان بول سارتر وبعيداً عن أن تكون " كليات متجانسة " كما يظن جولدمان فإن " الأعمال العظيمة " (" إنسان بلا مميزات " L'Homme sans qualités لموزيل، و"البحث عن الزمن الضائع" لبروست) تعيد على المستوى التخيلى إنتاج تناقضات الواقع الاجتماعى.

(هكذا فإن الغثيان لسارتر تجمع بين النقد الكاشف للعقلانية البورجوازية والموقف القمعى فى مواجهة الطبيعة والمرأة والتي تتسم بها الأيديولوجية العقلانية منذ التنوير . ويجب الامتناع عن اختزال هذه الازدواجية السارترية وعن حجب تناقضاتها التي هى تناقضات جماعة اجتماعية بأكملها .)

إن مفهوم " البنية الدلالية " ليس فقط إشكالياً من منظور علم الدلالة La Sémantique الذى يحلل تعددية النص Pluralité du texte (وجود أكثر من موقع دلالى متساوٍ Isotopies Sémantiques حسب مصطلح جريماس).

ولكن أيضاً من منظور نظرية للقراءة تتساءل حول التلقى المتغير للنص
الراسيني على مدار القرون . كيف تفسر معاصرة راسين في القرن التاسع
عشر والقرن العشرين ، إذا اعتبرنا أندروماك أو فيدرا تعبيرات ("إخراج"
mise en scène) عن رؤية العالم الجانسينية؟

إن الجانسينية لا تشرح معاصرة راسين ولا التغييرات التي تضيفها
القراءة المجددة على النص الراسيني .

ولو كان جولدمان، بدلاً من تثبيت معنى النص على المستوى المفهومي ، قد
سعى لوضع علاقة بين الخطابات الجانسينية وبلاغة مسرح راسين في ضوء
علاقتها بلغة جماعية فإن شرحاً كهذا كان يمكن أن يتفادى ، على الأقل
جزئياً، مشاكل التشابه : فبدلاً من إقامة مشابهاً بين الرموز الأدبية (روما ،
الشمس، فينوس) والمفاهيم الجانسينية (الخطيئة، النعمة، الرفض)، كان
يمكن لجولدمان أن يظهر إلى أى حد إمتصت الخطابات الجانسينية (بوصفها
لغات) وتحولت في مسرح راسين .

أما في حالة پاسكال فكان يمكن لجولدمان أن يتساءل ليس فقط حول
العلاقة بين " الأفكار " والجانسينية ولكن أيضاً حول العلاقة بين "الأفكار"
والخطاب اللاهوتي ومنطق Port - Royal . لقد درست لويس مارين في كتابه
«نقد الخطاب» La Critique du discours (١٩٧٥) لغة " المناطقة
الجانسينية " حيث أكد بدوره بعض الاكتشافات الأساسية لدى جولدمان:
مثلاً حين يصف فلسفة پاسكال بأنها " ما قبل جدلية " Prédialectique:
"نقيض جدلي" Antithèse dialectique دون تأليف مُوحد للأضداد في
تجاوزها. وبهذا المنظور، فإن فرضية جولدمان صحيحة : التفكير المأساوي
هو قبل جدلي ولكن يجب تحليل تحييد Neutralisation الأضداد في
انزياحها بدقة ، تبادل الأضداد كصورة محيدة Neutralisée من التأليف
المستحيل (مارين ، ١٩٧٥ : ١٣٣) . المقصود باختصار ، هو وصف البنى
الخطابية الأدبية واستبدال علاقات التناص ب التشابه - التماثل analogie
homologie الجولدماني . والسؤال لم يعد: أية " رؤية للعالم ، " أية أيديولوجية

تعبر عنها " الأفكار " لباسكال وتراجيديا راسين ؟ ولكن : أية خطابات سياسية ، لاهوتية (أيديولوجية) امتصها النص الأدبي أو الفلسفي وحولها؟ .

وبالطبع فإن الخطابات بالنسبة لعلم اجتماع النص ليست أشكالاً بل تجسيد لقضايا ومصالح جماعية . الفكرة الجولدمانية عن " الذات عبر الفردية Sujet transindividuel (المسئولة عن الخطاب) يجب الحفاظ عليها على الرغم من وضد نقد الألتوسيريين . (إن بنيويى براغ لم يعارضوا أبداً فكرة الذات الجماعية . شفاتيك Chvatik ، ١٩٨١ : ٥٤) .

وسأعود فى الفصل الخامس إلى إمكانية استبدال البحث التناسى (الإمبريقى) بالتشابهات - التماثلات الاجتماعية والتحليلية النفسية . وهى مسألة منهجية أساسية .

د - المسرح ونقد الأيديولوجية :

بيكيت وأدورنو

المنظور الاجتماعى الذى بدأه أدورنو يختلف كثيراً عن المنظورات التى تبناها دوقينيوجولدمان . ولا تتوجه جماليات النفى التى كونها إلى مفهوم غير المسمى Anomie ولا إلى مفهوم رؤية العالم: بل تستهدف المظاهر النقدية للعمل الفنى ، قدرته النافية على مقاومة الأيديولوجيات وإظهار صفتها المزيفة .

على الرغم من أنه من غير المقبول اعتبار نظريته الجمالية كمجرد استكمال للجدلية النافية (لأن الأولى تمثل نمطاً من الخطاب يختلف عن ذلك الذى يكمن فى الثانية) ، إلا أن الجمالية الأدورنية تأخذ من جديد مفهومين هامين للجدلية النافية : مفهوم النقد ومفهوم التمايز (Nichtidentität) .

وليس المقصود تعريف الأيديولوجية أو رؤية العالم التى من المفترض أن يعبر عنها العمل الفنى ولكن إظهار النفى La négativité والتمايز الملازمين للفن النقدى وبخاصة لفن الطبيعة ، وهذا النفى ليس حدثاً مكتسباً ، إن الصفة النقدية لنص أدبى لا تمنح له مرة واحدة بشكل نهائى .

قبل كل شيء فإن النص (كما سنرى فيما بعد) يمكن أن يؤلف بين عناصر نقدية وكليشيات وقوالب أيديولوجية ، بتعبير آخر : يمكن أن يؤلف بين النفي والإثبات ، والإذعان للوضع القائم . وقد استغلت فيما بعد الخطابات (التأويلات) الأيديولوجية هذا التعارض الداخلى لتجعل من نيتشه، وچورچ ، ويوخنر Büchner رواد الفن النازي أو من جوته وتوماس مان رواد الواقعية الاشتراكية.

بالنسبة لأدورنو فإنه يسعى لأن يجد فى خضم "المعركة الأيديولوجية" المظاهر النقدية للعمل: محتواه من الحقيقة Wahrheitsgehalt .

وفى رأى أنه من الواجب قراءة دراسته حول بيكيت بهذا المنظور "محاولة لفهم مسرحية نهاية الحفل " Versuch , das Endspiel zu ver- " stehen . إن نقده الأدبى يمكن اعتباره نقداً " استرجاعياً Récupératrice لتخليص الأعمال من قبضة الأيديولوجية.

النفي: فى دراسة أدورنو ، نجد بعض المظاهر الأساسية للنظرية الجمالية (انظر الفصل الثانى ، ٢ ، د) : مقاومة الاتصال ، نفي القوالب الأيديولوجية ورفض الأشكال الدرامية التقليدية. إن مسرحية بيكيت ترفض المعنى (Sinn) الذى يمكن أن تستخدمه الأيديولوجيات فى اختزال الفن إلى شعار.

وعلى الرغم من ذلك، فإن رفض المعنى الذى تتسم به الطليعة كلها لا يعنى أبداً عدم إمكان التوصل لمعنى اجتماعى لهذه الأعمال. ويرى أدورنو، أن رفض الفن الحديث أن يكون له معنى أحادى، يُشكل مظهره الاجتماعى التاريخى: إنه النفي نفسه هو الذى يصبح موضوع البحث الاجتماعى. وهذا ما خصص له أدورنو دراسته حول بيكيت، حيث يسعى إلى إثبات أن «نهاية الحفل» تشكل قطيعة مع المسرح القائم: على المستوى الفلسفى والسياسى وعلى مستوى التطور الأدبى على حد سواء.

من الواضح أن المدخل الأدورنى غير " موضوعى " (" Wertfrei ")
بالمعنى الفيبيرى للمصطلح ولكنه يتضمن تحيزاً نظرياً وسياسياً على حد
سواء. وقد حاولت فى مؤلف حول النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت (زيماء،
١٩٧٤) إظهار أن المقولات الأساسية لنظرية أدورنو (مثل النفى والتمايز)
يمكن ربطها بالفردية الليبرالية لجزء من المثقفين الألمان الذين ينظرون بأسلوب
نقدى للأصول الاجتماعية والتاريخية لفكرهم نفسه ، ومع نقد الفردية
الليبرالية ودورها فى ظهور الفاشية فإن أعضاء معهد الأبحاث
الاجتماعية Institut für Sozialforschung (هوركهايمر ولوفنتال وأدورنو
وماركوز) سعوا إلى إنقاذ الاستقلالية النقدية للفرد . وما كانوا يخشونه أكثر
من أى شىء هو استسلام الفرد للتحريض الأيديولوجى الذى تكثف خلال
العشرينات والثلاثينات.

وعلى ضوء هذا الناتج عن سقوط الفردية الأوروبية ، يجب محاولة فهم
حجج أدورنو، وهى تنبع من نفس أصول البراهين التى قدمها لوفنتال فيما
يخص الأدب الإيبانى والفرنسى والإنجليزى والألمانى (انظر الفصل
٢، ٣، ب). ومثلها مثل دراسات أدورنو حول أيخندورف Eichendorff
وهولدرلين Hölderlin فإن دراسته حول بيكيت هى محاولة لتخليص النص
الأدبى من الأيديولوجيات الطفيلية التى علقت بجسمه والتى تهدد بخنقه عن
طريق تدمير قدرته النقدية. ما هى الأيديولوجيات المعنية؟.

يسعى أدورنو لتدمير القالب الأيديولوجى والذى على أساسه " يرمز "
كل العمل الملحمى والدرامى لبيكيت إلى العبثية الأبدية للوجود الإنسانى كما
فى " لهجة المعنى الخاص Jargon der Eigentlichkeit (أدورنو : ١٩٦٧)،
المقصود هو نقد وجودية معينة بإدعائها الإنتماء لهيدجر Heidegger
تختزل نتائج التطور الاجتماعى التاريخى إلى ثوابت لا زمنية. ويجتهد أدورنو
بمعارضته للتأويلات الأونطولوجية (اللاتاريخية) "لنهاية الحفل "، لإظهار
الصفة الاجتماعية والتاريخية العميقة للعبثية التى يجسدها بيكيت.

ويلتقى فى هذا الموضوع الأساسى النقد الأورنى للأيدىولوجية الوجودية مع البراهين النقدية التى يقدمها ألتوسير . ومثله مثل ألتوسير (ومن قبله ماركس) فإن أدورنو يخاصم الأيدىولوجية التى تتظاهر بأنها طبيعية : تتظاهر بأنها تمثل الواقع كما هو منذ الأبد (كما يجب بالضرورة أن يكون). فى الأنطولوجيا الوجودية الألمانية تعنى أولوية الكينونة (Sein) أن الإنسان ليس له إلا أن يرضى بواقع تشكل مستقلاً عنه (خارج أى فعل اجتماعى، اقتصادى أو سياسى).

فى رأى أدورنو أن " نهاية الحفل " تشهد ، فى سياق تاريخى، على تدهور الفردية واختفاء الاستقلال الفردى فى عصر الرأسمالية الاحتكارية المتسم بالتركيز الاقتصادى . ويترك الفرد فريسة للتنظيمات المجهولة الاسم ، ويلاحظ أدورنو فى هذا السياق أن: " الوجودية نفسها موضع محاكاة ساخرة ولا يتبقى من ثوابتها إلا أدنى حد وجودى " (أدورنو: ١٩٦١ ، ١٩٧٠ : ١٩١).

فى إطار المنظور الذى أوجده أدورنو ، فإن نص بيكيت ينقلب ضد الشروح الأيدىولوجية (الوجودية) التى سيطرت عليه : إن الأيدىولوجية تتم محاكاتها الساخرة عن طريق النص نفسه الذى يتظاهر بأنه يشرحها ويتمرده على النص الشارح الوجودى (الأنطولوجى) يظهر النص محتواه من الحقيقة الذى يقابله ، نفيًا، كذب الأنطولوجيا .

التشيؤ و النكوص: حسب ماركس فإن التشيؤ (Verdinglichung) يلعب دوراً هاماً فى مجتمع السوق بقدر ما يتم إغفال حقيقة منتجات العمل الإنسانى لينظر إليها ، فى أغلب الأحيان على أنها موضوعات تبادل، موضوعات تداول، تطمس قيمتها الاستعمالية بفعل قيمة التبادل (انظر الفصل الأول ، الفقرة الرابعة ، ط ، ي).

وبشكل مماثل كثيراً ما يتم اختزال الأفراد إلى موضوعات تبادل : إلى ما يسميه الاقتصاديون " يد عاملة " . هذه العملية التى يجد فيها الأشياء والأفراد أنفسهم وقد تم اختزالها إلى قيمة تبادل ، يشار إليها بمفهوم

التشيؤ . ويصف أدورنو مختلف أشكال التشيؤ فى " نهاية الحفل " ويسعى إلى كشف العلاقات بين التشيؤ و النكوص كما عرفه فرويد .

وبالفعل فإن آثار التشيؤ كثيرة فى " نهاية الحفل " . ولا يعنى أدورنو فقط "ناج" Nagg و "نل" Nell العجوزين اللذين تم وضعهما فى سلتى فضلات ، بل يعنى كذلك (وربما على الأخص) عجز البطلين "هام" Hamm و "كلوف" Clov عن فهم الواقع والفعل المتسق كأفراد مسئولين ومستقلين .

هذا العجز المزدوج يشرح ، وفق أدورنو لماذا ينحل الحوار الدرامى فى مسرحية بيكيت إلى ثرثرة، ولا يمكن تصور الحوارات المتسقة التى تتميز بها المسرحيات التقليدية إلا فى عالم يمكن للفرد (البطل) أن يفهمه ويشكله بأفعاله. ولدى بيكيت فإن هذا العالم الشفاف المرن لم يعد له وجود .

وهناك عملية مماثلة يمكن استشفافها على المستوى الدرامى . يقدم بيكيت المحاكاه الساخرة للحدث الدرامى الكبير : فى " نهاية الحفل " تبدو "الكارثة" وكأنها تتطابق مع الخبر بأنه لم يعد هناك مهدىء أو مع الخبر بأنه فى سلال ناج ونل استبدل الرمل بنشارة خشب . وفى نفس الوقت يصبح المأساوى فظاً :كلوڤ لا يتمكن من الإجهاز على " هام " حتى إذا استطاع "هام" أن يوفر له مزيج "البوفيه" La Combinaison du buffet "هام" : ليس عليك إلا أن تجهز علينا . وبعد زمن . سأعطيك مزيج البوفيه إذا أقسمت على الإجهاز على

كلوف : لن أتمكن من الإجهاز عليك

هام : اذن لن تجهز على . "

الحدث يصبح فظاً كاللغة نفسها .

إن النكوص يظهر فى واقع متخيل حيث يصبح الفعل الفردى فظاً، ويظهر بوضوح فى " الأحاديث " بين العجوزين وبين " كلوف " و " هام " . مفردات اللغة هى مفردات لغة الأطفال . " كلوف " : والكخة دى (Et ce Pipi?) "هام" : بيحصل !) وفى موضع آخر من النص ، يشهد غياب

الأفعال على النكوص على مستوى تركيب الجملة : " هام بفخر : بدونى ، يشير لنفسه ، لا أب . بدون «هام» حركة دائرية ، لا منزل . "

البنية الدرامية : اختفاء البطل بوصفه فاعلاً مستقلاً يجلب ضمور الفعل الدرامى المتروك فريسة للصدفة والفضاظة . ويسخر مسرح الطليعة من تسلسل الأحداث الذى يعتبر أساسياً فى المسرح الكلاسيكى تصاحبه سخرية من تقنيات الدراما التقليدية . يلاحظ أدورنو فيما يخص بيكيت : " لقد احتفظ بالوحدات الثلاث الأرسطية . لكن بقاء الدراما كما هى عليه أمر مشكوك فيه . " (أدورنو ، ١٩٦١ : ٢١٤) .

ويسخر بيكيت من جميع التقنيات الدرامية مثل العرض ، الحل ، الحدث ، الانقلاب والكارثة . وحسب أدورنو ، فإن المحاكاة الساخرة يمكن تعريفها كاستعمال لبعض الأشكال فى لحظة تاريخية تصبح فيها مستحيلة . (هذا التعريف للمحاكاة يسبب مشكلة : هل نقر إذن بأن الرواية كنوع كانت "مستحيلة" حين سخر منها " سترن " فى " ترسترام شاندى " ؟ . يمكن أن نقول ملخصين إنه بالنسبة لأدورنو فإن البطل التقليدى والحدث الدرامى (شكل الدراما) يصبحان مفارقين تاريخياً مع تدهور الفردية الليبرالية واختفاء الاستقلال الفردى . وهذا لا يمكن إحيائه بالجمل البطولية للهجة وجودية ، مثل التى يعتبرها أدورنو فى " لهجة المعنى الخاص " وفى " الجدلية النافية " ، على أنها الأيديولوجية الألمانية الجديدة . إن مسرحية بيكيت تستنكر هذه الأيديولوجية .

نستنتج أنه على الرغم من جميع الاختلافات بين أدورنو و دوفينيو فإن كلاهما يرتاب فى وظيفة الدراما فى المجتمع الحديث . الدراما التى كانت فى الماضى تجسيدا للفرد الخارق (للبطل) ، تبدو أكثر فأكثر مهددة من قبل " مشاهد تليفزيونية " يستهلكها بسلبية أفراد تحولوا إلى ذرات .

ويمكننا أن نستنتج هنا تجانساً ما ، بين نظرية أدورنو النقدية ونص بيكيت الذى يميل ، عن طريق تهكماته واستنكاره ، إلى تأكيد بعض مسلمات

النظرية . لقد عوتب أدورنو كثيراً لاستخدامه بيكيت (وبعض الكتاب الآخرين) لإثبات نظريته ، ولقد عابوا عليه عدم اهتمامه بتأويلات متعارضة مع شروحه واختياره نصوص أدبية (هولدرين ، بيكيت ، كافكا ، چورچ) لتخدم نظرياته النقدية .

هناك بالطبع جانب من الصواب في هذا العتاب : مثله مثل جولدمان ، فإن أدورنو لا يراعى بقدر كاف تعدد المعنى " Polysémie " (قابلية النص لأكثر من تفسير) في النص الأدبي وتعدد القراءات وغياب التجانس في التلقى التاريخي .

وعلى الرغم من ذلك فهناك اختلاف أساسي بين جولدمان وأدورنو: الأول يسعى لتثبيت معنى النص (" بنيته الدلالية ") في حين أن الثاني يجتهد لكي يشرح ، في سياق اجتماعي ، رفض المعنى الذي يتسم به إنتاج الطبيعة . إن الجماليات الجولدمانية تتوجه إلى الفرضيات الكلاسيكية (الهيكلية، انظر الفصل ٢ ، ٢ ، ج) للكلية والاتساق ، في حين أن جماليات أدورنو تهتم بالنفي وبالصفة المتشردمة والمتناقضة لفن الطبيعة .

وإلى هؤلاء الذين يعتبرون على أدورنو أنه جعل من بيكيت (أو من كافكا) شاهداً على النظرية النقدية يمكننا أن نجيبهم بأن جميع الخطابات النظرية (التي يجب أن تسعى بالضرورة إلى نوع من الاتساق) تميل إلى تحديد معنى موضوعاتها : سواء كانت نصوصاً أدبية ، فلسفية أو قضائية ، أو أحداثاً اجتماعية ، اقتصادية سياسية . وعلم اجتماع الأدب (النص الأدبي) إذ يتخلى عن البحث عن المعنى فهو يحطم سبب وجوده : لأنه حتى الأدب الحديث الذي يتطلع إلى تعدد المعنى والنفي قد نشأ في ظل ظروف اجتماعية معينة ويجسد مشاكل ومصالح اجتماعية ، وهو في هذا لا يختلف في شيء عن النصوص السياسية أو القضائية التي يتطلع كتابها أو يتظاهرون بالتطلع إلى توحيد المعنى Monosémie (إلى أحادية مفهومية) دون الوصول إليها أبداً ، ولم يجرؤ أحد حتى الآن على تأكيد أنه لا يمكن التوصل

إلى معنى هذه النصوص . إن ميزة المدخل الأدورنى يكمن فى محاولة توضيح المعنى (التشيؤ ، النكوص) ليس على المستوى المفهومى أو مستوى " الأيديولوجية " أو " رؤية العالم " بل فى مجال اللغة . إن التشيؤ والنكوص يظهران على مستوى التشكيل الدرامى وفى الحوارات المضمرة . ويتوصل أدورنو عن طريق وضع اللغة فى مركز المشهد إلى تقليل الفجوة القديمة بين النظرية الاجتماعية والممارسة الأدبية ، كتابة بيكيت . وفى الوقت نفسه فهو يقلل من دور التشابه لصالح التحليل اللغوى : إن النكوص الفرويدى لا " يرمز إليه " بأفعال أو أشياء (لعب أو عرائس) : إنما يظهر من خلال المستوى الخطابى .

بقدر ما يتجه المدخل الأدورنى إلى اللغة (الخطاب) وإلى تركيب المناهج الاجتماعية والتحليلية النفسية ، بقدر ما يشكل أحد نقاط البداية لعلم اجتماع النص بمفهومه المعروف هنا . وسأحاول عن طريق تطوير نظرية أدورنو أن أظهر أنه من الممكن التوليف بين المناهج الاجتماعية والتحليلية النفسية لشرح دور حديث الصالونات الاجتماعى فى " البحث عن الزمن الضائع " لمارسيل بروست (انظر الفصل ٥) .

٣ - نحو علم اجتماع النص الشعرى

بعكس الدراما والرواية (التى ستلعب هنا دوراً مهماً) أهمل علماء اجتماع الأدب النص الشعرى . وليس من الصعب التكهن بأسباب هذا الإهمال . العديد من المنظرين انطلقوا (وينطلقون) من الفكرة القائلة بأن الشعر الغنائى بصفته يتجه إلى " الذاتية" والمجال " العاطفى " يستعصى على التحليل الاجتماعى : فهو لا " يمثل " فى أغلب الأحيان لا المجتمع ولا الأحداث التاريخية . ولا تنصب موضوعاته المفضلة لاعلى السياسيين ، أو الحركات النقابية أو المجرمين أو التنظيمات السرية بل على المحبين والطبيعة والوحدة .

ومن الواضح أن هذا المفهوم للشعر الغنائى بنى على فكرة أخرى موروثة قائلة بأن علم اجتماع الأدب يجب أن يكون تحليلاً للموضوعات ويجب

أن يستهدف " المحتوى الاجتماعي " للأعمال : وفي إطار هذا المنظور يتم إغفال البعد الاجتماعي والتاريخي للكتابة.

ونجد هذا الموقف حتى في عام ١٩٧٢ حيث نجد الكاتب الألماني E. Leibfried يؤكد أن قصيدة مثل " الأنشودة الليلية" للراحل Wanderers Nachtlied لجوته لا يمكن أن تصبح موضوعاً لعلم اجتماع النص، حيث إنها تحتوى على " القليل من البنى التي يمكن تحليلها على المستوى الاجتماعي" (ليبفريد ١٩٧٢ : ١٧٥) . ويسلم أن وضع " الأنا الغنائية " يمكن أن يكون له دور اجتماعي إلا أنه لا يبدي أى اهتمام بهذا الدور.

ومن وجهة نظر منظرٍ مثل ليبفريد فإن المنهج الاجتماعي الوحيد الممكن هو ذلك الذي يستهدف وظيفة النوع الغنائي في نظام الاتصال الأدبي، وكذلك وضع الشاعر في مجتمع بعينه والمجالات المتخصصة في مجال الشعر الغنائي.

ولقد اتخذ بعض ممثلي النظرية النقدية مثل والتر بنيامين و تيودور أدورنو موقفاً مناهضاً لهذا المفهوم لعلم اجتماع القصيدة وذلك من خلال دراساتها حول بودلير، ايشندورف، هولدرلين وچورچ وقد حاولا دائماً إظهار المعنى الاجتماعي للقصيدة على مستوى اللغة والكتابة .

وقد شكلت حديثاً جوليا كريستيفا في كتابها : ثورة اللغة الشعرية La Révolution du langage poétique (باريس ١٩٧٤) سيميوطيقا اجتماعية للنص الشعري بتقديم التغيرات التي تطرأ على مستوى الكتابة باعتبارها عمليات اجتماعية ونقدية اجتماعية ويقدم هذا الكتاب ما لارميه ولوتريامون كممثلين للطليعة في إطار سياق الجمهورية الثالثة [في فرنسا] وتقرأ نصوصهم على أنها تمرد على الخطابات الأيديولوجية لذلك العصر.

على الرغم من وجود هذه الأعمال التي تتجه إلى البنية النصية، يجب الاحتياط من تقليل شأن المصاعب التي يواجهها علم اجتماع الجنس

الشعري . فبعكس علم الأسلوب أو علم العلامات فإن التحليل الاجتماعي لا يمكن أن يكتفى بنص أو اثنين : مثل الوصف الدلالي لقصيدة "السلام" Salut لما لارميه التي نشرها راستييه F. Rastier (راستييه، ١٩٧٢). ينبغي على عالم الاجتماع أن يختار دائماً أكثر من نص ، فكل نص يمثل معنى في علاقته بالنصوص الأخرى ويجب عليه أن يعلل هذا الاختيار بالنسبة للمجموع الذي شكله . فالنص المعزول وحده لا يمكن وصفه بالمقارنة مع مصالحي اجتماعية وخطابات أيديولوجية، أو أنظمة قيم اجتماعية أو رؤى للعالم. (كما يصعب الحال إذا أردنا اكتشاف المعنى الاجتماعي للفصل الأول لرواية أو لمشهد درامي).

إن المناقشات المنهجية التي أثارها التحليل البنيوي لقصيدة لبودلير (القطط Les Chats) تظهر المشكلة برمتها . من ناحية السيميوطيقا وعلم الأسلوب فإن كلود ليقي شتراوس ، چاكوبسون ومن بعدهما بوسنر قد استطاعوا تحليل القصيدة تحليلاً داخلياً خالصاً ، في حين أن جولدمان كان مرغماً على استنتاج أن شرحاً اجتماعياً تلعب فيه " رؤية العالم" لدى بودلير دوراً هاماً ، لا يمكن أن يتركز في قصيدة واحدة . إن بني قصيدة مثل " القطط " يجب أن توضع في مقارنة مع قصائد أخرى لبودلير من أجل إظهار تماثلات موضوعية أو دلالية وبنيوية شاملة " بنية دلالية " يمكن ربطها " برؤية العالم " (ليقي شتراوس / چاكوبسون ١٩٦٢ ، بوسنر، ١٩٦٩ ، جولدمان، ١٩٧٠).

ويقارن باستمرار كل من بنيامين وأدورنو في دراستهما حول الشعر الغنائي، أكثر من نص مع الحرص على توضيح اختلافاتهم وخطوطهم المشتركة بالمقارنة مع وضع اجتماعي وتاريخي محدد . وبعكس الدراسات السيميوطيقية والأسلوبية التي يمكن أن تدرس قصيدة واحدة وعلى وجه الخصوص " بنيتها اللغوية الأساسية " (كوكيه Coquet ، ١٩٧٣)، فإن علم اجتماع النص يجب أن يتجه نحو كلية مجموعة النصوص كي يدرج نقاط

التقائها وتناقضاتها داخل السياق الاجتماعي التاريخي . إن أية محاولة لإظهار إشكالية اجتماعية بدءاً من نص معزول (لقصيدة أو صفحة من رواية) هي محاولة هشة .

أ - من والتر بنيامين إلى شارل بودلير

هالة وصدمة

قبل أن أتعرض لتحليلات بنيامين لشعر بودلير ، يبدو لي من الضروري أن أقدم بعض الملاحظات حول جماليات بنيامين . إنها جماليات الأزمة، جماليات نبعت من التحول من العصر الليبرالي ، الفردي إلى عصر الاحتكارات ، البيروقراطيات النقابية والاتحادات الاحتكارية للمنتجين .

إن الفن والأدب اللذين كان لهما على وجه الخصوص (وليس فحسب) في القرن ١٩ طابعاً فردياً وكانا يتوجهان للفرد ذاته ، تم إدماجهما في القرن العشرين بالاتصال الجماهيري بما يسميه هوركهايمر وأدورنو "الصناعة الثقافية" Industrie Culturelle . إن تأمل هاوى الفن ، والقراءة الخاصة لهاوى جمع الكتب النادرة والكونسير الذى تقدمه سيدة مجتمع لبعض المدعوين نوى الشأن ، كل هذا استبدل به العروض التجارية الكبيرة .

إن الموقف الذى يتخذه بنيامين أمام هذه التحولات، ملتبس: فهو يود من جانب ، أن يرى الفن وقد تخلص من قوانين السوق ، ومن جانب آخر، يأمل أن تتمكن " أجهزة الإعلام " (فى الثلاثينات) من لعب دور نقدي هام بتحريك الوعي عن طريق البروليتاريا وبالإسراع على هذا النحو بالعملية الثورية. إنه يبحث عن أشكال أدبية قادرة على ملء وظيفة " العامل المحفز " فى اتصال جماهيري نقدي . فى دراسة عنوانها " برنامج مسرح بروليتارى للأطفال ("Programm eines proletarischen Kindertheaters") يتساءل حول الدور الذى يمكن أن يلعبه المسرح فى وعى الطبقة العاملة (بنيامين، ١٩٢٨، ١٩٧٣: ٨٢).

ويهتم بنيامين بالإعلان وبالتصوير وبالسينما :باحثاً عن وسائل لإخراج الفن من دائرة الخصوصية لتحويله إلى حدث جماعى .

وبنيامين على حق ، فإن الفن التقليدي ، حتى في العصر الليبرالي (القرن ١٩) مخصص للتأمل أو القراءة المنفردة ، إنه فن الإنسان الخاص "Privatmann". ويسمى بنيامين هذا الفن الذي وجد في رأيه منذ القدم ، " الفن الهالي " L'art auratique . وينطلق بنيامين ، ساعياً إلى تخطي نظام قيم طبقته الخاصة، البورجوازية الليبرالية ، باحثاً عن فن نقدي يتخلص من هالته (من فرديته ونزعتة للخصوصية Privatisme) ويتجه صوب الاستهلاك الجماهيري .

فن " هالي " و " قيمة عبادية". ("Kultwert" "Valeur Cultuelle): ما معنى عمل فني " هالي " ؟ إن الأعمال الفنية التقليدية كانت في كثير من الأحيان ترتبط بأماكن محددة وكان من المستحيل فصلها عن هذه الأماكن: ونعني هنا بعض تماثيل الحضارة الإغريقية الرومانية القديمة ، والآثار المقدسة واللوحات المقدسة للعصر الوسيط ، إلخ .

جميع هذه الأعمال كانت فريدة وبعيدة عن المشاهد . كانت مرتبطة بشدة بالعبادة، بالدين هذا ما كان يشكل أساس الفن الهالي وكان هلموت لثين Helmut Lethen على حق حين كتب التالي عن نظرية والتر بنيامين: "إن هذا هو ما يشكل " الصفة العبادية" Caractère Cultuel "للهاة": ما هو بحق "بعيد" distant يظل للأبد "صعب المنال" Inaccessible ويضيف مشيراً إلى الصفة " الهالية " للقراءة المنفردة: " إن طقس التلقي المنفرد يصبح للفرد هو التعويض عن عجزه الاجتماعي". (لثين، ١٩٧١ : ٥٥).

إن هالة العمل الفني التقليدي، المرتبط بالعبادة، كما يعرفها بنيامين هي " الظهور الوحيد للشيء بعيد ، أقرب ما يمكن أن يكون " (بنيامين ١٩٣٦ : ١٩٧١ : ١٧٨).

إن إخراج مسرحية يكون دائماً أكثر " هالية " Auratique من الفيلم على أساس أنها فريدة وتعود بنا إلى أول عرض، بعيد ومن المستحيل إنتاجه مرة أخرى : " إن أسوأ عرض لفافوست على مسرح إقليمى، (يلاحظ

بنيامين)، لا يزال أفضل من فيلم حول نفس الموضوع ، فهو على الأقل ينافس مثالياً العرض الأصلي لويمر Weimar (بنيامين، ١٩٣٦، ١٩٧١ : ١٧٦).

ويتمنى بنيامين ، على الرغم من الحنين الذي يستنتج به ضياع الهالة في المجتمع الحديث ، إنتاجاً فنياً تتنازل فيه القيمة الهالية أو العبادية ("Kultwert") عن مكانتها لقيمة العرض ("Ausstellungswert") للقيمة الاتصالية والتي تسمح وحدها بتقارب بين الفن والجمهور .

فن " ديمقراطي " وقيمة عرض ("Ausstellungswert") : إن العمل الفني في القرن العشرين يميل إلى أن يفقد " هالته " (تميزه Singularité ومسافته بالنسبة للمشاهدين) التي تركت فريسة لإعادة الإنتاج الآلية التي يتسم بها التصوير (الفوتوغرافيا) وصناعة السينما .

ولا يجب أن نأخذ التعريف المكاني للهالة الذي طرحه بنيامين بمعناه الحرفي . فالمسافة و التميز هما دلاليان وأيديولوجيان أكثر منهما مكانيين . وهكذا فإنه من الجائز جداً الحديث عن هالة نص وعن قصيدة هالية . فيمكن على سبيل المثال، التحدث عن نصوص غامضة صعبة الفهم ترفض التواصل بتزويد المسافة . في مجتمع السوق الذي يخضع فيه الفن لتأثيرات قانون خارجي . فإن التقارب بين العمل الفني وبين ماليس هو (آخره) هو الذي يهدم المسافة الهالية والتميز . وعلى سبيل المثال، فإن نقل نص أدبي إلى أجهزة إعلامية أخرى ينتهي بأن يطابقه بما ليس هو : وهكذا نجد أن الفيلم الشهير " الموت في فينيسيا " يميل إلى مطابقة قصة توماس مان بقلب أيديولوجي قابل للترويج . وملايين المشاهدين الذين ربما لم يقرأوا أبداً النص، يشاهدون الفيلم في التلفزيون وتساهم المشاهدة الجماهيرية في إزالة المظهر الآخر للهالة ألا وهو: المسافة .

وفي رأى بنيامين فإن الإمكانية التقنية لإعادة إنتاج الأعمال الفنية تجعل جميع الظواهر الجمالية والتي تظهر بمظهر قاسمها المشترك قابلة

للمقارنة. ويعتبر بنيامين قيمة العرض، على الرغم من هذا النقد (الضمنى فى كثير من الأحيان) الذى يوجهه للفن التقتنى، هى القيمة الأصلية للإنتاج الفنى الحديث كما يعتبر تدمير القيمة الهالية كفعل نقدى. كما يرى أن الفن الحديث يجب عليه أن يتخطى التأمل الخاص ليتجه نحو الاتصال الجماهيرى ويكتشف بنيامين فى قيمة العرض (قيمة الاتصال) الصفة الديمقراطية والنقدية للفن المعاصر وبخاصة للفيلم.

وكان أدورنو أول من لفت الانتباه إلى العلاقة الوثيقة بين قيمة العرض Ausstellungswert وقانون السوق: «إن قيمة العرض» التى يجب هنا أن تحل محل «القيمة العبادية» الهالية هى صورة لعملية التبادل. الفن الذى لا يستطيع أن يتخلص من قيمة العرض يخدم عملية التبادل، مثله مثل مقولات الواقعية الاشتراكية التى تتكيف مع الوضع القائم للصناعة الثقافية» (أدورنو، ١٩٧٠، ١٩٧٤: ٦٦).

إن قيمة العرض التى يعتبرها بنيامين قيمة نقدية وديمقراطية والتى هى فى رأى بودلير قيمة يجب على الفن الحديث أن يسعى إليها ليخاطب الجماهير، هى فى المنظور الأدورنى تعبير عن قانون السوق. وقد تنبه بنيامين إلى «حيلة التبادل» هذه حين كتب عن بودلير: «إن تواطؤ بودلير مع هذا الانهيار [انهيار الهالة فى الصدمة] قد كلفه الكثير» (بنيامين ١٩٣٩، ١٩٧١: ٢٧٥).

التحليل الاجتماعى لـ «زهور الشر» Fleurs du Mal : يجب قراءة تحليلات بنيامين لزهور الشر فى السياق الذى رسمناه هنا وينطلق بنيامين فى تعليقاته من فكرة أن كتابة بودلير تبشر بفن غير هالى، نقدى بل وحتى ديمقراطى.

إن التحويل الديمقراطى Démocratisation يمكن استشعاره ليس فقط فى النص الغنائى، بل أيضاً على المستوى الشخصى: إنه الكاتب الذى يفقد «هالته» ووضعه الامتيازى كقس علمانى. إنه يفقد هالته فى ازدحام

المدينة الكبيرة : " وأنا أتخطى الشارع ، حيث كنت أمد الخطى لتفادي العربات ، إنحلت هالتي وسقطت فى طين الطريق . ولحسن الحظ فقد أتيت لى الفرصة لالتقاطها ، ولكن هذه الفكرة التعيسة تسلمت للحظة بعدها إلى نفسى ، إنه نذير شؤم [...] " (بودلير ، ١٨٨٧ ، ١٩٧٥ : ٦٥٩) .

إن " نذير الشؤم " يخص وضع الشاعر فى المجتمع الحديث فبعد أن فقد مكانته العريقة ، لم يعد فوق العامة أصبح مرغماً على التعايش وسط الزحام " الديمقراطية " الذى أفقده " هالته " . لم تعد هناك الآن أية مسافة مقدسة تفصله عن الغوغاء المتدنسين المبرقشين النابعين من المجتمع الصناعى ، مجتمع السوق .

وفى نظر بنيامين فإن فقدان الهالة الذى ألحقته الحداثة بالشاعر ، يرمز إلى فقدان الهالة فى الفن المعاصر . ويتمشى كلا الفقدانين مع مايسميه بنيامين : " الصدمة " das Chockerlebnis وكما يتلقى الشاعر فى الزحام صدمة واقعية فإن الصدمة الأسلوبية تؤدي كذلك إلى هدم التميز واختزال المسافة فى القصيدة . (يعتبر بنيامين لامارتين كشاعر " هالى " يسعى إلى الاحتفاظ بالمسافات المكرسة المقننة مع رفض خلط الأساليب والمعاجم) ماذا تعنى بالتحديد الصدمة الأسلوبية ؟ كيف يمكن للهالة ، المعرفة على أنها تميز ومسافة ، أن تلغى فى قصيدة ؟ من الممكن توضيح عملية " تدمير الهالة " (Benjamin , " Zertrümmerung der Aura ") فى أربع سياقات مختلفة:

أولاً: يستنتج بنيامين فى " أزهار الشر " ، أن بودلير يتجه إلى بعض الموضوعات الحديثة التى يجب من وجهة النظر التقليدية الرومانسية استبعادها من المجال الغنائى : المدينة الكبيرة والجموع والمواصلات والبغاء على سبيل المثال ، لم تكن تعتبر مواضع شعرية بالنسبة للامارتين والممثلين الآخرين للرومانسية .

ويحتفظ بودلير بالقيمة التقليدية للحب ، إلا إنه يضعها فى سياق جديد ("متميز " على حد قول الشكليين الروس) : فهو بدلاً من أن يجمع بين الحب والطبيعة أو العصر القديم (كما يفعل لامارتين ، كيتس أو مورياس) وبدلاً من تقريبه للحب من المشاعر الدينية ، يطرح بودلير الحب فى مجاهل المدينة الكبيرة . ويذكر لنا بنيامين القصيدة المشهورة التى عنوانها : إلى مارة
A une passante

الشارع المصم حولى كان يصرخ

" La rue assourdissante autour de moi hurlait

طويلة ، رفيعة ، فى حداد عظيم ، ألم جليل

Longue , mince , en grand deuil , douleur majestueuse

مرت امرأة ، بيد مترفة

Une femme passa , d'une main fastueuse

رافعة ، هازة الضفيرة والحاشية ...

Soulevant , balançant le feston et l'ourlet... "

ويكتب بنيامين : " ليست هناك فى قصيدة " إلى مارة " أية جملة أو كلمة تذكر صراحةً الزحام . فى حين أنه هو الذى يحرك كل القصيدة كما تدفع الريح الشراع [...] " (بنيامين ١٩٣٩ ، ١٩٧١ : ٢٤١) . " الشارع المصم " : هنا توليف من الكلمات لا يمكن أن نجد مثله فى الشعر الرومانسى الذى يرغب بودلير فى القطيعة معه . إلا أننا نجد هذا التعبير الآخر الذى يشف عن رومانسية قديمة تجاوزها الزمن : " ألم جليل " .

ويمكن أن نستنتج فى النهاية أن النص البودليرى يميل إلى خلط الشفرات الأدبية التى يعتبرها التراث (الكلاسيكى أو الرومانسى) متعارضة: تتعايش وتتداخل فى " أزهار الشر " معاجم الرومانسية، الرمزية والواقعية بعضها البعض . ويولد هذا الجمع بين المفردات اللغوية المتعارضة ظاهرياً،

صدمة لدى القارئ الذى اعتاد على الشفرات المقننة ويؤدى هذا إلى تحطيم الهالة : المسافة والتميز الأسلوبيين (الدالين) (ويمكن اعتبار نظريات إيورى لوتمان التى تعرف الواقعية بأنها خليط من الشفرات والمعاجم المتعارضة مكملة لدراسات بنيامين الاجتماعية .) (لوتمان ، بنية النص الفنى ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٣ (La Structure du texte artistique).

ثانياً : إلى جانب التجديد الخاص بالتييمات من الممكن إذن فيما يخص " أزهار الشر " التحدث عن تجديد معجمى Lexicale والذى يحل بنيامين بعض تفاصيله " إن أزهار الشر هو الكتاب الأول الذى أدخل فى المجال الشعرى ليس فقط كلمات من أصل نثرى بل أيضاً كلمات من أصل حضرى [..] . مثل كلمات : العين أو الوابور أو الأومنيبوس (فى صيغتها العامة الفرنسية : Quinquet , wagon . omnibus) ولا يتخرج من استخدام كلمات مثل : ميزانية ، سمافور أو مزبلة : فثمة نظير معجمى لغياب التجانس القيمي والأسلوبى (بنيامين ، ١٩٣٨ ، ١٩٧٤ : ٩٩) .

ثالثاً : أحد المظاهر الأخرى للنص البودليرى هو رفضه للطبيعة كموضوع شعرى . ومع الطبيعة تستبعد أيضاً " المسافة الهالية " التى يجمع بنيامين بينها ، فى تعريفه للهالة ، وبين المسافة الطبيعية ، المكانية : " الاستراحة فى الصيف ، فى وقت الظهيرة ، ومتابعة سلسلة الجبال فى الأفق أو فرع يلقى ظله على من يرتاح - هو تنفس هالة هذه الجبال أو هذا الفرع (بنيامين ، ١٩٣٦ ، ١٩٧١ : ١٧٨) .

هذه المسافة الهالية التى احتفى بها الشعراء الرومانسيون الذين كانوا يفضلون التأمل ، تخلى عنها بودلير فى نظير الواقع الحضرى ، وصخب الشارع الذى يجعل من التأمل التقليدى ، " الهالى " ، مستحيلًا . بودلير يخرع تأملاً جديداً فى وسط الزحام ويكتب فى Spleen de Paris " حنين باريس " : ليس لكل شخص فرصة أن يأخذ حمام زحام : إن الاستمتاع بالزحام فن [...] ، الزحام ، الوحدة : مصطلحان متساويان وقابلان للتبديل

بالنسبة للشاعر النشيط والخصب [...] إن المتنزه الوحيد والمتأمل يحصل على سكرة متميزة من هذا التوحد الكوني " (بودلير، ١٨٦٩، ١٩٧٥ : ٢٩١).

ومن اللافت للانتباه أن نرى هنا كيف يضيف بودلير إلى خليط الأساليب ، تركيبية جدلية بين الوحدة والتواصل : إن مبدأ غياب التجانس إذن يتواجد على حد سواء على مستوى الكتابة وعلى المستوى الأيديولوجي .

ويسعى بنيامين إلى إظهار " غياب التجانس " البودليري هذا في علاقته مع تطور المجتمع البورجوازي بوصفه مجتمع سوق . ويؤمن بأن التعايش بين الأساليب والمواضيع في أزهار الشر ، يجب تفسيره في ضوء علاقته بالتباين الثقافي لمجتمع السوق الذي يجمع بين قيم جمالية أخلاقية ومتعارضة (أنظر ملاحظات ماركس في الفصل الأول ، ط) .

تميل آليات السوق إلى تدمير العناصر الهالية للثقافة عن طريق فصل المنتجات الثقافية عن سياقها الأصلي . كل شيء قابل للمقارنة على مستوى السلعة : مجلات رائجة ، نسخ مقلدة للوحات رامبرانت ، صور فنية ، توماس مان وفيسكونتي ، نوتردام باريس ، برج إيقل ، الساكويه كور .

هذا الأثر " الكرنفالي " Carnavalesque (حسب تعبير باختين) والذي تفرزه قوانين السوق ، تعيد إنتاجه نصوص بودلير الغنائية التي تظهر بهذا الشكل السمة السلعية للثقافة البورجوازية : " فصل الأشياء عن سياقها المعتاد - عملية تتصف بها في العادة السلع المعروضة - يشكل منهاجاً مميزاً " (بنيامين ، ١٩٥٥ ، ١٩٧٦ : ١٦٦) .

لا ينفصل إذن شعر بودلير في منظور بنيامين ، عن ازدهار مجتمع السوق ، المجتمع الرأسمالي ، الذي تظهر فيه قيمة العرض - Ausstellungs-wert للمنتجات الثقافية التي تحولت إلى سلع . يعبر بودلير عن رد فعله في مواجهة التطورات الاجتماعية والاقتصادية ويتجنب عن طريق إدراجه للصدمة (das Chockerlebnis) في شعره في نفس الوقت المفارقة التاريخية anachronisme للشعر " الهالي " ، التقليدي .

وكثيراً ما عوتب بنيامين على أنه طبق بشكل شديد المجازية والتماثل الجدلية الماركسية بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج على مجال الفن (انظر مثلاً بورجر ١٩٧٤ : ٣٨) ودون أن يكون خاطئاً أو غير دقيق فإن هذا العتاب يتجنب المشكلة النظرية الأساسية الكامنة فى التأويلات الاجتماعية لبنيامين. لأنه كان من أوائل من وضعوا عمل علم الاجتماع الأدبى على مستوى اللغة: لقد رأينا كيف سعى لوصف تدمير الهالة لدى بودلير بوصفه عملية لغوية. بتعبير آخر : فالمقصود وصف وشرح ردود فعل الخطاب الشعري أمام وضع اللغة فى مجتمع سوق متطور . وبالطبع فإن هذا المدخل له أهمية خاصة بالنسبة لعلم اجتماع النص .

فعلم اجتماع كهذا لا يكتفى بتحليل التعقيد اللفظى للنص الشعري بل يسعى إلى تخطى إطار التحليل البنياميني من أجل تعريف العالم الدالالى الذى شكله بودلير . كما سعى لإظهار التعارضات الدالالية الأساسية لهذا العالم ولتوضيح الشفرة غير المتجانسة التى تؤدى توحيداتها التجديدية إلى ما يطلق عليه بنيامين ، الصدمة (وسيكون من المهم ، فى هذا الإطار، دراسة الأشعار "الهزلية" ، والآثار " الكرنقالية " والازدواجيات الدالالية التى يتسم بها شعر بودلير .

وفى نفس الوقت فمن الواجب القيام بدراسة أكثر تعمقاً وأكثر تنظيماً لما سأسميه بـ " الوضع الاجتماعى اللغوى " لهذا العصر : فلا يكفى «استخراج» مفردات لغوية لمجتمع لويس فيليب فى القصيدة . ولكن يجب ، انطلاقاً من عمل جورج ماتوريه (ماتوريه ١٩٥١) محاولة وصف التحويل الرائج للغة كما عايشها كتاب مثل جوتيه وبودلير . إن تناول بنيامين «باطنى» immanent أكثر من اللازم : لا يراعى بشكل كاف اللغات الجماعية المختلفة (لغة الصالون ، البلاغات السياسية ، العلمية ، الصحفية، ألخ) التى استوعبها وحولها نص بودلير .

وهذا جان رينيه لادميرال فى دراسته " بين السطور ، بين اللغات " Entre les lignes , entre les langues يتحدث عن "افتراضات لغوية

وسيميوطيقية "Présupposés linguistiques et sémiotiques" تحتويها
ضمنياً نظرية الترجمة لبنيامين (لادميرال، ١٩٨١ : ٧١).

إن بنيامين ، مترجماً لبودلير، ومنظراً للترجمة ، يمكن اعتباره، فى
الوقت الحالى، أحد رواد علم اجتماع النص . ومن الواجب قراءة أعماله على
ضوء السيميوطيقا المعاصرة التى مازالت " شكلية " لدرجة لا تسمح بتطوير
" الافتراضات " التى يتحدث عنها لادميرال .

ب - تيودور أدورنو : الشعر كنقد .

لقد رأينا بالنسبة لأدورنو أن قيمة العرض التى أراد بنيامين أن
يستبدلها بالقيمة الهالية للفن التقليدى ، هى قبل كل شىء مظهر للقيمة
التبادلية : فهى تحول الفن إلى سلعة (انظر الفصل الأول ، ٤ ، ط) . إن
النسخ المقلدة للوحات ، والطبعات الشعبية (المختصرة فى كثير من الأحيان)
للنصوص " الكلاسيكية " ، ومحاولات تقديم الروايات أو القصص الشهيرة
على الشاشة جمعياً لها قاسم مشترك: النجاح التجارى .

ولا يدافع أدورنو عن بقاء الفن الهالى ، لكنه يعترف، أكثر من
بنيامين، بالمظاهر النقدية للهالة التى هى ظاهرة مزدوجة . ويسعى فى
« النظرية الجمالية » La Théorie esthétique إلى إبراز الوظائف النقدية
للتميز والمسافة التى يرفض التخلّى عنها لحساب الاتصال الجماهيرى .
جميع التنازلات التى يقوم بها الفنان والفن لإمكانية الفهم والتواصل، هى،
فى رأيه ، تنازلات لقيمة التبادل والأيدولوجية (للقوالب القابلة للتسويق
والأيدولوجية) .

يحمل الفن النقدى ، فى مفهوم أدورنو فى " النظرية الجمالية " ، طابع
النفى: عن طريق مقاومة القوالب الأيدولوجية والتجارية ، عن طريق رفض
الاتصال. إنما النصوص التى يمكنها أن تفلت من الاتصال الجماهيرى
تستطيع أن تلعب دوراً نقدياً فى المجتمع المعاصر. " الاتصال هو فى الواقع
تكيف الذهن مع مفهوم المنفعة الذى يدرجه فى نمط السلع وما نسميه اليوم
معنى Sens يشارك فى هذا المسخ " (أدورنو، ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ : ١٠٤) .

ورفض الاتصال الذي ينادى به أدورنو ، له تراث طويل فى الأدب الحديث . فى فرنسا كان مالارميه (الذى يجمع نقاد الأدب بينه وبين " النزعة الجمالية" Esthétisme) من أوائل من دافعوا عن الشعر الغامض Poésie hermétique الذى يخرج على اللغة الاتصالية عن طريق تعدد معناه ومستحدثاته اللغوية وطابعه غير الإحالى . فالكلمة فى نص مالارميه ليست لها قيمة إلا بوصفها دالا لا يترجم ولا يستبدل ، حيث يكتب: " إن البيت الذى يصوغ أكثر من مفردة لغوية كلمة كاملة وجديدة وغريبة على اللغة وكأنها تعويذة ، ينهى هذا الانعزال للكلمة [...] " (ما لارميه ، ١٩٤٥ : ٣٦٨).

تستأنف جماليات أدورنو صلتها بالنفى المالمارى الذى يميز كل الطليعة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . هذه الجماليات إذ تأخذ على عاتقها نفى الطليعة وتمردها على النفعية البورجوازية ، فإنها تؤدى إلى فرضية استقلالية الفن الأصيل ، النقدى . وهى تؤدى إلى ذلك فى ظل وضع تاريخى شكك فيه الطليعيون الجدد السوريين والمستقبلون والذين رغب ممثلوهم فى إزالة الفجوة بين الفن والحياة " عن طريق ممارسة الشعر" ، فى هذه الفرضية.

فى كثير من الأحيان ، يمكن اعتبار الجماليات الأدورنية كنتاج للنزعة الجمالية : ك" تنظير " نقدى للممارسة الكتابية لمالارميه وفاليرى وبروست وچورچ . وليس صدفة أن يكتب أدورنو دراسات حول هؤلاء الكتاب الثلاث الآخرين . وعلى الرغم من ذلك نرى أنه لا يقصد أن يكتب دفاعاً عن الشعر الغامض . فهو يسعى دون أن يدين شاعراً مثل چورچ بأى التزام اجتماعى ، إلى إظهار التناقضات الكامنة فى أشعاره: تناقضات تنشأ من تواجد عناصر نقدية (نافية) وأيديولوجية (إثباتية) .

وحتى الفن الذى يتطلع إلى النفى والاستقلال لا يتمكن من الهروب من التاريخانية Historicité : إنه مستقل وحدثاً اجتماعياً فى نفس الوقت . ولا يؤكد أدورنو أبداً (مثل ليبفريد) أن التحليل الاجتماعى لا يمكنه أن يتوجه إلى النصوص الغامضة ، المتعددة المعنى ، التى لا يظهر " محتواها "

الاجتماعى أو التاريخى . وحسب النظرية الجمالية : فإن جميع الأعمال الفنية لها طابع مزدوج : إنها فى نفس الوقت مستقلة وتمثل أحداثاً اجتماعية . " إن الطابع المزدوج للفن بوصفه مستقلاً وحدثاً اجتماعياً ينعكس باستمرار فى مجال استقلاليته " (أدورنو ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ : ١٥) . إن الاستقلال الجمالى (المميز للمجتمع البورجوازي ، العلمانى (sécularisée) هو نفسه إذن حدث اجتماعى .

النص الشعري والمجتمع: يتساءل أدورنو فى خطاب هام عنوانه "Reda über Lyrik und Gesellschaft" حول الطاقات النقدية للنص الشعري : حول قدرته على مقاومة الاتصال الذى تحركه " المصالح الكبيرة " ويؤكد التالى " أن الأعمال الفنية لا تدين بأهميتها إلا لمقدرتها على إظهار ما تخفيه الأيديولوجية " (أدورنو ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٩ : ٧٧) . (ومن المثير للانتباه استنتاج أن هذه الفكرة، يعيد بيير ماشرى اتخاذها، بعد ذلك ، فى سياق التوسيري ، حيث يؤمن بأن النص الأدبى يظهر فجوات وتناقضات الأيديولوجية (انظر الفصل ٢ ، ٢) .

وبإمكاننا أن نميز فى " مقال فى الشعر والمجتمع " برهانين أساسيين سبق ذكرهما فى النظرية الجمالية : أن الشعر الغامض ، المتعدد المعنى ، يعارض الاتصال عن طريق نفى المعنى (الأيديولوجى) ولكن هذا النفى للمعنى بعيداً عن أن يكون حدثاً غير قابل للشرح ، هو نفسه دلالى ويجب شرحه فى إطار سياق اجتماعى وتاريخى ، حيث يجتهد الفن لإنقاذ بعده النقدى واستقلاليته بمعارضة الاتصال . فيظهر إذن الشعر فى " مقال حول الشعر والمجتمع " مثلما فى النظرية الجمالية ، مستقلاً وكحدث اجتماعى .

ويذكر أدورنو لكى يوضح نظرياته عن البعد الاجتماعى النقدى (" Ideologiekritisch ") للنص الشعري بعض الأشعار لإدوارد موريك وستيفان جورج . ويظهر فى الحالتين (وبراهينه هامة جداً بالنسبة لعلم اجتماع النص) إلى أى حد تتشرب اللغة والأسلوب فى كثير من الأحيان بأيديولوجيات متناقضة ويصف فى حالة موريك مزيج أسلوبين متطرفين، كل

واحدة منها إذا نظرت لها مستقلة عن الأخرى تجدها تعبر عن أيديولوجية خاصة .

لم يعد للأسلوب الكلاسيكى الذى يتطلع إلى الموضوعية أى رنين ، لأنه فقد القدرة على التعبير عن الشعور الذاتى الذى يلعب دوراً هاماً فى الأسلوب الرومانسى لعصر بيدرماير * "Biedermeier" ، إلا أن الكتابة الرومانسية لهذا العصر لا تتخطى أبداً الحدود الضيقة للأشكال الفردية الخاصة. إنها تشهد على انحصار جزء من البورجوازية فى الدائرة الخاصة.

وبتحقيقه لتركيب من الأسلوبين وصورهما المجازية يجمع موريك بين الذاتية الرومانسية والموضوعية الكلاسيكية ، الدائرة الاجتماعية والدائرة الخاصة : " إنه يتعرف فى نفس الوقت على الأسلوب المتعالى الأجوف والطابع التافه البورجوازي الصغير والمحدود لعصر بيدرماير الذى ينتمى إليه جزء كبير من أعماله : لعصر عاجز عن فهم الشمولية " (أدورنو ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٩ : ٩٦) .

إن القيمة النقدية لشعر موريك تكمن فى هذا الجمع الناجح بين أسلوبين مبتذلين والذى يولد لغة قتلها الإفراط الأيديولوجى . وليس هناك شك فى أن مفهوم الابتكار يلعب دوراً هاماً فى الشروح النقدية لأدورنو . إلا أن أدورنو أدرجه داخل سياق اجتماعى واجتماعى نقدى . التركيب الابتكارى لموريك هو فى نفس الوقت خلق لعلاقة بين ضدتين تفصل بينهما الأيديولوجية: الدائرة الخاصة والدائرة العامة ، الفردى والاجتماعى . فى إطار هذا المنظور نفسه . يظهر شعر ستيفان چورچ كتوازن ضعيف بين الأيديولوجية والنقد . حسب أدورنو ، فإن بعض أشعار چورچ تقدم تنازلات للأيديولوجية المناهضة للديمقراطية لـ «چورچ - كرايس " (الحلقة الأدبية التى أسسها چورچ) ، والتى استبعد أعضاؤها فكرة الديمقراطية التى اعتبروها سوقية وتافهة .

* عصر البيدرماير هو أسلوب واقعى مرتبط بالإنسان العادى المحود الأفق،

ساد فى الفترة بين ١٨٦٠ - ١٨٩٠ .

وبقدر ما تكرر وتطور بعض أشعار جورج اللغة النخبوية " للحلقة " Cercle " فهي تحمل خاتم القالب الأيديولوجي . فهي إذ تذكر بنبرة متعالية وأحياناً متحذقة التميز ، النقاء والنبالة ، توحى بمسافة في مواجهة السوقى ، ومسافة يمكن أن نعتبرها " هالية " بالمعنى النفيى للكلمة : إنها تظهر العلاقة بين نرجسية الشاعر والأيديولوجية النخبوية élitare (النرجسية الجماعية) "للحلقة " Cercle .

ويذكر أدورنو فى دراسته حول جورج المنشورة فى -Noten zur Literatur I V بعض الأبيات بالألمانية لتحديد ما يقصده بـ " الأسلوب الأيديولوجي " :

"Du schlank und rein wie eine flamme أنت رقيقة ونقية مثل الشعلة
Du wie der morgen zart und licht انت مثل الصبح حنونة وصافية
Du blühend reis vom edien stamme. انت غصن زهر نبيل المقام
Du wie ein quell geheim und schlicht.." انت مثل النبع سريعة وبسيطة

إلى جانب هذه الأبيات التى لا تفلت فى رأى أدورنو مما يسميه فى "النظرية الجمالية " السقوط فى الأيديولوجية " (Sturz in die Ideologie) نجد فى أعمال جورج ، نصوصاً تفلت ، بفضل بساطتها وتعدد معناها ، من البلاغة الأيديولوجية: من رموزها ، أمثلياتها ، كليشيهاتها ، واختزالاتها الدلالية . ويذكر أدورنو قصيدة أخرى احتفظت فى رأيه ، بمحتواها من الحقيقة (" Wahrheitsgehalt").

"Ihr tratet zu dem herde إنكم تخطون نحو النار المشتعلة
Wo alle glut verstarb حيث يموت أى توقد
Licht war nur an der erde لم يكن على الأرض سوى ضوء

Vom monde leichenfarb	من القمر الشاحب بلون الجثة
Ihr tauchtet in die aschen	لقد غرستم فى الرماد
Die bleichen finger ein	أصابعكم الشاحبة
Mit suchen tasten haschen	تبحثون وتتحسسون
Wird es noch einmal schein'	مرة أخرى سيكون ثمة شعاع
Seht was mit trostgebärde	انظروا ما بحركة مواساة
Der mond auch rät:	ينصح به القمر :
Tretet weg vom herde.	ابتعد دائماً عن النار المشتعلة
Es ist worden spät."	وقد فات الوقت

وبالنسبة لهذه القصيدة ، يلاحظ أدورنو أنه على الرغم من نفيها للمعنى المباشر فإنها توحى بوضع تاريخى . إنها تعبر عن " إحساس العمر الكونى " (" das Gefühl eines " Le sentiment de l'âge universel " (" Weltalters" , Adorno) دون ذكر حدث تاريخى محدد .

وفى الوقت نفسه يتفادى الأمثلة التى تحيل إلى فكرة معينة. إن أفضل نصوص جورج هى إذن الأشعار الغامضة التى يؤدى تعدد معناها إلى استحالة القراءة الاختزالية .

ولا يقصد أدورنو فى تحليلاته أن يضع مجرد فاصل بين العناصر النقدية والعناصر الأيديولوجية فى النص الشعرى ، بل يهدف إلى أن يظهر، بشكل جدلى ، الاعتماد المتبادل بين الأيديولوجية والنقد وبين التأكيد والنفى . وفى هذا المنظور تظهر نزعة جورج الأرسقراطية على أنها ظاهرة مزدوجة القيمة أساساً. فهى من ناحية تجعل من النقد الجذرى للثقافة واللغة اللذين سقطا فريسة للرواج التجارى والاتصال الجماهيرى، ممكن، ومن ناحية أخرى تعلن وتحضر (مثل أرسقراطية نيتشة) لظهور الأيديولوجية النخبوية

للاشتراكيين القوميين National - Socialist ويكتب أدورنو في دراسة عن " جورج وهوفمنستال " : " جعلت البربرية ثقافة جورج ممكنة في كل أو أن " (أدورنو ١٩٥٥ ، ١٩٧٦ : ٢٤٠). في نهاية الدراسة يعترف أدورنو بأن هذين الشاعرين "فسدا" في النظام القائم : إلا أن إستلابهما ورفضهما الدائم لمجتمع السوق ومجتمع الطبقات يظهر من خلال انحدارهما الأخلاقي . إن نقد أدورنو على الرغم من كونه انطباعيا ذاتياً وأحياناً اعتباطياً (من وجهة النظر السيميوطيقية) فإن له ميزة حاسمة إذا قارناه (بالنقد الذي وجهه لوكاتش وبعض الماركسيين الآخرين لنييتشه وجورج : فهو ليس اختزالياً وليس أحادياً ، إنه يراعى القيمة المزدوجة للنصوص والكتاب المشار إليهم . ومن الخطأ القول إن نييتشه وجورج " ليس لهما أى دخل في ظهور الاشتراكية القومية ومن الخطأ كذلك التأكيد أنهما من رواد النازية (انظر في هذا الموضوع: لوكاتش " دمار العقل " G . Lukàcs , Die Zerstorung der Vernunft , Neuwied und Berlin , 1962).

إن واجب النقد الأدبي كما يفهمه أدورنو يكمن في منع الاختزال الأيديولوجي وحماية النصوص الأدبية من " السقوط في الأيديولوجية " وإظهار " محتواها من الحقيقة " (" Wahrheitsgehalt ") المدفون في كثير من الأحيان تحت القوالب الرائجة . إن العمل الفني لا ينفصل عن تلقيه المتغير، إنه صيرورة تاريخية ولا يستبعد تدنيه على مر الزمن .

إن العمل الفني يعتمد على النقد حتى يصبح ما هو عليه: لكن إذا كانت الأعمال المكتملة لا تصبح ما هي عليه إلا لأن كينونتها صيرورة ، فهي تُحال إلى الأشكال التي تتبلور فيها هذه العملية : "التفسير والشرح و النقد" (أدورنو ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ : ٢٥٨). وعلى ضوء هذه العبارة من " النظرية الجمالية " ، علينا أن نحاول فهم الكتابات النقدية المنشورة بالتالي في أربعة أجزاء عنوانها " ملاحظات عن الأدب " : Noten sur Literatur .

خطاب الفصل Parataxis : يسعى أدورنو في دراسته الطويلة عن هولدرلين إلى تخليص الشاعر مما يسميه " لهجة الخصوصية " Jargon der Eigentlichkeit من بلاغة الوجودية الألمانية التي تسيطر في الخمسينيات على العديد من النصوص الأدبية لتوضيح مذهبها . وفي كتابه " لهجة الخصوصية . نحو الأيديولوجية الألمانية Der Jargon der Eigentlichkeit Zur deutschen Ideologie . (فرانكفورت ، ١٩٦٤) ، يوضح أهمية اللغة الوجودية في مختلف المؤسسات الثقافية ، في التعليم ، في الصحافة وفي النقد الأدبي . ويجتهد لكشف القناع عن الصفة المحافظة بل والرجعية لفلسفة الوجود Seinsphilosophie الهيدجرية التي تحول هولدرلين إلى شاعر " الأرض " : الأرض الألمانية .

وحسب أدورنو فإن هيدجر يهمل المظاهر الإنسانية والنقدية لشعر هولدرلين للتركيز على العناصر التي يمكن أن تفسر بشكل تقليدي وقومي . إن مؤلف " خطاب الفصل . من أجل شعر هولدرلين المتأخر " ("Parataxis. Zur späten Lyrik Holderlins") (١٩٦٤) يعتبر على هيدجر أنه أخرج عمل هولدرلين من سياقه الاجتماعي والتاريخي وأنه قدمه فقط في إطار الأنطولوجيا الوجودية التي تتكشف في " الكينونة والزمن " Sein und Zeit . (هذه الأنطولوجيا التي تستوحى أو تستلهم ظواهرية هوسرل وفلسفة بارمنيدس التي ما قبل سقراط : تجتهد لوضع جميع مسائل الكينونة بين قوسين ، إنها لا تهتم إذن بالمشاكل الاجتماعية والتاريخية للأدب) .

يسعى أدورنو باتخاذ نقيض البرهان الأنطولوجي لوضع الأعمال الشعرية لهولدرلين في التراث الإنساني والنقدي الذي يتبعه هو نفسه . وينتهي هيدجر إلى استنتاج التالي ذاكراً الأبيات الآتية من قصيدة الخبز والنبيد Brot und wein .

" Glaube wer es geprüft صدق من جرب الشيء

namlich zu Haus ist der Geist

Nicht im Anfang , nicht an derQuelle المنزل فى الروح فى
Kolonie liebt und tapfer ليست فى البداية ، وليست فى المنبع
Vergessen der Geist"

وأيضاً :

" الروح تحب الاستيطان وتنسى بجسارة " ويستنتج هيدجر " أن
النسيان الجسور هو الجسارة الواعية بمعرفة ما هو غريب من أجل استرداد
أفضل لما هو للذات "

ويذكر أدورنو فى شروحه النقدية أبياتاً مثل : " أما أنا فأريد أن التحق
بالقوقاز " "Ich aber will dem Kaukasos zu" لإثبات أنه لدى هولدرلين،
الغريب، بعيداً عن أن يستخدم كحجة لاسترداد التراث الوطنى : هو هدف
فى حد ذاته : تخطى للأيدولوجية القومية والمحافظة .

وينتهى إلى أن تفسيرات هيدجر لها أساس مزدوج: عن طريق
الاحتفال بالأصل (" Ursprung ") فإنها لا تقوى فقط من البلاغة القومية
بل وتعزز أيضاً النرجسية الجماعية التى هى الحافز النفسى لهذه البلاغة.

ومن أجل فهم أفضل لمجادلات أدورنو ضد هيدجر ولتفسيراته
لهولدرلين ، يجب مراعاة أن نصوص هولدرلين لها أهمية كبيرة بالنسبة
لخطابه النظرى الخاص .

إن ميل القصيدة الهولدرلينية لإضعاف المساحة التركيبية -Syntax-
ique للخطاب ولتفضيل التركيب القائم على جمل منفصلة
متوازية Paratactique يمكن استشعاره فى الأعمال النظرية لأدورنو الذى
يسعى للهروب من البناء التدرجى للعقلانية (انظر الفصل ٢ ، ٢ ، د) . اتجه
أدورنو، وبخاصة فى " نظريته الجمالية " ، من أجل الوصول إلى بديل للعقل
الأداتى وخطاباته النسقية والمبنية على التدرج ، إلى أدب يخضع للنزعة
المقلدة مع تطوير البعد الأفقى القائم على الفصل فى الخطاب.

ويكمل هذا التوجه على مستوى الكتابة النظرية، النقد الذى يوجهه كتاب " جدلية العقل " La Dialectique de la raison (١٩٤٧) للوضعية وللعقلانية انطلاقاً من فكرة أن التفكير العقلانى (الأدوات) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسيطرة التقنية والتكنولوجية ، ويسعى كل من أدورنو وهوركهايمر إلى تحقيق تقارب بين الفن (ممثلاً لعقل مقلد Mimétique متصلح) وبين النظرية . إن المصالحة بين الطبيعة والمجتمع لا يمكن تصورهما إلا إذا استوعب الفكر الإنسانى نزعات التقليد للفن عن طريق تحطيم النظام المفهومى القائم على التدرج الذى تفرضه العقلانية على الطبيعة فى سيطرتها عليها واستغلالها . ويستلهم أدورنو بتخليه فى " النظرية الجمالية " عن التدليل التركيبى التعبيرى والنسقى ، خطاب هولدرلين القائم على الفصل .

وخارج الصفة الاعتباطية لبعض تفسيرات أدورنو التى لا تراعى بقدر كاف البنية الدلالية الشاملة للنص ، يبدو لى من الضرورى لفت الانتباه إلى نقطتى ضعف فى النظرية الجمالية : الفن الغامض الذى اعتبره أدورنو كنموذج النقد يمكن اعتباره هو نفسه كنتاج لمجتمع السوق، كما أن نظريته تهمل نشأة genèse النص الأدبى فى اللغة بوصفه ممارسة اجتماعية . ولقد ذكرنا سابقاً العلاقة الوثيقة بين جماليات أدورنو وما نسميه بالأحرى النزعة الجمالية L'esthétisme . وبالنسبة لأدورنو فإن القصائد الغامضة لما لارميه أو فاليرى أو جورج لها ، بخلاف الأهمية الجمالية والنقدية، أهمية سياسية خاصة بالنسبة للنظرية الجمالية التى تنطلق من فرضية التمايز (Nichtidentität) برفض التماثل مع أى من القوى السياسية المتواجدة ، الفن والنظرية يمثلان ، بعد إخفاق الثورة البروليتارية، الملجأ الأخير للرفض الاجتماعى .

بل ويمكننا تمييز "نزعتين جماليتين" تكملان بعضهما البعض لدى أدورنو: الأولى تكمن فى تفضيل أعمال فاليرى وجورج وما لارميه

وهو فمانستال وبروست، والأخرى ، أكثر عمومية ، تكمن في مطابقة الوعي النقدي (النقد الاجتماعي) مع وعى الفن : وبخاصة مع الفن " الغامض " أو فن الطليعة (كافكا ، بيكيت ، بروتون) . لقد رأينا أنه حتى الفن الكلاسيكي الجديد ، فن هولدرلين وجوته ، يلعب دوراً في هذه النزعة الجمالية " العامة " . النزعتان الجماليتان مكملتان لبعضهما بقدر ما تفترض الثانية الأولى : لقد تمكن أدورنو عن طريق تبني أوضاع بروست ، مالارمييه أو قاليري (في سياق النظرية النقدية ، بالطبع) ، من مطابقة الواقع الأصيل مع واقع الفن . وفي هذا الشأن فإن وجهة نظره تختلف جذرياً عن الطليعيين (السوراليين أو المستقبليين) الذين كان أملهم تجميل *esthétiser* الواقع ومن ثم تخطي المفهوم البورجوازي لفن مستقل .

في مؤلفه عن قاليري والذي يحمل عنواناً دالاً " الفنان نائباً عن الذات الإنسانية " *Der Artist als Statthalter* تتخذ مطابقة الفن الغامض مع النقد الاجتماعي ومع عالم أفضل غائب ، أقصى أشكالها . إن البناء العقلاني الغامض معاً لأشعار قاليري الذي يحتقر دفء الحواس ، هو مثل التقنية ذات الإثني عشر صوتاً *dodécaphonique* لشونبرج ، الضمان الوحيد ضد الاتصال المندرج . ويقول عن قاليري : " بناء أعمال فنية يعنى في نظره : رفض الاستسلام للمخدر الذي أصبح عليه الفن الحسى الكبير منذ قاجنر وبودلير ومانيه ، الاحتماء من التدنى الذي يحول الأعمال إلى وسائط والمستهلكين إلى ضحايا علاج نفسى تقنى " (أدورنو ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٩ : ١٩٣) . وفي اللحظة الراهنة فإن هذا التماثل ذا النزعة الجمالية بين الفن والنقد الاجتماعي لا يفرض نفسه " بالضرورة " .

ويسعى بييربورديو الذي بعكس أدورنو ، لا يتساءل حول البعد النقدي للفن لإظهار إلى أى مدى أصبح الفن الرفيع جزءاً لا يتجزأ من قوانين السوق بوصفه سلعة رمزية نادرة ولا يمكن الحصول عليها ، فهو مخصص لجماعات اجتماعية تحتل مواقع اقتصادية متميزة في نظام الاستهلاك والاتصال : إن قراء قاليري وبروست ينتمون ، عموماً ، إلى طبقة متميزة ، سواء على

المستوى الاقتصادي أو الاستهلاك والاتصال: إن " الحقل الفنى " (بورديو) مُشكلاً جزءاً من السلطة الرمزية العمومية (إذن سلطة الطبقة)، يظهر كحقل استهلاك مخصص لأعضاء المجتمع المتميزين . (بورديو ١٩٧٩) ولا يجهل أدورنو أن الثقافة فى المجتمع البورجوازي مثله مثل المجتمعات المسماة "إشتراكية" ثقافة طبقية ويوضح فى " رسائل حول علم اجتماع الفن " Thèses sur la sociologie de l'art أن التلقى المحدود للأدب النقدى (للفن النقدى) هو حدث اجتماعى مثله مثل النجاح التجارى للأعمال الرديئة (Kitsch) (أدورنو ، ١٩٦٧ : ٩٧) .

وفى رأى فإنه إذ يضع فى اعتباره العلاقة الجدلية بين الفن "الرفيع" والفن " الجماهيرى " فنادرأ ما يتساءل حول القيمة الأيديولوجية والاقتصادية للفن : الأصيل ، " النقدى " . دون تجاهل البعد الجدلى لنصوص بروسست أو مالارميه (كما يفعل بورديو)، يجب (مع بورديو) نقد الوظيفة المؤسسية لهذه النصوص : رسالة حول مالارميه أو بروسست أليست لها " مكانة أرفع " فى المؤسسات المدرسية والجامعية أكثر من رسالة سيميوطيقية حول سيمنون أو حول " المكبوتين " Les Frustrés لكليبر بريتشيه ؟ كيف يمكن شرح قيمتها ك " سلعة رمزية " قيمتها التبادلية الثقافية؟ .

إن المشكلة التى لا أدعى حلها هنا تتلخص فى مؤلف لميشونيك (Meschonnic) حول سارتر حيث يوضع عدم الاتصال الذى نادى به أدورنو فى علاقة مباشرة مع الاتصال القابل للتسويق : " يوضح سارتر أن أدب عدم الاتصال ، ما لا يمكن توصيله ، يتصل بأدب الاستهلاك والترفيه (الطبقى) وبالأعمال السهلة الهضم " Oeuvres digestives " (٨٩٠٣) التى هى رفضه المعاصر . إنه يظهر بشكل فاضح أن أيديولوجية الفنان "تصون أيديولوجية المالك " (٣ ، ٣١١) (ميشونيك ، ١٩٧٩ : ١٦٥) . ومع قبول تعريف سارتر، يمكننا أن نتساءل (مع أدورنو) : " أألن يصبح هناك

أى فرق نقدى بين رواية لكافكا وبين رواية " جيمس بوند " لفلمنج ، بين رواية لروب جرييه ورواية بوليسية ؟ .

هناك مشكلة أخرى ملازمة لجماليات أدورنو تظهر فى منظور علم اجتماع للنص . إنطلاقاً من فكرة عدم الاتصال ، يميل أدورنو إلى اعتبار النص الأدبى " كوحدة قائمة بذاتها " monade كعالم مغلق لا يمكن تفسيره فى ضوء نشأته . ويكتب أدورنو ناقداً المدخل التوليدي - Approche générale-tique : بالخلط بين العمل الفنى ونشأته كما لو كانت الصيرورة هى المفتاح الكونى للتحقق Devenu فإن علوم الفن أصبحت على الأخص غريبة عن الفن لأن أعمال الفن : تتبع قانونها الشكلى باستيفاء نشأتها " (أدورنو، ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ : ٢٣٨) .

وبالرغم من استحالة اختزال النص الأدبى إلى نشأته إلا أنه لا يمكن شرحه مستقلاً عنها . إن النصوص هى وقائع اجتماعية وأيديولوجية بقدر ما هى ردود فعل لنصوص أخرى منطوقة أو مكتوبة تجسد مشاكل ومصالح جماعية .

ويبدو أدورنو وكأنه نسى عملية التناص هذه (انظر الفصل ٤) حيث يؤكد : " إن الأعمال الفنية منغلقة الواحدة بالنسبة للأخرى ، أنها عمياء ، وتمثل على الرغم من ذلك فى انغلاقها ما هو متواجد فى الخارج " (أدورنو ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ : ٢٣٩) وهنا ، كما فى وضع آخر ، تطرح لغة أدورنو المجازية (لكن المثيرة) قضايا وتثير مسائل : كيف يمكن لنص أن يمثل الواقع إذا لم يُعقل كحوار مفتوح مع نصوص أخرى ، كعملية غير مكتملة ؟ وباعتبار العمل ليس كعملية إنتاج بل كنتاج مكتمل ك " لحظة مثبتة من العملية " ، يفصل أدورنو النص الأدبى عن سياقه الأسمى ، عن الوضع الاجتماعى اللغوى (انظر الفصل ٤) الذى نشأ فيه .

هذا الفصل له نتيجة هامة : بإهمال السياق الاجتماعى اللغوى للنشأة ، يميل أدورنو إلى عرض النصوص الشعرية لهولدرلين أو قاليرى أو چورچ فى

السياق المعاصر وإلى الخلط بين لغات الإنتاج ولغات التلقى . فى تفسيراته لهولدرلين ، على سبيل المثال ، فإنه يقابل بين قراءته النقدية والإنسانية وقراءة هيدجر دون التساؤل حول الفجوة التاريخية القائمة فى الوضع الاجتماعى اللغوى للشاعر من جانب وفى الوجودية والنظرية النقدية من جانب آخر . أى خطابات أدبية ، فلسفية ، سياسية ، إلخ تشبعت بها وحولتها قصائد هولدرلين ؟ لا يجيب أدورنو أبداً عن هذه الأسئلة ويكتفى فى أغلب الأحيان بعرض تفسيراته الاجتماعية النقدية الخاصة به -ideologiekri " tisch" فى مقابل القراءة الأنطولوجية ، الوجودية . وبتبنيه رؤية داخلية كهذه فهو لا يختلف كثيراً عن فيسلوف الكينونة الذى يسعى بانتظام إلى محو الصفة الحوارية ، الاجتماعية والتاريخية للغة . مع الاحتفاظ ببعض عناصر الجماليات الأدورنية (نقد اللغة، فكرة أن النص هو كل متعارض، متناقض) سيركز علم اجتماع النص على جانبى النشأة والتناص.

٤ - علم اجتماع الرواية

إن الدراسات الاجتماعية حول الرواية أكثر بكثير من التحليلات الاجتماعية النقدية للنصوص الشعرية وتمثل الرواية ، بعكس الشعر الغنائى الذى كثيراً ما يتجه إلى العالم النفسى أو إلى اللغة نفسها ، مواقف وأفعالاً اجتماعية وتاريخية . إنها تجمع وصف الحياة النفسية " الداخلية " للفرد ليس فقط بتصوير الأوساط الاجتماعية بل أيضاً بتحليلات " اجتماعية " لهذه الأوساط . ونعنى هنا التأملات الطويلة والدقيقة لبلازك حول الوظيفة الاجتماعية والسياسية للنباله الفرنسية : جزء هام من قصته " دوقه لانجيه " مخصص لهذا النوع من التحليلات " الاجتماعية " التى أعجب بها كثيراً ، كل من ماركس وإنجلز ومن بعدهم جورج لوكاتش .

يميل علماء الاجتماع دائماً إلى تفضيل الأدب الروائى حيث إن مساحته المرجعية والتوثيقية أكثر وضوحاً من القصيدة : فإنه من الممكن جداً قراءة روايات وقصص " الكوميديا الإنسانية " كتصوير للمجتمع الأورليانى

Orléaniste "والبحث" لبروست كتحليل سيرى Autobiographique لضاحية سان جرمان . وفى بريطانيا وأمريكا الشمالية يستخدم أولئك الذين يتبنون ما يسمونه "علم الاجتماع من خلال الأدب" Sociology through literature ، الرواية كوثيقة تاريخية لفهم أفضل لمجتمع ما أو عصر ما (انظر فى هذا الموضوع (L. Coser , Sociology through Literature , Englewood Cliffs , Prentice Hall , 1963) .

وعلى الرغم من ذلك فإنى أعتقد أن من يحلل رواية فى إطار منظور مرجعى ووثائقى خالص ، يهمل مسألة أساسية ألا وهى معرفة إلى أى حد يشكل العالم الدلالى والسردى للرواية واقعة اجتماعية وإلى أى مستوى يمكن للنص الروائى أن يرتبط بالبنى الاجتماعية اللغوية لعصر ما .

وسنرى أنه حتى النقاد الماركسيين الذين يدعون تخطى تجريبية المنظور الوثائقى (" لعلم الاجتماع من خلال الأدب ") يميلون إلى اختزال الرواية إلى إشكالياتها التيمية ، إلى ما يُعرف " بالمحتوى " . فى حين أنه عندما يؤكد بعض ممثلو السيميوطيقا المعاصرة أن " المحتوى هو الشكل " فليس المقصود مجرد صيغة موفقة : إنهم يسعون لجذب الانتباه إلى أنه حتى الرواية التى يقال عنها واقعية هى بناء دلالى وسردى وليست ظلاً للواقع . إن أى خطاب - نظرى أو أدبى - هو تحريف للواقع على المستوى الدلالى والسردى والمقصود هو إظهار هذه التحريفات .

وفى حين أن مُنظراً للواقعية وللرواية الواقعية مثل جورج لوكاتش لا يدعى أبداً أن النص الروائى يعيد إنتاج الواقع الاجتماعى بكل بساطة . لقد رأينا فى (الفصل ٢ ، ٢ ، ب) أن جماليات لوكاتش بعيداً عن فرض تكرار ألى للواقع ، تُعرف بالواقعى ذلك النص (الروائى أو غيره) الذى يمثل المجتمع أو وضع اجتماعى ما ككل متسق بدءاً من شخصيات وأحداث نمطية . وتميل هذه الجماليات على الرغم من أنها لا تعتبر الرواية كوثيقة تاريخية إلى تفضيل بعدها المرجعى (والمعرفى) مع إهمال بنيتها اللغوية .

وسنوضح فى الأقسام التالية كيف أن علم اجتماع الجنس الروائى يتشكل انطلاقاً من فرضيتين أساسيتين ومكملتين لبعضهما البعض، تنص بقدر ما تظهر فى مجال الإنتاج، تظهر فى مجال تلقى هذا الجنس الأدبى. وتنص الثانية على أن الرواية هى نص " واقعى " نموذجى حيث تستوعب كتابته التوجه العلمى والمادى للبورجوازية وكذلك تجريبته والنزعة الإسمية لديه.

كما أن الرواية لم تعد تفضل ، كما فى التراچيديا أو الملحمة الإقطاعية ، الأوساط الاجتماعية الضيقة (النبالة) بل تتجه إلى الطبقات البورجوازية والسكان بأجمعهم . نرى إذن أن الفردية والواقعية يكمل كل منهما الآخر وأن قاسمهما المشترك هو رؤية العالم " الدنيوية " والعلمية " للبورجوازية.

الفردية: يوضح كتاب مثل إيان واط Ian Watt، وچان كوت Jan Kott فى أعمالهما، إلى أى حد تكون الرواية جنساً فردياً، مرتبطاً بشكل وثيق بالأيدولوجية البورجوازية : بفكرة الفرد الاستثنائى، بالاهتمام بعلم النفس وبالقراءة المنفردة كنمط مفضل للتلقى . وبهذا الشكل فإنهما يكملان أبحاث إريك كوهلر الذى يشرح تطور الجنس الروائى فى ضوء الصعود الاجتماعى والاقتصادى للبورجوازية (انظر الفصل ٢ ، ١).

بعكس كوهلر الذى يسعى إلى إظهار التطور الروائى فى إطار النظام النوعى المتغير فإن المنظر البولندى چان كوت Jan Kott يهتم بالفردية الروائية على المستوى التيمى . حيث يضع فى كتابه عن روبنسون كروزو لدانييل ديفو ، والذى عنوان : " الرأسمالية فى جزيرة جرداء " "Le Capita- lisme dans une île déserte" تلك التى فى المجتمع الرأسمالى لذلك العصر . إن تنظيم الحياة اليومية الذى يتبعه كروزو والذى يفرضه بعد ذلك على (جمعة) ، يشبهه ، فى كثير من المواضع ، نظام الحياة اليومية لرجل الأعمال الليبرالى : النقود والحساب

الدقيق والتقتير المتشدد ، وهذه هي الخطوط المميزة لهذا النظام . ويستنتج كوت : " روبنسون هوراند سميث وريكاردو . روبنسون لا يجهل أن كل قيمة يمكن استنباطها من العمل المستثمر وأنها تقدر بالمقارنة بكمية الوقت الذي يتطلبه إنتاجها " (كوت ، ١٩٥٤ ، ١٩٧٢ ، ١٦٧) .

وفى رأى كوت فإن حتى تكوين رواية ديفو يمكن شرحه فى ضوء الفردية النفعية للعصر . فليس صدفة أن يهمل الكاتب فى القرن الثامن عشر ، وصف الطبيعة والمناظر الطبيعية : " إنه دائماً على عجل ، ولا يهمله غير الإنسان ونشاطه " (كوت ، ١٩٥٤ ، ١٩٧٢ ، ١٦٠) . (ومن الطريف الاستنتاج فى هذا الموضوع أن كوت دون ذكر جدلية العقل La Dialectique de la raison لهوركهمر وأدورنو ، يستأنف بعض البراهين الواردة فى هذا الكتاب الذى يربط بين الروح العقلانية للتتويريين وإخضاع الطبيعة التى تتحول بفضل اقتصاد السوق إلى موضوع تبادل .

وليست رواية دانييل ديفو حدثاً معزولاً يستحيل ربطه بالإنتاج الروائى فى القرن الثامن عشر : وكوت على حق إذ أن الروح العقلانية وسلوك المحاسب يلعبان أيضاً دوراً هاماً فى أعمال ريتشاردسون : " نجد فى پامبلا وكلاريسا لريتشاردسون محاسبة أخلاقية لا تقل دقة . ويسجل لوقيلاس جميع الإذلالات التى توجهها له كلاريسا " (كوت ، ١٩٥٤ ، ١٩٧٢ ، ١٦٢) .

ولا يشرح نظام القيم الفردى (البورجوازى) موضوع الرواية فقط بل يوضح أيضاً فى العمل الهام لإيان واط " نشأة الرواية " The Rise of the Novel تلقى العامة للجنس الروائى . إن واط لا يهتم كثيراً بالمسائل القيمية ، فهو يسعى إلى إظهار كيف ترتبط شعبية الرواية فى عصر ديفو وريتشاردسون وفليدينج ، إرتباطاً وثيقاً بظهور جمهور بورجوازى (خاصة أنثوى) مهياً ، بفضل أيديولوجيته الفردية ، ليستقبل باهتمام أى وصف للحياة الشخصية للفرد . يحلل واط ثلاثة مظاهر للفردية الروائية :

١ - النزعة الاسمية (التجريبية) التى تظهر من خلال أسماء الأعلام للأبطال .

٢ - علم النفس الذى صاحب ازدهاره فى مختلف النظريات الفلسفية، التطور الروائى.

٣ - الواقعية التى أثارته فلسفة علمانية تميل فى كثير من الأحيان (مثل فلسفة توماس هوبز) إلى التفسيرات المادية .

إن اسم العلم يظهر أهمية خاصة فى الجنس الأدبى المتجه نحو مصير الفرد، وغالباً ما يكون فوق العادة ، تصبح أصوله العائلية وطموحاته الاجتماعية وشهواته موضوعات مفضلة للقص ويكتب واط: " إن مشكلة الهوية الفردية ترتبط منطقياً ارتباطاً وثيقاً بالوضع المعرفى لأسماء الأعلام " (واط، ١٩٥٧، ١٩٧٤ : ١٩). ويذكر جملة توماس هوبز المشهورة "Proper names bring to mind one thing only; universals recall any one of many . "

" إن أسماء الأعلام تذكر بشيء واحد فقط ، أما الأسماء الكلية فيذكر كل واحد منها بأشياء كثيرة".

ونعود إذن لنجد فى مجال التخيل فكرة هوبز القائلة بأنه لا يمكن تبني وجهة نظر " علمية " (تجريبية) طاملاً توقفنا مثل الفلسفة المدرسية Scolastique مثل " الرجال المدرسين " الـ School men عند المستوى الميتافيزيقى للكليات : لا يمكن التوصل إلى الحقيقة إلا على المستوى الفردى حيث من المفترض أن تنطبق الأسماء على الأشياء .

وبما أن علم الإنسان كفرد هو علم النفس ، فإنه يعمل على تفضيل الحياة العاطفية وإظهار الأوضاع الاجتماعية بدءاً من الحياة " الداخلية " للفرد، بدءاً من الدائرة الخاصة . ويصف واط فى كتابه، التحول من الاتجاه الاجتماعى (التاريخى) فى العصر الكلاسيكى إلى اتجاه فردى وسيكولوجى فى عصر الرومانسية (القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر) . ويكتب هذه الملاحظة عن ريتشاردسون : " يمكن إذن النظر إلى التقنية السردية لريتشاردسون على أنها تعكس تغييراً فى المنظور على درجة من الأهمية ألا

وهو التحول من الاتجاه الموضوعى والاجتماعى والعام للعالم الكلاسيكى إلى الاتجاه الذاتى والفردى والشخصى الذى اتسمت به الحياة والأدب فى القرنين الأخيرين " (واط ، ١٩٥٧ ، ١٩٧٤ : ١٩٩) . ونظرية هذا التوجه الذاتى والاهتمام بالدائرة الخاصة هى علم النفس حيث جعلت تحليلاته للشخصيات من روايات القرن ١٨ و ١٩ ، روايات سيكولوجية .

(وسنرى فيما بعد كيف أن ممثلين للرواية الجديدة مثل آلان روب جرييه يطلقون التساؤل حول التراث السيكولوجى للرواية فى وضع اجتماعى وتاريخى يتسم بانهيار (الفردية) الواقعية : دون الدخول هنا إلى السؤال الحساس حول الواقعية بوصفها مفهوماً قابلاً أو غير قابل للتعريف ، يبدو من الممكن إقامة علاقة بين الأيديولوجية الفردية و النزعة الاسمية (التجريبية) والمادية فى كثير من الأحيان من ناحية ومفهوم الواقعية من ناحية أخرى . لم يعد الاهتمام فى مجتمع دنىوى يتجه إلى النجاح المادى للفرد ، ينصب على تصوير بحث ميتافيزيقى (أحد التيمات الرئيسية للأدب الإقطاعى وبخاصة لرواية البلاط) ، بل على معرفة القوانين التى تحكم الواقع المادى والاجتماعى .

لقد وضع واط بوضوح العلاقة بين الأدب الواقعى والفردية البورجوازية فى هذه الملاحظة : " إن نقطة انطلاق الواقعية الحديثة هى ، بالتأكيد ، فرضية أن الحقيقة يمكن أن تكشفها حواس الفرد : وتجد أصولها لدى ديكارت ولوك ثم طورها من بعدهما توماس ريد باتساع فى منتصف القرن الثامن عشر " (واط ، ١٩٥٧ ، ١٩٧٤ : ١٢) . تفقد الحقيقة إذن ، فى المجتمع الذى أصبح علمانيا ، طابعها الفوقى الإلهى : حيث توضع على مستوى التجربة المادية ، النفسية والاجتماعية للفرد الساعى لاكتشاف "القوانين" .

ويميز هذا المفهوم للواقع والواقعية مدخل كاتب مثل بلزاك الذى لم يكن يهتم فقط بالكيمياء وبعلموم الطبيعة (فى " البحث عن المطلق ") بل كان يسعى

إلى كشف القوانين الكامنة خلف التطورات الاقتصادية والاجتماعية . وأحد أفضل الأمثلة ، هو بالتأكيد تحليله للأوساط المالية والصحفية فى "الأوهام المفقودة" Illusions perdues .

وفى الرسالة التى تستخدم كمقدمة لروايته " الفلاحين " -Les Pay sans، يظهر بوضوح المشروع " الاجتماعى " لدراسة مجتمع خاص لإظهار القوانين التى تحكم تطوره . ويكتب بلزك مستأنفاً للنوايا التربوية لروسو : "لقد كتب چاك روسو فى بداية "الهيلويز الجديدة" La Nouvelle Héloïse : "لقد رأيت أخلاق زمنى ونشرت هذه الرسائل . " هل بإمكانى أن أقول مقلداً هذا الكاتب الكبير : إنى أدرس سير عصرى وأنشر هذا العمل " (بلزك، ١٨٤٤ ، ١٩٦٨ : ١٩) ويطلق على روايته فى الجملة التالية أنها "دراسة " مع التأكيد على هذه الكلمة ويبدو لى أنه مع الاعتراف باستحالة أخذ مفهوم واحد للواقعية كنقطة انطلاق ومع القبول بوجود مفاهيم متعددة تتعارض مع بعضها فى هذا المجال ، فإنه من الممكن التوصل إلى قاسم مشترك لهذه "الواقعيات " : بما يعنى الفكرة (أو الحكم المسبق) القائلة بأن الأدب الواقعى يساهم فى فهم أفضل للواقع ، وأنه له بالتالى قيمة معرفية (نظرية، علمية، نقدية أو تعليمية) .

أ - الرواية الواقعية حسب جورج لوكاتش

لقد ذكرنا فى الفصل السابق (الفصل الثانى ، ٢ ، ب) واقعية لوكاتش التى يعرفها فى ضوء مفاهيم الكلية والنمط " Type " . ويقيم فى نظريته عن الواقعية تضاداً مانوياً بين الأدب الواقعى (والتر سكوت، بلزك، توماس مان) والأدب الطبيعى الذى تنتمى إليه أعمال زولا وأعمال الأدب الحديث للطليعة وحسب لوكاتش فإن الرواية الواقعية لبلزك أو جوته لا تخلق فقط شخصيات ومواقف وأحداثاً نمطية ، بل يرجع أيضاً تصويرها المتناسب مع الواقع إلى التجانس السببى لبنيتها السردية ، ومن العبث البحث عن بنية كهذه فى الأعمال " التجريبية " و " الطبيعية " لزولا، كافكا أو بيكيت . ويسعى

لوكاتش إلى إظهار الاتساق السردي الضعيف لهذه الروايات مؤكداً على أن الواقع ، فى النص الطبيعى ، لا يفهم بشكل جوهرى : على مستوى الجوهر (das Wesen) ويظل لدى كاتب مثل زولا غير قابل للإدراك . ولا يشارك الأبطال بأى حال فى الأحداث ، إنهم يميلون إلى الاستسلام للسلبية ليصبحوا ، مجرد متفرجين .

وتمثل أحد أفضل مؤلفات لوكاتش والتي عنوانها " الحكى أو الوصف؟ " Erzählen oder beschreiben? التعارض بين الأسلوب الواقعى والأسلوب الطبيعى على المستوى السردى وتظهر إلى أى حد يمكن التكوين (الكلى Macro) التركيبى Syntaxique للنص أن يصبح رهاناً فى مناقشة أيديولوجية واجتماعية ويظهر بالتالى أن السرد (طريقة سرد الواقع) ، بعيداً عن أن يكون مظهراً شكلياً خالصاً (للنص عموماً) هو فى الواقع العنصر الأيديولوجى بامتياز .

ونجد فى بداية هذا العمل المبني على التعارض بين تولستوى " الواقعى " وزولا " الطبيعى " ، السؤال التالى : ما الفرق بين نص واقعى ونص طبيعى . وحسب لوكاتش فإن هناك كتاباً واقعيين مثل تولستوى أو بلزاك يفضلون النص الذى تتابع فيه الأحداث بشكل درامى وتميل إلى الحل : ويختارون بالتالى الاتساق الحدتى السببى . ويلاحظ فيما يخص " الأوهام المفقودة " : " يوضح لنا بلزاك كيف أن المسرح معهد مأجور فى ظل الرأسمالية حيث إن دراما الأبطال الأساسيين هى هنا فى نفس الوقت دراما المؤسسة فى الإطار الذى يتحركون فيه ، دراما الأشياء التى تلعب دوراً فى حياتهم ، دراما مسرح صراعاتهم [...] " (لوكاتش ، ١٩٤٨ ، ١٩٧٤ : ٣٧) .

ويوضح التابع الدرامى والحل لدى بلزاك جوهر الواقع الاجتماعى والتاريخى الذى يصفه . وتلخص الشخصيات والأحداث والمواقف التى تتصل بهما بشكل ما ، المظاهر الأساسية لمجتمع عصر ما . ويقدر ما يكون الانتقاء والاستبعاد فى النص البلاغى غير اعتباطى بل يتم تبعاً

للجوهرى "Wesen" das بالمعنى الهيجلى والماركسى للمصطلح ، بقدر ما يوضح واقعاً يظل مبهماً فى عين المنظر أو الكاتب الإمبريقى .

ولا يتمكن زولا ، بعكس بلزاك وتولستوى من إدماج وصفه الدقيق بالحدث الدرامى للرواية . ويستنتج لوكاتش متبنياً منظوراً تاريخياً أن الوصف يلعب دوراً يزداد أهمية فى الأدب الروائى بدءاً من القرن الثامن عشر وأنه يميل فى القرن التاسع عشر إلى أن يصبح مستقلاً فى مواجهة الحدث . وينتهى الوصف لدى فلوبير وزولا بالتحول إلى هدف فى ذاته ويصبح مستقلاً عن السرد: "إننا نشهد لدى سكوت أو بلزاك أو تولستوى أحداثاً لها أهمية بالنسبة لمصير الشخصيات المعنية ، بالنسبة لكل ما تعنيه هذه الشخصيات فى الحياة الاجتماعية من خلال ازدهار حياتها الإنسانية. نحن مشاهدون لأحداث تشارك فيها الشخصيات بحماس . إننا نعيش هذه الأحداث - لدى فلوبير وزولا فإن الشخصيات نفسها ليست إلا مشاهدة للأحداث باهتمام قل أو جل . ولهذا تتحول الأحداث لدى القارئ إلى صورة أو بالأحرى مجموعة من الصور . ونحن نشاهد هذه الصور " (لوكاتش ، ١٩٤٨ ، ١٩٧٤ : ٤٠\٣٩) .

إن الفجوة بين السرد والوصف التى تتسم بها نصوص فلوبير وزولا ومن بعدهما بروسست وموزيل ، تجعل من المستحيل تصوير الواقع ككل متسق بالمعنى الهيجلى للمصطلح (انظر الفصل ٢ ، ٢ أ) . وتختلف طبيعة كاتب مثل زولا جذرياً عن " الواقعية النقدية " لدى بلزاك ، حيث تعجز عن توضيح الواقع الاجتماعى عن طريق شخصيات ومواقف نمطية وعن إظهار جوهر هذا الواقع . ألسنا هنا بصدد نظرية مثالية ؟ كيف يمكن شرح أو تحليل البحث عن الجوهر على المستوى الاجتماعى ؟

يقدم لوكاتش تفسيراً مادياً متبعاً نظرية ماركس الخاصة بتقسيم العمل ، فالوصف لدى روائى مثل زولا يصبح هو هدف فى حد ذاته حيث يتأمل الفنان الواقع فى إطار منظور مهنى بحت ومتخصص ويشرح لوكاتش كيف أن الكاتب يضطر فى ظل وضع اقتصادى متعسر إلى القبول بتقسيم

العمل الرأسمالي الذي يفرض التخصص فى مجال الكتابة . ويتحول الفن الذى كان فى الماضى كونياً ومنتجهاً إلى ما هو إنسانى عموماً ، إلى مهنة محدودة تكافئها قوانين السوق التى تفضل العمل " المهنى " عن عمل " الهاوى " .

وفى النهاية ، فإن السوق مسئول إذن عن تقسيم العمل المتزايد وكذلك عن العجز الفنى عن تصوير الواقع فى شكل نص متسق (فى شكل قصة) . ويصف زولا ظواهر دون إدماجها فى سياق شامل، متسق . (وهنا بيدولى تفسير لوكاتش غير مقنع : لماذا نعتبر الوصف وليس السرد على أنه «تخصص» الكاتب؟ أليس الروائى قبل كل شىء راوى قصص؟ ولماذا يجب أن نرى فى الوصف ظاهرة خاصة، معينة وفى السرد شيئاً من العمومية، من الكونية؟ رغم أننى أتبنى الافتراض القائل بأن البنية السردية للرواية تصبح إشكالية فى نهاية القرن التاسع عشر، أعتقد أن التفسير الاجماعى للوكاتش خاطئ.) (أنظر الفصل ٤ ، ٥) .

ويضع لوكاتش فى مقابل الطبيعة " العمياء " والإمبريقية، جوته وتولستوى ويلزك وتوماس مان الذين يمثلون فى نظره ما يسميه بالواقعية البورجوازية أو " الواقعية النقدية " (" Kritischer Realismus ") . لقد استطاع كتاب مثل جوته وتولستوى بفضل وضعهم " السيادةى " -Seigneuri- ale (لوكاتش) أن يفلتوا من نتائج تقسيم العمل، فلم تغب عن بالهم الكلية واتساق العالم الاجتماعى . (وهنا يمكن أن نتساءل إذا ما كان الخطاب الماركسى للوكاتش يتوجه إلى الماضى أكثر منه إلى المستقبل، ذلك أننا حتى إذا قبلنا فكرة أن تقسيم العمل ليس حتمياً فى المجتمع الصناعى - وهى فكرة صعبة التقبل - فإن الفكرة الأخرى القائلة بأن امتياز " الوضع السيادةى " هو الوسيلة الوحيدة لتجاوز الحدود الناتجة عن تقسيم العمل، لهى مفارقة فى سياق ماركسى ...) .

ولنقترب من التحليل اللوكاتشى لـ "معاناة الشاب فيرتر" لجوته -Souf- frances du jeune Werther. فإن هذه الرواية - حسب تحليل لوكاتش - تقدم شخصيات وأحداثاً ومواقف نمطية تلخص بشكل المجاز المرسل (إذا أمكننا القول) العلاقات الاجتماعية والسياسية فى لحظة تاريخية معينة.

ويتخذ حب فيرتر للوت فى هذا التحليل - بعيداً عن أن يكون مجرد مشكلة خاصة - بعداً اجتماعياً واضحاً تماماً : حيث تظهر الصراعات الاجتماعية لذلك العصر من خلال الحياة العاطفية لبطل جوته، وخاصة فى التعارض بين العشق الشبقي والمؤسسة البورجوازية للزواج : "فهو (جوته) يظهر فى وصفه ، التناقض الذى لا يمكن تخطيه بين ازدهار الشخصية والمجتمع البورجوازي" (لوكاتش ، ١٩٤٧ ، ١٩٦٧ : ٢٧) . فمن خلال مطابقته للدائرة العامة بالدائرة الخاصة، أو الفردى بالاجتماعى، يظهر جوته كلية متسقة تتخذ فيها الحالة الخاصة بعداً كونياً تاريخياً.

ويظهر تناقض آخر فى فشل فيرتر فى انتحاره ألا وهو تناقض الطموحات لدى البورجوازية الصاعدة الليبرالية والنظام "الإقطاعى المطلق". ويكتب لوكاتش: "لقد جعل جوته من حب فيرتر للوت صورة شعرية للميول الشعبية والمناهضة للإقطاعية فى حياة البطل" (لوكاتش، ١٩٤٧ ، ١٩٧٦ : ٥٧).

وتوضح هذه الجملة ما يعنيه لوكاتش "بالنمطى" و "الواقعى" : إنما التشكيل الروائى الذى يظهر إشكالية طبقة من الطبقات، بل مجتمع بأكمله، فى حالة فردية (مثل حالة فيرتر على سبيل المثال) ، هو الذى يعكس العالم بشكل واقعى . إن تطابق الفردى (الفريد) والعام يولد الخاص (das Be-sondere) وهو إحدى أهم المقولات فى الجماليات اللوكاتشية.

وهناك مثال آخر لتوضيح هذا التطابق بين الفردى والعام فى الخاص، أى النمطى، ألا وهو رواية توماس مان "دكتور فاوست" Doktor Faustus. فى هذه الرواية تميز عزلة المؤلف الموسيقى الطليعى أدريان ليفر كوهن

(Adrian Leverkühn) - الذى يتخلى عن الهارمونية والإنسانية فى الموسيقى الكلاسيكية ليطور تعدد الأصوات Polyphonie والتنافر- تُميز كل الإنتاج الفنى للطليعة الحديثة . وبهذا المعنى فإن حياة ليفركوهن ، بعيداً عن أن تكون تسلسلاً من الأحداث الغريبة والاعتباطية ، يمكن اعتبارها مثالية ونمطية : إنها القطيعة بين فن الطليعة الذى يتخلى عن رؤية العالم المتمركزة حول الإنسان Anthropocentrisme (الإنسانية) وبين الحياة اليومية للجماهير والمحكومة بنظام قيمي إنسانى منحدر إلى حد ما .

"بالرغم من أن مكتب فاوست الجديد يبدو، إذا نظرنا إليه من الخارج، أكثر انغلاقاً أمام العالم الاجتماعى الخارجى إلا أنه فى الحقيقة يعد بمثابة المعمل السحري الذى تمتزج فيه جميع النزعات الجبرية للعصر فى مادة واحدة مركزة " (لوكاتش ١٩٤٩ ، ١٩٦٧ : ٢٥٠) . وتكمن واقعية توماس مان بالتحديد فى هذه القدرة على جمع الاتجاهات السياسية والفنية لعصره بأكمله: لجمهورية وايمر، فى شخص ليفركوهن مؤلف الموسيقى الملعون .

وقبل الانتقال إلى التحليل اللوكاتشى " للفلاحين " لبلزاك الذى أود مقارنته بالتحليل الأحداث منه، لبيير ماشري ، يبدو لى من الضرورى أن أدمج بعض الملاحظات النقدية حول الخطاب التاريخى (الهيغلى والماركسى) للوكاتش .

إن قضية " الواقعية " هى قبل كل شىء قضية تختص بالخطاب: فحين يؤكد مُنظر ما بأن النص الأدبى " واقعى " ، فإنه يفترض عموماً (دون أن يصرح به فى الغالب) أن هناك تطابقاً بين النص المعنى وتعريفه الخطابى الخاص للواقع (نصه السردي عن الواقع وليس مجرد الواقع فى حد ذاته، المشخص) . ويجب أن نضيف إلى هذا أن المُنظر يشرح أيضاً النص الأدبى (المتعدد المعنى دائماً) عن طريق بعض الانتقاء والتحرير الدلالى والتركيبى . إن تطابق النص مع الواقع هو إذن عملية خطابية قائمة على متغيرين : النص الذى يقبل أكثر من تفسير والواقع القابل هو الآخر لأكثر من تفسير .

حين يعلن لوكاتش أن نص جوته أو توماس مان " واقعى " فإنه لا يراعى أنه بصدد متغيرين : ظاهرتين متعددتى المعنى (قابلتين لأكثر من تفسير) . إنه ينطلق من الفكرة الساذجة بأن معنى الرواية والواقع الاجتماعى، واضح وأن النص أحادى المعنى Monosémique . ولكى ندرك بشكل أفضل الاختزال الخطابى الذى يقوم به لوكاتش وكذلك الصفة الأسطورية لمفهوم " الواقعية " ، يجب تحليل المستويات المختلفة للاستدلال .

ينطلق المنظر الماركسى من فرضية (ربما كانت صحيحة) أن المسار التاريخى قابل للتدوين (" للتكرار ") بمساعدة فاعلين جماعيين Actants (انظر الفصل ٤) يسميها " طبقات " ، متفقاً فى ذلك مع ماركس نفسه . ونستنتج (وهذا مهم) أنه يزيل هذه الاعتبارات جميعها وأن خطابه التاريخى يلقى بظله على نص الرواية ، و" الأحداث " (الوظائف والفاعلين) الروائية .

ويتخذ حب البطل بعداً اجتماعياً سياسياً ، لأنه ينعكس عبر نموذج محدد للتحليل الطبقي ، وبهذا فهو يرتبط ببنية دلالية محددة قائمة على تعارضات أيديولوجية . وأهم هذه التعارضات هو التعارض بين النموذجين Paradigmes البورجوازي - الثورى والإقطاعى - الرجعى .

ويمكننا توضيح أن كلمات " الشعبية " Volkstümlichkeit و" الشعب " Volk تعملان لدى لوكاتش كمرادفين لـ " الثورة " و" البورجوازية الثورية " . يتضمن الخطاب دائماً عدد كبير من الممثلين Acteurs فى فاعل actant واحد ، ويتم التبادل فيما بينهم بموجب مبدأ الإحلال على نمط المجاز المرسل . ماذا يحدث بالتحديد فى تحليل لوكاتش ؟ من الممكن إثبات أن هذا التحليل يحتوى على الأقل أربعة مستويات خطابية مختلفة وأن لكل منها انتقاعات دلالية وتركيبية :

١ - النصوص التاريخية التى استخدمها لوكاتش للحصول على معلوماته عن فترة محددة . وهذه النصوص هى معادل لعدد غير معروف من " النصوص

السردية التاريخية " والتي لكل منها بنيتها الخطابية ويتم توحيدها هنا كنوع من التسهيل .

٢ - النص التاريخي الشارح للوكاتش الذي تتكون نصوصه المتخذة أعلاه من " الموضوعات النصية " Objets - textes .

٣ - رواية جوته التي يعاد فهمها على أنها تحويل لنصوص سابقة : وبخاصة للخطاب الذي يتخذ شكل رسائل اتصالية أو روائية (- La Nouvelle Hé-loise " كنص - سابق " لفيرتر).

٤ - التفسير اللوكاتشي لرواية جوته و هو نص شارح انتقائي للغاية بحيث يمكن اعتباره تحولاً لبعض نصوص هيغل وماركس التي يعتمد عليها .

إن ما يحدث هنا أصبح الآن واضحاً: هناك (مستوى ١) نص سردي - شارح Méta- récit (الرواية كما "يكررها" أو "يلخصها" لوكاتش) مدرج في نص سردي تاريخي (مستوى ٢) يتم استنباطه هو نفسه من الخطاب التاريخي لماركس (مستوى ٣)، الخ . بالرغم من أن الخطاب النقدي اللوكاتشي يبدو أكثر قيمة من بعض التعليقات التي تربط الرواية بسيرة المؤلف أو "بذوق" معين للعصر، ولا يتبقى إلا أن تحاول النظرية المادية - الجدلية للأدب أن تحاول الإفصاح عن ممارستها الخطابية إذا أرادت تجنب الانتقاد بأنها مجرد أيديولوجية عاجزة عن التأمل في مقدماتها المنطقية الخاصة ونشأتها .

ولننصف على سبيل الختام، أن الجماليات التي تقرر، استناداً إلى بعض المؤلفات المقننة بأن نص ما يجب أن يكون "واقعياً" أكثر منه "طبيعياً" وأنه يجب أن يعكس الواقع من خلال الشخصيات والمواقف "النمطية"، هي ذات طابع تشريعي .

كما أن لها طابعاً لا تاريخياً حيث إن لوكاتش لا يراعى بشكل كاف أن روايات جوته أو توماس مان نشأت في ظل أوضاع اجتماعية تاريخية خاصة وأنها لا يمكن أن تكون أنماطاً في ظروف اجتماعية وثقافية كانت

مجهولة لدى هؤلاء الكتاب . (ويستنتج بريخت مثلاً فى مجادلته مع لوكاتش أن التحولات الاجتماعية تجعل من الضرورى خلق أشكال جديدة من العبث البحث عنها فى الأدب الواقعى للوكاتش . وفى رأيه أن " الشكلى " الحقيقى هو لوكاتش حيث إنه يرفض التخلّى عن الأشكال البالية . انظر فى هذا الشأن: " برتولت برخيت وچورچ لوكاتش " فى (أرفون : علم الجمال الماركسى H. Arvon, L'Esthétique marxiste, Paris, PUF, 1970 وأيضاً لوكاتش: « تحقيق أم تشكيل ؟ ملاحظات نقدية حول رواية لفون أوتوالث »

"Reportage oder Gestaltung ? Kritische Bemerkungen anlässlich eines Romans von Ottwalt " , F. J . Raddatz, Marxismus und Literatur II , Reinbek, Rowohlt, 1969 .)

ب - الفلاحون لبلازك : من لوكاتش إلى ماشريى

حلل إثنان من الفلاسفة الماركسيين، بعد ماركس وإنجلز، روايات بلازك. وتمثل تفسيراتهما لرواية بلازك " الفلاحين " أهمية خاصة بالنسبة لعلم اجتماع الأدب: أولاً لأنها تظهر كيف يمكن لمدخلين ماركسيين متعارضين تماماً أن يؤدّيا إلى نتائج متشابهة ، ثم لأن تجاورهما يسمح لنا بالإجابة على سؤال إذا ما كان علم اجتماع الأدب (الماركسى) قد تطور على المستوى المنهجى ما بين ١٩٣٤ (لوكاتش) و ١٩٧٩ (ماشريى) .

ويستأنف لوكاتش فى تحليله سؤالاً قديماً طرحه ماركس: كيف نشرح الفجوة بين الأيديولوجية المحافظة المناصرة للسلطة الشرعية légitimiste لدى بلازك وتصويره الواقعى (المحطم للأسطورة démystifiante) لسقوط النبالة الفرنسية وازدهار البورجوازية والرأسمالية؟

إن البرهان الأساسى لدى لوكاتش والذى يسعى إلى الإجابة بواسطته عن هذا السؤال ، هو نسبياً بسيط ولا يختلف أساساً عن برهان ماركس : يعارض بلازك الكاتب العبقرى والواقعى ، ويتخطى الأيديولوجية المحافظة،

الوجه الآخر لأننا alter ego الروائي . ولنبدأ بالجملة الأخيرة من الكتاب التي - فى رأى - تظهر صلب البرهان: " تظهر عبقرية بلزاك فيما وصفه بضرورة واقعية جداً ، اليأس الذى يجب أن يؤدي إلى ذلك " (إلى إفلاس طبقة الفلاحين ، وإلى صعود البورجوازية وإلى الفوز النهائي للبروليتاريا) (لوكاتش ، ١٩٣٤ ، ١٩٦٩ : ٤٧).

ويعرف قارىء بلزاك أن الروائي لم تكن لديه أبداً النية لوصف هذه العملية الهيكلية " للتجاوز " التاريخي.

ويؤكد فى الرسالة المقدمة للسيد " جافو " M . Gavault أنه يقصد تحذير الجمهور من " التآمر المستمر لهؤلاء الذين مازلنا نسميهم الضعفاء ضد هؤلاء الذين يتخيلون أنفسهم الأقوياء ، الفلاح ضد الغنى [...] . والمقصود هنا ليس تنوير مشرع اليوم بل مشرع الغد . فى وسط الدوار الديمقراطي الذى انقاد له العديد من الكتاب مغمضى العينين أليس من الملح أخيراً تصوير هذا الفلاح ، الذى يجعل الشفرة le Code غير قابلة للتطبيق ، ويجعل الملكية شيئاً كائناً وغير كائن؟ سترون هذا النقاب الذى لا يكل ، هذا القارض الذى يفرز ويقسم الأرض [...] " (بلزاك ، ١٨٤٤ ، ١٩٦٨ : ١٩ - ٢٠).

ويظهر المشروع الواقعي والتعليمي بوضوح فى هذا المقطع: يسعى الروائي إلى تنوير المشرع القادم، وللمشاركة فى تنظيم أفضل للمجتمع . وعلى الرغم من ذلك فإنه دون أن ينتبه يحقق ، حسب ماركس ولوكاتش، مشروعاً مختلفاً تماماً.

وحسب لوكاتش فإن الكاتب الواقعي ينكر الأيديولوجي المناصر للسلطة الشرعية عن طريق هدم أوهامه المحافظة وعن طريق تقديم النزعات الواقعية للتطور الاجتماعي . إن مجموع وصفه يبرز القانون العام فى الظاهرة الفردية ، ويتجه إلى النمطى : " يتم هنا تصوير سكان الريف بشكل

نمطى جداً ، وليس كموضوع تجريدى ، سلبى ، لتجارب طوباوية ولكن كأبطال إيجابيين وسلبيين على حد سواء " (لوكاتش ، ١٩٣٤ ، ١٩٦٩ : ٢٥) . ويجسد بلزك جميع الطبقات الاجتماعية بشكل نمطى : " إن المعسكرات الثلاثة مزودة بكل غنى الأنماط المختلفة المكونة لها والتي تدعم هذا الصراع بالوسائل الاقتصادية والأيدولوجية والسياسية ، الخ " (لوكاتش ، ١٩٣٤ ، ١٩٦٩ : ٢٧) .

وتتعارض نتيجة هذا الوصف الأمين والواقعى فى جميع الأحوال مع المشروع الأساسى للروائى : فبدلاً من إظهار الصفة الخطرة للفلاحين ، يظهر كيف تهدم البورجوازية ونظامها الرأسمالى طبقة الفلاحين فى لحظة تاريخية لم تتشكل فيها بعد البروليتاريا الفرنسية بالقدر الذى يسمح لها بالتعاون مع سكان البوادي والقرى : " لقد أظهر ضد إرادته ، التراچيديا الاقتصادية للرقعة [...] " (لوكاتش ، ١٩٣٤ ، ١٩٦٩ : ٣٩) .

وتلعب فى خطاب لوكاتش ، الكلمتان " ضد إرادته " دوراً هاماً على وجه الخصوص : إذ يعتقد لوكاتش مثل معظم المنظرين الماركسيين (مثل ماشرى ، بشكل خاص) أن الكاتب يعبر عن " أفكار " معينة دون أن يعى ذلك ، ومع الاعتراف بأن النص يمكن أن يحتوى على عناصر لا يعيها الكاتب ، علينا أن نتساءل عما إذا كان تفسير لوكاتش يظهر فعلاً الأبعاد " الخفية " للرواية والتي يجهلها بلزك ، أم إذا كانت تدرج مجرد جزء من النص البلازكى فى الخطاب الماركسى عن التاريخ . ويجب أيضاً أن نتساءل كيف نجح بلزك فى تجاوز أيديولوجيته الموالية للسلطة الشرعية والتنكر لها .

ودون السعى إلى الإجابة على السؤال الأول (الصعب جداً ، حيث إن مفهوم " اللاوعى " يستخدم كثيراً لفرض تفسيرات اعتباطية) ، يبدو لى أنه من الممكن الإجابة على الثانى الذى يخص مباشرة البرهان اللوكاتشى . وكما قال الفيلسوف الماركسى والهيغلى فإن بلزك يتجاوز النطاق الضيق لمشروعه الموالى للسلطة الشرعية لأنه عبقرى . ويتحدث فى أكثر من موضع فى كتابه

عن " الفلاحين " عن "عظمة" Grandeur بلزاك وعن "عبقريته". ويستخدم تعريف العبقرية فى النظريات الجمالية ذات الأصول الهيكلية (لدى جولدمان، لوكاتش وحتى أدورنو) كنقطة انطلاق لبراهين أساسية: وهكذا يعتقد جولدمان أن الكاتب " العظيم " (" النابغة ") هو وحده القادر على التعبير عن "رؤية العالم". كما أن العبقري وحده، هو الذى يتمكن فى نظر لوكاتش من تجاوز الأيديولوجية نحو تصوير واقعى " حقيقى " .

و حين نبدأ قراءة تعليقات بييرماشرى عن " الفلاحين " ، نتأكد من عدم وجود البراهين التى قدمها لوكاتش : أولاً لأن ماشرى من أنصار الماركسية الألتوسيرية التى تعتبر مفهوم الذات Sujet أيديولوجياً وبالتالي جميع المفاهيم التى تنبع من هذا المفهوم مثل " عبقرى " ... الخ ... ، ثم لأن ماشرى عرف السيميوطيقا والتحليل النفسى اللاكانى اللذين يستنتجان أن الخطاب (النظرى أو التخيلى) لم يكن يوماً بريئاً، أن اللغة التى يستخدمها ليست " طبيعية " وإن الأيديولوجية تقع على مستوى اللغة.

و حين ننتهى من قراءة نصوص ماشرى نشعر بخيبة أمل : ونستنتج مع ارتياحنا لعدم وجود كلمات مثل " عظمة " و " عبقرية " ، أن معظم براهينه سبق أن قدمها لوكاتش الذى تم حذف اسمه بعناية . لقد نشر ماشرى نصين حول " الفلاحين " . الأول فى كتابه : " من أجل نظرية للإنتاج الأدبى " Pour une théorie de la production littéraire (١٩٦٦) والثانى فى " النقد الاجتماعى " Sociocritique (الناشر Cl . Duchet ١٩٧٩) . وفيمايلى أفضل تقديم الكتاب الثانى لأتلافى اللوم الكلاسيكى بانتقاد وضع تعدها الكاتب نفسه.

وعلى غرار ماركس ولوكاتش ينطلق ماشرى من فكرة أن بلزاك يدعى عمل شىء ويفعل غيره : إنه يسعى لتعليل وجهة نظره المحافظة وينتهى بإظهار الفجوات والتناقضات لأيديولوجيته الخاصة. لقد رغب فى أن يقنع قراءه بأن طبقة الفلاحين خطيرة وانتهى بوصف تدهور حالة الفلاحين فى ظل

النظام الرأسمالى . إن الحقيقة " الروائية " تعارض الحقيقة " الأيديولوجية " الموالية للسلطة الشرعية : " لأن حقيقة التاريخ والنص السردى فى موضع آخر : فى هذا التقدم المحتوم للطبقة البورجوازية التى تستخدم طبقة الفلاحين كأداة وكاسم مستعار ، لتشييد سلطتها " (ماشرى ، ١٩٧٩ : ١٤٦) . وهو بالضبط ما يقوله لوكاتش : " إن صراع الفلاحين ضد عواقب الاستغلال الإقطاعى [...] جعل منهم ذيولاً وخداماً للرأسمالية المرابية " (لوكاتش ، ١٩٣٤ ، ١٩٦٩ : ٢٨) .

ينتهى إذن المشروع الروائى فى " الفلاحين " بالتنكر للأيديولوجية التى يظهر تناقضاتها . حيث يؤتى الروائى دون أن يعى ذلك ، أثراً أيديولوجية تخالف مشروعه المحافظ : " إن مؤلفات بلزاك هى خير مثال لهذا الإلزام الذى يجد فيه كل كاتب نفسه ، مجبراً على قول الشىء وأشياء أخرى فى نفس الوقت " (ماشرى ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٠ : ٢٢٦) . وظهور التناقضات يرجع إلى اضطرار الكاتب إلى استنطاق الفلاحين ليتمكن من تقديمهم . والواقع أن كلام الفلاح هو الذى يكشف القناع عن السيطرة الأيديولوجية للبورجوازية .

وبعكس لوكاتش الذى لا يهتم باللغة التى يميل إلى اعتبارها شفافة ، وكأنها بديهية ، فإن ماشرى يحلل ، وبخاصة فى مقاله الثانى ملفوظات الفلاحين . ويظهر (وهو المظهر الهام والمجدد لتحليله) أن الفلاح يتحدث بلغة استعارها من البورجوازية : " وبشكل مماثل تعبر بامتياز اللغة المتنكرة للفلاح عن التحايل التاريخى الذى يشكل القدر الحقيقى لطبقة ما " . ثم يضيف : " إن شكل الجملة لدى الفلاح يتبرر تماماً فى اللحظة التى تزول فيها صفتها الفلاحية " (ماشرى ، ١٩٧٩ : ١٤٢ ، ١٤٣) .

إن إضافة اللغة البورجوازية (الإنسانية) إلى لغة الفلاح هى بالطبع ظاهرة مهمة بالنسبة لعلم اجتماع النص . إلا أنه لا يكفى إدخال دراسة هذه الظاهرة فى برهان لا يختلف عن الذى للوكاتش إلا فى نقطة واحدة أساسية :

فى شرح التناقض المشهور لدى بلزاك . وبعكس لوكاتش الذى " يشرح " التناقض بين مقصد الأيديولوجية ومقصد الكاتب بنبوغ بلزاك فإن ماشرى يسعى لشرح التناقض الشامل بين النص الأدبى ووظيفته فى " الأجهزة الأيديولوجية للدولة " . هذه الوظيفة هى فى الوقت نفسه وظيفة متعسرة Une dysfunction . النص هو فى الوقت نفسه أيديولوجى ونقدى : " فى حين تبدو دائماً الأيديولوجية فى حد ذاتها حافلة ، سخية ، إلا أنها عند تواجدها فى الرواية ، تبدأ فى إظهار نواقصها " (ماشرى ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٠ ، ١٥٥) .

لا ترجع إذن الفجوة بين الرواية والأيديولوجية إلى عبقرية بلزاك بل إلى أن التخيل يميل إلى فضح الأيديولوجية السائدة . ونجد هنا فكرة ماشرى وإتيان باليبار القائلة بأن النص الأدبى " ليس حقاً التعبير عن أيديولوجية (تجسيدها فى كلمات) ، بقدر ما هو تجسيدها ، وعرضها فى عملية تنقلب فيها بشكل ما ضد ذاتها " (انظر الفصل ٢ ، ٢ ، أ) .

وحتى إذا اتفقنا مع الفكرة الألتوسيرية بأن النص الأدبى لا يعبر بشكل أحادى عن أيديولوجية معينة ، وأنه يظهر فجوات الأيديولوجية ، فما هى العمليات الدلالية والسردية التى تجعل " تصوير " و " عرض " الأيديولوجية ممكناً ؟ إحدى المشاكل التى تواجه القارئ هى الصفة المبهمة والمجازية للمصطلح الذى يستخدمه ماشرى : ما هو معنى " تجسيد " Mise en scène أو " عرض " Exhibition الأيديولوجية؟

وإعادة قراءة كتاب ماشرى (١٩٧٩) لا تؤدى بالمرّة إلى إزالة الفجوات أو تقليل عددها بل إلى زيادتها : " فى الوقت الذى يجعل فيه هذا التخيل المقصد الأيديولوجى الذى بنى عليه ، مقروءً فإنه يجعله ينفجر ، لكى يظهر خلصة التناقضات الداخلية عند إعطائها بالتحديد شكلاً روائياً " (ماشرى ١٩٧٩ : ١٢٨) . ولكن كيف يمكن أن تجعل مقصداً أيديولوجياً مقروءاً ؟ كيف نجعل الأيديولوجية " تنفجر " ؟ وما هى العلاقة بين الأيديولوجية والرواية ؟ ماشرى لا يجيب على أى من هذه الأسئلة .

وحتى نجيب على هذه الأسئلة يجب تقديم الأيديولوجية والرواية التي تستوعبها وتحولها إلى أبنية خطابية دلالية وسردية. يمكن ، على سبيل المثال، توضيح أن السردية (الدلالية والفاعلة Actantielle) للأيديولوجية المحافظة (الشرعية) تعارضها بنية الرواية ، بتعبير آخر أن بلزك يقص " حكايتين " متعارضتين جزئياً. ولا يكفي لاستكمال هذه المهمة تصوير هذه الأيديولوجية على المستوى اللغوى (الخطابى)، يجب (على الأقل!) التمييز بين كاتب الرسالة - المقدمة الموالى للسلطة الشرعية وبين راوى الرواية ، والذي ربما يستنكر خطابه خطاب الكاتب.

وللأسف فإن النقد الاجتماعى الماركسى والذي تظهر حساسيته تجاه الشكلية ، لا يهتم أبداً بالبنى الدلالية والسردية . وهو بالتالى عاجز عن تعريف الأيديولوجية التى هى دائماً شكل خطابى . وعلى الرغم من أهمية دراسة ألتوسير " الأيديولوجية والأجهزة الأيديولوجية للدولة " (١٩٧٠) إلا أنها تظل مبهمة وغير كاملة طالما أنه استحال وصف الآليات الخطابية للأيديولوجية . وحتى إذا اتفقنا تماماً مع ألتوسير فى قوله أن " الأيديولوجية تخاطب الأفراد كذوات " فإننا نود معرفة كيف تتحقق هذه المخاطبة على المستوى الدلالى والفاعلى Actantiel . إن الذاتية نفسها هى نمط خطابى، حيث إن الذات ليس لها وجود مستقل عن خطابها (انظر فى هذا الموضوع : الفصل التالى ، " موريس بيشو : الحقائق الواضحة ، باريس ماسبيرو (M.Pêcheux, Les Vérités de La Palice, Paris, Maspero, 1975 et Zima . 1978 , 1981).

مشكلة ماشرى إذن هى مشكلة مزدوجة : أنه يستكمل تحليلات ماركس ولوكاتش دون أن يحدد لماذا يعتبر افتراضات لوكاتش (والتى يأخذ بعضاً منها بالكامل) غير كافية ، إنه يردد أكبر نقطة ضعف للنقد الاجتماعى الماركسى الذى يجهل أن الرواية والأيديولوجية هما قبل كل شىء بنى دلالية وتركيبية (سردية) . هذا الجهل الذى احتفظت به الماركسية (بل وعلته أيضاً) منذ القطيعة بين الشكليين والماركسيين الروس ، يوضح البلاغة المجازية،

المبهمة والغامضة فى كثير من الأحيان التى تصل إلى أقصى حدودها لدى ماشرى : " وهكذا فإن العمل له معنى يكتفى بذاته وليس بحاجة لاستكماله. هذا المعنى يتأتى من تنسيق داخل العمل بين انعكاسات جزئية وبين نوع من استحالة الانعكاس (ماشرى، ١٩٦٦ ، ١٩٧٠ : ١٥١). وأعترف أن تعبيرات مثل " انعكاسات جزئية" ونوع من "استحالة الانعكاس" لا تعنى، بالنسبة لى شيئاً : إنها متعددة المعنى Polysémiques وقابلة لأكثر من تفسير. ونستنتج فى النهاية أن علم اجتماع الأدب لم يتقدم بالمرّة ما بين ١٩٣٤ و ١٩٧٩ ، لقد تطور بالتأكيد : ولكن عن طريق تغيير القاموس اللغوى الخاص به وليس بتطوير مناهج تسمح بتحليل أوضح وأكثر تفصيلاً للنصوص المعنية.

ج - من لوكاتش إلى جولدمان

من أجل علم اجتماع للرواية .

من الصعب فهم علم اجتماع الرواية الحديثة الذى طوره لوسيان جولدمان مستقلاً عن " نظرية الرواية " (La Théorie du roman) لچورچ لوكاتش . وفى هذا العمل الذى كان يعتبر فيما مضى كمقدمة لعمل كبير حول دستويفسيكى ، استلهم لوكاتش الفلسفة الهيكلية للتاريخ ليشرح تطور الملحمة والتراجيديا والرواية .

والفكرة الأساسية لهذا الكتاب هى الافتراض الهيكلى باختفاء الوحدة القديمة (الإغريقية) بين الوعى والعالم، بين الذات والموضوع، فى المجتمع الحديث ، البورجوازي . وحسب لوكاتش فإن هذه الوحدة تظهر بوضوح فى الملحمة الإغريقية : فى عالم هوميروس ، فى الإلياذة والأوديسة . وتتسم الرواية الحديثة، على العكس، بالانشقاق بين الإنسان والعالم: بالاستلاب.

لقد طور فلاسفة وكتاب مثل هيجل، ويلاند، جوته وهولدرلين قبل لوكاتش هذه الفكرة مع التأكيد بأن الملحمة تعكس شمولية الحياة ، فى حين أن الرواية ، " هذه الملحمة البورجوازية الحديثة " (هيجل)، تظهر الفجوة بين الفرد والعالم و " تفترض واقعاً قد أصبح نثرياً " (هيجل، ١٩٦٥ : ٢١٣)

وتظهر الرواية التي نشأت عن الملحمة المعبرة عن وحدة الذات والموضوع، انشقاق وانعزال الذات . هكذا يمكن لجوته أن يشير إلى الرواية بصفاتها "ملحمة ذاتية" : " الرواية، كما يقول ، هي ملحمة ذاتية ، يطلب فيها الكاتب السماح بتصوير العالم بطريقته . وإذا كانت لديه طريقة يأتي الباقي من تلقاء نفسه " (جوته، ١٨٢١ ، ١٩٦٣ : ١٦) .

وفى هذا السياق يتحسن فهمنا للنظرية الأساسية للوكاتش والقائلة بأن بحث عن البطل الروائى هو البحث عن المعنى الملقى المفقود : "إن الرواية ملحمة عالم بدون آلهة وإن نفسية البطل الروائى شيطانية وإن موضوعية الرواية، تكمن فى الاستنتاج القوى والناضج بأن المعنى لن يتمكن أبداً من الغوص فى الواقع وأنه على الرغم من ذلك فبدونه يستسلم الواقع للعدم وللجوهر " (لوكاتش، ١٩٢٠ ، ١٩٦٣ : ٨١٤) . الرواية إذن هى بحث موضوعه المعنى ، إلا أن هذا المعنى ليس معروفاً كما فى الملحمة القديمة أو الإقطاعية وعلى البطل، ذلك الكائن الإشكالى والهامشى، الذى يواجه واقعاً اجتماعياً خالياً من المعنى أن يخلق المعنى بالرغم من أن بحثه المثابر عنه ينتهى بالفشل . وهذا البحث يمكن أن يتخذ أشكالاً مختلفة . ويعى لوكاتش هذه الحقيقة مع تمييزه فى نظرية الرواية La Théorie du roman ، لثلاثة أنماط من الرواية :

١ - رواية المثالية المجردة

٢ - الرواية السيكولوجية لخبية الأمل

٣ - الرواية التعليمية للتحديد الذاتى (autolimitation) للبطل والذى يمكن اعتباره جمعاً بين الشكلين الأول والثانى .

١ - يمثل أبطال مثل دون كيخوت أو جوليان سوريل (الأحمر والأسود) المثالية المجردة حيث يسعون إلى فرض مثاليته على الواقع المعقد للغاية إذا قورن بالرؤية المحددة لدون كيخوت الذى يصطدم بعقبات غير متوقعة وغير مفهومة.

ويتحدث لوكاتش فيما يخص المثالية المجردة ، عن " الوعى الضيق للغاية " للبطل و " انكماش الروح الفاعلة " .

٢ - النمط الثانى وهو الرواية السيكولوجية وتيمتها الأساسية هى نفسية البطل : وعيه الأوسع من قدرته على التكيف مع تواطؤات (إذن مع نواهى) الواقع الاجتماعى . إن أبطال هذا النوع الروائى يميلون إلى أن يكونوا حاملين سلبيين مثل فريدريك موروفى " التربية العاطفية " لفلوبير .

٣ - النموذج الأخير للوكاتش هو الرواية التعليمية (Erziehungsroman) التى يمثلها ويلهلم مايستر لجوته . هذه الرواية تؤدى إلى التحديد الذاتى ، المتعقل والمستسلم للبطل الذى لم يتقبل الفجوة بين المثالى الذاتى والواقع الموضوعى إلا إنه تفهم طبيعة هذه الفجوة واستحالة تخطيها . هذا النمط الثالث يمكن اعتباره جمعاً للنمطين السابقين ، بقدر ما يحتفظ ويلهلم مايستر بالمثالى مع تفهم استحالة تحقيقه فى العالم . ويولد الازدواج الكامل لهذا الوضع خطاباً ساخرأ .

والمقصود فى علم اجتماع الرواية الذى طوره جولدمان شرح الفجوة الروائية بين الذات والموضوع ، بين الوعى (" النفسية ") والعالم ، فى سياق اجتماعى (مادى - جدلى) . ويسعى جولدمان انطلاقاً من نقد الاقتصاد السياسى لماركس القائل بأن المجتمع الرأسمالى تحكمه قيمة التبادل (انظر الفصل الأول ٤ ، ط ، ي) إلى إثبات أن الصفة الإشكالية للبطل الروائى يمكن شرحها فى ضوء واقع ثقافى فاسد : فى ضوء تدهور جميع القيم (المادية والأخلاقية والجمالية والمعرفية) بفعل قوانين السوق .

إن القيم الثقافية الأصيلة (التى يسميها جولدمان أيضاً القيم " الكفية " فى مقابل كم قيمة التبادل) ليس لها وجود فى الواقع الاجتماعى المتدهور . إلا أنها تظل منبعثة فى نفس الفرد ولا تفلت بالرغم من ذلك من التوسط الانحطاطى الذى له تأثير عام فى مجموع البنية الاجتماعية "

(جولدمان ، ١٩٦٤ : ٤٧)

إن الذين يسعون باحثين عن القيم الأصيلة هم أفراد " إشكاليون" حيث إنهم لن يتمكنوا من الإفلات من التآثيرات الانحطاطية للتوسط Médiation عبر قيمة التبادل والتشويؤ. (انظر الفصل ١ ، ٤ ، ٤ ، ٤) .

ويقابل الإنسان الإشكالي والهامشي للمجتمع الفردي ، فريسة التشويؤ والتوسط على المستوى الجمالى ، البطل الروائى - شخصية " شيطانية " تتسم بالبحث الدائم عن القيم الأصيلة (الكيفية) : " إن الشكل الروائى - يكتب جولدمان - يظهر لنا بالفعل على أنه نقل ، على المستوى الأدبى ، للحياة اليومية للمجتمع الفردي الناشئ عن الإنتاج للسوق " (جولدمان ١٩٦٤ : ٣٦) .

توضح الصفة المتدهورة للبحث الروائى المظهر " الشيطانى " الذى يتخذه البطل (فهو مجنون مثل دون كيخوت أو مجرم مثل جوليان سوريل) و السخرية التى يلجأ لها الكاتب ليضع مسافة بينه وبين البحث الوهمى .

فى الرواية مثلها فى الواقع الاجتماعى ، تكون القيم الأصيلة ضمنية : إنها تظهر للعيان مباشرة فى عالم تسوده قيمة التبادل التى يتوجه إليها معظم الأفراد " غير الإشكاليين " . ومن هنا يستقى جولدمان الاستنتاج المنهجى (ذى الدلالية الواضحة) بأن الرواية بوصفها إبداعاً نقدياً نابعاً من الفردية ، لا يمكنها أن ترتبط بأية " رؤية جماعية للعالم " ، وبأى جماعة اجتماعية . إنها بحث فردي عن قيم غير فردية Transindividuelles (أصيلة) غائبة.

ويكتب الأتى : " إن الشكل الروائى الذى درسناه توأ هو ، فى جوهره نقدي ومعارض " (جولدمان ، ١٩٦٤ : ٥٢) . ويضيف قائلاً أن " الأدب الروائى مثله مثل الإبداع الشعري الحديث وفن الرسم المعاصر ، جميعها أشكال أصيلة من الإبداع الثقافى لا صلة بينها وبين وعى فئة اجتماعية معينة (Goldmann, 1964:44) . ومع أن الرواية وثيقة الارتباط بالفردية البورجوازية إلا أنها تعد نقداً للبورجوازية أكثر منها تعبيراً عن " رؤيتها للعالم " (وسأعود فى التعليق النقدي إلى التطبيقات المنهجية لهذا البرهان) .

إن موقف جولدمان فى هذا الموضوع ليس أحادياً بالمرّة : فهو يؤكّد من جانب أن الرواية هى نوع فردى ، معارض ومن جانب آخر فهو يفحص إمكانية ربط بعض الروايات برؤى جماعية للعالم . فى دراساته المفصلة حول أندريه مالرو ، على سبيل المثال ، يقترح إقامة علاقة بين عالم الكاتب وجماعة اجتماعية ما لذلك العصر المعنى . فى " بنى عقلية وإبداع ثقافى " Structures mentales et Création culturelle يذهب إلى أبعد من ذلك: " بيدولى أن أعمالاً مثل الروايات الأولى لمالرو وروب جرييه ينبغى أن تدرس على أنها نقل أدبى لرؤى العالم للعمال «الفوضويين - النقابيين» والمتقنين [...] " (جولدمان ، ١٩٧٠ : ٣٠٤) .

ورغم هذا الرجوع المتردد إلى مفهوم " رؤية العالم " (الأساسى فى "الإله الخفى ") ، يقدم جولدمان التطور الروائى فى علاقته بمصير الفرد والفردية فى المجتمع الرأسمالى ويميز ثلاث مراحل فى تطور الرأسمالية تقابلها ثلاث مراحل فى التطور الأدبى:

١ - الرأسمالية الليبرالية المتميزة بازدهار الفردية المبنية على مبدأ الحرية الاقتصادية والمبادرة الفردية .

٢ - ظهور رأسمالية الاحتكارات (قرب نهاية القرن ١٩ وبداية القرن العشرين) الذى أدى إلى " إزالة أية أهمية جوهرية للفرد وللحياة الفردية داخل البنى الاقتصادية وبالتالي داخل مجمل الحياة الاجتماعية " . (جولدمان ، ١٩٦٤ : ٢٩٠) .

٣ - تطور أنظمة تدخل الدولة وآليات التنظيم الذاتى Autorégulation التى تؤدى إلى إزالة أية مبادرة فردية أو جماعية : ظهور الرأسمالية الاحتكارية للدولة .

وتتطابق مع المرحلة الأولى ، فى رأى جولدمان ، رواية الفرد الإشكالى: روايات فلوبير ، ستاندارد ، جوته ، بلزاك الخ . أما المرحلة الثانية فتتسم

بتنويب البطل الإشكالي في روايات چويس ، بروسست ، مالرو ، وناطالى ساروت. وأخيراً فإن المرحلة الثالثة، هي مرحلة اختفاء البطل في الرواية الجديدة لآلان روب جرييه التي يحلها جولدمان في نهاية كتابه.

إن روايات أندريه مالرو - التي يحلها جولدمان بدقة - والتي تنتمي للمرحلة الثانية للتطور الرأسمالي ، تطرح في مجملها المشاكل المرتبطة بتدهور القيم الكيفية في " المملكة المهووسة " وإلى فشل الفرد الساعى للبحث عن الأصالة.

إن عصر تفكيك الذات الفردية هو في الوقت نفسه ، العصر الذى تسود فيه القيم الجماعية وأيديولوجيات القيم الفردية. ومع مراعاة هذا الترجيح للعناصر الجماعية والأيديولوجية ، يسعى جولدمان إلى إقامة علاقة بين العمل الروائى لمالرو والتحولات التاريخية الأيديولوجية وبخاصة تلك التي تلحق بالحزب الشيوعى الفرنسى .

إن أعمال مالرو مستندة إلى الخلفية الأيديولوجية لتاريخ الشيوعية تنقسم إلى أربع مراحل . ويستنتج الكاتب من خلال المرحلة الأولى " إغراء الغرب " La Tentation de l'Occident و "أقمار من ورق " Lunes en papier و " المملكة المهووسة " Le Royaume farfelu غياب القيم الكيفية في أوروبا الغربية مع تأكيد " موت الآلهة والتدهور الكونى للقيم [...] " (جولدمان، ١٩٦٤ : ٦٢).

إن الموقف السلبي لمالرو وفكرته بأن نظام القيم القديم قد اختفى، يشرح في رأى جولدمان، الصفة غير الروائية لأعماله الثلاث الأولى التي هي إما مقالات Essais (إغراء الغرب) أو " حكايات فانتازية و أمثولية " . طالما أن الكاتب لا يعترف بقيم ما ، حتى الإشكالية منها ، فهو لا يتمكن من إبداع الروايات . وهكذا فإن الموقف الظاهر في الكتابات الأولى لمالرو هو سلبي تماماً. المجتمع البورجوازي المتمثل في " المملكة المهووسة " هو إمبراطورية الموت واللاقيمة.

وما يميز الروايات الثلاثة لما رو "المنتصرون" Les Conquérants و"الطريق الملكى" La Voie Royale "والوضع الإنسانى" La Condition humaine عن الكتابات الأولى غير الروائية هى إرادة الكاتب من خلالها لتجسيد القيم الإيجابية وإن كانت إشكالية : " الروائى مالرو بين "المنتصرين" و"الوضع الإنسانى" ، هو ذلك الرجل المؤمن بالقيم الكونية بالرغم من كونها إشكالية " (جولدمان ، ١٩٦٤ : ٨٤) . إن البحث عن القيم الأصيلة يجعل إذن الشكل الروائى ذا البطل الإشكالى ممكناً .

ويرى مالرو أن البحث يجب أن يتخطى إطار النفس الفردية : حيث تستحيل رواية سيكولوجية مثل " التربية العاطفية " أو " مدام بوغارى " فى عصر يتسم بتفكك الذات الفردية و حياة البطل لن تتخذ معنى إلا إذا توجهت إلى الحدث التاريخى الذى يتجاوزها .

فى رأى جولدمان ، أن القيم الإيجابية التى نجدها خلف عمل مالرو الروائى ، رغم إشكاليتها ، يتم شرحها فى إطار منظور اجتماعى - تاريخى عن طريق اللقاء مع الحركة البروليتارية والشيوعية . هذا اللقاء يسمح لما رو بخلق عالم روائى حقيقى إستناداً إلى الأيديولوجية الماركسية التى تظهر وكأنها الحقيقة الأصيلة الوحيدة فى عالم يتحلل .

ويستقى أبطال الروائتين الأوليين "المنتصرون" و"الطريق الملكى" معنى لحياتهم من كونهم ثوريين ورجال فعل تحميمهم الحركة التاريخية الثورية من العدم . واستمرار الحدث يضيف على حياتهم معنى ومع زوال الحدث تفقد حياتهم معناها بسبب الموت فى حالة جارين ، وانتصار الحزب فى حالة بورودين . ويعود الأبطال فى نهاية الرواية ، وبالرغم من اقتراب موتهم ، ليجدوا معنى حياتهم فى الفعل ، إلا أن الموت يبدد كل شىء فى النهاية ويتلاشى رجال الفعل فى العدم .

وترجع الشبكية ، إحدى التيمات الرئيسية فى رواية "الطريق الملكى" ، إلى هذا العدم الذى يعبر عن محدودية أى مبادرة فردية . ولا يتمكن الفرد

الوحيد، المنعزل عن أية حياة اجتماعية ، من حب أية امرأة ومن امتلاكها حيث نسمع على لسان بركن Perken "إننا لا نمتلك إلا ما نحب" وذلك في لحظة يأس من الشبقية والتي هي بديل للحب في حياة رجل الفعل المنعزل . ولن يتحقق ذلك في رأى جولدمان إلا في قلب جماعة.

إن تجاوز الفرد إلى المجتمع الإنساني هو القيمة الأساسية للرواية الثالثة لما للروايات التي يقرب جولدمان بينها وبين التروتسكية : "الوضع الإنساني". تشتمل هذه الرواية على " بطل إشكالي ، إلا أنها لكونها رواية تحول ، فهي لا تصف فرداً بل بطلاً إشكالياً جماعياً : أى مجتمع ثوري شنفهاى الذى يمثله فى النص السردي فى المقام الأول ثلاث شخصيات فردية: كيو و كاتو و ماى (جولدمان، ١٩٦٤ : ١٥٩).

وتتخطى هذه الرواية فى قلب المجتمع الثورى عدمية الفرد المجابه للموت، عدمية يعلنها المرض فى الروايتين السابقتين . وعلى الرغم من المعنى التاريخى الذى يضمه المجتمع إلا أنه يمكن اعتباره بطلاً إشكالياً ، حيث إنه يضحى به فى النهاية لصالح نظام الحزب الذى فرضته الدولية الستالينية الساعية للمصالحة مع تشانج - كاي - تشيك .

وكما قال جولدمان فإن لتخطى الفرد إلى المجتمع نتيجة مهمة بشكل خاص بالنسبة لجماليات الرواية: حيث يجعل الحب الحقيقى بين كيو و ماى ممكناً ، حباً ليست له أية صلة بشبقية بركن فى "الطريق الملكى" : " فى المجتمع الأصيل والرفيع : مجتمع الحب ، يتم إدماج وتجاوز الشبقية مثلها تماماً مثل الفرد " (جولدمان ، ١٩٦٤ : ١٧٦). (أودأن أنبه إلى البنية الهيكلية للخطاب الجدلى والإنسانى لجولدمان والمقصود فيه تجاوز الفردية الجورجوازية فى اتجاه خطوة تاريخية "أسمى" : فى اتجاه "المجتمع الإنساني").

ويتميز العملان التاليان : " زمن الاحتقار " Le Temps du mépris و "الأمل" L'Espoir عن العملين السابقين من حيث إن الكاتب يتقبل "بدون

تحفظ" الأيديولوجية الشيوعية . وينتج عن هذا التغيير فى المنظور اختفاء
البطل الإشكالى (الجماعى أو الفردى) واستبدال الشكل الروائى بالملحمى -
الغنائى .

ويكتب مالرو "أشجار الجوز فى ألتنبورج" Les Noyers de l'Altenburg بعد انفصاله عن الشيوعية الرسمية التى اكتشف فيها
"أيديولوجية دولة" ، وهو عمل يقع بين الإبداع الأدبى والتأمل الفكرى. " إنه
رجل يقص خيبة أمله ولا يزال يبحث عن أساس لإيمانه بالإنسان"
(جولدمان، ١٩٦٤ : ٨٤) . حتى هذا البحث - الذى أصبح متواضعاً - يبدو
مهملاً فى "أصوات الصمت" Les Voix du silence حيث " تختفى تماماً أية
فكرة عن قيمة كونية [...] " (جولدمان ١٩٦٤ : ٢٧١) .

تظهر إذن الرواية فى علم الاجتماع الجولدمانى، كجنس أدبى ينبع
من التوتر بين القيمة ونفيها. ويتخلى جولدمان فى حديثه عن الرواية الجديدة
عن إشكالية القيمة ويسعى إلى إثبات كيف أن نصوص روب جرييه تعبر عن
التشيؤ: عن طريق سلبية واختزال الذات الإنسانية.

تلى الفترة الانتقالية لتفكيك désintégration الذات الفردية، فترة
الرأسمالية المنظمة المتميزة بالتشيؤ التام. وحسب جولدمان فإن روب جرييه
يظهر لنا العالم كما أصبح عليه فى عصر الرأسمالية النظامية Capitalisme
d'organisation: عالم دون ذات تم فيه استبدال آليات التحكم الذاتى للنظام
الاجتماعى - الاقتصادى بمبادرة الأفراد والجماعات .

إن رواية روب جرييه هى رواية غياب البطل، الذى يستبدل الشئ به:
بالنسبة له أيضاً (روب جرييه) فإن اختفاء الشخصية هو حدث مفروغ منه
بالفعل ، إلا أنه ينتج أن الشخصية قد استبدلت بواقع مستقل (الذى لا
يهم ناتالى ساروت) : العالم المتشئ للأشياء " (جولدمان، ١٩٦٤ : ٣٠٢) .

ونجد فى "المحاوات" Les Gommages (أول رواية نشرها روب
جرييه) تنظيماً ثورياً سرياً ، يستهدف تصفية إنسان كل يوم . وتفشل فى

يوم محاولة قتل شخص يسمى دانييل دوبون ، بفضل الصدفة ويتصنع دوبون الموت ليهرب لفترة من متابعة أعدائه . إلا أنه لا مفر من نظام التحكم الذاتي Autorégulation ، إنه المخبر السرى المنتدب لحماية الشخص الملاحق هو الذى يرتكب خطأً ويقتل الشخص الذى هو مكلف بحراسته. ويحيل النظام الفرد إلى السلبية ويسلمه فريسة للصدفة أو التسلسل العبثى للأحداث .

وتظهر فى "المتلصص" Le Voyeur (والتى سيرد ذكرها فى الفصل التالى) سلبية الأفراد هذه فى المجتمع المتحكم فيه : حيث يظلون لامبالين فى مواجهة جريمة قتل ، قد أصبحت مدرجة فى نظام الأشياء (ولنلاحظ أن جولدمان لا يشرح هذه اللامبالاة فى علاقتها برواية روب جرييه بل فى ضوء نظريته عن المجتمع الرأسمالى) .

وفى النهاية تصل ذاتية الأشياء (مظهر آخر للتشويؤ) إلى نقطة الذروة فى "الغيرة" La jalousie وهى رواية يختفى فيها الترتيب الزمنى مع البطل، «أربعة فصول من سبعة تبدأ بكلمة "الآن"» (جولدمان ، ١٩٦٤ : ٢٢٠) .

لقد أثار علم اجتماع الرواية الحديثة، الذى طوره جولدمان وتم نشره على شكل فرضيات أكثر منها أطروحات ، ردود فعل نقدية ساخنة ، ولا نعنى فى الملاحظات النقدية التالية، قبول أو رفض المدخل الجولدمانى فى مجمله بل فهم أسباب احتفاظه بأهمية ما بالرغم من التبسيطات والتشويهات التى يحتويها .

وأكثر الانتقادات شيوعاً توجه إلى المحاولة الاختزالية لإقامة علاقة مباشرة (وجودية أو مرجعية) بين العالم الروائى وعالم المجتمع . وهكذا أراد جاك لينارد الذى اتخذ كنقطة انطلاق أعمال لوكاتش وجولدمان ، أن يعيد إلى علم اجتماع الرواية مفاهيم " البنية الدلالية " و " الوعى الجماعى ، عبر الفردى " Transindividuelle ، التى تخلى عنها جولدمان نفسه : " يجب إعادة مفاهيم جولدمان الخاصة بالوعى الممكن ، بالبنية الدلالية ، وبالوعى الطبقي أو المجموعة الاجتماعية [...] إلى النظرية الاجتماعية للرواية بالرغم

من استبعادها في " من أجل علم اجتماع للرواية [...] " (لينارد، ١٩٨١ : ٣٨).

ما هي أسباب الدفاع عن مفاهيم مثل " البنية الدلالية " ، " رؤية العالم " و " الوعي الممكن " ؟ . يميل جولدمان باستبعاد هذه المفاهيم من سوسولوجيا الرواية إلى وضع علاقة انعكاس بين النص الأدبي والواقعي الاجتماعي - الاقتصادي الذي يُعرفه في إطار النظرية الماركسية للرأسمالية والفردية.

إلا أنه، ليس أكيداً أن الرواية هي مجرد نوع " معارض " نابع من الفردية البورجوازية . وتبين تحليلات كوت وإيان واط بوضوح أن جزءاً من الأدب الروائي على الأقل يمكن ربطه بوجهة نظر البورجوازية الصاعدة . وهكذا فإن روايات دوفو ، فليدينج وريتشارد سون تميل مثلها مثل روايات بلزاك إلى إثبات بعض الأفكار وبعض الأحكام القيمة للطبقات البورجوازية . يوضح جولدمان نفسه ، فيما يخص سارتر ، أن الفردية يمكن أن تصبح رؤية جماعية للعالم (انظر جولدمان ، ١٩٧٠ : "مشاكل فلسفية وسياسية في مسرح جان بول سارتر ") .

وتكمن أكبر نقطة ضعف في المدخل الجولدماني بالطبع في التوهم - المنتشر جداً وسط أنصار الماركسية - بإمكانية تجاوز المستوى اللغوي : إمكانية إهمال البنى الدلالية والسردية للنص الروائي .

حين يؤكد جولدمان على سبيل المثال أن أوائل و أواخر كتابات مالرو ليست روايات ، فإنه يلزمه تعريف دلالي وسردى للرواية . ما هي سمات هذا الجنس الأدبي ؟ وكيف نصف البنية النصية للكتابات " الرسائلية " - Essay-iste لمالرو ؟ جولدمان لا يضع هذه التساؤلات ويكتفى بالحديث عن " شكل " وتطور الرواية في سياق انطباعي خالص .

إن استبعاده للمستوى اللغوي له عواقب وخيمة وخاصة في تحليلاته لروايات روب جرييه . وبعكس الروايات التقليدية التي تشير بشكل مباشر إلى

حد ما إلى الواقع الاجتماعى والنفسى ، تطرح نصوص روب جرييه (وريثة
چويس وبروست وكافكا) قضايا نشأتها وبنيتها الخاصة . والتحليل الذى لا
يضع فى اعتباره هذه الحقيقة يتغاضى عما هو جوهرى .

ولا يخطىء جولدمان فى تأكيده أن " المحاولات " Les Gommages
و" المتلصص " Le Voyeur أو " الغيرة " La jalousie تعبر عن التشيؤ فى
المجتمع المعاصر إلا أنه لا يشرح النصوص - لأن التشيؤ والتوسط عبر قيمة
التبادل لا يظهران فقط على المستوى المرجعى Dénotatif : فى الوصف
الدقيق للأشياء أو فى سلبية الفاعلين Acteurs وعوامل الفعل Actants .

ومن المستحيل توضيح بنية هذه الروايات طالما لم يتم تقديم التشيؤ
والتوسط كظواهر لغوية: دلالية وسردية. بوصفه روائياً، يتناول روب جرييه
أولاً اللغة عموماً ثم اللغات المنطوقة من حوله بشكل خاص . إنه لا يقدم ولا
يصف التشيؤ أو التوسط بوصفهما ظواهر اجتماعية اقتصادية، إنه على حق
تماماً بتأكيده فى مناقشة حول الرواية الجديدة أن المدخل الجولدمانى
اختزالى باعتبار أن الراوى ليست لديه أية نية لمنافسة عالم الاجتماع
الماركسى ووصف التشيؤ (انظر روب جرييه ، ١٩٧٢ : ١٧١) .

تكمّن مشكلة جولدمان فى أنه يعتبر النص الأدبى (الروائى) كبنية
مدلالات Signifiés تحيل مباشرة إلى الواقع الاجتماعى . فى حين أن الرواية
هى مجموعة من البنى الدلالية ، التركيبية والسردية التى تتفاعل مع القضايا
الاجتماعية والاقتصادية على مستوى اللغة : اللغة هى إذن البنية الوسيطة
الواقعة بين النص والمجتمع ، الذى يعتبر هو نفسه نظاماً من العلامات
الكلامية وغير الكلامية Signes verbaux et non verbaux (ويظهر أن
جولدمان يغفل عن الواقع اللغوى عند ذكره للبطل الروائى كما لو أنه فرد
متواحد وليس وظيفة للقص : عنصر فاعل داخل بنية سردية) .

ويظهر التشابه كأساس للبرهان الجولدمانى ، فى " من أجل
سوسيبولوجيا للرواية " أكثر منه فى " الإله الخفى " . يشكل روب جرييه (فى

إطار المنظور الجولدماني (بتصوير عالم الأشياء ، وبتفضيله الأشياء على الذات، مشابهاً للواقع الرأسمالي . ويستخدم جولدمان هذا التشابه ليوضح خطابه الخاص الذي " يقص " الواقع بطريقة معينة تصور تطور الرأسمالية في ثلاث مراحل : الليبرالية ورأسمالية الاحتكارات ورأسمالية التنظيم. إلا أن النص الأدبي لا هو صورة من المجتمع ولا هو صورة توضيحية لخطاب نظري : إنه يحول (يترجم) بعض القضايا الاجتماعية إلى قضايا دلالية وسردية . (ولهذا يبدو دائماً البرهان " التشابهي " غير كافٍ في علم اجتماع الأدب وفي التحليل النفسي) .

مع الاعتراف بنواقص المدخل الجولدماني ، إلا أنه لا مجال هنا للتخلي عنه بكل بساطة من أجل " عمل شيء آخر " . لأن عمل جولدمان يحتوى على لحظة حقيقية تشرح لماذا هو في كثير من الأحيان منتقد ومستنكر ومذكور ومقروء من جديد : إنه يظهر أن التوسط عبر قيمة التبادل هو أساس أزمة القيم في مجتمع السوق وهو يؤكد في هذا المنظور بعض المبادئ الأساسية لأدورنو وهوركهايمر وبيير بورديو . إلا أنه يجب تقديم التوسط (في إطار علم اجتماع النص) على مستوى اللغة: كمشكلة لها مظاهر دلالية وسردية . إن منظر الرواية الذي توغل في هذا الاتجاه (دون أن يتحدث أبداً عن توسط بالمعنى الجولدماني أو الأدورني) هو ميخائيل باختين. إن نظريته الخاصة بازواج القيم الكرنفالي - Ambivalence car- navalesque هي أساس علم اجتماع النص الروائي كما يُشار إليه هنا .

د - ميخائيل باختين :

كرنفال ، ازدواج ورواية

يبدو للوهلة الأولى أن المنظور الذي يتبناه باختين مختلفاً تماماً عما لدى لوكاتش وجولدمان ، وأود أن أظهر هنا أن المنظورين مكملان لبعضهما وأن جمعهما يمثل تقدماً مهماً في تطور علم اجتماع الرواية .

لا تشكل الفجوة بين الوعي والعالم ، بين الذات والموضوع ، لدى باختين نقطة الانطلاق لنظرية الرواية بل الكرنفال Le Carnaval المعروف كحدث

شعبي نقدي موجه ضد جدية الثقافة الرسمية (الإقطاعية) . والسمات الأساسية للحدث (الكرنفالى هى: الازدواج القيمي L'ambivalence تعدد الأصوات La polyphonie والضحك Le rire يسعى باختين فى أهممؤلفاته: أعمال فرانسوا رابليه L' Oeuvre de François Rabelais و"بويطيقا دوستويفسكى" La Poétique de Dostoïevski لشرح نصوص هذين الكاتبين بدءاً من التراث الكرنفالى . إن تفسيره لروايات دوستويفسكى وفكرته بأن الازدواج وتعدد أصوات هذه الروايات ذات أصول كرنفالية هى ذات أهمية خاصة جداً بالنسبة لعلم اجتماع الأدب.

الكرنفال: الكرنفال بالنسبة لباختين هو أكثر من مجرد " حدث " Happening "احتجاجى" Contestataire بالمعنى الحديث للمصطلح، إنه ثقافة فرعية Subculture نقدية تُشكك طقوسها وأنشطتها فى الأخلاق السائدة والمعايير المتبعة، التى تُقدّم فى سياق محكوم بقانون خارجى، كاريكاتورى وهزلى . كيف لفت النظر إلى ظهور هذه الثقافة الفرعية التى يربطها باختين بالاحتجاج وتحريير " الشعب " ؟ وفى رأى باختين ، أنها ظهرت على الأخص فى المرحلة الانتقالية الواقعة بين العصور الوسطى والنهضة . فى ظل هذا الوضع التاريخى المتسم بنوع من عدم الثبات (دوركهايم يتحدث عن اللامعيارية Anomie) تبدأ بعض جماعات الفلاحين، والصناع والبورجوازيين، فى الاحتجاج (بوعى أو بلاوعى) على سيطرة النبالة والكنيسة وتكوين ثقافة " بديلة " . من الواضح أنه لا مجال هناك فى مجتمع رابليه (حوالى ١٥٣٠) لثقافة فرعية ثورية ، حيث إنه لأسباب اقتصادية وسياسية وثقافية لا تتمكن طبقات الفلاحين من معارضة الجماعات السائدة بشكل منظم إلا أن بعض الدوافع النقدية تظهر بوضوح فى الكرنفال المسموح به من النبالة والإكليروس بوصفه احتفالاً شعبياً .

بصرف النظر عن باختين، يمكن أن نشاهد فى كرنفال ذلك العصر "صمام أمان" اجتماعى Ventilsitte (حسب معنى جورج سيمل): طقس قائم يسمح فى حدود مكانية وزمانية معينة، بأفعال ممنوعة فى الحياة اليومية.

وللهولة الأولى، يمكن أن نعتقد أن طقساً كهذا له وظيفة محددة فى إطار النظام الاجتماعى وأنه لا يمكنه بالتالى أن يسهم فى تفكيك هذا النظام: أنه مثلاً ، يمنع تراكم الحقد والاعتداء والصراع . ومن الجائز جداً أن التقليد الكرنقالى ساهم فى البداية فى إرساء النظام الإقطاعى ، إلا أنه مع مرور الزمن، يبدو أنه قد أحدث تأثيرات هدامة تتعارض مع جدية الثقافة الرسمية للأسياد وللكنيسة. وفى الكرنقال كما يقول باختين : " كان الشعب يسخر من هذه الثقافة".

وفىما يخص الضحك الكرنقالى ، يشرح باختين الوظيفة النقدية والنقدية الذاتية للاحتفال الشعبى الذى يظهر الصفة النسبية والفانية للمؤسسات الإقطاعية . ويشكك الكرنقال عن طريق الجمع بين الجليل والسوقى ، المقدس والدنيوى ، الحياة والموت، الملك والمجنون فى سياق مزدوج ومنتهك للقدسيات ، فى الصفة المطلقة والأبدية للقيم الرسمية . القيمة الوحيدة التى يعترف بها هى ازدواجية القيم : الجمع بين قيمتين متعارضتين.

ويلاحظ باختين فى أكثر من موضع أن الشعب فى أثناء احتفاله يسخر من نفسه ولا يأخذ وضعه ووجهة نظره بماخذ الجد . الكرنقال يجعل من كل شىء نسبياً حتى الموت تتعارض مع صفته المطلقة ظهور امرأة عجوز حبلى تجمع الموت بالحياة ، النهاية بالاستمرارية والشيخوخة " المقدسة " بالجنس " الدنيوى " .

ويتعارض الضحك الكرنقالى كقوة نقدية وهدامة مع أربعة عناصر مهمة فى الثقافة الإقطاعية : -

- إنه ينفى التراث عن طريق تفضيله للاستمرارية والمستقبل : التحول الدائم لما هو كائن

يقابل الكرنقال الزهد الروحانى للدين فى العصور الوسطى ، بالحياة والجسد ، عن طريق التأكيد على الوظائف الجنسية والبرازية fécales لهذا الأخير . (انظر فى هذا الشأن الفصل السادس من كتاب باختين عن رابليه:

" الأسفل المادى والجسدى عند رابليه " Le Bas matériel et corporel " chez Rabelais" أو بتعبير آخر: إن الثقافة السائدة هي زهدية ومثالية (مثل معظم الثقافات السائدة) . فى حين أن الثقافة الفرعية الكرنقالية هي مادية وشهوانية . (المثالية تبدو مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسيطرة: من جمهورية أفلاطون حتى نظام هيجل) .

٣ - ينفى التهريج والطابع البهلوانى للكرنقال جدية الثقافة الرسمية .

٤ - التعارض الأخير هو بين الحياة والموت . لا يعترف الكرنقال بأخرويات اللاهوت الرسمى : حيث ينفيه ويتخطاه الجمع بين الموت والميلاد . ويتم فى الوقت نفسه تخطى التعارض العضوى لدى الإقطاعية بين الحياة والحياة الأبدية .

ولكى نفهم أهمية وحدائة نظرية باختين عن الكرنقال ، يجب تفادى أية شكلية يمكن أن تفصل هذه النظرية عن سياقها الاجتماعى - التاريخى .

وأعتقد أن هانز جونتير وبعض القراء الآخرين لباختين على حق فى إسقاطهم للتعارض بين " الجدية " الإقطاعية والثقافة الفرعية الكرنقالية ، على سياق المجتمع الستالينى للعشرينات والثلاثينات الذى نشأت فى ظله الأعمال الرئيسية لباختين : " لا يجب أن تغمض العين عن واقعة أن عدداً كبيراً من أسئلته ومفاهيمه مستقاه من السياق الثقافى المعاصر الذى تتفاعل ضده " (جونتير ، ١٩٨١ : ١٢٨) .

و حين يتحدث باختين عن ضحك رابليه وتعدد الأصوات الروائى المستويفسكى ، فهو يشكك بشكل غير مباشر فى المونولوج التسلطى للثقافة الرسمية والمثالية الهيجلية ، وليست الماركسية (للاتحاد السوفيتى . ويلاحظ جونتير مصوراً باختين كناقذ (محتمل على الأقل) " للواقعية الاشتراكية " وهكذا فإن هذا النهج يتوجه أيضاً بدون شك ضد أسطورة الملفوظ التسلطى والوحدة المعنى والأحرى الذى تم تقنينه فى الواقعية الاشتراكية » (جونتير ، ١٩٨١ : ١٦٥) . إن مناصرة باختين تكمن فى قدرته على توضيح الواقع

المعاصر عن طريق شرح نصوص رابليه ودوستويفسكى وسرفنتس وجوجل:
فالواقعية الاشتراكية مثلها مثل الدين في العصور الوسطى لا تشمل
ازدواجية القيمة وتعدد الأصوات.

ازدواجية القيمة: الازدواجية الكرنقالية لا تقبل القيمة المطلقة . إنها
تجعل جميع القيم نسبية عن طريق التوحيد بين ما تفصله الثقافة الرسمية من
أجل تعليل السيطرة الطبقية : " يجتهد الوجه ذو النبرة المزدوجة الذي يجمع
بين المدائح والشتائم ليلتقط لحظة التغيير نفسها ، ذلك الانتقال من القديم
إلى الجديد، من الموت إلى الميلاد . هذه الصورة تتوج وتخلع عن العرش في
ذات الوقت. ولا يتمكن هذا المفهوم للعالم من التعبير عن نفسه أثناء تطور
مجتمع الطبقات إلا من خلال الثقافة غير الرسمية، لأنه لم يكن له حق الوجود
في ثقافة الطبقات السائدة حيث كانت المدائح والشتائم محددة بوضوح وثابتة
[...] " (باختين ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٦٨) .

وفي المقابل فإن اختلاط المدائح بالشتائم هو أحد العمليات المميزة
لأعمال رابليه المليئة بالأقوال الكرنقالية. في Gargantua ، على سبيل
المثال، يسب الرهبان بل ويذهبون حتى تعليل سبابهم بلجوتهم إلى البلاغة
القديمة: " كيف (يقول بونكراتس) ، كيف أنك تسب ، يا أخ جان ؟ هذا
لمجرد (يقول الراهب) تزيين لغتي . انها ألوان من بلاغة سيسرون " (رابليه،
١٥٣٥ ، ١٩٦٥ : ٣١٩) . ويذكر باختين نفسه الأقوال المزدوجة التي نجدها في
Gargantua وبخاصة في " مقدمة الكاتب " Prologue de l'auteur
تلاميذي الأفاضل وبعض مجانين الترحال الآخرين [...] " (باختين،
١٩٦٥ ، ١٩٧٠ : ١٦٨) .

ويصعب شرح الازدواج القيمي الكرنقالي لدى دوستويفسكى وبعض
الكتاب الآخرين مثل توماس مان في ضوء الاحتفال الشعبي . ومن البديهي
أنه في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر وفي المجتمع الألماني
وبخاصة في القرن العشرين ، لم يعد لهذا الاحتفال تلك الوظيفة الاحتجاجية
والهدامة السالفة : حيث تحول إلى حدث فولكلوري بل سياحي .

ومن أجل حل هذا الإشكال يوضح باختين تأثير كتاب عصر النهضة على دوستوفسكى (باختين ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ : ٢٣٠) . وتبعد ازدواجية توماس مان عن المصادر الكرنقالية للعصور الوسطى ولعصر النهضة . وكما قال باختين فإنها ترجع إلى تأثير دوستوفسكى (باختين ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ : ٢٢٥) .

وربما يتفق قراء دوستوفسكى مع باختين حين يؤكد أن "دوستوفسكى يجمع بين الأضداد" (باختين ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ : ٤٢) وأن ازدواجية رواياته تولد انفصام الشخصية والهدلى والضحك والمحاكاة الساخرة وتعدد الأصوات . والذين يعرفون توماس مان سيؤكدون ما يقوله فيما يخص فيلكس كرول Félix Krull : " لناخذ في الاعتبار أن عمل توماس مان عميق الكرنقالية ويتجسد هذا بأوضح أشكاله في روايته " اعترافات المغامر فيلكس كرول " (حتى حديث البروفيسور كوكوك ، فيه نوع من فلسفة الكرنفال والازدواجية الكرنقالية) " (باختين ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ : ٢٢٢) .

ولكن كيف نشرح ازدواجية القيمة في الرواية الحديثة دون الرجوع إلى تأثيرات (أحياناً من الصعب تحديدها) ، لن تسمح دراستها أبدأ بالإجابة على السؤال الأساسى : لماذا أصبحت ازدواجية القيمة الدلالية أهم القضايا فى فلسفة نيتشه ، فى التحليل النفسى الفرويدى ، وكذلك فى روايات دوستوفسكى وموزيل وبروست وكافكا وسقيثو ؟ حتى إذا كان من الممكن استنتاج تأثيرات قوية لرابليه وسرفنتس أو جوجول ، لدى جميع هؤلاء الكتاب ، يجب أيضاً شرح استمرارية وانتشار هذا التأثير فى النصوص الحديثة .

إن ديونيز دوريسين Dionyz Durisin على حق ، عند تأكيده فى رسالة حول منهج الأدب المقارن إمكانية الاتصال بين الآداب (التأثيرات) فى كثير من الأحيان عن طريق بنى اجتماعية وثقافية مماثلة . وشرح التأثير يجب أن يتم فى ضوء هذه البنى (Durisin ، ١٩٨٠ : ٩٩) . إنه من المستحيل توضيح الازدواجية القيمة فى الرواية لدى دوستوفسكى ، كافكا أو

موزيل . على مستوى التطور الأدبي فقط ، على مستوى التأثير : بل ويصعب إثبات أهميته في كثير من الأحيان . (والفكرة القائلة بأن شخصيات كافكا ، موزيل أو بروسيت ازدواجية لمجرد أن هؤلاء الكتاب قد تأثروا بنتيشه أو دوستويفسكي تبدو غير مقنعة بالقدر الكافي .)

وللأسف فإن باختين لا يتساءل حول الأصول الاجتماعية والاقتصادية للازدواج القيمي " الكرنقالي " في المجتمع الحديث ، ولا يبدو كذلك مهتماً بالعلاقات بين كرنفال عصر رابليه وآليات السوق التي يتحدث عنها رغم ذلك في أكثر من موضع . ويصف في كتابه عن رابليه الصفة الكرنقالية والازدواجية القيمية لـ " صرخات باريس " وبلاغة الساحة الشعبية : " يجب أن ننوه إلى أن الدعابة الشعبية كانت دائماً هازئة إلى أنها كانت دائماً إلى حد ما تسخر من نفسها [...] ، ويتخذ إغراء الربح والغش على الساحة الشعبية طابعاً ساخرًا ونصف - صادق " . (باختين ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ : ١٦٣) .

وبالرغم من اعتراف باختين بأوجه الشبه بين أحداث الساحة الشعبية والكرنفال ، إلا أنه يستفيض حول الطابع الكرنقالي للسوق وحول الازدواجية كنتاج لمجتمع السوق . وإذا أعدنا قراءة مؤلفات ماركس الشاب في ضوء نظرية باختين للكرنفال ، نلاحظ أن ازدواجية " وكرنفالية " الثقافة هي ظواهر مجتمع السوق وأنها نتائج مباشرة أو غير مباشرة للتوسط عبر قيمة التبادل : " حيث إن المال ، بوصفه مفهوماً قيمياً موجود ويفرض نفسه ، يخلط ويبادل كل شيء ، إنه اختلاط وتبادل جميع الأشياء ، إذن عالم بالمقلوب ، اختلاط ومقايضة جميع الصفات الطبيعية والإنسانية [...] إنه مصالحة المتنافر ، إنه برغم الأضداد على المزاجية " (ماركس ، ١٨٤٤ ، ١٩٧١ : ٣٠١) .

إن الجزء الأخير من هذا النص يظهر بوضوح تام أن الازدواجية الكرنقالية " يمكن أن تنشأ من التوسط عبر قيمة التبادل . وبالتالي ، يتعذر التنباط أشكالها الحديثة مباشرة أو غير مباشرة من الاحتفال الشعبي ويصبح " الكرنفال في حالة الثقافة والأدب الحديثين إشارة كنائية - Mé- tonymique لـ " سوق " .

هذه الاعتبارات لا تعنى رفضاً للمدخل الباختيني بل إعادة قراءته وتوسيعه على المستوى الاجتماعى ويبقى وصفه للعلاقات بين الاحتفال الشعبى وأعمال رابليه أو سرفنتس سارياً مثله مثل فكرته بأن الروايات الحديثة (لتوماس مان أو دوستويفسكى) " عميقة الكرنقالية " . إلا أن احتمال هذه الفكرة وقيمتها الاجتماعية تزداد بشكل واضح إذا لم نعتبر الازدواجية الكرنقالية فى الأدب الحديث كنتاج لتأثيرات أدبية بحتة بل كنتاج للتوسط فى المجال الأدبى ، من نيتشه ودوستويفسكى حتى موزيل وبروست يتفاعل الأدب بأقصى حدود الازدواجية النابعة من التوسط فى نهاية القرن التاسع عشر .

ويستشف باختين فى بعض المواضع فى كتابه عن دوستويفسكى ، إمكانية شرح ازدواجية الشخصيات الروائية فى ضوء ازدهار الرأسمالية إلا أنه لم يطور هذه الفكرة ويلاحظ فيما يخص مؤلف لأوتوكاوس Otto Kaus " دوستويفسكى ومصيره " , Berlin , (Dostoevski und sein Schicksal , Berlin) (1923 : " أن تفسيرات كاوس هى فى جزء كبير منها صحيحة . الرواية متعددة الأصوات لم تكن لتوجد بالفعل إلا فى عصر رأسمالى [...] " لقد خلق ظهور الرأسمالية فى العالم القديم لروسيا القيصرية " الظروف المواتية لتعدد المستويات والأصوات الخاصة بالرواية متعددة الأصوات " (باختين ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ : ٥٠) .

ولا يعيب باختين على كاوس تفسيره المادى إلا أنه لا يسعى إلى تطويره فى السياق الموضح أعلاه . هذا التفسير ، كما هو عليه ، اختزالى جداً : حيث يبدو وكأنه يجهل أن الازدواجية وتعدد الأصوات يتعمقان فى النص الروائى حتى المستوى اللغوى بوصفهما ظواهر لفظية ودلالية . تولد مزوجة الأضداد لدى نيتشه وموزيل وبروست وكافكا ، على سبيل المثال ، علماً بحكمه الازدواج والانفصام والتعدد الصوتى . حين تجتمع الحقيقة والكذب ، العلم والخرافة ، الفضيلة والرذيلة ، ينفصم العالم الدلالى ويستحيل الخطاب الحقيقى ، المونولوج .

لغة وتعدد صوتي:: بالضبط ما هي العلاقة بين الازدواجية والتعدد الصوتي؟ القاسم المشترك للمفهومين هو الحوار، يولد الكائن أو الشيء المزدوج (جامعاً مظاهر متناقضة) افتراضات متناقضة تتعارض مع بعضها البعض ويمكنها: أن تدخل في حوار، في "المحاكمة" لكافكا، على سبيل المثال، فإن الطابع المزدوج للعدالة (التي يصورها الرسام تيتوريللي كألهة الصيد) يعطي فرصة لجدال لا نهاية له يمكن فيه لأية حقيقة أن تنقلب إلى كذب والعكس بالعكس، وليس هناك من ضمن الخطابات العديدة في المحاكمة أي خطاب حقيقي.

بالرغم من اعتباره رواية دوستويفسكي نموذجاً للنص المتعدد الأصوات، يوضح باختين كيف أن عمل رابليه هو أصل التعدد الصوتي الروائي النابع من الكرنفال، ويستنتج في فصل عن مفردات لغة الساحة الشعبية، أن رابليه يتخذ عدداً كبيراً من المقولات المزدوجة التي تشكل جزءاً من الثقافة الفرعية الشعبية.

ويتخذ هذا المنظور الذي تظهر من خلاله القضايا والقوى الاجتماعية المتصارعة كقضايا وصراعات لغوية، أهمية خاصة بالنسبة لعلم اجتماع النص. حيث يسمح اختزال النص الأدبي إلى تجريدات مثل "الرأسمالية"، "التشيؤ" أو "قيمة التبادل" والتي لا تخصه مباشرة. يكتب باختين: "اللغات هي مفاهيم للعالم، ليست مجردة بل ملموسة، اجتماعية، يخترقها نظام التقييم الذي لا ينفصل عن الممارسة الجارية وصراع الطبقات. ولهذا يقع كل شيء في كل مفهوم، كل وجهة نظر، كل تقييم، كل نغمة في نقطة تقاطع الحدود اللغوية - المفاهيمية للعالم، ضمن صراع أيديولوجي محتدم" (باخين، ١٩٦٠، ١٩٧٠: ٤٦٧). وهكذا فإن الأدب يتفاعل مع البنى الاجتماعية بوصفها بنى خطابية، بوصفها لغات جماعية (سأعود إلى هذه الفكرة، الهامة جداً بالنسبة لعلم اجتماع النص، في الفصل التالي، وكمجرد ملاحظة أولية أنبه إلى أن "رؤية العالم" التي كانت لدى جولدمان بناءً "فكرياً"

تصبح هنا ، فى سياق مختلف ، بنية خطابية. يتشعب نص رابليه مع الازدواجية والعناصر الكرنفالية للساحة الشعبية بالتعدد الصوتى للثقافة الفرعية الشعبية : تعدد خطابيته Pluridiscursivité.

وتجتمع مع القيم المتناقضة التى يزاوج ما بينها الكرنفال خطابات متعارضة نابعة من هذه القيم . حيث تتزاحم وتولد بنية مفتوحة ومتعددة الصوت تتميز بها روايات دوستويفسكى حيث يتم فيها تخطى البنية المنولوجية للروايات التقليدية . ولا يتطابق أى خطاب مع الواقع : ما كان هو الواقع فى الروايات المنولوجية (روايات تولستوى ، مثلاً) ، يصبح مجموعة من الوقائع الممكنة ، تعدد صوتى خطابى . ويتحدث باختين فيما يخص دوستويفسكى عن " المزج الروائى Contrepoint romanesque (باختين ، ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ : ٨٠) .

ما هى المظاهر الأساسية للتعدد الصوتى ؟ ينطلق باختين من الفكرة القائلة بأنه فى الرواية المتعددة الأصوات ، كل خطاب يمكن أن يصبح مادة لخطاب آخر (ساخر ، نقدى أو هزلى) وأنه بإمكانه هو نفسه أن يصبح خطاباً شارحاً . وتتميز الرواية المتعددة الأصوات بالعلاقة الجدلية بين اللغة واللغة الشارحة Métalangage : " هذا النوع من الخطاب - المفهوم لعالم الآخر ، والذي يصور شيئاً فى نفس الوقت الذى يتم تصويره هو نفسه ، هو من سمات الرواية " (باختين ، ١٩٦٨ : ١٢٨) . ومورسون على حق حين يرى فى باختين " المخترع لـ " لغويات شارحة " Métalinguistics يمكن اعتبارها بديلاً للغويات المنولوجية لسوسور (مورسون ، ١٩٧٨ : ٤٠٧) . (انظر فى هذا الموضوع الفصل التالى) .

ثم يمكننا أن نعتبر الرواية المتعددة الأصوات كنص غير متمركز ، حيث يستحيل على أى خطاب تحقيق " احتكارية اللغة " . حتى خطاب الكاتب يودى وتليفته فى قلب بنية حوارية مفتوحة : فهو ليس بمأمن من النقد والمحاكاة الساخرة . وفى كثير من الأحيان يتعرض خطاب الراوى للاستهزاء

به والنقد وللتحول بفعل الأبطال الذين تقع أقوالهم هي الأخرى فريسة للتعدد الصوتي.

هناك فكرة أخرى خلف التعدد الصوتي وهي "تغاير الأنا" (altérité) (du moi الأنا - سواء كانت للكاتب أو للراوى (أو لأحد الأبطال) - فإنها لن تتمكن من تصوير نفسها بالكامل . ويعتمد الآخر وصوته على تصوير الأنا، والتي تكمن هويتها ، على الأقل في جزء منها ، في التغاير . أنا غير قادر على أن أرى نفسى . ويكتب باختين . فى هذا الشأن فى كتابه " مشكلة الكاتب " Problema autora ، هذه الملاحظة : " إن الموقف التقييمى تجاه الذات ، هو عقيم تماماً على المستوى الجمالى ، لأنه من وجهة النظر الجمالية، الأنا هي " لا- كينونة " non - entité بالنسبة لنفسها (باختين ١٩٧٧ : ١٥٠). (انظر أيضاً : تودوروف " باختين والمغاير " Bakhtine et l'altérité مجلة Poétique عدد ٤٠ سنة ١٩٧٩ .).

وفى النهاية فإن المشاكل الازدواجية والتعدد الصوتي لا تنفصل عن مشكلة الذاتية . ولا يقبل النص المتعدد الأصوات وغير المتمركز النابع من تشابك قيم متنافرة ، الفكرة التقليدية العقلانية ، لذات فردية كتلوية - monoli- thique . تكمن معاصرة باختين فى نقده الواعى لمفهوم الذات، المرتبط بشكل معقد بالخطاب المونولوجى وبوهم أن خطاباً كهذا " يتفق مع الواقع " .

ما أكثر النصوص النابعة من " دائرة باختين " ، نصوص لفولوشينوف (Volochinov) مددريف (Medvedev)، والتي تسمح بربط أزمة الذاتية مع أزمة الفرد فى مجتمع هو فريسة للامعيارية anomie . فى نص نشر تحت اسم فولوشينوف ، فى ١٩٣٠ ، نقراً مثلاً : " إننا إذن أمام ظاهرة انقسام ذات طبيعة أيديولوجية بين الفردية ومحيطها الاجتماعى، إنه النتاج الطبيعى للحط من شأن الفرد " (فولوشينوف فى تودوروف فى ١٩٨١ : ٢٤٦). ومن الطرف الأخرى أن نرى كيف يشرح فولوشينوف الأهمية التى تتخذها الشهوانية والجنس فى مجتمع يعانى نظام قيمه من أزمة ، يخلى المعنى الاجتماعى الطريق لربادة الجنس، تثور الطبيعة ضد ثقافة أصبح مشكوكاً

فيها " تضيع الفردية إذن في العالم الاجتماعي إلا أنها تجد نفسها من الآن فصاعداً في عالم دوافعها الشهوانية وطبيعتها في حالتها الفجة [...] .
تتسم فترات الأزمة والتدهور المصاحبة بتغييرات عميقة في قلب العلاقات الاقتصادية والسياسية بانتصار الـ "إنسان الحيوان" على "الإنسان الاجتماعي" (Volochinov in Todorov) (١٩٨١ : ٢٩٧) .

وتساعدنا هذه الملاحظات لفولشينوفا على فهم أفضل لأوجه التشابه بين باختين ودوستويفسكي بين باختين وروائيي النصف الأول من القرن العشرين . وعلى غرار المنظر الروسي كان بعض الكتاب مثل بروسست وموزيل وكافكا وهسه وسارتر في صراع مع المشاكل النابعة من تفكك نظام القيم الاجتماعية : أزمة الفرد والذاتية ، فشل الخطاب الصادق والمونولوجي والخصومة المتزايدة بين الطبيعة والثقافة .

إن ملاحظات فولشينوفا الخاصة بأزمة الفرد في المجتمع الحديث تؤكد ملاحظات متشابهة لموزيل وكافكا وهسه وسارتر وموراڤيا . ومن أحسن الأمثلة " ذئب البراري " Le Loup des steppes ، " الغثيان " La Nausée وهما نصان مكملان لبعضهما بقدر ما يجسد الأول تحرير الطبيعة (الحيوانية والجنسية) في " المسرح السحري " في حين يتفاعل النص الآخر عن طريق إحساس " بالغثيان " " لانتصار " الطبيعة على الثقافة " .

نقد وأزمة: إن ما قيل بخصوص علم اجتماع الرواية ، يسمح باستنتاج أن مخلي جولدمان وباختين متكاملان : ليس فقط لأن ازدواجية الكرنفالية والتعدد الصوتي يمكن مقارنتهما بالتوسط الذي يصفه ماركس بل أيضاً لأن أزمة القيم التي يحلها جولدمان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنقد الذي قدمه ونادى به باختين .

لقد وصف كوسليك R . Koselleck في مؤلفه نقد وأزمة Kritik und Krise العلاقات الجدلية بين الأزمة الاجتماعية والنقد ، مع التأكيد على أنه في التطور التاريخي : تغضل فترات التحول والأزمة ، النقد الاجتماعي

والثورة على المعايير السائدة . ويمكن تطبيق ما يكتبه كوسليك بخصوص العصر المطلق (كوسليك ١٩٥٩) مع بعض التحفظات، على العصر الحديث حيث تؤدي أزمة القيم التي تسبب فيها التوسط والانشقاقات الأيديولوجية، إلى سقوط الإنسانية والفردية والذاتية.

وهكذا يبدو لي أن المنظور الذي تبناه باختين يكمل منظور جولدمان حيث يظهر الأول أزمة نظام القيم، في حين يجسد الثاني النقد . من الواضح أن هناك اختلافات أساسية بين جولدمان الهيجلي (اللوكاتشي) وبين منظر التعدد الصوتي الأقرب إلى نيتشه ودوستويفسكي منه إلى هيجل.

وعلى الرغم من ذلك فليس المقصود هنا تحديد الاختلافات بل استنتاج أنه في مجال العلوم الاجتماعية ، يمكن للنظريات المتنافرة (المتعارضة جزئياً) أن تكمل بعضها البعض وأن توضح كل منها الأخرى. إن تدهور الفرد والبطل الذي وصفه جولدمان وضياع الذاتية في الازدواجية والتعدد الصوتي الذي يصفه باختين هما مظهران لنفس الظاهرة التي يقدم الفصل التالي تحليلاً تفصيلياً لها .

الجزء الثاني
علم اجتماع النص

مكتبات كلية العرب

www.library-arab.com

مكتبات مكتبة الحرب

www.library-arab.com

الفصل الرابع

نحو علم اجتماع للنص

١ - مقدمة

توضح التحليلات الاجتماعية للأجناس الأدبية المختلفة أنه قد كانت هناك محاولات كثيرة في الماضي لشرح " الأشكال " الأدبية في إطار سياق اجتماعي . إن علم اجتماع النص بمفهومه هنا لا يستطيع اتخاذ المفهوم التقليدي للشكل والذي له (لدى لوكاتش ، مثلاً) تضمنات مثالية وميتافيزيقية، بل عليه أن يتجاوز حدود الخطاب الجمالي (الفلسفي) وتقديم المستويات النصية المختلفة كبنى لغوية واجتماعية في نفس الوقت خاصة، المستويات الدلالية والتركيبية (السردية) وعلاقتها الجدلية.

وإذا أخذنا في الاعتبار تقسيم العمل العلمي (والذي يبدو أن النظريات التقليدية للأدب قد تجاهلته)، فإنه يبدو من المستحيل بناء أو " اختراع " سيميوطيقا جديدة " اجتماعية " . الأفضل محاولة استخدام بعض المفاهيم السيميوطيقية الموجودة مع إظهار أبعادها الاجتماعية التي أهملت حتى الآن .

ويجب لاستكمال الوصف الاجتماعي للآليات النصية (الدلالية والتركيبية) تصوير العالم الاجتماعي كمجموعة من اللغات الجماعية . ثم يمكننا البدء من الفرضية الأساسية بالنسبة لعلم اجتماع النص القائلة بأن

اللغات الجماعية تستوعبها وتحولها النصوص الأدبية التي تلعب فيها هذه اللغات دوراً هاماً .

لقد ذكرنا فى الفصل السابق المداخل الماركسية للوكاتش وجولدمان والموجهة إلى التشابه Analogie أو التماثل Homologie البنيوى بين الأحداث النصية والأحداث الاجتماعية : بين انتحار فيرتر وفشل البورجوازية الألمانية، بين المنظور الموضوعى لروب جرييه والتشيؤ الرأسمالى . ولا يتسم التشابه دائماً بهذا الطابع المباشر والآلى : إنه من الممكن أن يستخدم كوسيط (كما هو فى " الإله الخفى ") عبر " رؤية للعالم " محشورة بين الواقع التاريخى وعالم التخيل الراسينى . ورغم أهمية التشابهات التى يفترضها هؤلاء المنظرون الماركسيون، إلا أنها ليست دائماً مقنعة وذلك لأنها لا ترجع إلى أى علاقات إمبريقية يمكن إثباتها .

وفى هذه الحالة يجب التركيز فى المنهج على مسألة ما إذا كان من الممكن وصف العلاقة بين النص الأدبى وسياقه الاجتماعى على المستوى الإمبريقى . ولا يتحقق وصف كهذا إلا إذا ظهر الأدب والمجتمع فى منظور لغوى .

لقد رأينا أن بيير ماشرى حاول تبنى منظوراً كهذا فى تحليلاته "للفلاحين" . إلا إنه أهمل الخاصية اللغوية والخطابية للأيدىولوجية، التى "تتجسد" فجواتها وتناقضاتها فى الأدب وعبره . ولا تتميز فى هذا الصدد بنظريته الجمالية الخاصة " بالانعكاس " Reflet عن النظريات الماركسية التقليدية . فهى لا تجيب على مسألة معرفة كيف يتفاعل النص الأدبى مع المشكلات الاجتماعية والتاريخية على مستوى اللغة . وهذا السؤال هو نقطة البداية لعلم اجتماع النص .

لقد حاولت فى الماضى وضع علم اجتماع كهذا بتحليل روايات مارسيل بروست وفرانز كافكا وروبير موزيل وچان بول سارتر و ألبير كامو . وقد تمخضت المحاولة عن كتابين عن الرواية "الازدواج القيمى للرواية"

L'Ambivalence romanesque (١٩٨٠) و " اللامبالاة الروائية"
L'Indifférence romanesque (١٩٨٢) سوف أستخدمهما كمراجع
لبراهين وتحليلات هذا الفصل.

عموماً ليس المقصود هو مجرد تقديم أو تلخيص لأعمال تم نشرها ،
بل من الواجب بالأحرى التفكير بشكل منظم فى النتائج النظرية لهذه الأعمال
وتوسيع مجال البحث بتناول نصوص أدبية لم يتطرق إليها بالمرّة فى الكتابين
المذكورين سابقاً.

وسنستخدم روايتين كنماذج لعلم اجتماع النص: "الغريب"
L'Etranger لألبير كامو و"المتلصص" Le Voyeur لأن روب جرييه.
استكمالاً للأبحاث المشروع فيها فى " اللامبالاة الروائية " أود أن أبين أن
رواية روب جرييه تعيد قضية كامو الخاصة باللامبالاة الدلالية الاجتماعية
وتؤصلها . والفصل التالى عودة إلى بروسست وللسؤال القديم الخاص بمعرفة
إلى أى مدى يمكن توحيد المناهج التحليلية النفسية مع مناهج علم اجتماع
النص.

٢ - علم الدلالة والتركييب كوظائف اجتماعية .

يمكننا افتراض أن بنية الجملة ، أكبر وحدة حللتها اللغويات التقليدية
(بلومفيلد) هى ظاهرة محايدة ، تقع فوق العداوات الاجتماعية والصراعات
الأيدولوجية. إلا أن هذا الافتراض يثبت خطؤه إذا ما أخذنا فى الاعتبار كم
الجدال والنزاع الأسلوبى (الجمالى) فى الماضى .

إن الدفاع الكلاسيكى عن الجملة " المصاغة جيداً " له وظيفة
اجتماعية، مثله مثل المحاولات الرومانسية والسوريالية لتذويب بنية الجملة من
أجل تحرير القول من القيود التركيبية . والمقصود فى الحالة الأولى تطبيق
القاعدة الاجتماعية والجمالية ، " للكلية المتجانسة " Totalité harmonieuse
على مستوى أصغر بنية، أما فى الثانية فينصب الاهتمام على الفرد وتميزه.

إن النقد الذي يوجهه أحد ممثلي الكلاسيكية الجديدة مثل شارل موراس ، للكتاب الرومانسيين ينم عن المراهنة السياسية لصراع تراودنا الرغبة في اختزاله إلى مساحته اللغوية أو الأسلوبية. وفي رأى موراس فإن حركة ١٨٣٠ " وضعت الكلمة على عرش ... [و] طردت الجمال لحساب أشياء جميلة وتحولت الكلمة مع الرومانسية من عنصر تابع لتركيب الجملة إلى عنصر رئيسي " (Maurras in Matoré , 1951 : 150) . إذا أخذنا فى الاعتبار عداء موراس للفردية ودفاعه عن القومية La Nation وعن (الجماعة القومية) نتفهم بشكل أفضل التزامه بالتركيب La Syntaxe وعدائه للحرية الفردية فى النص .

وحديثاً، شد رولان بارت انتباهنا إلى الوظائف الثقافية والأيدولوجية لتركيب الجملة وبخاصة للوحدة الجمالية Syntagme Phrastique. ويكتب هذه الملاحظة فى " متعة النص " Le Plaisir du texte : " إن الجملة هييراركية : إنها تتضمن المسندات Sujétions والتوابع Subordinations وضوابط داخلية rections internes " (بارت ، ١٩٧٣ : ٨٠) . ولقد أصر أدورنو وهوركهايمر من قبل بارت والسيميوطيقا الفرنسية بكثير على المظاهر الأيدولوجية للرواية التركيبية والنسقية (أدورنو ، ١٩٥٥ ، ١٩٧٦ : ٢٩) . ويذكر بارت جوليا كريستيفا Julia Kristeva مجدداً النقد الأدورنى للتركيب فى سياق سيميوطيقى : " يتخذ كل نشاط أيدولوجى شكل الملفوظات المكتملة من حيث التكوين " وإذا عكسنا هذه العبارة لجوليا كريستيفا نقول: كل ملفوظ مكتمل قد يتحول إلى أيدولوجية " (بارت ، ١٩٧٣ : ٨٠) .

ويجب محاولة فهم النقد الذى يوجهه أتباع " الواقعية الاشتراكية " (فى ألمانيا الشرقية ، مثلاً) إلى الطليعة الأوروبية فى إطار هذا السياق . يدافع منظرو " الواقعية الاشتراكية " عن التماسك والانغلاق التركيبى معارضين بذلك تدوير التركيب الجملى Syntaxe Phrastique الذى يقوم به بعض كتاب الطليعة (جويس والمستقبليون والسورياليون)، ويتم ذلك فى إطار

جمالية كلاسيكية ، هيكلية ، تضع النسق والحقيقة النسقية في مقابل الخطاب المفتوح ، الحوارى (زيمبا ، ١٩٧٨ من أجل علم اجتماع للنص الأدبى ، "أسطورة المعنى الواحد نقد للواقعية الاشتراكية فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ") - (Pour une sociologie du texte littéraire , " Le Mythe de la monosémie . Une critique du réalisme socialiste en RDA")

ولا يجب أن ننسى واضعين فى اعتبارنا الوظيفة الاجتماعية والأيدولوجية للجملة ، أن البنى التركيبية الكبيرة (Macrosyntaxiques) أو السردية هى الأهم بالنسبة لعلم اجتماع النص (مثلما هو بالنسبة لسيميوطيقا الخطاب) . ذلك لأن البنية السردية لنص أدبى أو نظرى تشكل عالماً متجانساً نسبياً ، إنها تحاكى وتعيد إنتاج الواقع وتتماثل أحياناً ، بشكل ضمنى أو صريح ، مع هذا الواقع . إن من يروى أحداثاً (تاريخية مثلاً) يدعى أن خطابه يتفق مع الواقع أو أنه مطابق له . هذا الادعاء الذى له أصول نفسية واجتماعية (يعبر الراوى عن مصالح معينة) يلعب دوراً هاماً فى تزاخم الخطابات وفى الصراعات الخطابية .

فى الواقع ، ليس كل خطاب عن الواقع إلا خطاباً ممكناً ، بتعبير آخر : لا تتفق الهياكل السردية المختلفة مع مراجعها ، إنها إلى حد ما احتمالية . من المهم بشكل خاص بالنسبة لنقد الخطاب التساؤل حول الموقف الذى تتخذه الذات (الراوى) تجاه خطابها بوصفه بناءً دلاليًا وتركيبياً يجسد مصالح فردية وجماعية . ويمكن لذات التلطف (دون أن يعى أو يعترف بذلك) أن يطابق خطابه بالواقع من ناحية ويمكنه من ناحية أخرى أن يتساعل عن المصالح التى يعبر عنها والقيم الاجتماعية الكامنة خلف خطابه وحول أساسه الدلالي . وتقريباً فى أغلب الأحيان تصبح العلاقة بين الدلالة والتركيب (السردى) للخطاب هى الموضوع المفضل للنقد .

ولا يتم أبداً تحليل هذه العلاقة فى دراسات السرد Narratologies الشكلية (لدى جينيت Genette أو بريمون Bremond على سبيل المثال)

وبالتالى لا يتم بالتاكيد نقدها . ولا تسمح دراسات چينيت حول العلاقات بين "القص" Récit و " الخطاب" discours و"الحكاية" diégèse بوضع روابط بين البنية السردية والبنية الاجتماعية حيث إنها تهمل الأساس الدلالى للقص . فى حين أن المصالح الجماعية تتجسد على أوضح صورة فى اللغة على المستوى الدلالى والمعجمى . (يصف چينيت التقنيات السردية دون مراعاة المضامين الأيديولوجية لهذه التقنيات .).

وبديهى أنه من المستحيل ، لأسباب منهجية ، نقل مفاهيم السردية الشكلية إلى مجال علم اجتماع الأدب . فمثل هذا النقل سيؤدى إلى انتقائية عقيمة ، وسيؤدى فى الوقت نفسه إلى فجوة دلالية بين البراهين السيميوطيقية والسيوسولوجية .

ويبدو أيضاً من المستحيل كذلك تكوين علم علامة اجتماعى (سيميوطيقا اجتماعية) حيث ستفسد الهوائية هذه النظرية ولن تسمح بتحقيق التركيب المنهجى المأمول هنا . ولا يتحقق هذا التركيب إلا إذا استندنا إلى بعض النظريات السيميوطيقية الموجودة بالفعل والتي تسمح مفاهيمها بإثراء النظرية الاجتماعية والنقدية الاجتماعية وتحديدها .

ويجب الحذر من اعتبار جميع النظريات السيميوطيقية المعاصرة على أنها " شكلية " . بالرغم من أن السيميوطيقيين المحدثين لم يطوروا بشكل منظم ما يمكن أن نسميه بـ " سيميوطيقا اجتماعية " ، إلا أنه من الواضح أن علم الدلالة البنيوى لجريماس وكذلك نظريات بييترو وكريستيفا وإيكو، تقدم لعلماء الاجتماع مفاهيم تسمح بوصف العلاقات بين الأدب والمجتمع وبتعريف الأيديولوجية على المستوى الخطابى .

ومن جانب الاجتماع ، فقد أظهر بورديو اهتمامه بمشاكل اللغة، على الرغم من كونه فى سياق نظرى مختلف إلى حد ما عن الذى وضعه جريماس أو برييتو . وفى إطار هذا الوضع يجب على علم اجتماع النص أن يحاول:

أ) وضع علاقات منظمة بين المفاهيم السيميوطيقية التي تتسم بالصفة الاجتماعية .

ب) تطوير الأبعاد الاجتماعية اللغوية والسيميوطيقية لبعض النظريات الاجتماعية : وخاصة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت والتي اهتم أعضاؤها بشكل خاص بمشاكل اللغة .

أ - المستوى المعجمي والدلالي

يجب على علم اجتماع النص أن يبدأ بنظريتين متكاملتين: أنه ليس للقيم الاجتماعية وجود مستقل عن اللغة ، وأن الوحدات المعجمية، الدلالية والتركيبية تجسد مصالح جماعية ويمكن أن تصبح مراهنات لصراعات اجتماعية واقتصادية وسياسية .

على المستوى المعجمي، ألح ميشيل پيشو كثيراً على الصفة الاجتماعية للكلمات: " كل الصراع الطبقي، يمكن أن يتلخص في الصراع من أجل كلمة، ضد كلمة أخرى " (Pêcheux، ١٩٧٥: ١٩٤).

هذه الجملة هي بالتأكيد مبالغة ، ولكنها مبالغة نافعة : إنها تبين إلى أى مدى يمكن للوحدات المعجمية أن تحمل خاتم المصالح أى الصراعات الاجتماعية . (انظر الفصل ٤ ، ٤ ، أ) .

رغم الإيحاءات السياسية أو الدينية أو الميتافيزيقية لعدد كبير من الكلمات ، إلا أنه يبدو من المستحيل وصف العلاقات بين اللغة والمجتمع على المستوى المعجمي البحت. لأن علم المعاجم هو علم إمبريقي ، تجريبي مداه محدود جداً . وقد تخلى عنه ماتوريه G . Matoré وجريماس A . J Greimas . بعد أن طبقا مناهجه على موضوعات مختلفة، واتجها إلى اكتشاف الإمكانيات التي يقدمها علم الدلالة البنيوي (ماتوريه : ١٩٥١ ، جريماس ، ١٩٦٦) .

إن تجسيد المصالح الاجتماعية والجماعية في اللغة يمكن تقديمه بشكل أوضح وأكثر تنظيماً في مجال الدلالة مما في مجال المفردات اللغوية. وهناك

علماء لغة وعلماء اجتماع اعترفوا بهذا وألحوا على ضرورة وصف عمليات التصنيف Classification (العملية التصنيفية " Faire taxinomique " على حد قول جريماس) كعمليات اجتماعية وسياسية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمصالح الجماعية أو الوظيفية .

بعيداً عن السيميوطيقا الفرنسية، الإيطالية أو السوفيتية، يقدم كل من كريس G . Kress وهودج R. Hodge مؤلفي العمل الهام اللغة كأيدولوجيا Language as Ideology وجهة نظر اللغويات الاجتماعية المعاصرة مع شرح الخلفية الاجتماعية للتصنيف : " يفرض التصنيف نظاماً لما هو مصنف ، وبالتالي فإن التصنيف هو أداة تحكم على مستويين : مراقبة لتبادل التجارب الخاصة بالواقع الفيزيقي والاجتماعي في " علم " والتحكم الذي يتم من جانب المجتمع في المفاهيم الموجودة عن هذا الواقع . إلا أن نظم التصنيف لا تتبع مجتمعاً واحداً : الجماعات المختلفة لها أنظمة مختلفة حتى إذا كانت التباينات بين هذه الأخيرة بسيطة . كما أن الصفة المحتملة للمواقف التي يلتقي فيها بعض الأفراد وكذلك مصالحهم المتباينة أحياناً ، تسبب توترات في أنظمة التصنيف . وهكذا يصبح التصنيف مجالاً للتوترات وللصراعات ، في البداية بين الأفراد ، حيث يسعى كل منهم إلى فرض نظامه على الآخر أو يخضع لقوة عليا ، ثم بعد ذلك بين التجمعات الاجتماعية الأخلاقية أو القومية أو العرقية " (كريس ، هودج ١٩٧٩ : ٦٣ - ٦٤) .

وسوف نعود فيما بعد إلى تحليل العلاقات بين التصنيف واللهجات الجماعية Sociolectes والخطابات وسنرى كيف أن الوصف الشامل تقريباً للتصنيف الذي قدمه كل من كريس وهودج له تاريخ طويل (في نظريات باختين و فولوشينوف) وأنه استكمل بأبحاث متعددة لجريماس ، برييتو وإيكو وكريستيفا .

ب - المستوى السردى

وحيث إنه قد تم تعريف التصنيف كعملية دلالية تتجسد من خلالها مصالح تجمعات متعادية ، فمن المستحيل تقريباً التساؤل حول معرفة كيفية

ظهور هذه المصالح على المستوى التركيبي - السردي. وهذا السؤال يخص العلاقة بين القاعدة الدلالية للنص وبين مساره السردى .

منذ أبحاث فلاديمير بروب Vladimir Propp الذى درس عدداً كبيراً من الحكايات الخيالية الروسية (التى جمعها فيسلووفسكى Veselovski) أصبح من الواضح أن الأساس الدلالي للنص يحدد بنيته السردية. وهذا يعنى عملياً أن اختيار بعض الأضداد الدلالية مثل كبير/ صغير، طيب / شرير ، حقيقة / كذب ، الخ ، يحدد توزيع الأدوار الفاعلة فى القصة ، إنها تحدد إذن التعريف الوظيفى لـ " البطل " مع البطل الضد Antihéros ، لك " مساعد " Adjuvant بالمقارنة مع " المعارض " Opposant ، الخ .

ويبين جريماس متخذاً مورفولوجيا الحكاية La Morphologie du conte (١٩٢٨) لبروب كنقطة انطلاق ، أن البنية الدلالية (" البنية العميقة ") لأى نص سردي هى المسئولة عن توزيع الوظائف الفاعلة - Fonctions actantielles . والفاعل ، كما يعرفه جريماس متبعاً لبروب ، يمكن أن تكون له صفة جماعية أو غير إنسانية، فإنه يمكن أن يكون " مجمع من الفاعلين " synchrétisme d'acteurs حسب تعبير جريماس نفسه. فمثلاً من الممكن أن يكون لحزب سياسى وظيفة الفاعل الجماعى Actant collectif ، فى حين أن أعضائه أو ممثليه الفرديين يمكن تعريفهم كفاعلين ينتمون للفاعل الجماعى Actant "الحزب" . وبالعكس يمكن لفاعل acteur واحد أن يكون تجمعاً من عدة فواعل جماعية Actant وهكذا يمكن لفرد أن ينتمى لعدة فواعل جماعية (المؤسسات السياسية مثلاً).

إن مفهوم الفاعل Actant الذى أدخله جريماس هو أكثر تجريدية من مفهوم الشخصية Personnage لدى بروب ، الفاعل يمكن أن يكون فرداً أو جماعة (أو قوى طبيعية) ، ذاتا إنسانية أو شيئاً ويتم تعريفه فى ضوء الوظيفة التى يؤديها فى مقطع سردي معين ، " حيث يسمى الفعل ، بوصفه

عملية تحقق ، بوظيفة (F) Fonction وحيث يشار إلى فاعل الفعل بوصفه إمكانية العملية بالفاعل (A) Actant " (جريماس ، ١٩٧٠ : ١٦٨) .
يقتضى شرح البنية السردية للنص إذن التحليل الفاعلى Analyse actan-
tielle لهذا الأخير . وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحليل الدلالى .

وهذا يعنى فى الممارسة الخطابية ، أن الاختيارات الدلالية (التصنيفات) التى تقوم بها ذات الخطاب (ذات التلفظ) ستظهر على المستوى الفاعلى حيث إنها تحكم المسار السردى . ويمكن تناول النموذج الفاعلى لأى نص ، كما ينبهنا إلى ذلك كورتس Courtés ، إما " من زاوية النسق (أو زاوية العلاقات بين المصطلحات التى تشكله) . ثم من زاوية العملية (بمعنى العمليات التى يمكنه أن يفسح لها المجال) " (كورتس ، ١٩٧٦ : ٦٣) .

بالنسبة لعلم اجتماع النص ، هناك مظهر لعلم الدلالة البنىوى يعتبر مهماً بشكل خاص : وهو أن النصوص النظرية أو الأيديولوجية أو الدينية يمكن تقديمها ، مثلها مثل النصوص الأدبية (كالحكايات الخيالية) بواسطة نماذج فاعلية Modèles actantiels . وقد حاول جريماس نفسه مع تبسيط إلى حد ما الهيكل النموذجى الفاعلى تقديم خطابين أيديولوجيين على مستوى الفواعل (الجماعية) هما خطاب الفلسفة " الكلاسيكية " وخطاب الأيديولوجية " الماركسية " . ولتوضيح ما سبق أن قيل ، فإنى أكرر الهيكل التوضيحي الجريماسى بالكامل و الذى سيستخدم كنقطة ارتكاز لتعريف الأيديولوجية كبنية خطابية وتحليلات روايات كامو وروب جرييه .

يشرح جريماس هيكله التوضيحي قائلاً : " وهكذا ، مع التبسيط الشديد ، يمكن أن نقول إنه بالنسبة لعالم فيلسوف فى القرون الكلاسيكية فإن تحديد علاقة الرغبة - من زاوية الاستثمار الدلالى - على أنها رغبة فى المعرفة ، فإن فاعلى المشهد المعرفى يتوزعون تقريباً على النحو التالى :

ذات ----- فيلسوف

موضوع ----- عالم

مرسل ----- الله

مرسل إليه ----- إنسانية

معارض ----- مادة

مساعد ----- روح

وبالمثل بالنسبة للأيدولوجية الماركسية ، على مستوى المناضل ، يمكن توزيعه ، بفضل الرغبة فى مساعدة الإنسان بشكل مواز :

ذات ----- إنسان

موضوع ----- مجتمع بدون طبقات

مرسل ----- تاريخ

مرسل إليه ----- إنسانية

معارض ----- طبقة بورجوازية

مساعد ----- طبقة عمالية

(جريماس ، ١٩٦٦ : ١٨١) .

ومن المحال الاكتفاء بالتطبيق الآلى لهذا الهيكل البنائى نوعاً ، على النصوص الأدبية وغير الأدبية. ويحتاج علم اجتماع النص لى يتمكن من شرح البنى النصية فى سياقها الاجتماعى ، إلى مفاهيم لغوية وسيميوطيقية أخرى لا نجدها فى علم الدلالة البنىوى . ومع أخذه ببعض المفاهيم الأساسية لجريماس مثل الفاعل Actant أو النظير الدلالى Isotopie Sémantique ، إنه يطرح جانباً الكثير من المفاهيم الأخرى الضرورية لتحليل دلالى أو سردي مفصل إلا أنها لا تؤتى بأى تقدم فى مجال الأبحاث حول العلاقة : النص - المجتمع .

وتظهر هذه العلاقة بوضوح فى الهيكل الذى وضعه جريماس ، حيث يمكن أن نستنتج إلى أى مدى تحدد بعض الثنائيات الدلالية مثل مادة / روح

أوبروليتاريا / بورجوازية ، التوزيع الفاعلى Actantielle والمؤدى للفعل Actorielle . من الضروري بالنسبة لعلم اجتماع النص تطوير وتنوع فكرة أن التصنيف الدلالى (العملية التصنيفية Le faire taxinomique يشكل أساس النموذج الفاعلى وأنه يبدأ من المسار السردى للخطاب (الأدبى أو غيره) .

ولتجسيد هذه الفكرة أود أن أنهى هذه المقدمة العامة ببعض الملاحظات حول تحليلات روايات جيمس بوند التى نشرها أومبرتو إيكو Umberto Eco فى الستينات . منطلقاً من بعض التعارضات الفاعلية مثل عالم حر / الاتحاد السوفيتى وبريطانيا / دول غير أنجلو ساكسونية والتى يستكملها بثنائيات أخرى مثل الواجب / التضحية أو مجازفة / برمجة (دون تمييز بين المستوى الدلالى ومستوى الفاعلين) ، يظهر إيكو العلاقة بين الاختيارات الدلالية للكاتب عليه أو سببية . ويوضح كيف أن العالم الدلالى الذى يبنيه فليمنج محكوم بثنائية صارمة ، مانوية ، تحدد البنية الحديثة لرواياته . ومثلما فى الملحمة الإقطاعية وفى الحكايات الخيالية والقصص الأيديولوجية فإن انتصار البطل على البطل الضد مضمون سلفاً فى إطار الهيكل الثنائى ، متمثلاً كثنىء طبيعى ونابع من الحس المشترك .

لا يقوم فليمنج باختيار أيديولوجى واعٍ فى بنائه " لآلته السردية " ، فهو دون أن يعى ، يعيد إنتاج بعض الأحكام الأيديولوجية المسبقة التى تلعب دوراً هاماً فى الحياة اليومية ، وفى الحس المشترك ، ويكتب إيكو هذه الملاحظة : " [...] لا يميز كاتبنا شخصياته بهذا الشكل أو غيره نتيجة لقرار أيديولوجى بل على أساس مقتضى بلاغى بحت . ونعنى بالبلاغى هنا معناه الأسمى لدى أرسطو : فن للإقناع عليه أن يستند حتى يؤسس أسباباً مقنعة ، إلى الـ Endoxa ، أى إلى الأشياء التى يعتقد فيها أغلبية الناس " (إيكو ١٩٦٦ : ٩١) .

وسنرى فيما بعد أنه من الممكن تعريف الإيديولوجية على أنها بنية خطابية تمنع التفكير النظرى بقدر ما تتمثل على أنها طبيعية و " مفروغ منها " .

من الممكن في المجال الأدبي ، كما في المجال العلمي ، تمييز الخطابات الأيديولوجية عن الخطابات النقدية . لأنه من الواضح أن الهيكل المانوي الذي يستخدمه فليمنج ليس هو هيكل كل الأدب الروائي . إن روايات جويس " أوليس " وسارتر " الغثيان " أو روبير موزيل " رجل بدون صفات " تشكك في الثنائية الأيديولوجية والهيكلية السردية التي تناسبها . وبدلاً من تكوين تعارضات مطلقة ، يركزون على ازدواجية جميع القيم الثقافية . إنهم يظهرون المظاهر غير العقلانية " للعقل " البعد المتوحش " للثقافة " ، جن " البطل " والصفة غير الإنسانية " للإنسانية " .

ويقابل هذا الازدواج القيمي المسيطر على عالمهم الدلالي بنية سردية مجزأة كثيراً ما يتساءل الرواة في إطارها حول مشاكل القص التقليدي الذي زعزعته أزمة القيم الثقافية . على نقيض روايات فليمنج التي تقدم هياكلها الدلالية والتركيبية وكأنها طبيعية و " مفروغ منها " ، فإن روايات سارتر ، موزيل أو كافكا تجعل القارئ يفكر في ألياتها اللغوية الخاصة .

وسأحاول في تحليلاتي لـ " الغريب " و " المتلصص " أن أظهر كيف يتحول الازدواج الدلالي السائد في نصوص موزيل و بروسست وكافكا وسارتر ، إلى لامبالاة . فعلى ضوء هذه اللامبالاة الاجتماعية واللغوية في نفس الوقت ينتقد الروائي الخطاب المانوي والثنائى للأيديولوجيين الذين يدعون سرد التاريخ " الحقيقي " عن طريق المقابلة بين الخير والشر ، والبطل والبطل الضد .

٢ - الوضع اللغوي الاجتماعي

لا يكفي بالطبع تعريف الدلالة والتركيب في مجملها كـ " وقائع اجتماعية " ، كما اقترح من قبل - بشكل ضمنى كل من لوكاتش وأدورنو وكوهلر . ويجب من أجل وضع علاقات بين النص (الأدبي) وسياقه الاجتماعي تقديم العالم الاجتماعي كمجموع لغات جماعية تظهر في أشكال مختلفة في البنى الدلالية والسردية للتخييل .

وفى محاولة لتطوير المجتمع على المستوى اللغوى ، يمكننا أن نبدأ من نموذجين تحدثت عنهما فى أحد أعمالى السابقة (علم اجتماع النص -Text-soziologie ١٩٨٠) . ويمكن أن نبدأ مع Jan Mukarovsky أحد ممثلى البنيوية التشيكوسلوفاكية، من الفكرة القائلة بأنه من الممكن تقسيم لغة مجتمع معين فى لحظة تاريخية معينة إلى لغات جماعية وإقليمية متعددة.

يحلل موكاروفسكى فى مقالة هامة خاصة لعلم اجتماع النص، وعنوانها " ملاحظات حول علم اجتماع اللغة الشعرية " (١٩٣٥) الأسلوب الشعبى للكاتب التشيكى جان نيرودا Jan Neruda ويسعى إلى شرحه فى سياق لغوى اجتماعى معين. وينطلق من الفكرة الشكلية القائلة بأن العلاقة بين الأدب والمجتمع لا يمكن وصفها إلا على المستوى اللغوى . ويطور مدخل Ty-nianov الذى كتب قائلاً : " يتحقق هذا الترابط بين السلسلة الأدبية والسلسلة الاجتماعية عن طريق النشاط اللغوى ، الأدب له وظيفة لفظية بالنسبة للحياة الاجتماعية (Tynianov in Todorov ١٩٦٥ : ١٣٢) .

وبعكس الشكلين الذين انطلقوا من الفكرة الأقرب إلى الآلية والقائلة بأن البنى الاجتماعية (الاقتصادية ، السياسية ، القضائية) تؤثر فى "السلسلة الأدبية" ، يعتقد موكاروفسكى بأن المشاكل الاجتماعية متضمنة فى بنية النص الأدبى . ويلح كثيراً على أن عناصر هذا النص تؤدى ، بخلاف الوظائف التخيلية (المحايثة) ، إلى وظائف اجتماعية محددة : " مع التأكيد من ثم على أن كل ما يحتويه العمل الشعرى يمر بالضرورة من خلال اللغة ، نود أن نذكر أيضاً أن العمل الشعرى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع بفضل الوظيفة الوسائطية " (موكاروفسكى ، ١٩٤١ ، الجزء الأول : ٢٤٠) .

ويتساءل موكاروفسكى على سبيل المثال ، واضعاً الدراسات الأسلوبية فى منظور اجتماعى عن أصول الأسلوب الشعبى لنيرودا الذى يضعه فى مقابل الأسلوب " السامى " élevé (المتحذلق أحياناً Précieux) لإيربن K . I . Erben . ويلح كثيراً على ظهور لغة شعبية حضرية أثناء النصف

الأول من القرن ١٩. وتتطور هذه اللغة بشكل خاص في براغ حيث تجمع أكثر من لهجة لغوية ، وتتميز في أكثر من موضع عن اللغات الشعبية المختلفة في الريف. ويطور نيرودا عن طريق تحويل مفردات لغة المدينة إلى أداة أسلوبية، نوعاً من الكتابة الخاصة التي تعيد إنتاج لغات شعب براغ على مستويات مختلفة.

وانطلاقاً من الفكرة السوسورية والدوركهايمية في ذات الوقت من أن اللغة لها أساس من التقاليد الجماعية، يسعى موكاروفسكى إلى توضيح انبثاق أسلوب جديد في ظل التصنيع والتوسع في الحياة الحضرية في تشيكوسلوفاكيا في القرن التاسع عشر . ويحلل نصوص نيرودا بدءاً من التعارض الأساسى بين المدنية والريف.

وتطورياً لنموذج موكاروفسكى يمكننا أن نتساءل حول تأثيرات تقسيم العمل في المجالات اللغوية والأدبية حيث يولد لغات جماعية يمكن لمفرداتها أن تكون متباينة تماماً إلا أنه يبدو لى أن مدخلاً كهذا يظل غير كافٍ طالما أنه مجهل :-

أ) علاقات الدولة أو الطبقات في نظام اجتماعى معين ، (ب) مختلف المستويات الدلالية والتركيبية (السردية). ويميل موكاروفسكى على غرار دوركهايم الذى يأخذ عنه بعضاً من نظرياته إلى اعتبار المجتمع ككلية متجانسة نسبياً (كوعى جماعى) وإلى إهمال مبدأ السيطرة (السياسية والاقتصادية) والصراعات بين الجماعات والطبقات . ويميل في نفس الوقت إلى تقليص التحليل إلى المستوى اللفظى للغة فقط .

وعلى عكس جان موكاروفسكى ، الذى يتماثل إسهامه في علم اجتماع النص (" الأسلوب ") مع إسهام جورج ماتوريه (Le Vocabulaire et la société sous Louis - Philippe , 1951) من الكاتبين الروسيين ، ميخائيل باختين وقالنتين فولوشينوف أن يأخذا باعتبارهما الصراعات الاجتماعية والمصالح الجماعية على مستوى اللغة التى لا يعتبرونها

نظاماً ثابتاً مغلقاً بل مجموعة من البنى التاريخية المتغيرة والتي ترجع تحولاتها إلى الصراعات الاجتماعية والتجديدات التي تأتي بها .

إنطلاقاً من المفهوم العقلاني للغة الذي نادى به سوسور يشك كل من باختين وفولوشينوف في فكرة سوسور القائلة بأن اللغة أساسها تواطؤ جماعي متجانس نسبياً . حيث يظهر النظام اللغوي في رأيهما مثله مثل النظام الاجتماعي ككلية متعادلة ومتناقضة وليس كنظام قواعد مجردة يستخدمها الفرد ليتحدث ويصدر أقوالاً .

ويستنتج باختين وفولوشينوف انتقاداً للغويات مدرسة جنيف التزامنية Synchronique التي تعتبر ذات التلفظ عنصراً مجرداً منفصلاً عن المصالح الجماعية التاريخية : " في الواقع ، الشكل اللغوي ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك ، يظهر دائماً للناطقين في سياق تلفظات محددة ، مما يفترض دائماً سياقاً أيديولوجياً محدداً . إنها ليست في الواقع كلمات ننطقها أو نسمعها ، إنها حقائق أو أكاذيب ، أشياء جيدة أو سيئة ، مهمة أو تافهة ، مستحبة أو كريهة ، الخ . الكلمة تحمل دائماً مستوى أو معنى أيديولوجي أو حدثي (باختين/ فولوشينوف ، ١٩٢٩ ، ١٩٧٧ : ١٠٢ - ١٠٣) .

وقد كان لويس جان كالقيه على حق حين لاحظ بخصوص اللغويات الحوارية التي نادى بها فولوشينوف : " أنه [فولوشينوف] يقترح في مواجهة التفرع الثنائي السوسوري لغة/ كلام ، ضرورة تكوين لغويات للكلام " (كالقيه ، ١٩٧٥ : ٩٤) . هناك افتراضان هامان لهذه اللغويات : أنها تفترض الصفة الجماعية للكلام (الذي لم يعد يعتبر تطبيقاً فردياً لبعض القواعد أو التواطؤات الاجتماعية) . كما أنها تفترض أيضاً نظرية سيميوطيقية اجتماعية للكلام ، لا يمكن أن تكون إلا نظرية (نقدية) للخطاب . يجب إذن إخراج اللغويات من مجال علم النفس الفردي حيث قلصه سوسور ومن بعده شومسكي ، من أجل وضعها على مستوى علم اجتماع نقدي . ويعلق أوجوستو بونزيو قائلاً : " إنه بالنسبة لسوسور كما هو بالنسبة لشومسكي

تشكل اللغويات جزءاً من علم النفس إلا أنها تدخل مع علم النفس فى مجال البيولوجيا " (بونزيو، ١٩٨١: ١٢٢).

ومع الاعتراف بفضل باختين و قولوشينوڤ فى تخليص اللغويات من فردية سوسور ، المرتبطة أحياناً بعقلانية ديكرتية ، إلا أنه من المستحيل اعتبار عملهما حول " الماركسية وفلسفة اللغة " كنظرية للخطاب . إنه على أكبر تقدير نقطة بداية ممكنة لنظرية من هذا النوع . إن بونزيو على حق بالطبع حين لاحظ على باختين أنه تجاوز اللغويات التقليدية المتجهة إلى الجملة (لغويات بلومفليد مثلاً) نحو لغويات الملفوظ : " بهذا المعنى ، يعتبر باختين (١٩٦٨) من الضرورى فى مجال نظرية الأدب ، تجاوز حدود اللغويات نحو مدخل يسميه بالتحديد فوق لغوى *métalinguistique* " (بونزيو ١٩٨١ : ١٢٠).

تتميز هذه اللغويات التى تتخذ من الملفوظ عبر الجملى *énoncé* *transphrastique* (الخطاب) موضوعاً لها ، عن لغويات سوسور أحادية الصوت *Linguistique monologique* ، المنطلقة من الناطق الوحيد ، المعزول ، بخاصيتها الاجتماعية والحوارية فى نفس الوقت . وتنطلق هذه اللغويات من فكرة أن كل ملفوظ يشكل جزءاً (بشكل ضمنى أو صريح) من حوار واسع بين جماعات يمكن لمصالحها ورؤاها للعالم أن تدخل فى صراع .

إلا أن لغويات للخطاب من هذا النوع ، " فوق لغويات " حوارية كهذه ليس لها وجود بعد ، بالرغم من جهود باختين و قولوشينوڤ ومدقديف . وتبدو خطوة أولى فى اتجاه هذه اللغويات الخطابية ممكنة إذا جمعنا بعض نظريات باختين و قولوشينوڤ مع نظريات الخطاب المعاصرة ، بخاصة السيميوطيقا الخطابية التى طورها جريماس لأنه من المستحيل التحدث بصفة عامة عن الكلام " أو " الملفوظ " أو " الخطاب " . يجب تحديد ما نعنيه بالخطاب فى سياق دلالى وتركيبى (سردى) . (وحيث إن باختين و قولوشينوڤ وفى الوقت الحالى Jürgen Habermas يتحدثون عن " الملفوظ " أو عن " الخطاب " بشكل

عام ، فإن ذلك يمنعهم من توضيح المظاهر الاجتماعية الأيديولوجية للتنظيم الدلالي والسردى للغة).

وقبل أن ننهي هذا القسم عن وضع اللغويات الاجتماعية ، يجب تحديد مفهوم اللغة الجماعية أو لغة الجماعة . أى جماعة مقصودة هنا ؟ وهل يجب أن نؤمن مع عالم اللغة الروسى مار N . J . Marr (الذى انتقده فى الماضى ستالين) ، بوجود لغات طبقية وأن أعضاء كل طبقة اجتماعية يتحدثون بطريقة معينة ؟

إن مفهوم الطبقة نفسه غير محدد تماماً وقد أصبحت فائدته مشكوكاً فيها حين يطبق على مجتمع غير متجانس إلى حد يصعب معه شرحه فى إطار مجرد ثنائية مثل النبالة / البورجوازية أو البورجوازية / البروليتاريا . إن الصراعات الطباقية قائمة دون شك (فى المجتمعات الرأسمالية ، كما فى المجتمعات التى يقال عنها اشتراكية) . لكن الطبقة الاجتماعية فى حد ذاتها هى مجموعة أوسع وأبعد فى الوقت نفسه من أن يمكن أن ينسب إليها لغة متجانسة وعالم دلالي واحد .

وسنرى أنه توجد لغات جماعية داخل طبقة مثل البورجوازية ، حيث يمكن لخطابات ليبرالية كاثوليكية ، ضد الكنيسة ، أو اشتراكية أن تدخل فى صراع . وما يسميه بعض الماركسيين " الصحافة البورجوازية " هو بعيد عن أن يكون ظاهرة متجانسة يمكن تحليلها على ضوء وجهة نظر واحدة لطبقة معينة .

تظهر الصحافة البورجوازية من وجهة نظر علم اجتماع النص كعالم لغوى متناقض ، حيث تتزاحم الخطابات الليبرالية ، الرجعية ، الاشتراكية أو الكاثوليكية فى تعريفها أو قصصها للواقع داخل سياقات غير متجانسة تماماً . وعلم اجتماع من هذا النوع يهتم على الأخص بالأساليب المختلفة (للمعلقين والصحفيين والنقاد) لتصنيف الأحداث الاجتماعية ولوضع نماذج فاعلة ونصوص سردية سياسية تتجادل بعضها ضد البعض الآخر بدءاً من التصنيفات المتعارضة فى أغلب الأحيان .

وسنرى فى التحليل الاجتماعى لـ "الغريب" لكامو، كيف يصر المحامى العام على قص حكاية ميرسو مع استبعاد جميع القصص الأخرى التى يمكن أن تخالف حكايته . هذا المحامى لا يتحدث فقط باسم جماعة (البورجوازية الاستعمارية الكبيرة)، إنه يتحدث أيضاً فى إطار مؤسسة ما (مؤسسة "العدل") تسيطر على خطابه وتمنحه حظوة اجتماعية وأخلاقية وسياسية. ويليق أن نضيف إلى المظهر الجماعى للغة (الخطاب)، مظهره المؤسسى لأن التجمعات الاجتماعية المختلفة لا تتحرك فى فراغ: إنها داخل ومن خلال مؤسسات اجتماعية تصبح فى كثير من الأحيان رهن صراعات محمومة. (ونعنى هنا إدارة المجالات الأدبية والجرائد والسياسة الجامعية للحكومات المتتالية .).

وفى رأى بيير بورديو الذى كان من أوائل من حللوا بشكل منظم المظاهر المؤسسية للغة، أنه لا يمكن شرح (نجاح أو فشل) خطاب ما فى ضوء البنية الخطابية . تأتى السلطة المؤسسية على الخطاب من الخارج: "إن محاولة الفهم اللغوى لسلطة المظاهر اللغوية والبحث فى اللغة عن مبدأ المنطق والفعالية للغة المؤسسة هو نسيان لكون التسلط يأتى للغة من الخارج، كما يذكرنا بشكل محسوس ، الصولجان Skeptron الذى يعطونه ، لدى هومير، للخطيب الذى سيأخذ الكلمة " (بورديو ، ١٩٨٢ : ١٠٥).

وحتى إذا كنا متفقين مع بورديو على الاهتمام (ضد سوسور، أوستين أوسيرل) بالصفة الجماعية والمؤسسية للكلام (للخطاب) ، فإننا لا نقبل أسلوبه فى استبعاد التحليل الدلالى والتركيبى للخطاب من مجال البحوث الاجتماعية . لأنه واضح أنه حتى اللغة " المتحكم فيها " ، المؤسسية، غير فعالة إلا إذا كانت مبنية بطريقة معينة.

وجميع النظريات البلاغية تصبح بلا معنى إذا فقد البناء الدلالى والتركيبى (" المادة اللغوية البحتة ") للخطاب علاقته بتأثيراته الاجتماعية. يبين لويس ماران Louis Marin فى كتابه " القص فح " Le Récit est un

piège (١٩٧٨) بوضوح كيف أن فعالية الخطاب تتوقف على بنيته. " إن مقولة الصحيح والخطأ، تخضع في هذا ، لقوة الخطاب والتكتيك الذي وضعته هذه القوة " (ماران ، ١٩٧٨ : ١٣٥ - ١٣٦) . ويوضح جان بيير فاي في سياق مختلف كيف أن اللغة الشمولية للاشتراكية - القومية الألمانية كان بإمكانها الحصول على قوة إقناع مذهلة عن طريق " إعادة خلق " تاريخ الشعب الألماني على المستوى الخطابي : عن طريق خلق مفردات جديدة (حول كلمات مثل شعبي "Völkisch" " مغترب (ضد الطبيعة) " artfremd " مستلب " entartet " الخ) ، مع وضع ثنائيات دلالية جديدة وتعارضات فاعلة تتناسب معها مثل " الجنس الآري " / " الأجناس غير الآرية " ، الخ (فاي Faye ١٩٧٥) .

يجب الحرص من استبعاد ، مع شكلية سوسور والسوسوريين ، التحليل الدلالي والتركيبي للخطاب والذي هو وحده القادر على شرح عمل هذا الأخير في سياق اجتماعي . يجب الحذر من تبني منظور يكون فيه المجتمع " خارج " الخطاب : خارج الدلالة وتركيب الجملة Syntaxe وبعكس هذا المنظور ، فقد حاولت أن أظهر ، في بداية هذا الفصل ، إلى أي حد تكون الدلالة والتركيب وقائع اجتماعية .

ويمكن أن نستنتج في النهاية ، في التحليلات التالية ، أن اللغة الجماعية (لهجة جماعة) ليست دائماً نتاج جماعة واحدة ولكنها يمكن أن تنشأ على تخوم جماعتين أو طبقتين لهما ، لأسباب اقتصادية وسياسية ، مصالح وقضايا مشتركة . وهكذا فإن حديث الصالونات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والذي يلعب دوراً هاماً في " البحث " لبروست ، نبع من جماعة غير متجانسة ، من أصحاب الإيرادات نبلاء وبورجوازيين مرتبطين ببعضهما البعض عن طريق " زيجات ثرية " ، الحياة الاجتماعية للصالونات ، نادي الجوكي ، الخ . هذا الحديث ذو التاريخ الطويل (يتم ذكره كثيراً لدى مدام دي سيفينييه) يصبح في نهاية القرن التاسع عشر لا نبيلاً ولابورجوازيّاً : حيث يخص كل طبقة المرفهين (T . Veblen) وأصحاب الإيرادات العاطلين في ذلك العصر .

تلخيصاً لذلك يمكن أن نقول ، أن اللغة تظهر في إطار علم اجتماع النص ، كنظام تاريخي يمكن أن نشرح تغيراته (اللفظية ، الدلالية ، التركيبية) في ضوء الصراعات بين الجماعات الاجتماعية ومن ثم بين لغات جماعية (لهجات جماعية Socioclectes تم إخضاعها بشكل ما بوضوح للمؤسسة . ولكي نأخذ في الاعتبار الصفة التاريخية (المتغيرة) والاجتماعية للغة أتحدث عن وضع لغوى اجتماعي .

٤ - لهجات جماعية وخطابات

حين يتحدث باختين ، قولوشينوف ومدقديف عن " الكلام " أو "المفوضات " فمن الواضح أن المقصود مفاهيم فلسفية أكثر منها مفاهيم لغوية أو اجتماعية . ولذا يبدو ضرورياً أن نأخذ في الاعتبار تقسيم العمل المعاصر وأن نستبدل بمفهوم المفوض (المبهم جداً) مفهوم الخطاب الذي تعمل مختلف النظريات السيميوطيقية على تجسيده وتحديده . ويجب بالموازاة السعى إلى توضيح العلاقات بين لهجة جماعية Socioclecte وخطاب Discours . (ولا مجال هنا بالطبع ، للمقابلة بشكل وضعى بين " المفهوم العلمى " المعرف بشكل نهائى وبين المفاهيم " الميتافيزيقية " للفلسفة ، لأن مفاهيم العلوم الاجتماعية لا يتم تعريفها بشكل نهائى : إنها تتطور وتتجسد كلما تحولت العلوم الاجتماعية .)

١ - لهجات جماعية

لقد ذكرت فيما سبق إمكانية اعتبار المجتمع كمجموعة جماعات متعادية بشكل ما ، يمكن للغاتها (لهجاتها الجماعية) أن تدخل في صراع مع بعضها البعض . ولا يعنى تبنى منظور كهذا هو فى الوقت نفسه اجتماعى وسيميوطيقى أن نقبل اختزال الوقائع الاجتماعية والذوات الجماعية (جماعات) إلى ظواهر نصية . بل بالعكس يجب وضع علاقات وثيقة بين النص والمجتمع مع إظهار المصالح والمشاكل الجماعية على المستوى اللغوى . وهذا التصوير هو الذى يسمح ، فى النهاية ، بوضع الأدبى

فى ترابط مع الاجتماعى، دون اللجوء إلى مفاهيم قبل - سيميوطيقية مثل المحتوى الاجتماعى أو " رؤية العالم ". ويحصل مفهوم الأيديولوجية (الذى من المفروض تعميقه وإعادة تعريفه) على بعد جديد حين تعاد صياغته فى سياق سيميوطيقى ويوضع فى علاقة مع مفاهيم الخطاب ولهجة الجماعة.

إن تلك الأخيرة يمكن وصفها على ثلاثة مستويات مكملة لبعضها البعض، حيث إن لها بعداً معجمياً وبعداً دلالياً وبعداً تركيبياً أو سردياً. وبوصفها بنية سردية فإن لهجة الجماعة تتخذ شكل خطاب (" تجسيد خطابى ") . وهى لديها بعد لفظى حيث إنها تتكون من كلمات ذات دلالة تسمح بالتعرف على المستوى الإمبريقى على لهجة الجماعة الليبرالية، المسيحية، الماركسية أو الفاشية . وهكذا فإن كلمات مثل " فرد " ، " حرية " ، " إستقلال " أو " مسئولية " تميز لهجة جماعة ليبرالية أو ليبرالية - جديدة . كما تظهر فى الصحافة وفى المعاهدات والبيانات السياسية أو فى العلوم الاجتماعية.

ويجب الحذر من خلط مفهوم لهجة الجماعة مع مفهوم " القاموس المهنى " أو " اللغة التقنية ، المتخصصة " : لأن القواميس المتخصصة لعلماء الاجتماع ، وعلماء الأجناس أو علماء النفس ، هى نفسها تتوزع على لهجات جماعية تتنافس مع بعضها البعض ، وتتعارض فى تجسيدها لمصالح جماعية غير متوافقة. ومن المعروف أن هناك علوماً اجتماعية ظواهرية، ماركسية، وظيفية و " بنيوية " . وخلف كل من هذه العلوم الاجتماعية، نجد التزاماً اجتماعياً وسياسياً مختلفاً.

يعرف جريماس اللهجة الجماعية فى «سيميوطيقا وعلوم اجتماعية»
Sémiotique et sciences sociales (١٩٧٦) فى سياق وظيفى فى
الغالب، حيث يضعه فى علاقة مع مفهوم الدور الاجتماعى (دور المهندس،
الطبيب، المحامى، إلخ .) (جريماس ، ١٩٧٦ : ٥٣ - ٥٤) . ومن المهم أن
نرى كيف يعيد، فى عمل لاحق ، تعريف مفهوم اللهجة الجماعية واضعاً فى

اعتباره مساحته الأيديولوجية والحوارية (مفهوم قولوشينوف، باختين):
"اللهجات الجماعية هي على هذا النحو أنواع من اللغات الفرعية المعروفة
بالتقلبات السيميوطيقية التي يعارض بعضها البعض الآخر (وهذا هو
مستواها في التعبير) وعن طريق الإيحاءات الاجتماعية المصاحبة لها (وهو
مستواها في المحتوى)، إنها تتكون من تصنيفات اجتماعية كامنة في
الخطابات الاجتماعية " (جريماس / كورتس ، ١٩٧٩ : ٣٥٤).

في السياق الحالى حيث يستبدل مفهوم لهجة الجماعة بمفهوم الملفوظ
(باختين / قولوشينوف)، فالمقصود هو لغة أيديولوجية تعبر على المستويات
المعجمية والدلالية والتركييبية عن مصالح جماعية معينة.

ونعرف أن بعض الجماعات السياسية والاجتماعية (التروتسكيين،
أنصار ماو أو الفوضويين) والحركات الاشتراكية والمجتمعات المسيحية،
والنقابات ممثلى أرباب العمل ، تلجأ إلى مفردات مختلفة لشرح وجهات
نظرها الخاصة والدفاع عنها . كما أننا نعرف أن الفرد يمكنه أن ينتمى إلى
جماعات مختلفة مثلما ظهر فى الحوارات بين المسيحيين والماركسيين فى
فرنسا وإيطاليا فى الستينات ، عندما تساعل بعض الأفراد الملتزمين عن
توافق أو تعارض الأيديولوجيتين : لهجتى جماعتين متنافستين. وكثيراً ما يتم
تفسير تفكك الخطاب الفردى بأن الفرد يستخدم مفردات (إذن لهجات
جماعية) متعارضة. أنه من الواضح أن كلمات مثل "استقلال" و " تحرير"
و"تسامح" لا يمكن أبداً أن تجتمع مع كلمات مثل "قوانين تاريخية"، "مراجعة"،
"مركزية"، "ديمقراطية".

و حين نترك المستوى المعجمى لندخل فى المشكلات الدلالية، نستنتج أن
أغلبية الجماعات الدينية، السياسية أو الفنية لا تدخل فقط العديد من
المستحدثات (مثل العالمية Cosmopolitisme التعديلية révisionisme
السوريالية Surréalisme أو المستقبلية Futurisme)، بل أيضاً العديد من
التعارضات والتمييزات. وهكذا فإن التعارض بين عالمية/ ودولية والتمييز بين
واقعية نقدية/ واقعية اشتراكية يميزان اللهجة الجماعية الماركسية اللينينية،

فى حين أن التعارض واقعية/ سورىالية يكتسب وظيفة بنائية فى اللغة السورىالية.

وتظهر اللغة الخاصة بأندريه بروتون إلى أى مدى ينبغى " السيطرة " على بعض الكلمات ، وخلق قاموس لغوى يسمح - من ثم - بإقامة تعارضات وتمييزات دلالية من أجل تصنيف الواقع اللغوى الاجتماعى (أى تقسيمه إلى مراتب دلالية) : " لا شك أنه كان أكثر مشروعية أن نستطيع السيطرة على كلمة " الطبيعية القصوى " Supernaturalisme التى استعملها جيراردى نرقال فى إهداء " فتيات النار " Filles de Feu . ويبدو حقاً أن نرقال كان يمتلك بشكل رائع الروح التى ننادى بها " (بروتون: ١٩٢٤ ، ١٩٦٩ : ٣٦). يختار بروتون بسيطرته على كلمة ما (" سىريالية ") ورفضه لكلمات أخرى مثل " طبيعية قصوى " وخاصة " واقعية " وجهة نظر معينة أو التصاق ما (أنظمة تصديق) يستطيع بفضلها أن يعيد تعريف الظواهر الاجتماعية والأدبية وغيرها ، وتصنيفها .

أية تمييزات وأية تعارضات تلك التى يجب اعتبارها لصيقة ؟ يمكن تعريف الالتصاق (أو أنظمة التصديق) (" وجهة النظر اللغوية ") على أنه معيار يسمح بإجراء بعض التمييزات الدلالية وتفضيلها على غيرها . ومن البديهى أن قبول بعض الوحدات المعجمية وبعض التمييزات الدلالية مع رفض البعض الآخر ، يشكل نشاطاً اجتماعياً: إن الدواعى المسئولة عن الاختيارات الدلالية المعجمية هى الذوات الفردية والجماعية (الجماعات الاجتماعية المنظمة إلى هذه الدرجة أو تلك) .

ويبدو لى أن بييترو L.J. Pietro على حق حين يصر على أهمية الالتصاق أو اليقين (Pertinence) بالنسبة لتكوين الموضوعات فى العلوم الاجتماعية (علوم الإنسان) . لأن المصالح الجماعية المجسدة عن طريق نوات فى إطار بنية حوارية تؤثر فى تعريف الموضوعات على مستوى الالتصاق (أو أنظمة التصديق) : « الهوية التى تتعرف بها الذات على الموضوع تحدها

الطبقة التي تسمح بالتعرف عليه من خلالها ، أى عن طريق الموضوعات التي يتعرف بها على أنها مختلفة وبالتالي عن طريق صفاته الخاصة». (بييترو ١٩٧٥ : ٨٣).

وهكذا فإن المعرفة غير العلمية تتم بشكل مماثل : إنها تعرف موضوعاتها (جزء من الواقع) بادعاء التصاق (خاص أو مصداقية خاصة) يطلق عملية من التصنيف أو (لكى نتكلم لغة جريماس) " عمل تصنيفي Faire taxinomique. وموضوع الخطاب هو نتيجة هذا الفعل التصنيفي . (إن موضوع أى علم اجتماعى أو قص سياسى أو أسطورى، يتكون بالكامل أو فى جزء منه عن طريق تصنيف خطاب معين . اللاوعى الفرويدى ، مثلاً ، لا يوجد مستقلاً عن القاموس اللغوى والتصنيف الفرويدى؛ إن فائدة المفهوم ، ووجود المرجع ، كثيراً ما اعترض عليهما علم النفس الإمبريقي وبهذا المعنى فإن مفهوم اللاوعى لا يقارن بمفهوم المجال المغناطيسى).

إن التعارضات والاختلافات النابعة من تصنيف معين باعتبارهما نظاماً ، تشكل الشفرة الدلالية للهجة جماعة . والتي يمكن تعريفها على أنها نتاج فعل تصنيفي أو تبويبي . ولا يكفى اعتباره (على غرار لوتمان ، ١٩٧٣) على أنه مجموعة من التعارضات والاختلافات . إن مفهوماً كهذا ، تبسيطى للغاية ، لا يسمح بوصف العلاقات بين الشفرة Code أو الفهرس المعجمى للهجة الجماعةية.

وهذه العلاقات لا يمكن تقديمها بشكل مرضٍ إلا فى إطار علم الدلالة البنيوى الذى أدخل مفهوم النظير الدلالي . إن التعارضات، والاختلافات الموضوعية عبر فعل تصنيفي معين ، فى شفرة بوصفها نظاماً متسقاً ومغلقاً نسبياً ، تصبح تعارضات واختلافات بين نظائر. (النظير هو: "[...] التكرارية Itérativité ، طول سلسلة جميلة، من وحدات التصنيف) Classèmes تضمن للخطاب - الملفوظ تجانسه " ، جريماس / كورتس ، (١٩٧٩ : ١٩٧).

إن ذات التلفظ بعد أن تكون قد وضعت بعض التعارضات والاختلافات (التصنيف) بدءاً من التصاق (أو أنظمة تصديق) ما تخضع بعد ذلك الوحدات المعجمية Lexèmes التي تمنحها له لهجتها الجماعية واللغة عموماً للنظام المفاهيمي الذي يعتبره هو لصيقاً . في إطار هذا الوضع فإن المفاهيم الأساسية التي تختارها الذات (مثل الوعي واللاوعي والأنا العليا والهو) تعمل كوحدات تصنيفية تسمح بتكوين نظائر بوصفها مصنفات أو طبقات دلالية (مراتب وحدات معنوية Classes de sèmes). (وهكذا فإن مفاهيم فرويدية مثل الكبت Refoulement ، التحويل النفسي Transfert أو فعل ناقص Acte manqué تنتمي كلها إلى نظير اللاوعي بتعبير آخر ، إنها تستنبط بوصفها الوحدة المعنوية للمفهوم العام أو وحدة التصنيف التي هي "اللاوعي".)

وتظهر الشفرة هكذا ، بوصفها نتيجة للفعل التصنيفي ككل متجانس قل أو جل حيث تولد في قلبه الاختلافات و / أو التعارضات بين المصنفات (وحدات معنى سياقية Sèmes Contextuels) اختلافات و / أو تعارضات بين النظائر بوصفها تصنيفات دلالية . (ونذكر النظير الدلالي في حالة إذا ما كان هناك على الأقل وحدتا معنى - معجميتان أو "كلمتان" في سياق - لهما مصنف Classème مشترك: وهكذا فإن المصنف الذي يربط كلمة التحويل النفسي بكلمات الفعل الناقص هو اللاوعي . ولتعريف أكثر تفصيلاً لمفهوم النظير: جريماس ١٩٦٦ وخاصة جريماس / كورتس ١٩٧٩).

وعلى نحو مؤقت، فإن اللهجة الجماعية يمكن تعريفها على أنها فهرست معجمي له شفرة أي مبنى حسب قوانين التصاق (أو أنظمة تصديق) جماعية خاصة. حين يتحدث مسيحي مثلاً عن "الحياة الأبدية" فإن كلماته لها معنى لأنها ترجع إلى التصاق معين: للتعارضات الأساسية بين الجسد والروح وبين الفاني وغير الفاني . ونعرف أن بعض الماركسيين وجميع الملحدين يرفضون اعتبار هذه التعارضات على أنها لصيقة: إنهم يتجهون إلى مصداقية وتصنيف مختلفين.

ومن هنا نفهم أفضل لماذا اعتبر باختين وفولوشينوف المجتمع، على المستوى اللغوي كتجسيد للمنافسة والصراعات البلاغية . وبصفة خاصة فإنه فى مجتمع حديث متعدد الأصوات ، يعرف نفسه على أنه " تعددى " ، تحيل كل شفرة ، كل لهجة جماعية بشكل ضمنى أو ظاهر إلى شفرات، ولهجات جماعية منافسة بل و"عدوة" .

ب - خطاب (أيديولوجية)

لقد تم ، حتى الآن، تقديم اللهجة الجماعية ككيان ثابت : كفهرس معجمى وكشفرة . إلا أن اللغة المنطوقة والمكتوبة لا يمكن اختزالها إلى هذه المفاهيم الثابتة ، لأنها تجسيد خطابى لفهرس معجمى وللبنية الدلالية ، ولكن ما هو الخطاب؟

لا يمكن تعريفه فى إطار لغويات جمالية (لغويات بلومفليد ، مثلاً) يكون موضوعها محصوراً فى نطاق الجملة . ويجب فى عملية الحدود الضيقة لهذه اللغويات ، تعريف الخطاب كوحدة جمالية تشكل بنيتها الدلالية (بوصفها بنية عميقة) جزءاً من شفرة وتنطلق من لهجة جماعية يمكن لمسارها التركيبى أن يقدم بمساعدة نموذج فاعلى (سردى) . إنه من الضرورى إذن اعتبار التطور التركيبى للخطاب كنتاج اختيارات دلالية لذات التلفظ : لالتصاقه وللتصنيف بوصفه نتيجة هذا الالتصاق .

لقد أثبت جريماس فى أعماله السيميوطيقية أن كل خطاب يمكن اعتباره بناءً سردياً يمكن تقديم خاصيته الصراعية على شكل هيكل فاعلى وأن العلاقات بين الفاعلين ، والفاعلين الجماعيين للخطاب يتم شرحها على ضوء البنية الدلالية للخطاب .

ومن الواضح أن الاختيارات الدلالية لذات التلفظ (اختيار بعض التعارضات المعتبرة على أنها ملتصقة) تأتى بأشكال من الفاعلين الجماعيين والفاعلين خاصة تماماً ولا توجد فى خطابات أخرى . إن الخطاب الاشتراكى أو الماركسى الذى قدمه جريماس كمثال يتخذ كنقطة بداية التعارض

الأساسى بين الاشتراكية والرأسمالية وينتهى بالمقابلة بين المساعد Adju- vant (للمفوظ) " الطبقة العاملة " وبين المعارض "البورجوازية " ، فى حين أن خطاباً مسيحياً ينطلق من التعارض إيمان/ إلحاد ، بإمكانه أن يقدم التعارض الأساسى على أنه بين الذات المسيحية والذات المعادية الملحدة (أو بين الشيطان والمسيحى).

من المهم أن نشير أنه فى حالة الخطاب الأول ، نحن أمام فاعلين جماعيين وفى الثانى أمام فاعلين فرديين . مرسل الخطاب الأول (" سلطة اجتماعية تكلف البطل برسالة خلاص معينة " ، جريماس ، ١٩٧٠ : ٢٣٤) يمكن أن يكون " التاريخ " فى حين أنه فى الخطاب الثانى يكون " الله " .

ويتم شرح البنية الفاعلية (السردية) للخطاب هنا على ضوء اختيارات دلالية لذات (التلفظ) وهذه الاختيارات الدلالية لا تكون ممكنة إلا فى إطار شفرة تنتمى إلى لهجة جماعية ، إذن، لجماعة معينة. إن الجماعات المختلفة تجسد مصالحها السياسية ، التشريعية ، التاريخية ، الأدبية أو العلمية ، عن طريق قص الواقع بطرق مختلفة ، غالباً ما تكون متناقضة : يسعى السورباليون عن طريق إعادة اكتشاف الرومانسية واكتشاف أبولينير ولوتريامون إلى " إعادة صياغة " تاريخ الأدب . أما الماركسيون فيقصون التاريخ على طريقتهم وقصهم غير مقبول بالنسبة لليبراليين والمسيحيين مثلما تسعى الحكومة الروسية، عن طريق تصوير غزو أفغانستان كـ " مساعدة أخوية " ، إلى جعل قصها الأيديولوجى المتطابق مع الواقع (الأفغانى) وحده مقبولاً. إنها تسعى إلى استبعاد القصص الأخرى، "الروايات" الأخرى التى يمكن أن تعارض شرعية خطابها: تصويره السردى للأحداث.

ينتقد كاموفى رواية "الغريب" ، الأيديولوجية المسيحية - الإنسانية ويهاجم البنية السردية لهذه الأيديولوجية : فكرة أن " الله " بوصفه مرسل Destinateur يكلف " الإنسان " بوصفه ذاتاً بـ " رسالة خلاص " وأن الإنسان يجب أن يتصرف (ضد العديد من الأعداء أو المعارضين) لكى

يحصل على الموضوع الذي هو " خلاص الروح " . وينتهي كامو، عن طريق نقد الإنسانية المسيحية (من خلال خطاب راويه) إلى التشكيك فى معنى التاريخ بوصفه بناءً سردياً . ويظهر عن طريق توضيح عرضية هذا البناء وعن طريق ربطه بمصالح جماعية معينة، صفته الأيديولوجية.

ونلح على أن اللهجة الجماعية (الليبرالية ، الإنسانية - المسيحية أو الاشتراكية) لا توجد منفصلة عن تجسّداتها الخطابية التى يمكن أن تتخذ أشكالاً على قدر من التباين . من الممكن تكوين خطابات مختلفة تماماً يمكنها أن تتعارض فى بعض النقاط ، بدءاً من الشفرات وقوائم معجمية متجانسة نسبياً. إن المناقشات " الداخلية " بين الكاثوليكين، والاشتراكيين، والليبراليين والماركسيين قائمة الآن وتبين أن التجانس النسبى للهجة جماعة (مفرداتها وشفرتها) لا تلغى التباينات الخطابية.

على سبيل الخاتمة فإن اللهجة الجماعية يمكن تعريفها فى ضوء مظاهرها الأساسية الثلاثة: الفهرس المعجمى، الشفرة (الالتصاق أو أنظمة التصديق والتصنيف) والتجسد الخطابى . هذا هو المظهر الإمبريقى للهجة الجماعية التى هى فى حد ذاتها ليست إلا بناءً نظرياً : فرضية حول الواقع.

ويسمح ما قيل فى هذا القسم بتعريف أو إعادة تعريف مفهوم الأيديولوجية (الذى سبق تقديمه فى سياق اجتماعى ، انظر الفصل الأول، الفقرة الرابعة ، و - ح) على المستوى الاجتماعى السيميوطيقى.

يمكن تعريف الأيديولوجية أولاً كتجسيد خطابى (معجمى ودلالى وتركيبى) لمصالح اجتماعية معينة . وبهذا الشكل فهى لا تتعارض لا مع العلم (كما هو لدى التوسير) ولا مع الفلسفة . بقدر ما تظهر المصالح الاجتماعية عبر الالتصاق أو أنظمة التصديق فى جميع التصنيفات وفى جميع البنى السردية سواء كانت أدبية، فلسفية أو علمية ، فإن الأيديولوجية أيضاً ملازمة لجميع النصوص الأدبية والفلسفية والاجتماعية ، السيكولوجية ، الخ.

إلا أننا لا يمكن أن نتوقف عند هذا التعريف للأيدولوجية والذي هو هام للغاية : إذا كانت جميع الخطابات أيدولوجية بنفس الدرجة فإن صفة "الأيدولوجية" ستفقد معناها وتكف عن أن تكون لصيقة.

يجب إذن في المقام الثاني ، تمييز الخطاب الأيدولوجي عن الخطاب النظرى أو النقدي بالنسبة للموقف الذي تتبناه ذات التلفظ تجاه نشاطها الدلالى والتركيبى (السردى) . ولا تستطيع ذات التلفظ أن تتبنى موقفاً نقدياً وبخاصة نقدياً ذاتياً إلا عن طريق التفكير فى المصالح الاجتماعية والقيم التاريخية (المتغيرة بالتالى) التى يعبر عنها خطابها (التصاقه وتصنيفه وسرده). وبفضل هذا الموقف النقدي والمتأمل ، يمكنها بشكل ما تخطى أيدولوجيتها الخاصة . (ولا يقصد هنا على الإطلاق فصل الخطاب النظرى أو العلمى بأسلوب التوسير ، عن الأيدولوجية بل التساؤل حول حدود إمكانيات النظرية للتخلص من الأيدولوجية التى نشأت فى ظلها .).

الانعكاسية والطبيعية : إن ذات الخطاب الأيدولوجى (بوصفها ذات التلفظ) تعتبر نفسها وكأنها طبيعية وتلقائية وحررة . وتعتبر اللغة التى تستخدمها لتصوير و" سرد " الواقع ، على أنها طبيعية . إنها تجهل ، حسب التوسير وبيشو ، أنها ليست ذاتاً إلا بفضل أشكال خطابية موجودة سابقاً ولها صفة خاصة ، جزئية وفى كثير من الأحيان اعتباطية : "[..] ويحدد الخطاب المتبادل Interdiscours التشكيل الخطابى الذى تتماثل معه الذات فى خطابها ، وتتلقى الذات هذا التحديد دون إدراك منها بذلك . بمعنى أنها تحقق آثاره "بكامل حريتها" . (بيشو ، ١٩٧٥ : ١٩٨) .

بتعبير آخر : يتقبل التفكير الأيدولوجى ، بوصفه "وعياً زائفاً" المعنى الخاص والعرضى السابق له ، على أنه طبيعى ومتسق مع ذاته وكذلك ذاتيته الخاصة التى تتخذ هذا المعنى أى بدقة أكثر : المجال الدلالى الخاص (" Campi Semanticiparziali ") (إيكو ، ١٩٧٣ : ١٠٦) كنقطة انطلاق للخطاب بدون تفكير .

وعلى العكس فإن الخطاب النظرى (النقدى) ، كما هو مقصود هنا ، يتأمل آلياته الدلالية والسردية الخاصة به . إنه يتأمل إذن فى تصنيفه (شفرته) وحول النموذج الفاعلى الناتج عنه . وعن طريق تأمل نشاطه اللغوى والمصالح الاجتماعىة (الجماعىة) التى يجسدها هذا النشاط ، يتعرف على خصوصيته . إن موقفه التأملى والنقدى الذاتى يساعده فى التفتح على لهجات جماعىة وخطابات أخرى .

حوار ومونولوج : إن " طبيعىة " الخطاب الأيدىولوجى توضح صفته المونولوجىة . وذات التلفظ التى تعتبر لهجة جماعىة وتشكىل خطابى ما على أنهما طبيعىان تميل إلى اعتبار خطابها على أنه الخطاب الوحىد الممكن حول التاريخ ، الأدب ، الجامعة أو الاقتصاد . وهكذا فهو يتطابق بشكل ضمنى أو صريح مع مرجعه أو مراجعه . وهو يمنع (بوعى أو بدون وعى) عن طريق هذا التطابق أى تصوير خطابى آخر للموضوع (المرجع) يختلف عن تصويره . ويجعل الحوار النظرى والتحقق الإمبرىقى مستحيلأ .

إن هذا الموقف المونولوجى ، المعادى للنقد والنظرىة يميز ، مرتبطأ ارتبطأ وثيقأ بالسلطة السياسىة ، جميع اللغات السلطوىة والشمولىة . ولنذكر من ضمن الأمثلة الكثرىة ، الخطاب الماركسى اللينىنى الذى يطابق بين روايته عن التاريخ وبين التاريخ نفسه والذى يميل فى " الواقعىة الاشتراكىة " ، إلى اختزال النصوص الأدبىة متعددة المعنى إلى تفسىر واحد (إلى المعنى الأحادى) . وبالإصرار على الصفة " الموضوعىة " للتفسىر الماركسى - اللينىنى ، فإن هذا الخطاب يجعل الحوار النظرى مستحيلأ ، وينقاد هو نفسه للأيدىولوجىة . (زىما ، ١٩٨١ : " الآلىات الخطابىة للأيدىولوجىة " فى مجلة Revue de l'Institut de Sociologie العدد الرابع ، بروكسل) .

ولا يمكن أن يكون الحوار النظرى المعنى هنا " عبر ذاتى " بالمعنى الفردى والعقلانى للمصطلح ، لأن الذى يتناقشون ليسوا أفرادأ متفتتىن ، منعزلىن بل ممثلون لمصالح جماعىة : للذوات الناطقة بلهجات جماعىة . إذا اعترفنا بهذا فإننا نعترف أيضاً بضرورة أن نستبدل بالمفهوم الفردى للعبر

ذاتية (الذى مازال يستخدمه هابرماس ، ١٩٧٣ : ٣٨٩ - ٣٩٠) المفهوم النقدى لعبر الخطابية Interdiscursivité ويضع هذا المفهوم فى اعتباره الصفة الجماعية واللهجية الجماعية لجميع الخطابات النظرية.

ازدواجية القيم والثنائية : إن الأيديولوجية بتطابقها مع الواقع (مع المرجع) لا تتحمل الالتباس والازدواج القيمى للظواهر. ويتخذ الخطاب الأيديولوجى (الذى يعتبر نفسه فى أغلب الأحوال علمياً) الثنائية -Dichotomie والثنائية المطلقة Dualisme absolu منطلقاً ويسعى لإزالة الازدواج القيمى الجدلى كما وصفه هيجل وطوره حتى وصل إلى المعضلة Aporie عند نيتشه وكير كجارد وأدورنو.

وفى نفس الوقت فإنه يزيل المفارقة والسخرية : المفارقة تنشأ من اكتشاف الصفة الأسطورية للعقلانية الصارمة ومن الصفة القمعية الليبرالية ومن الروابط بين الاشتراكية والفاشية (فى شخصية موسولينى ، ضمن أمثلة أخرى) . ويجب على الأيديولوجية بوصفها خطاب السلطة الذى وضع من أجل تعبئة الجماهير ، أن تزيل الازدواج القيمى والمفارقة والسخرية التى تظهر نذالة البطل أو الصفة الأسطورية لعلم (عقلانى أو اشتراكى أو فاشى).

ولا تتمكن الأيديولوجية من الاحتفاظ ببنيته السردية التى تنتصر فى إطارها الذات (ذات الملفوظ) ومساعدتها الخطابيين على أعداء الذات ومعارضيتها لكى تنتزع منهم موضوع البحث ، إلا عن طريق إزالة الازدواجية والارتكاز على الثنائية الدلالية.

بشكل مفارق، لا تؤدى الصراعات الأيديولوجية إلا إلى ازدياد الازدواج الدلالى والذى يرغب الأيديولوجيون كأفراد فى إزالته بمعارضتهم للازدواج القيمى وللإمبالاة السوق (انظر الفصل الأول ، ٤) . ويحلل ريبول فى كتابه " لغة وأيديولوجيا " الالتباس الذى ينشأ فى إطار لهجة جماعية أيديولوجية متصارعة ، ألا وهى الستالينية: " فى حالات أخرى فإن الأيديولوجية فى لهفتها على تقييم كل شىء تقسم إشارة نفس المرجع إلى علامتين متعارضتين ، إحداهما إيجابية والأخرى سلبية. وهكذا تتخذ أو تكتسب

" الدولية " Internationalisme فى الستالينية مرادفا (بسبب تماثل المرجع) يصبح فى الوقت نفسه مناقضاً له (بسبب تناقض فى القيمة) : وهى كلمة " عالمية " Cosmopolitisme أحط أنواع السباب [...] ولم يكن هذان التعبيران " الدوليون " Internationalistes والعالميون Cosmopolites لدى الستالينيين نعتاً لنفس الأشخاص . وإذا لم يكن لهما نفس المعنى إلا أنهما أطلقا على نفس الأشخاص . فهم بالتحديد أبطال الألوية الدولية وضحايا النازية الذين اتهموا وأدينوا بعد ذلك بالعالمية و " الصهيونية " (ريبول ، ١٩٨٠ : ٦٦ - ٦٧) .

ولنقل فى نهاية هذا القسم أن الأيديولوجية يمكن تمييزها عن النظرية النقدية ، لا فى إطار تفرع ثنائى غير جدلى (أ أيديولوجية / نظرية أو أيديولوجية / علم) ، ولكن بالمقارنة مع الموقف الذى تتبناه ذات التلطف تجاه خطابها الخاص ، تجاه خطابات الآخرين وتجاه الواقع الإمبريقى . ومن المهم ، بعد ذلك ، تقديم الأيديولوجية على المستوى اللغوى (الخطابى) ليس فقط من أجل تمييزها عن النظرية بل من أجل إمكانية وضعها فى علاقة مع النص الأدبى على مستوى التناص .

ه - التناص كمقولة اجتماعية

فيما يخص الوضع اللغوى الاجتماعى ، فيما يخص موكاروفسكى وباختين وقلوشينوف ، سبق ذكر ضرورة ربط النص الأدبى بسياقه الاجتماعى على مستوى اللغة . ولن نتمكن من شرح وظائف الأيديولوجيات فى أى رواية أو فى أى مسرحية إلا عن طريق تصوير الأيديولوجيات كلفات (كلهجات جماعية وخطاب) ، وبوصفها لغات فإن لها وجوداً إمبريقياً فى النص ويمكن وصفها .

وطالما نتساءل حول معرفة أية أيديولوجية أو رؤية للعالم " يعبر " عنها نص معين فإننا نقفز فوق العتبة اللغوية (الإمبريقية) ونحكم على البحث الاجتماعى بمعالجة مفاهيم مبهمه مثل " الوعى " ، " الالتزام " أو " المنظور .

هذه المفاهيم التي بإمكان الخطاب النظري تعريفها على هواه ، لا يمكن أبداً التحقق منها بالنسبة للنص الأدبي : حيث إن قيمتها الإمبريقية مشكوك فيها لدرجة كبيرة. (كان موكاروفسكى محقاً إذن تماماً في التشكك حول أن "رؤية العالم" التي يستخلصها المنظر هي في أغلب الأحيان نتاج خطابه أكثر منها نتاج النص الأدبي الذي يتم تحليله).

يظهر عالم التخيل في منظور علم اجتماع النص كعملية تناص: كعملية امتصاص من جانب النص الأدبي للغات الجماعية والخطابات الشفهية أو المكتوبة ، التخيلية ، النظرية ، السياسية أو الدينية . وترسم كريستيغا خطوط هذه العملية من خلال ملاحظة كتبها فيما يخص باختين : " [...] يضع باختين النص داخل التاريخ وداخل المجتمع المتصورين بدورهما كنصوص يقرأها الكاتب ويندمج فيها أثناء كتابتها " (كريستيغا ، ١٩٦٩ : ١٤٤).

أولاً ، يجب وضع النص الأدبي في وضع لغوي اجتماعي خاص ، كما عاشه كاتبه وجماعته الاجتماعية . وواضح أنه في ظل هذا الوضع فإن بعض اللغات الجماعية والخطابات تكون أكثر أهمية من غيرها بالنسبة لبنية رواية ما ، لمسرحية ما ، أو لقصيدة ما . على كل الأحوال ، فإنه من المهم إظهار كيف أن الاستيعاب التناصي للغات الجماعية والخطابات يولد بنية أدبية خاصة.

التحليل التناصي ليس له إذن أي علاقة بالدراسة الإمبريقية للاستشهادات المحصورة في التساؤل حول معرفة أية نصوص شفهية أو مكتوبة يمكن أن نجدها في العالم الأدبي ، كما أنه لا علاقة له بالمرّة بتحليل بلاغى يستهدف " تقنيات " الكاتب. إنه يجب أن يلقي الضوء على النص الأدبي في سياق حوارى ، أى بالمقارنة مع الأشكال الخطابية التي يتفاعل عن طريق استيعابها وتحويلها ، ومحاكاتها الساخرة ، الخ . ذلك لأنه يستوجب شرح أبنية النص الدلالية والسردية بدءاً من هذه الأشكال الخطابية . كما

سنرى مثلاً ، أن البنية السردية لرواية "الغريب" لكامو لا تنفصل عن بنية الخطاب الإنساني - المسيحي الذي يلقيه المحامي العام.

ولنجعل ما قلناه ملموساً أكثر ، أود أن أخص ، قبل الخوض في نصوص كامو وروب - جرييه تحليلاً " لرجل بدون صفات " L'Homme sans qualités لموزيل والمنشور في كتابي " الازدواج القيمي الروائي، بروست ، كافكا ، موزيل ، " Proust , Ambivalence romanesque , Kafka , Musil. وبالطبع فلا مجال هنا للدخول في تفاصيل دراسة معقدة جداً ولكن المقصود ببساطة هو توضيح للأفق النظري الذي يوضع فيه نص الرواية، بشكل ملموس أكثر.

على مستوى التناص تستوعب رواية " رجل بدون صفات " لموزيل وتحول وتنقد اللهجات الجماعية الأيديولوجية المختلفة في العشرينات والثلاثينات .

أغلب الخطابات النابعة من هذه اللغات الجماعية تتسم (مثل الخطابات الموسومة بالأيديولوجية التي سبق ذكرها) بثنائية صارمة وبعجز عن التفكير في أصولها وحول وظيفتها . وعن طريق إظهار الصفة العرضية للخطابات الأيديولوجية والتي يطمح كل منها في الوصول إلى الحقيقة المطلقة . ينتقد الراوى لدى موزيل، الأيديولوجية من خلال نص سردي تأملى وساخر . ويقابل مانويته Manichéisme بالازدواج القيمي والسخرية اللذين يميلان إلى ازدراء الملفوظات الدوجماتيكية .

ويبدو لي في هذا السياق، أنه من المهم بشكل خاص فهم الأيديولوجية على أنها رد فعل للموضوعية العلمية كما عرفها فيبر، (انظر الفصل الأول، ٤ ، ك) وبشكل غير مباشر، للامبالاة السوق والتوسط عبر قيمة التبادل. وبعكس متخصص الدعاية الذي لا يهتم بأية حقيقة سياسية، أخلاقية أو ميتافيزيقية (فهو يستخدم اللغة بشكل وظيفي بحت) فإن الأيديولوجى يعلن حقائق مطلقة يميل إلى تقديمها في شكل ثنائيات مانوية مثل الإيمان /

الإلحاد ، الاشتراكية / الرأسمالية، البطل / الخائن ، الأسطورة / العلم الخ. وفى النهاية فإن لامبالاة السوق التى تظهر فى النصوص التجارية والموضوعية العلمية النابعة من قيمة التبادل تستكمل بالصراعات الأيديولوجية التى تزدري جميع القيم الثقافية. إن الخطاب الأيديولوجى هو نتاج لأزمة القيم وموزيل يقدمه بهذا المنظور.

ولنفحص عن قرب رواية موزيل. فيمكننا قراءتها، على مستوى التناس، على أنها محاولة لتجسيد خطابات أيديولوجية مختلفة معظمها يتم نقده وتقديمه بشكل ساخر. هذا الربط بين النص الأدبى والسياق الاجتماعى يختلف عن التطابق الجولدمانى أو عن نقد الأيديولوجية لدى ماشرى ، حيث إنه يقع على المستوى الخطابى واللغوى.

ونجد فى " رجل بدون صفات " العديد من المحاكيات الساخرة للخطابات الفاشية ، الكهنوتية ، المحافظة ، العلمية أو الاشتراكية، حتى الخطاب الفردى (الليبرالى) الذى يستخدم كثيراً كنقطة ارتكاز للراوى، يقدم أحياناً بشكل ساخر ونقدى . الشكل الحوارى الذى يعتبره باختين كأحد الملامح المميزة للرواية ، يصبح فى نص موزيل ، أداة هامة للمحاكاة الساخرة والسخرية.

فى فصل عنوانه " محادثات مع شمايسر " ، هناك تعارض بين خطاب ليرالى لأورليخ وخطاب اشتراكى لمناضل شاب . وينشأ التهمك من الموقف المتسامح والساخر والحوارى للخطاب الفردى الذى يثير دوجماتيقية الاشتراكى شمايسر. ويضع المناضل الاقتناع الاشتراكى فى مقابل السخرية العقلانية لأورليخ : " وحين انتهى، أجابه شمايسر بشفاه لا تكاد تنفصل من الاستمتاع بما تقوله : «الحزب لا علاقة له بهذه المغامرات: سنحقق الهدف بأساليبنا الخاصة !» لقد نال ما يستحقه هذا البورجوازى!" (موزيل، ١٩٥٢، ١٩٦٩ ، الكتاب الثالث : ٢١٦).

ومع قراءة هذا الفصل هناك ثلاثة عناصر لغوية تلفت الانتباه:

١ - التضاد (الذى يولد المحاكاة الساخرة) بين الخطاب المفتوح والتساؤلى لأورليخ وردود الفعل الدوجماطيقية لشمايسر .

٢ - واقعة أن بطل موزيل يصور الواقع بمساعدة فاعلين فرديين فى حين أن شمايسر يقدم فاعلين جماعيين : فهو يضع فى مقابل " الأنا " التى يستخدمها أورليخ الـ " نحن " للحزب السياسى .

٣ - وفى النهاية نتبين نوعاً من العلاقة بين خطاب البطل وخطاب الراوى الذى يتأمل أقوال وأفعال أورليخ بتعاطف ساخر .

التعليق الأخير للراوى والذى يشكل نوعاً من الخاتمة للفصل المقطعى، يشهد على هذه العلاقة . وتتضامن كلمة الراوى بشكل غير مباشر مع كلمة أورليخ لإظهار الغرور الصبباني للمناضل : " أوكد إذن ، يحدد مبتسماً، أنك ستفشل فى شىء آخر، مثلاً، فى واقع أننا بإمكاننا معاملة إنسان مثل الكلب فى حين أننا نفضل كلبنا على الإنسان ؟ مرآة طمأنت شمايسر بعكسها لصورة شاب يرتدى نظارة قوية تحت جبين صلب الإرادة . ولم يعتقد أنه من الضرورى الإجابة " (موزيل ١٩٥٢ ، ١٩٦٩ ، الكتاب الثالث : ٢٢٠) .

ونجد فى قلب الرواية، خطاب الراوى مرتبطاً بتعاطف ساخر (إذن، بموقف مزدوج القيمة) بخطاب البطل أورليخ . ومن المستحيل اختزال هذه العلاقة الخطابية إلى أحادية رؤية للعالم أو أيديولوجية ما بالمعنى الجولدمانى أو اللوكاتشى للمصطلح . وعلى الرغم من أنهما نبعاً من أزمة الفردية الليبرالية (التى يبأس منها موزيل) ، فإن الخطابين لا يمكن تطابقهما مع مبحث القيم لهذه الفردية، لأنها هى نفسها الموضوعة تحت التشكيك فى الرواية بفعل أورليخ، الراوى والكاتب .

إن خطاب الراوى (الذى يقدمه موزيل نفسه على أنه " صديق " للبطل) يعارض جميع الثنائيات الأيديولوجية وجميع القيم التى تمثلها الأيديولوجية

على أنها أحادية المعنى وطبيعية ، إنه يتسم بازدواجية قيمية أساسية تولد السخرية مع التشكيك فى الثنائيات الدلالية للغات المحافظة والكهنوتية والاشتراكية والفاشية. ولا يتبقى فى منظور هذا الخطاب الا ازدواجية جميع القيم الثقافية النابعة من الأزمة وتفكيك المبحث القيمي الليبرالى.

هذا الازدواج هو أصل المفارقة والسخرية التى لا تقسم فقط الفصل المذكور بل كل رواية موزيل . إن تيمات التخنت Hermaphrodite ، والعلم الخرافى للنزعة السلمية التى تؤدى إلى الحرب ، ولا عقلانية العقلانية والحب - الكراهية تُفسر فى ضوء هذا الازدواج القيمي الشامل.

إنه هو الذى يوضح البنية المقسمة والرسائلية Essayiste للنص الروائى والذى يستحيل اختزاله إلى نموذج فاعلى متجانس . وهو بالتحديد النموذج الفاعلى الكامن فى الأيديولوجيات (للخطابات الأسطورية والثنائية) والذى يجعله الازدواج الروائى يفشل عن طريق توضيح الصفة المزدوجة للقيم الثقافية وللفاعلين الذين يمثلونها . فى نص يشكك فى الصفة الأحادية المعنى للذات وللذات - الضد antisujet ، للبطل - الضد وللمساعدين وللمعارضين ، عن طريق التركيز على التناقضات داخل الذات ، النموذج السردي يصبح هو نفسه إشكالياً : مع تبسيطه الأيديولوجي يُترك للنقد والسخرية.

وفيما يخص " الاحتياج لسماع القصص " (besoin d'écouter des récits) يكتب موزيل هذه الملاحظة Das Bedürfnis ist sofort wieder da , wo die Ideologie fest ist. wo der Gegenstand gegeben ist . " يظهر هذا الاحتياج بمجرد أن تقوى الأيديولوجية ، بمجرد أن يُعطى الموضوع ") (موزيل ، ١٩٧٨ ، الجزء الثامن : ١٤١٢ .)

نرى هنا كيف أن نقد الأيديولوجية الذى يضعه موزيل فى مركز روايته، يحصل فى النص على وظيفة بنائية : إنه هو الذى ينبه إلى نقد القص السردي الخطى (السببى) ونماذجه الفاعلة . مع إظهار ازدواج القيم والفاعلين المقابلين له ، فإنه يزدري هذه النماذج ويدشن كتابة رسائلية وتأملية

ونقدية ذاتية . كتابة كهذه لا يمكنها أن تولد رواية تقليدية ، إنها تنتج رواية -رسالة roman-essai ، نصاً معضلياً Aporatique ومشرذماً Fragmentaire ، منشور في نسختين (في ١٩٥٢ وفي ١٩٧٨) تحت عنوان "رجل بدون صفات " L'Homme sans qualités .

٦ - نحو علم اجتماع للنص الروائي: "الغريب" الكامو

لقد حاولت أن أظهر في " ازدواج القيمة الروائي " أن الازدواجية الدلالية والاجتماعية على حد سواء للشخصيات وللأحداث و للتلفظات، تنتهي بزعزعة السببية السردية . إذا كانت فكرة تودوروف أن " سمة الشخصية هي سبب الحدث " (تودوروف ، ١٩٧٥ : ٤٢١) صحيحة ، فمن المشروع إذن افتراض أن السببية السردية تتزعزع في وضع يكون فيه من المستحيل تعريف " سمات الشخصية " والأحداث والأقوال بشكل أحادي المعنى .

وهذا هو الوضع في روايات موزيل ، كافكا ، بروست ، هسة أو چويس . في هذه الروايات ليست فقط البنية السردية هي التي تصبح إشكالية، ولكن وضع الذات (ذات الملفوظ والتلفظ) يصبح أيضاً هشاً مع اختفاء الراوى العالم بكل شيء omniscient أو الساذج . إن الراوى الحديث يتساعل بلا توقف حول العلاقات بين خطابه و "الواقع" الذي يمكن في كل لحظة أن يفلت منه .

إن الأسئلة الكافكاوية " من أنا ؟ " ، " من هو ؟ " ، " أين الواقع وأين الحقيقة ؟ " تميل إلى استبدال الأسئلة التقليدية: " ماذا سيفعل ؟ " ، " وكيف ستكون ردود أفعالهم ؟ " ، الخ . إنها أسئلة تفترض شخصيات وأحداثاً وأقوالاً مُعرّفة بشكل واضح . إنها أسئلة تأخذ كنقطة انطلاق اندماج الذات (هويتها الأحادية) . في حين أنه في روايات كافكا ، موزيل ، بروست أو چويس ، هذا الاندماج غير معطى : إنها تترك فريسة للازدواج القيمي .

فى علم اجتماع الرواية الذى بدأه لوسيان جولدمان فإن أزمة الرواية وتفكيك التركيب السردى وأزمة الذات (الراوى) أدت إلى فرضية أن روايات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (روايات كافكا ، موزيل ، بروسى أو چويس) تشهد على أزمة الفردية الليبرالية: أزمة الذات الفردية (انظر الفصل ٣ ، ٤ ، ج) . إذا كانت هذه الفرضية صحيحة فيجب إذن التساؤل كيف اعتبر جولدمان أن " الغريب " لكامو تتبع نفس النوع الجنسى لروايات كافكا وبروسى وموزيل وچويس ، لأنه حتى القراءة السطحية لـ " الغريب " تظهر أن هذا النص له بنية سردية مختلفة تماماً عن " البحث " أو عن " المحاكمة " أو عن " رجل بدون صفات " .

إننا حين نؤكد أن روايات بروسى أو كافكا أو موزيل ، تشهد على أزمة الذات ونظام القيم والسرد ، يجب علينا فى نفس الوقت التساؤل حول معرفة إذا ما كانت هذه الأزمة قد كفت عن الظهور فى " الغريب " لكامو ، لأن هذه الرواية لها بنية سردية متجانسة بل وتواطؤية . إنها لا تعرف الاستطراد الرسائلى الذى نجده فى " البحث " أو " رجل بدون صفات " ولا التقطيع أو الفجوة التسلسلية الزمنية . هل يجب إذن استنتاج أن أزمة الرواية التى انفجرت واضحة لدى كافكا وبروسى وموزيل وچويس ، طوقها كامو فى نصه المتجانس والبسيط نسبياً؟ لا ، لأن الأزمة لم تختف بل اتخذت شكلاً مختلفاً .

إن الفرضية التى تشكل نقطة البداية فى تحليلى يمكن تلخيصها فى بعض الكلمات : فى العالم الاجتماعى واللغوى لكامو ، القواعد والقيم (الإنسانية ، المسيحية) ليست فقط مزدوجة القيمة ومتناقضة بل بدأت فى أن تكون لامبالية ومتعاوضة .

إن سؤال معرفة أى قيم ثقافية (أخلاقية ، سياسية ، ميتافيزيقية) يجب تفضليها ، هو سؤال لا محل له فى وضع اجتماعى لغوى ينتهى فيه التوسط عبر قيمة التبادل وردود الفعل الأيديولوجية لهذا التوسط الذى يشتد أكثر فأكثر بازدياد جميع القيم . إن نتائج هذا التدهور قابلة للإصلاح بشكل

واضح على المستوى الروائي : البطل لم يعد يبحث عن الحقيقة (مثل جوزيف أو أورليخ أو مارسيل) ، لم يعد يبحث عن اكتشاف جوهر الواقع أو الطبيعة الحقيقة للشخصيات الأخرى . وهذا يعنى على المستوى السردى أن مشكلة التاريخ الحقيقى (سؤال معرفة إذا كان جوزيف مذنباً ، إذا كان ميرسو يجب مارى أو والدته) لم يعد يطرح . مشكلة " الحياة فى الحقيقة " (كافكا) تختفى .

أ - الوضع الاجتماعى - اللغوى

علينا فى البداية مواجهة صعوبة منهجية : كيف نصف " وضعاً اجتماعياً - لغوياً " ؟ أليست ظاهرة أوسع من أن توصف وتحلل فى بعض صفحات ؟ الظاهرة ستكون بالطبع معقدة للغاية إذا كان المقصود هو وصف وضع اجتماعى - لغوى بأكمله لعصر ما (الثلاثينات ، مثلاً) . ولحسن الحظ ، فإننا بصدد مشروع أكثر تواضعاً من ذلك : توضيح الوضع الاجتماعى للغة ، كما عايشه الكاتب المعنى ومعارفه من الكتاب الذين انتقدهم أو دعمهم . فى حالة كامو اتخذ كتاب مثل بروتون ، سارتر ، سيمون دى بوقوار وفرنسيس يونج ، مكان الصدارة لديه : أساليبهم فى المعيشة وفى الحكم على تحولات اللغة ، لها أهمية خاصة فى تحليل " الغريب " ، إنها تشرح ، على الأقل جزئياً ، لماذا تنتقد هذه الرواية الخطابات المسيحية - الإنسانية التى فقدت مصداقيتها وتحاكيها ساخرة .

يحسن - بشأن هذا الموضوع - مراجعة ما قيل بخصوص العلاقات القائمة بين الأيديولوجية وقيمة التبادل (انظر الفصل الأول ، ٤ ، ط) . ولنذكر فى هذا الشأن أندريه بروتون الذى كتب هذه الملاحظة عن أزمة القيم فى المجتمع الحديث : " [...] إنها جميع القيم الفكرية المقموعة . جميع الأفكار الأخلاقية المنهزمة ، كل خيرات الحياة وقد أصابها الفساد وتلاشت . دنس المال غطى كل شىء . ما تعنيه كلمة الوطن أو كلمة العدالة أو كلمة الواجب ، أصبح غريباً علينا [...] " (بروتون ، ١٩٣٥ ، ١٩٧٢ : ٢٣) .

هناك نص آخر لبروتون يمكن اعتباره وصفاً لتدهور اللغة عبر الأيديولوجية ، عبر الصراعات الأيديولوجية . إنه يكمل الفقرة المذكورة حيث

يظهر أن قيمة التبادل ليست هي الوحيدة السبب وراء هدم المعنى فى اللغة :
"إن الكلمات التى كانت تشير للقيم مثل ، حق ، عدالة ، حرية ، اتخذت معانى
محلية ، متناقضة . لقد تم فحص مطابقتها ، بشكل أو بآخر ، لدرجة
تحويلها ومدىها إلى أى شىء ، لدرجة جعلها تعنى العكس تماماً لما تريد أن
تعنيه " (بروتون ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٥ : ٧٦) .

يظهر بروتون فى تعليقاته النقدية القطبين اللذين تحدث فيما بينهما
التوترات والصراعات اللغوية : السوق والأيدولوجية كرد فعل للتسويق
وللامبالاة القيمة الاقتصادية .

إن الخلافات العديدة بين جان پول سارتر والحزب الشيوعى تبين ما
أراد بروتون قوله حين تحدث عن " مطابقة " الكلمات واختزالها الدلالى .
بالرغم من إنها خلافات أيدولوجية لم تدب إلا بعد الحرب العالمية الثانية ، إذن
بعد صدور " الغريب " (١٩٤٢) إلا أنها نموذجية " للمعارك الأيدولوجية " فى
الثلاثينات والأربعينات . إنها توضح كيف يتم الجمع لأسباب " براجماتية "
بين عناصر دلالية هى فى العادة مفككة (فى إطار الثنائيات الصارمة) مثل
" الديجولية " و " الإمبريالية الامريكية " و " الفاشية " و " الوجودية " : " اتخذت
الإنسانية عادة الحديث عن " خادم " Laquais du service الديجولية (أو
عن الامبريالية الامريكية ، حسب الظروف) . [...] كنبا Kanapa فى
" الوجودية ليست إنسانية " كان يشير إلى الخراج الفاشى الذى كان يمثله
سارتر فى نظره . وفى نفس ذلك العصر اعتبرت صحافة الحزب الشيوعى ،
نيران Nizan " شرطياً " (بورنييه ، ١٩٦٦ : ٥٣) .

عن طريق إصاق مفاهيم مثل " الفاشية " أو " الامبريالية " لفيلسوف
مثل سارتر ، فإن الشيوعيين يفرغونها من قيمتها الدلالية . عن طريق خلط
كل شىء لأسباب تكتيكية فإنهم يجعلون الكلمات مزدوجة القيمة ويحقرون
اللغة .

سارتر نفسه يعادى التدهور السياسى للكلمات حين يكتب هذه
الملاحظة فى رسالة حول بريس پاران : " إن ما يدرسه بريس پاران هى لغة

١٩٤٠ وليست اللغة الكونية . إنها اللغة ذات الكلمات المريضة حيث " السلام " يعنى العدوان ، أو " الحرية " تعنى القمع و " الاشتراكية " نظام لعدم المساواة الاجتماعية " (سارتر ، ١٩٤٧ : ٢٣٦) .

ومن هنا فإننا حين نحلل الغريب فنحن بصدد " لغة الأربعينات " وليس اللغة عموماً . ولهذا فإن الدراسات السردية أو اللغوية الشكلية البحتة لا يمكنها أبداً شرح بنية هذه الرواية التى نشأت من الوضع الاجتماعى - اللغوى حوالى الأربعينات (ما بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠) . ولا يمكن الكشف عن اللامبالاة الدلالية (لامبالاة البطل تجاه الكلمات) التى تلعب دوراً هاماً جداً فى الغريب بمبعد عن تفريغ الكلمات من معناها désémantisation الذى يحبط روكتان فى " الغثيان " والذى يدفع فرنسيس پونچ إلى مقارنة الكلمات بالأشياء الجامدة فى الطبيعة .

وفيما يخص كتاب پونچ " تحيز الأشياء " Le Parti pris des Choses (المنشور فى ١٩٤٢ مثل الغريب) كتب سارتر : " هناك إذن لدى پونچ رفض للتواطؤ ، لقد وجد فى نفسه كلمات تدنست ، " جاهزة " ، وخارجه أشياء أليفة ، مخزية ، وبنفس الحركة ، يحاول هو إفراغ الكلمات من إنسانيتها عن طريق البحث تحت معناها السطحى عن " كثافتها الدلالية " وإفراغ الأشياء من إنسانيتها عن طريق كحت دهانها من المعانى النفعية " (سارتر ، ١٩٤٧ : ٣١٣) .

فى كثير من الجوانب ، تتماثل تجربة پونچ مع تجربة سارتر . فمثله مثل سارتر ، فإن پونچ حساس لتدهور اللغة بفعل التسويق والصراعات الأيديولوجية . إنه يبحث وسط لغة " مريضة " عن نقاء أسلوب يتوجه ناحية " الطبيعة الصماء " ونحو نوع من " الموضوعية " لا تتواطأ مع الأيديولوجيات . يتواجد الفنان (كما يلاحظ فيما بعد پونچ) " ليعبر عن الطبيعة الصماء " (پونچ ١٩٦٧ ، ١٩٨٣ : ٦٢) . ويضيف قائلاً إن هذا المفهوم للفنان " ينبع من تقدم العلوم (نظرية النسبية) ، من " الاستيظاف " Fonctionnarisation

(كافكا) ، من الثورات الاجتماعية الجديدة (الشيوعية ، التكنوقراطية) ، من الاكتشافات الإثنولوجية الجديدة (الحضارات الزنجية والبدائية) [...] " (بونج، ١٩٦٧، ١٩٨٣ : ٦٣).

مؤكداً الطموحات الموضوعية لكامو ولبعض الروائيين الجدد ، يسعى بونج " إلى السمو بالكلاسيكية والرومانسية عن طريق الأولوية المعطاة للمادة، للموضوع، للصفات الغريبة النابعة عنها [...] " (بونج، ١٩٦٧، ١٩٨٣ : ٦٥). يقصد بونج إذن (مثلما هو بعد ذلك لدى روب جرييه) تخليص الأشياء من الترسيبات الخانقة للغة المتدهورة . يجب تخليص الخطاب من جميع القوالب الأيديولوجية التي ينتقدها بونج بنفس منظور سارتر.

لقد كتب في ١٩٥٠ " ما كان يشدنا للحزب الشيوعي كان أولاً التمرد على شروط الحياة التي صنعت للناس ، مذاق الفضيلة والعطش للتضحية من أجل دافع عظيم . ثم كان تقزز النفس من التعاملات الخسيصة ، من الثغاء الإنساني ، من الإسهاب والمساومات الإشتراكية (SFIO) [...] " (بونج، ١٩٥٠، ١٩٨٣ : ٣٠).

هذا النقد للأيديولوجية الإنسانية الذي يسفه الكلمات والمفاهيم التي تستخدمها يذكرنا بنقد الإنسانية لدى سارتر الشاب وبخاصة في "الغثيان" حيث لا يمكن فصل النقد اللغوي عن نزاع القيمة Dévaluation الذي تتعرض له الكلمات من جراء التحايل الأيديولوجي .

على الرغم من ذلك فإن البحث عن موضوعية جديدة ولغة نقية ليس إلا مظهر للوضع الاجتماعي - اللغوي الذي كان سارتر وبونج وكامو يكتبون في ظله . المظهر الآخر هو إمكانية (معترف بها ، مشكوك فيها من جانب سارتر وكامو) لغة أصبحت لامبالية بالمعنى : للغة متشعبة ، كلماتها ليست إلا أشياء ووحدات صوتية متعارضة .

ويمكن أن يكون ضياع المعنى الأيديولوجي ، المبتذل ، هو باختصار ضياع المعنى وهو ما يقلق روكتان في " الغثيان " وما يقلق سارتر في رسالته حول بونچ : " [...] ألسنا نطرد من الكلمات معناها الخاص ؟ وألن نجد أنفسنا في قلب المصيبة ، في تساو مطلق لكل الأسماء ومضطرين رغم ذلك إلى التحدث ؟ " (سارتر ، ١٩٤٤ ، ١٩٤٧ : ٣٠٥) .

إن كلمات " تساو مطلق " تحيل إلى المشكلة الأساسية للوضع الاجتماعي اللغوي المعيش من جانب كتاب مثل سارتر و بونچ وكامو وبعد ذلك ، روب جرييه . الأزواج القيمي الذي يجمع قيماً دلالية وثقافية متعارضة ينتهي إلى توليد لامبالاة (تساوي) القيم . وهذا يجعل التميزات القيمية مستحيلة في المجالات الأخلاقية ، السياسية ، الجمالية أو الميتافيزيقية .

إن الأمل في أن بحثاً دؤوباً سيؤدى إلى اكتشاف الحقيقة (أملا نجده مازال لدى كافكا أو في " الغثيان ") يخفت في العالم الدلالي لكامو ، حيث كلمة حب " لا تعنى شيئاً " ، " لا تقول شيئاً " . وليس صدفة ، كما يبدو لى أن يذكر كامو (دون أن يتبنى وجهة نظرهم) الدادائيين الذين أخذوا في الشك في كل شيء : " ما هو الجيد ؟ ما هو القبيح ؟ ما هو الكبير ، الضعيف للغاية ... لا أعرف ! لا أعرف ! " (كامو ، ١٩٥١ ، ١٩٦٧ : ١١٦) .

ونجد لدى كامو تيارين فكريين يكملان بعضهما البعض ويتعارضان في نفس الوقت . من جانب يخشى كامو مثله مثل سارتر و بونچ ، تدهور اللغة بفعل قوانين السوق والأيديولوجيات ، ومن جانب آخر ، يقبل اللامبالاة الناتجة عن هذا التدهور ويستخدمها كأداة نقدية ضد "معانى" الخطابات الأيديولوجية .

ويلاحظ فيما يخص " مجتمع التجار " : " ولا نندهش إذن من أن هذا المجتمع اختار له ديناً ، أخلاقية من مبادئ شكلية ، وأنه يكتب كلمات الحرية والمساواة على السجون وعلى معابده المالية أيضاً . إلا أن تدنيس الكلمات لا يفلت من العقاب . إن أكثر القيم المفترى عليها اليوم هي بالطبع قيمة الحرية " (كامو ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ : ١٠٨٢) .

ويدرك تماماً كامو الصحفى، الدور الذى تلعبه الصراعات الأيديولوجية فى عملية التدهور التى تتعرض لها اللغة والثقافة . ويوضح كذلك كيف أن الخطاب الهيجلى " للماركسيين الليذيين " يحول الحرية إلى عبودية . ويوضح كذلك كيف تتحول ، فى سياق مزدوج المعنى ، المتضادات إلى مترادفات بفضل حيل : " الجدلية " : " إن المعجزة الجدلية ، تحول الكم إلى كيف، تتضح هنا : لقد وقع الاختيار على تسمية العبودية المطلقة : حرية " (كامو، ١٩٦٥ : ٦٣٧) .

يتساءل كامو فى رسالة بريس پارين حول نتائج تدهور اللغة بفعل الأيديولوجيات والتوسط ويستشف إمكانية عالم عبثى . والعبثية ليست هنا (كما يفهمها بعض نقاد " الوجودية ") مفهوماً ميتافيزيقياً، عنصراً أنثروبولوجياً ثابتاً . إنها تظهر بشكل واضح كنتاج لعملية تاريخية ، اجتماعية ولغوية : " لأن الفكرة العميقة لپارين هى أنه يكفى أن تحرم اللغة من المعنى لكى يحرم منه كل شىء ولكى يصبح العالم عبثياً . إننا لانعرف إلا عن طريق الكلمات . وإذا ثبتت عدم فاعليتها فإنه عمايتنا النهائية " (كامو، ١٩٦٥ : ١٦٧٣) .

وهذا العالم العبثى للغة أصبحت لامبالاية بالمعنى هو الذى يظهر فى الغريب . اللامبالاية تصبح فى هذه الرواية أداة نقدية: الكاتب وراويه يستخدمانها لإظهار سفة الخطابات الأيديولوجية فى وسط لغة ساهمت هذه الخطابات نفسها فى تدهورها .

ب - لهجة جماعية ، خطاب وتناص

إن تحليل النص الروائى سيظل مجرداً وغير مشبع إذا اكتفينا بتقديم مشاكل الغريب فى سياق الوضع الاجتماعى - اللغوى الموضح أعلاه . ففى هذه الحالة سنواجه سؤال معرفة لماذا كتب كامو هذه الرواية الخاصة التى تتكون من قصتين مكملتين لبعضهما البعض ، والتى تتسم كل منهما بسببية سردية دقيقة .

وأية إجابة اجتماعية لهذا السؤال ستكون بالضرورة جزئية وغير مكتملة حيث إن المشاكل النفسية (الفردية) واللهجة الخاصة Idiolecte المقابلة لها تتدخل دائماً في تكوين النص (انظر بهذا الشأن الفصل التالي حيث أحاول التركيب بين المدخل التحليلي النفسى والمدخل الاجتماعى فيما يخص البحث لمارسيل بروسست) . إلا أن الإجابة ستكون أكثر تجسيميا إذا تمكنا من التعرف على اللهجة الجماعية التى تستوعبها الرواية وتنقدها على مستوى التناص . إن اللهجة الجماعية هى الرباط الجامع بين الرواية وبنياتها وبين الوضع الاجتماعى اللغوى .

فى حالة " الغريب " فنحن بصدد لهجة جماعية إنسانية - مسيحية تظهر بكل وضوح فى خطاب المحامى العام . طبيعى أن لا نجنى شيئاً من أن نستبدل بمفهوم تقليدى ك " الأيديولوجية " مفهوماً حديثاً مثل " الخطاب " . ولا مجال هنا للاكتفاء باستبدال مفهوماً بسيط : دون التخلّى عن الفكرة المعروفة بأن الأيديولوجيات تظهر فى النصوص الأدبية ، يجب التمعن فى الأيديولوجية على المستوى الخطابى بوصفها بنية دلالية وسردية . وتحت هذا الشكل يمكن ربطها باليات النص الأدبى . يجب إذن فهم الأيديولوجية الإنسانية - المسيحية للمحامى العام باعتبارها خطاباً نابعاً من لهجة جماعية خاصة .

ويمكن تقديم المشكلة الأساسية فى جمل قليلة : تتفاعل الخطابات الإنسانية - المسيحية مع تحطم الشفرة بفعل ازدواجية القيمة واللامبالاة مع فرض ، على المستوى المؤسسى ، بعض التعارضات والاختلافات التقليدية ومع نفي الازدواجيات والتناقضات الظاهرة فى اللغة وفى الثقافة . إن ممثلى الثقافة الرسمية (كما يظهرون فى الغريب) يرفضون الاعتراف بأزمة القيم ، بالأزمة الدلالية .

ويقربون فى هذا من الأيديولوجيين الذين تنتقدهم وتسخر منهم رواية " رجل بدون صفات " . فى هذا السياق يمكن قراءة " الغريب " على أنها نقد للخطابات المسيحية - الإنسانية ومن ثنائياتها التقييمية .

خطاب النائب والعدالة عموماً ، مبنى على أساس من بعض الثنائيات مثل الخير / الشر ، الطهارة / الخطيئة ، الحب / الكراهية ، فى المرافعات ضد ميرسو ، وكأنه قصص مانوى . يتم فى هذا الخطاب تعريف جميع الفاعلين الجماعيين والفاعلين (الذات والذات الضد ، الراسل والراسل الضد ، المساعد والمعارض ، الخ) بشكل أحادى . تستبعد الصدفة ليحل محلها مفهوم المسؤولية : البطل مسئول عن الخير ، والبطل الضد عن الشر .

فى إطار قصص كهذا من الممكن أن تدين العدالة ميرسو بعد أن تم تعريفه وتقديمه كذات ضد مسئولة عن برنامج سردي Programme narratif (جريماس) إجرامى . أن لامبالاة ميرسو تجاه جميع القيم الثقافية والدلالية والتي تمنعه من التصرف كذات مسئولة وادعائه أنه مرسل لسلطة اجتماعية ، يلغىها الخطاب الأيديولوجى .

إنه مدين لأنه لم يظهر انفعالات طبيعية (انفعالات البنوة) أثناء دفن أمه لأن السلطات تعتبره مسئولاً عن جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد : لقد قتل عربياً بمنتهى البرود وبوعى تام لفعله .

والمقصود بالطبع ، هو قصص محتمل حدوثه ولا يتقبله لا الراوى (مرسو) ولا أصدقائه . وعلى الرغم من ذلك فهو القصة الرسمية وينطلق من التعارضات الدلالية للهجة الجماعية الإنسانية - المسيحية ألا وهى الخاصة بالعدالة . هذه التعارضات تقن بشكل مشدد : إنها تشكل جزءاً من التصنيف Taxinomie المقرض على المجتمع بفعل جزء من الطبقة السائدة . المحامى العام يتحدث باسم هذه الطبقة ، فى إطار مؤسسة " العدالة " . خطابه إذن هو " لغة شرعية " Langage autorisé بالمعنى الذى يقصده بورديو : (١٩٨٢) .

وهنا جزء مهم من خطاب المحامى العام والذى يدعى لنفسه الحقيقة كلها : وها هو أيها السادة ، قال المحامى العام ، لقد رسمت أمامكم تسلسل الأحداث التى أدت بهذا الرجل للقتل بكامل إرادته . وأؤكد على ذلك ،

قال المحامى ، لأننا لسنا بصدد جريمة قتل عادية، تصرف أخرق يسمح بتخفيف العقوبة. هذا الرجل ياسادة ، إنسان عاقل . لقد سمعتموه ، أليس كذلك؟ إنه يعرف كيف يجيب . إنه يدرك قيمة الكلمات . ولا يمكن أن نقول إنه تصرف دون وعى بما يفعله " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٩٦) .

ويجب ملاحظة أن خطاب المحامى العام يضع ترابطاً سببياً أحادياً بين مسئولية مرسو ولغته : " إنه يدرك معنى الكلمات " . ولكن من يحدد معنى الكلمات ؟ وليس صدفة أن يحذف ممثل الادعاء هذا السؤال القاطع . إنه ينطلق من فكرة (دائماً ضمنية فى خطابه) أن " قيمة الكلمات " تتساوى لدى الجميع أو أن مرسو، البطل اللامبالى ، يعترف بالدلالة الرسمية للعدالة .

لقد استطاع المحامى العام التوصل لإدانة مرسو بعد أن نسب إليه شفرة دلالية غريبة عليه تماماً ولامبالية ، ألاهى الشفرة الدلالية الكامنة خلف اللهجة الجماعية الإنسانية - المسيحية . ويظهر البطل فى خطاب العدالة كذات ضد ، مسئولة عن برنامج سردى سلبي .

لقد غيبت العدالة (أو " أكبتت ") واقع أنه فى وضع اجتماعى تحكمه الازدواجية القيمية واللامبالاة ، فإن قيمة الوحدات المعجمية مثل " عدالة " أو " ديمقراطية " أو " حب " أو " شرف " تصبح مشكوكاً فيها . ونفس الشئ بالنسبة للتعارضات الدلالية مثل خير / شر ، حب / كراهية ، ديمقراطية / ديكتاتورية ، الخ ، المكونة بدءاً من مفردات محقرة : بعيداً عن أن تكون الأساس الصلب لخطاب سياسى أو قضائى تظهر هذه التعارضات (والنماذج الفاعلة المقابلة لها) وكأنها اعتباطية ، وعارضة .

وتظهر بهذا الشكل فى الوضع الاجتماعى اللغوى المرسوم أعلاه وفى العالم الدلالى للرواية الذى تسيطر عليه لامبالاة البطل (الراوى) وبعض الشخصيات الأخرى . ووسط هذه اللامبالاة اللغوية والعاطفية والأيدولوجية على حد سواء ، يفقد خطاب المحامى العام مصداقيته ، وفى سياق اللامبالاة يكتشف القارىء نفاقه وصفته التبريرية .

ويحصل خطاب العدالة ، مثله مثل خطاب الماركسية - اللينينية ، على وظيفة أيديولوجية كلما اجتهد لإخفاء عدم الاكتراث العام خلف البلاغة الواعظة . ويخدم - من ثم - مصالح الجماعات السائدة التي تدعى حماية نظام للقيم لا يمكن المساس به .

وفى الوقت نفسه، فهو لديه بنية أيديولوجية ، حيث إنه يعتبر بعض الثنائيات الدلالية وبعض النماذج الفاعلة المانوية ، على أنها طبيعية . يرفض التفكير فى نشأتها التاريخية الخاصة وفى وظيفتها فى وضع لغوى خاص (انظر الفصل ٤ ، ٤ ، ب) . وعليه أن يرفض هذا التأمل النقدي (- الذاتى) لكى لا يرغم على الاعتراف باللامبالاة الدلالية المتزايدة التى تحط من القيم الاجتماعية - اللغوية التى ينادون بها بشكل متسلط .

ويدان ميرسو لأن الأيديولوجيين لا يمكنهم التنازل لقبول اللامبالاة التى يظهرها الراوى ، لامبالاة هم أنفسهم المسئولون عنها . وحسب المحامى العام ، فإن مرسو بدون روح و " قلبه خال " : ما لا يمكن أن يحصل عليه ، لا يمكن أن نشكو أنه ينقصه ، ولكن حين نكون بصدد هذه المحكمة ، فإن الفضيلة السلبية للتسامح يجب أن تتحول إلى هذه الأخرى الأصعب لكن الأسمى ، أى العدالة . وبخاصة حين يكون فراغ القلب كما نكتشفه لدى هذا الرجل وقد تحول إلى هوة حيث يمكن للمجتمع أن يغرق فيها " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ ، ١١٩٧) .

تهدد اللامبالاة (" فراغ القلب ") نظام قيم مجتمع السوق : وهنا يتدخل الأيديولوجيون لإنقاذ ما تبقى من النظام المتدهور بفعل قيمة التبادل . ودون التفكير فى دورهم الخاص الهدام (حول إفراطهم فى اللغة) يرفضون اللامبالاة بشكل غير جدلى عن طريق مقابله بالقيم المطلقة . ويرفضون فى نفس الوقت التسامح وسنرى كيف أن البنية الدلالية والسردية للغريب نشأت من الاصطدام العنيف بين الأيديولوجية المانوية ولامبالاة السوق .

ج - ازدواج دلالي ولا مبالاة

العالم الدلالي لـ «الغريب»

مع تبني منظور عام ومع تجريد اللهجة الجماعية التي تنتقدها وتحاكيها الرواية بسخرية يمكننا أن نقول إن " الغريب " تتصارع مع مشاكل معروضة هنا تخص الوضع الاجتماعي اللغوي . هذا الوضع يتسم بشكل واضح بما يقوله سارتر في هذه الجملة: "التواجد في وسط الكارثة ، في تساوي مطلق لجميع الأسماء . وأن نكون مجبرين رغم ذلك على الكلام " .

تفقد الأسماء والكلمات معانيها وتكف عن أن تعنى شيئاً ، عن تأدية وظيفتها داخل الشفرات التي زعزعتها أزمة اللغة . ويتضح هذا من خلال حوار بين مرسو وصديقه ماري : " وبعد لحظة سألتني إن كنت أحبها . أحببتها بأن هذا لا يعنى شيئاً ولكن يبدو لي أن لا " (كامو، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٥١) .

تظهر هنا كلمة " الحب " وكأنها أفرغت من محتواها الدلالي ، لقد كفت عن أن تعنى شيئاً مثلها مثل الكلمة المكملة لها " كراهية " . مرسو يقتل عربياً دون أن يكرهه ، يقتله صدفة ويسعى لشرح جريمة القتل بأنها " كانت بسبب الشمس " .

علاقاته مع القواد ريمون لا تشهد على تعاطف مرسو ولكن لامبالاته . وفي نظره فإن الصداقة هي تجريد خال من المعنى والأصدقاء يمكن تبديلهم : " إنه سيان أن أكون رفيقه ، وأنه كان فعلاً يبدو رغباً في ذلك " (كامو، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٤٨) .

وتشرح اللامبالاة أيضاً لماذا لم يبك مرسو عند دفن أمه في بداية الرواية ولا يمكن شرح " فراغ قلبه " الذي ذكره المحامي العام في إطار سيكولوجي ، فردي : لأنه نتاج تطور اجتماعي وثقافي ولغوي طويل أدى إلى وضع يتسم بإفراغ الكلمات والقيم ، الأفعال والمؤسسات المقابلة لها ، من معانيها .

حب الابن لوالديه ليس فقط عاطفة فردية : إنه يوافق قيمة اجتماعية،
مثله مثل الحب الشبقي لمارى الذى يشكل أحد أحجار الزاوية للزواج . ويتأمل
ميرسو هذا الأخير بلامبالاة : فى المساء ، جاءت مارى باحثة عنى وسألتنى
إذا كنت أريد الزواج منها . قلت إنه سيان بالنسبة لى وإننا يمكن أن نقدم
على ذلك إذا كان هذا ما تريده : أرادت أن تعرف إذا كنت أحبها . أجبت كما
سبق أن فعلت مرة ، أن هذا لا يعنى شيئاً ولكن بدون شك أنا لا أحبها "
(كامو، ١٩٤٢، ١٩٦٢، ١١٥٦).

ويحيل موقف مرسو إلى مقال صغير عن " اللامعنى " (Insignifi-
ance) نشره كامو فى ١٩٥٩ فى (كراسة الفصول) Le Cahier des sai-
sons . حيث نقرأ فيما يخص مؤسسة الزواج : " خاتمة : بدءاً من قيم
مقبولة عامة ، ليس الزواج فعلاً خالياً من المعنى . أما إذا نُزِعَ عنه المعنى
البيولوجى ، الاجتماعى ، الخ وهو ما يحدث فى حالة الأفراد غير المبالين
باعتباراته (المذنبين ، أوافق على ذلك) فإن الزواج هو فى الواقع فعل خال
من المعنى " (كامو ، ١٩٦٢ : ١٩٠٥).

ويذهب مرسو إلى حد الاعتراف بأنه من الممكن أن يتزوج من أى فتاة
تطرح عليه الزواج . إن الأفراد مع الكلمات والقيم الثقافية التى يشيرون
إليها، يصبحون هم أنفسهم قابلين للاستبدال فى نظره فى المنظور الذى
يتبناه تميل الاختلافات الكيفية بين الكلمات والأفعال والأفراد إلى الزوال.

وزوالها غير ممكن إلا فى المجتمع الأوروبى فى القرن العشرين، حيث
تؤلف قوانين السوق والأيدولوجيات بين قيم ثقافية وسلالم قيمية متعارضة .
فى سياق كرنقالى (باختين)، تختزل التعارضات ويرتبط السامى بالسوقى،
الجاد بالهزلى، التراچيدى بالكوميدي . إن شرفة مطعم تعتبر "رومانسية"،
وجسم سيارة جديدة يعتبر " كلاسيكياً " ، المطبخ هو "فن" وديسكوتيك
الناصية يسمى " الجنة " . فى " رجل بدون صفات " تعبیر " فرس سباق
عبرى " يجعل أورليخ يدرك أنه " رجل بدون صفات " وسط ثقافة متدهورة.

تستوعب الرواية الازدواج القيمي النابع من الخطابات الدعائية والصراعات الأيديولوجية (ونعنى بها التعبير " فاشية - اجتماعية " الذى سعى الشيوعيون عن طريقه إلى تحقير الديمقراطية - الاجتماعية عبر مطابقتها بالفاشية) ويتحول هذا الازدواج القيمي فى الرواية إلى أداة نقدية. لدى موزيل، على سبيل المثال ، يسمح التعبير المزدوج (الكرنقالى) " فرس سباق عبقرى " الذى يجمع بين " العبقرية " و " الحيوانية " بكشف النقاب عن أيديولوجية العبقرى : وإظهارها بشكل ساخر.

إذا تمعنا عن قرب فى اللامبالاة الدلالية فى الغريب ، نستنتج أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالازدواج الكرنقالى . فى عالم الرواية كما هو فى الواقع الاجتماعى - اللغوى، تظهر اللامبالاة (تساوى القيم اللغوية) على أنها نتاج للازدواج الكرنقالى . تعاتب عليه العدالة شربه للقهوة وتدخينه للسجائر أثناء السهر على والدته المتوفاة.

إن صفات الازدواج الكرنقالى تنطبق على سلوك مرسو بوجه خاص. فتعاتب عليه العدالة شربه للقهوة وتدخينه للسجائر أثناء السهر على والدته المتوفاة، وتعاتب عليه فى نفس السياق زهابه إلى الشاطىء بعد الشعائر الجنائزية وأنه شاهد مع مارى فيلما كوميديا لفرناندل.

فى نظر مرسو فإن التمييزات والتعارضات الصارمة المفروضة بفعل الأيديولوجيات ليس لها معنى . إنه يرفض النفاق (نفاق العدالة مثلاً) الذى يكمن فى احترام أشكال لا تؤخذ مأخذ الجد . وفى نهاية الرواية يعاقب على أنه أظهر الفراغ الذى لم تتمكن بلاغة الأيديولوجيين والواعظين من تغطيته.

إنهم يسعون إلى إزالة الازدواج الكرنقالى الذى يميل إلى تفكيك شفرة (تصنيف) لهجتهم الجماعية الإنسانية - المسيحية. ويولد هذا الازدواج القيمي فى الغريب موقفاً لامبالياً يتبناه الراوى تجاه القيم الثقافية وتجاه اللغة . وهذا الموقف يجعل من المستحيل اندماجه فى برنامج سردي إيجابى أو سلبى: مرسو لا يمثل لا الخير ولا الشر.

ويظهر هذا بوضوح أثناء حوار بين مرسو وقاضى الاستئناف الذى يسعى إلى وصفه فى إطار خطاب مسيحي وإنسانى كعدو للخير (المسيح) ينتهى بالندم على جريمته وبالتوبة . إلا أن التوبة لا تحدث إلا فى سياق تتقبل فيه الذات بعض التعارضات الدلالية والثقافية فى نفس الوقت على أنها لصيقة (أو صادقة) (مثل براءة / خطيئة، حب / كراهية، مسيحي / ملحد، الخ).

إن رفض مرسو تقبل تصديق كهذا والإصرار الذى يدافع به عن لامبالته يصيبان قاضى الاستئناف بخيبة الأمل . إنه يستشف فراغاً دلاليّاً لا يمكن أن يتسامح فيه : " هل تريد ، أجابه بتعجب ، أن لا يكون لحياتى معنى ؟ " وفى رأى أنى لا دخل لى بهذا ولقد أخبرته بذلك. ولكنه عبر المائدة كان يمد المسيح تحت نظرى [...] " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٧٥).

يختلف مرسو جذرياً عن المجرم التقليدى الذى يتوب حين يواجه بصورة المسيح . إن جريمته أكثر خطورة من جريمة المجرم العادى الذى يدرك تعارضات الشفرة الرسمية عن طريق تطابقه مع مصطلحاتها السلبية: عن طريق تمثيله للشر والكراهية فهو يعترف (بشكل ضمنى) بالخير والحب. ولكن مرسو يرفض أن يلعب اللعبة، إنه رافض للقواعد: الشفرة ، مصداقيتها وتعارضاتها وتمييزاتها . إنه ينفى إذن أساس وسبب وجود اللهجة الجماعية الإنسانية - المسيحية بأكملها . أما المجرم التقليدى فهو لا يمس ما يسميه قاضى الاستئناف " معنى الحياة " . وعلى العكس فإن الموقف اللامبالى لمرسو يظهر الصفة العارضة لهذا المعنى .

فى النهاية، من الضرورى ملاحظة أن لامبالاة مرسو (الراوى) ليست ظاهرة منعزلة ولكنها تبدو السمة المميزة لجزء هام من المجتمع الذى تجسده الرواية. وفيما تخص مشهد الأم التى اتهم مرسو بدفنها " بقلب مجرم " يدلى الراوى بهذه الملاحظة فى بداية الرواية : " أمى ، دون أن تكون ملحداً، لم تفكر أبداً فى حياتها فى الدين " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٢٩). ويقابل هذه اللامبالاة للأم فيما يخص الدين ، لامبالاة رئيس مرسو فى العمل. إنه

يضيق بوفاة أم الموظف لديه والشئ الوحيد الذى يهمله هو الأجازة العارضة التى عليه أن يمنحها لمرسو وساعات العمل الضائعة . أما مارى فهى لا تختلف جذرياً عن الفاعلين الآخرين : إنها تنسى بسرعة فائقة السخط الذى عبرت عنه حين علمت أن صديقها قد ذهب معها يوماً إلى الشاطئ بعد أن توفت أمه : " فى المساء ، نسيت مارى كل شئ " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٣٩) .

إن اللامبالاة إذن هى ظاهرة كونية تقريباً فى عالم مرسو . إلا أن الراوى يتميز عن الشخصيات الأخرى بموقفه تجاه اللامبالاة التى يتقبلها والتى يعيها بوضوح تام فى الجزء الثانى من القصة . ويعكس الآخرين فهو يرفض المظهر الأيديولوجى : إنه يجرّد جميع الأحكام القيمية ليتمسك بالوقائع . ولوتمان على حق حين كتب هذه الملاحظة فى مذكراته : " بعيداً عن أن يكون بلا أية حساسية فهو شغوف بالطلق وبالحيقة " (لوتمان ، ١٩٧٨ : ٢٢٥) . فى حين أنه فى نص كامو تقع الحقيقة فيما وراء الأيديولوجية : فيما وراء هذه الثنائيات المانوية . وفيما يخص هذا الموضوع فإن " الغريب " يمكن قراءتها على أنها تجسيد لهذه الموضوعية الجديدة التى ورد ذكرها فى أسطورة سيزيف : " هنا حيث يسيطر وضوح الرؤية ، يصبح سلم القيم عديم الفائدة " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٥ ، ١٤٤) .

والأيديولوجيون لا يحتملون هذه الرؤية الواضحة الجديدة الموضوعية (" العلمية ") النابعة من أزمة القيم واللغة . وسنرى أنها ستلعب دوراً هاماً فى رواية روب جرييه .

د - لامبالاة وبنى سردية .

فى هذا الوصف لبنية " الغريب " السردية ، نحن بصدد توضيح التعارض بين اللامبالاة والأيديولوجية على المستوى السردى وإظهار كيف نشأت القسمة الثنائية للرواية من هذا التعارض الأساسى .

إن أعمال تودوروف وبخاصة أعمال جريماس تسمح باعتبار البنية الدلالية أساس القص . فى هذا السياق فإن أى وصف للامبالاة الدلالية فى

"الغريب" تؤدي إلى التساؤل حول كيف يظهر تفكيك " القاعدة " الدلالية (للتصنيف والشفرة) على مستوى " البنية الفوقية السردية " . (إن استخدام هذين المفهومين الماركسيين المعروفين تماماً ، ليس له أى دخل باللعب على المعانى المجازية : إن منظرين على قدر من الاختلاف مثل پيشو M . Pê- cheux ، شاف A.Schaff وهليداى M . A . K . Halliday أكدوا مراراً على فكرة أن المصالح والصراعات الاجتماعية تظهر على الأخص على المستوى الدلالي ، وأنها تتخلل الخطاب على المستوى الدلالي .) (انظر على سبيل المثال پيشو ، ١٩٧٥ : ١٤٥ - ١٩٤) .

إن أساس الذاتية يتزعزع فى عالم دلالي تكف فيه الاختلافات والتعارضات عن الالتصاق (أو المصداقية) حيث تفقد ثنائيات مثل الحب / الكراهية ، العدالة / الظلم أو الإخلاص / الخيانة دواعى وجودها . تصبح الذات مشكوكاً فيها على مستوى الفعل وعلى مستوى التلفظ : مرسو بوصفه راوياً لا يعترف بأى قيمة (بأى تعارض) ثقافية ، ولن يتمكن بالتالى من تأسيس خطابه على نظير دلالي تكون من مفهوم (وحدة تصنيفية) مثل الحب ، العدالة ، الكراهية ، الإخلاص أو الخيانة .

ويتميز فى هذه النقطة بشكل جذرى عن رواية موزيل أو بروست أو كافكا أو سارتر الذين يبحثون كلهم وسط واقع مزدوج القيمة عن الالتصاق الحقيقى أو النظر الأصيل . مرسو بوصفه فاعلاً يظهر عاجزاً عن اختيار برنامج سردى معين (جريماس ، ١٩٧٦ أ) . ذلك لأنه داخل عالم تخيلى تظهر فيه القيم الثقافية وكأنها قابلة للتبادل ، من المستحيل تفضيل برنامج سردى واحد (بوصفه "قصاً حقيقياً") يفترض شفرة دلالية غير ملموسة تتكون من تعارضات واختلافات موضوعة بوضوح ، وعالم البطل اللامبالي تنقصه شفرة كهذه .

ولهذا وُصف مرسو فى بعض الأعمال الخاصة بدراسة السرد ، على إنه " لا - ذات " non - Sujet أو على إنه فاعل دون ذاتية ، أى بدون برنامج سردى وبدون موضوع : « الفاعل - الموضوع (A2) غير معروف . إنه يبدو

مستبعداً من النظام التركيبي حيث إنه لا وجود لبحث متخيل لدى مرسو الذى يعيش، مثل بعض الشخصيات الأخرى لدى كامو، " زمن الرغبة بدون موضوع " « (كوكيه Coquet ، ١٩٧٣ : ٥٧) . ويقابل غياب الموضوع، اختزال الذاتية: وكما قال كوكيه فإن مرسو ليس إلا " ذاتا فى الظاهر " .

إن إختزال الذات (الأنا الفاعلة) تعنى أن مرسو غير القادر على تشكيل برنامج السردى الخاص ، يمكن إدخاله فى أى برنامج يتصوره شخص آخر . إن مرونة ميرسو تظهر بوضوح فى مواضع حاسمة فى الرواية: مثلاً ، حين يقبل أن يُستخدم كشاهد (مساعد) للقواد ريمون المطارد من الشرطة لسوء معاملته لامرأة .

ويظل ميرسو لامبالياً وحائراً حين يسأله ريمون إذا كان يريد أن يصبح " رفيقاً له " : " أجبتة بأنه سيان بالنسبة لى : لقد بدا سعيداً " (كامو، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٤٦) . ويشهد فيما بعد فى قسم الشرطة، لصالح ريمون دون أن يكون لديه دافع لذلك وقد كان من الممكن بالمثل أن يفعل العكس .

ويعلل الراوى نفسه اللامبالاة كمقولة سردية ، كإمكانية لتبادل البرامج السردية ، وذلك فى نهاية الرواية ، فى اللحظة التى يبحث فيها ميرسو عن تبرير لموقفه إزاء الخورى : " لقد عشت بهذا الشكل وكان بإمكانى أن أعيش بشكل آخر [...] . لم يكن لأى شىء أية أهمية وكنت أعرف تماماً لماذا . هو أيضاً كان يعرف السبب " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١٢١٠) .

ويمكن قراءة الجملة الأخيرة على أنها إشارة إلى الامبالاة المستترة للآخرين . ويعرف تماماً الأيديولوجيون الذين ينادون فى الرواية بالإنسانية المسيحية ، أن اللامبالاة ليست ظاهرة معزولة ، إلا أنهم لا يمكنهم الاعتراف بهذا دون المخاطرة بتحقيق خطاباتهم هم أنفسهم . وفى الوقت نفسه يقيم النص المذكور ارتباطاً بين اللامبالاة والبنى السردية (النظم التركيبية المختلفة) : وهذه أيضاً تصبح تبادلية .

وهنا يمكننا أن نتساءل إذا كان من الممكن تحديد مُرسل في رواية كامو. هل من الممكن التحدث عن مرسل في وضع يكون فيه الفاعل - الذات ليس إلا (حسب كوكيه) " ذاتا في الظاهر " ؟ لا يجب إغفال أنه في علم السرد الجريماسي، هناك مفاهيم مثل: مرسل ، ذات ، ذات - ضد، موضوع وموضوع - ضد ، تشكل كلا (جريماس ، ١٩٧٦ أ) . ولأسباب تناسقية فإنه من المحال تحديد ذات دون تحديد مرسله في ذات الوقت.

وعلى هذا فهناك مرسل في نص كامو ، إلا إنه يحمل صفة مزدوجة القيمة، متناقضة. إن مرسل " الذات في الظاهر " ميرسو ، هو الطبيعة التي تظهر من خلال تعليقات الراوي ، كتوليف متناقض بين الشمس والماء: الماء يرمز للحياة في حين أن الشمس ترمز للموت .

وحيث أن مرسل ميرسو ليس تلك " السلطة الاجتماعية التي تكلف البطل بمهمة خلاص معينة " (جريماس) بل هو الطبيعة المزدوجة واللامبالية بجميع القيم الاجتماعية والثقافية ، فإن هذا يشرح تشيؤ البنية السردية ، لأن " المهام " المكلف بها ميرسو من جانب الطبيعة تبطل وتزول ولا يمكننا بالتالي التحدث عن " مهمة خلاص " أو عن " برنامج سردي " بالمعنى الجريماسي . وبرنامج كهذا يفترض تصميمياً واتساقاً اجتماعياً - دلاليًا. ولا نجد في حكاية ميرسو لا هذه ولا تلك : هذه الحكاية يحكمها القضاء والقدر وليست إلا تسلسلا لأحداث تحكمها الصدفة .

وحين يدافع ميرسو (مثل الدكتور ريو في " الطاعون ") عن الحياة والحب في مناقشاته الطويلة مع الخوري في السجن ، فإنه يتحدث باسم الطبيعة وينفي مصداقية بعض المفاهيم مثل " الشر " أو " الخطيئة " . وبشكل غير مباشر يضع خطابه ، الثقافة كما هي ، في موضع التساؤل. إلا أنه بقتله للعربي دون أي دافع ثقافي (سياسي أو ديني أو أخلاقي) فإنه يتصرف أيضاً باسم الطبيعة . فهو يخضع في الحالة الأولى لطبيعة يرمز إليها الماء ، وفي الحالة الثانية ، للطبيعة - الشمس . وفي جمعه بين مبدئين متناقضين (الحياة والموت ، الماء والشمس) يستسلم للتناقض.

وترتبط فى نص الرواية السببية القدرية التى يتلقاها ميرسو بقوى الطبيعة : الماء والشمس . إذا قرأنا بعناية الفقرات الأخيرة من الجزء الأول من الرواية نستنتج أن أفعال البطل تخلو من أية دوافع اجتماعية وأن دوافعها طبيعية بحتة، " بيولوجية " : " بسبب هذا الحرق الذى لم أتمكن من احتمالته أكثر من ذلك ، قمت بحركة للأمام ، وكنت أعرف أنه من الغباء أن أفعل ذلك وأننى لن أتخلص من الشمس بتغيير مكانى خطوة . ولكننى أقدمت على خطوة ، خطوة واحدة للأمام . وهذه المرة ، دون قيام ، انتزع العربى سكينه الذى قدمه لى فى الشمس . انزلق الضوء على الصلب وكان كأنه سلاح طويل لامع طال جبينى [...] . توتر كل كيانى وقبضت يدي على المسدس . طاوعنى اللسان، لمست البطن اللامع لمقبض المسدس وهنا ، فى الضجيج الجاف والمدوى بدأ كل شىء " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ ، ١١٦٨) .

وفى الوقت نفسه يتسنى للقارئ معرفة أن ميرسو يعود إلى الصخرة التى خيم عندها العرب لأنه يشعر بانجذاب للينبوع المتفجر منها ، لأنه كان يشعر برغبة فى " العودة لهمس مياحه " (١١٦٧) . ويظهر فى المشاهد الأخيرة الماء والشمس وكأنهما قوى محركة للأحداث .

إلا أن التصرفات الأخيرة للبطل تسيطر عليها تماماً الشمس والضوء ويغيب تأثير العنصر الإيجابى وهو الماء . وما يلفت النظر فى الفقرة المذكورة هو تشيؤ الفعل وذاتية الأشياء : " طاوعنى اللسان " ، " انزلق الضوء " الخ . ويعلل التصميم الواضح فى هذه الفقرة من النص التفسير القائل بأنه ليس ميرسو هو الذى يتصرف بل إنه مرسله الذى يتصرف بنفسه : وهو الشمس . وتظهر كوكبة من الأفعال تجد الذات نفسها فيها وقد تحولت إلى موضوع لأن المرحلة الأخيرة من الصراع لا تدور فقط فى المجال الطبيعى الذى يتحدى الخير والشر بل أيضاً يتعدى إرادة ميرسو . إن العناصر التى تحدد أفعاله الحاسمة هى الشمس والماء ، الموت والحياة وتشكل كلاً مزدوجاً ومختلفاً فى نهاية الأمر عن وجهة نظر نظام القيم الاجتماعى .

وتظهر الطبيعة لدى كامو ، بوصفها كلية متناقضة ، على أنها فاعل مزدوج القيمة ، ككل لا مبالٍ بكل القيم الثقافية . الطبيعة الإنسانية التي يصورها كامو هي هنا وقبل كل شيء طبيعة (بالمعنى البيولوجي للكلمة).

إلا أننا إذا حاولنا إحالة التحليل الاجتماعي إلى التضاد طبيعة/ثقافة فإننا نجد بذلك الرواية من أحد مظاهرها الأساسية . وهذا التعارض الذي يتحكم في بنية الرواية على المستوى الدلالي ، من الواجب شرحه في إطار سياق اجتماعي لغوي واقتصادي سبق أن رسمنا خطوطه العريضة . وتظهر الطبيعة في إطار هذا السياق وكأنها تصوير أسطوري لقيمة التبادل . وليس صدفة أن يعتبر ماركس قوانين السوق وكأنها طبيعية Na-turwüchsig (ماركس ، ١٩٧١ : ٣٦١) .

وفكرة وجود ارتباط بين الطبيعة وقيمة التبادل (المال) توحى بها الرواية وتجعلها مقبولة وبخاصة من خلال حكاية التشيكوسلوفاكي التي قرأها ميرسو وأعاد قراءتها مرارا وهو في السجن . على المستوى المجازي (المجاز المرسل Synecdochique) يمكن قراءتها على أنها تمثيل الكل في الجزء Pars pro toto للرواية بأكملها : شاب ولد في بوهيميا ترك بلاده سعياً وراء جمع الثروة في الخارج . وبعد خمسة وعشرين عاماً ، بعد أن حقق ثروة وكون أسرة ، يعود إلى بلده ويتوقف في قريته التي ولد فيها حيث تمتلك أمه وأخته منزل ضيافة . ولكي يفاجيء المرأتين أكثر ، ترك أسرته في منزل ضيافة آخر وأجر ، دون أن يتعرف عليه أحد ، غرفة لدى أهله : " من باب التفكه خطرت له فكرة تأجير غرفة لديهن . أظهر لهن نقوده . في الليل قتلت أمه وأخته بضربات مطرقة بهدف سرقة ورمته بجثته في النهر " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٨٢) . وحين تكشف لهن زوجة القتل هويته ، تشنق الأم نفسها وتلقى الأخت بنفسها في بئر .

ويمكن أن نستنتج ثلاثة تشابهات بين هذه الحكاية الأمثولية وبين نص الرواية تشمل:

١ - يستبدل بمقتل الابن مقتل الأم - المفترض - والذي يلوم المحامي العام ميرسو عليه . ونلاحظ عكس الأدوار الفاعلة التي أقامها قص الرواية . هذا العكس يمكن شرحه في ضوء فكرة الصدفة التي تلعب دوراً هاماً في الحكاية " التشيكية " وفي الرواية ككل : القائمون بالفعل وأفعالهم تصبح تبادلية فيما بينها ولامبالية .

٢ - في حكاية " الابن المفقود والعاثد " المال بوصفه قيمة تبادل ، هو المحرك الوحيد .

٣ - المال هو مُرسِلِ القصة الأمثولية ويقوم بوظيفة مماثلة لوظيفة الشمس والماء : ميرسو يهرب من الشمس ويسعى وراء الماء . في حكاية التشيكوسلوفاكي ، الأم وابنتها تسعيان وراء المال (وليس صدفة أن يعمق كامو هذه الحكاية بعد سنوات في مسرحيته " سوء التفاهم " Le Malentendu (١٩٤٤) حيث تقتل مارتا وأمها الابن القادم المجهول . حتى ابن البيت يتحول في عيون مارتا إلى شريك اقتصادي : " الابن الذي سيدخل هنا سيجد ما يمكن لأي زبون أن يحصل عليه : لامبالاة رؤوفة " (كامو ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٢ : ١٣٩) . ويبرر هنا نص كامو نفسه العلاقة بين قانون السوق واللامبالاة . ومن الغريب أن النقد لم يحاول أبداً قراءة الرواية بدءاً من القصة الأمثولية وفي ارتباطها مع " سوء التفاهم " - الصادرة في نفس هذه الفترة).

أوجه الشبه بين الحكاية التشيكوسلوفاكية والنص الروائي تميل إلى تأكيد الافتراض القائل بأن لامبالاة الطبيعة (الشمس والماء) تلتقى مع لامبالاة قيمة التبادل . ومن المهم في هذا السياق توضيح أن الراوي يتحدث هنا عن حكاية " طبيعية " : " هي من ناحية حكاية غير مشابهة للحقيقة ومن ناحية أخرى طبيعية " (كامو ، ١٩٤٢ ، ١٩٦٢ : ١١٨٢) .

في هذا المنظور لا يظهر التوسط عبر قيمة التبادل على أنه فقط الحقيقة الدلالية الحاسمة للرواية بل أيضاً على أنه الدافع السردي الأساسي للجزء الأول من القصة المحكوم بسببية متشينة خارج إرادة أو عزيمة أصحاب

الفعل . الصدفة الطبيعية هي في الوقت نفسه طبيعية Naturwüchsig بالمعنى الماركسي للمصطلح. (وسنرى أن هذه الحتمية " الطبيعية " ستتخذ أهمية خاصة في " المتلصص " Le Voyeur لآلان روب جرييه .).

إلا أن هذا الشرح للسببية السردية للجزء الأول من الرواية لا ينطبق على الجزء الثاني منها حيث أن القوة المحركة فيها ليست لامبالاة السوق (التشيؤ) ، بل الأيديولوجية: الخطاب الأيديولوجي.

إن ممثلي العدالة (الذين يظهرون هنا كفاعل جماعي وذات - ضد ، كمعارض لميرسو) لا يمكنهم قبول التشيؤ والصدفة النابعين من لامبالاة السوق . ويضعون في مقابل هذه اللامبالاة وهذه السببية العمياء اتساق وغائية Téléologie الخطاب الأيديولوجي.

إنهم يجعلون من ميرسو ذاتا مسئولة تتحرك داخل إطار برنامج سردي باسم بعض القيم السلبية : باسم الشر . وهم أنفسهم يتحركون باسم مرسل - ضد ثقافة الذي يتعارض في الرواية ككل مع المرسل طبيعة (الخاص بميرسو).

ويؤكدون في الوقت نفسه مبدأ لويس ألتوسير القائل بأن " الأيديولوجية تنادي الأفراد كذوات " (ألتوسير ، ١٩٧٦ : ٨٤) . ولا يمكن لميرسو أن ينادي عليه ، أن يُدان ويعاقب إلا بوصفه " ذاتا مسئولة و " ذاتا شريرة " .

إن تفسير ميرسو (البسيط والحقيقي في نفس الوقت) " إنه كان بسبب الشمس " هو غير مقبول لدى الأيديولوجيين الذين يرفضون الاعتراف بأن الطبيعة هي مرسله الحقيقي . ويستبدلون بالطبيعة مرسلًا تخييلياً ، سلطة اجتماعية سلبية: الشر . وهكذا يعيدون تفسير السببية الطبيعية (العمياء) للجزء الأول من الرواية في إطار الثقافة والأيديولوجية.

وهكذا نفهم لماذا تنقسم الرواية إلى مقطعين سرديين مستقلين: الأول تسوده اللامبالاة الدلالية وهالته السردية السببية المتشيئة، وتستبدل بهذه في الثاني القص الأيديولوجي للعدالة الذي يعلله بدوره وينتقده الراوي اللامبالي.

وحيث إن الراوى يعيد إنتاج خطاب المحامى العام ، الذى يتم تعليقه من منظور اللامبالاة فهو يساهم فى التشكيك فى الأيديولوجية على المستوى السردى . ولا يدافع ميرسو عن نفسه فى تعليقاته ، إن تعليقه يكاد يكون علماً ، تأويلياً ، فهو يسعى إلى فهم وجهة نظر المحامى العام : " لقد وجدت أن أسلوبه فى رؤية الأحداث لا ينقصه الوضوح . إن قوله معقول " (كامو، ١٩٤٢، ١٩٦٢: ١١٩٦).

إلا أن القارىء يعرف أن الوضوح والمعقولة وتجانس خطاب العدالة لا علاقة له على الإطلاق بالحقيقة والوقائع الواردة فى الرواية . إن سخرية الراوى الذى يعترف بوضوح ومعقولة الخطاب المدين له تساعد على كشف الأيديولوجية كبناء سردى عرضى ، اعتباطى ، والذى يتناسب تجانسه ودوجماتيقيته بشكل عكسى مع قيمته الإمبريكية والحوارية (انظر الفصل ٤ ، ب) .

وبشكل موازٍ للقصة الأيديولوجية للعدالة، يوضع قص رواية القرن التاسع عشر التقليدية فى موضع التساؤل . ويتم عن طريق شخص البطل اللامبالى والذى ليس إلا ذاتا فى الظاهر دون إرادة ودون هدف (دون موضوع) وبدون برنامج سردى ، المحاكاة الساخرة لطموحات وأهواء ومآثر الأبطال الروائيين مثل جوليان سوريل ، فيرتر ولوسيان دي روبامبيريه وحتى فريدريك مورو . وربما نفهم فى السياق النظرى الموضح هنا أن هذا النقد للرواية التقليدية لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء وضع اجتماعى - لغوى معين (حيث تفقد الكلمات - القيم معانيها) وبالمقارنة مع نقد الخطاب الأيديولوجى (الإنسانى - المسيحى) . إن نقد هذا الخطاب الرافض أن يأخذ فى الاعتبار أزمة اللغة والسرد يتضمن بالتالى نقداً للرواية التقليدية ولراويها: الواثق للغاية من نفسه ومن الواقع الذى يصفه بإشارة متعالية .

ويعود هنا التحليل إلى نقطة البداية: "الغريب"، يمكن قراءتها على أنها تجسيد للصدام بين لامبالاة السوق والثنائىة (المانوية) الأيديولوجية. ويقابل

هذا التضاد الاجتماعي بين السوق والأيدولوجية، التضاد الأسطوري - المفترض من كامو - بين الطبيعة والثقافة.

ويشكل هذا التعارض، في أعمال كامو، نقطة البداية لنقد جذري للتاريخ بالمعنى المزدوج للكلمة: للقص التاريخي (المسيحي أو الماركسي) الذي يسعى إلى فرض معنى لتطور الإنسانية، وللقص الأيدولوجي عموماً الذي يصور نفسه على أنه طبيعي ومطابق للواقع. ويضع كامو في مقابل حكاية الأيدولوجيين "فكر الظهيرة" *Pensée de midi* النابع من الفكرة الأساسية بأن العالم والطبيعة لامباليان بالروح وبالثقافة وبالتاريخ وبالحكايات الأيدولوجية: "العالم جميل ولا خلاص البتة خارجه. الحقيقة الكبرى التي تعلمتها منه بأنها هي أن الروح لا شيء ولا حتى القلب، وأن الحجر الدافئ بفعل الشمس أو السرو الذي يكبر تحت السماء المكشوفة هما حدود العالم الوحيد الذي يأخذ فيه "الحق" معنى واحداً: الطبيعة بدون بشر" (كامو، ١٩٦٥: ٨٧).

وإذا انطلقنا من تحليل "الغريب" والتعارض البناء طبيعة / ثقافة، نفهم بشكل أفضل لماذا كان على كامو أن يرفض، بموازاة مع التاريخ المسيحي تاريخ الماركسيين أو "الماركسيين اللينينيين"، وعلى غرار المسيحية فإن الماركسية أيضاً تخضع الإنسان (الفرد) لقوانين مفروضة من الخارج: للغائية التاريخية: "من التبشير وحتى يوم الحساب، ليست للإنسانية مهمة أخرى إلا أن تمتثل للغايات الأخلاقية التي كتبت عليها" (كامو، ١٩٦٥: ٤٧٨). هذا "المكتوب" الذي لا يراعى لاسعادة ولا حياة البشر، هو أيضاً نفسه لدى الماركسيين الذين يخضعون الفرد لغائية دنيوية. إنه نفس رواية المحامي العام الذي يسعى إلى فرض ذاتية ما، برنامج سردي وغائية ما على فرد لا يعرف إلا لامبالاة وصدف الطبيعة.

وفي نقده للإنسانية المسيحية والماركسية، يتغنى كامو بالطبيعة الإنسانية، بالحياة الإنسانية باختصار بالحياة. ويتبنى في هذا فكرة

أساسية فى فلسفة نيتشه . وبالطبع فإن بيانكا روزنتال على حق فى تأكيدها فيما يخص نيتشه وكامو أن : " فكر الاثنين يتجه إلى العالم ، وأن الحياة هى القيمة العليا بالنسبة لهما [...] " (روزنتال ، ١٩٧٧ : ١٦) .

وعلى الرغم من أن نقد كامو للغائية المسيحية والماركسية مقبول فى بعض جوانبه إلا أن له عيباً هاماً : إنه لا يتأمل فى نشأته فى إطار وضع اجتماعى - تاريخى ولغوى معين يظهر فيه مفهوم الطبيعة على أنه تعبير استعارى وكنائى على حد سواء لقيمة التبادل . ولا يمكن اعتبار اكتشاف كُتَّاب مثل نيتشه أو هسه أو كامو " الطبيعية " على أنه حدث تلقائى : ويُفسَّر ، بوجه آخر ، فى ضوء أزمة نظام القيم الثقافى واللغوى .

ومع استنتاج هذا النقص التأملى لدى كامو فإن نظرية نقدية ستسعى إلى تجنب الثنائية الأيديولوجية واللامبالاة النابعة من التوسط وستتخذ كنقطة بداية الازدواج الداخلى للقيم الثقافية والدلالية وستسعى لبدأ حوار حول عقلانية بعض الأحكام القيمية . وبعض الكلمات - القيم مثل " الحرية " أو " العدالة " أو " العقلانية " يمكن أن تكون مزدوجة القيمة ومتناقضة وإشكالية ، إلا أنها على الرغم من ذلك لا تخلو من المعنى .

ه - ملاحظات منهجية : " الغريب " لرينيه باليبار

فى إطار المنظور الاجتماعى المطروح هنا لا نهدف تحديداً أحادياً ، للأيديولوجية أو رؤية العالم للنص بل نهدف إلى توضيح فى أى وضع اجتماعى ولغوى نشأ ، بتعبير آخر : المقصود هو وصف وشرح إنتاجه فى إطار بعض الظروف التاريخية . وسنرى فى الفصل الأخير المخصص لعلم اجتماع القراءة ، أنه من غير الممكن فهم التلقى (رد فعل مجموعة من القراء) دون دراسة النشأة الاجتماعية - اللغوية .

إن التفسير الاجتماعى المطروح هنا له صفة مساعدة على المعرفة Heuristique . إنه لا يستبعد القراءات المتباينة التى تأخذ فى اعتبارها أن الرواية هى مجموعة من البنى الدلالية والتركييبية . وهذه القراءات ليست كثيرة لسوء الحظ .

التحليل الاجتماعي المطروح من جانب بريان فيتش Brian T . Fitch
مثلا ، يبدو لي مشكوكاً فيه جداً حيث إنه يقصر الرواية على بعدها المرجعي،
الوثائقي. وهو في هذا لا يذهب إلى أبعد من علم اجتماع المحتويات الذي
يتعامل مع النصوص الأدبية على أنها وثائق تاريخية : " إن موضوع الدراسة
الاجتماعية هو بالطبع ، المجتمع الذي يجسده الروائي ، بمعنى العالم الذي
يتحرك فيه البطل " (فيتش، ١٩٧٢ : ٤٩) .

ومحاولة قراءة "الغريب" على أنها تصوير للمجتمع الجزائري هي قراءة
اختزالية : لا تأخذ في الاعتبار البنية الدلالية والسردية للرواية وتهمل تماماً
العلاقات النصية بين " الغريب " و "أسطورة سيزيف" و " سوء التفاهم " ، الخ.
كما تهمل أيضاً الوضع الاجتماعي اللغوي للأدب الفرنسي المعاصر .

ويبدو لي التناول الذي تنادى به رينيه باليبار أكثر خصوبة حيث تحلل
"الغريب" في إطار المؤسسات الأدبية والمدرسية . وتوضح كيف تدخل بعض
العمليات الأسلوبية التي تدرس في المدارس في الأدب وكيف يؤثر الأدب
بدوره تأثيراً هاماً في تعليم اللغة في المدرسة (انظر الفصل ١ ، ٤ ، أ) .

فيما يخص "الغريب" ، يبدو لي أنه من الممكن تلخيص الحجج
الأساسية لباليبار في عدة جمل: التعارض البنائي الذي يشرح لغة هذه
الرواية هو بين التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي . في إطار هذا التعارض،
تسعى باليبار إلى توضيح الوظيفة المؤسسية والأيدولوجية للماضي المركب
الذي يميز خطاب الراوي . كماو بتفضيله للماضي المركب يحمي لغة التعليم
الابتدائي في مواجهة التعليم الثانوي ، والجامعي والأدب المقنن . وتحدث
باليبار فيما يخص هذا عن قلب لعلاقات السيطرة بين فرنسية الأدب وفرنسية
التعليم الابتدائي لحساب هذا الأخير (باليبار ، ١٩٧٤ : ٢٩٠ - ٢٩١) .

هذا القلب له في "الغريب" ، كما قالت باليبار ، بعد نقدي حيث أنه
يضع الأسلوب الأدبي الرفيع موضع التساؤل ويساهم في التحويل
الديمقراطي للإنتاج التخيلي . ولكنه يحمل أيضاً بعداً محافظاً لأنه يولد

وهماً جديداً : ألا وهو فكرة وجود أسلوب طبيعي وأن الروائي بإمكانه التعبير عن نفسه بنفس أسلوب رجل الشارع . إلا أن باليبار تبين أن لغة كامو " الطبيعية " (الماضي المركب) هي في الواقع أسلوب أدبي رفيع وأنه يوجد في " الغريب " ، إلى جانب الماضي البسيط " الصعب " ، صور أسلوبية على قدر من التعقيد .

على الرغم من أهمية مدخل باليبار الذي له فضل إظهار الوظيفة الأيديولوجية لبعض الأشكال النحوية، إلا أنه يعاني عيباً أساسياً : في اهتمامه بالشكل النحوي الخاص (مثل الماضي) فهو يهمل المستوى الخطابي . في حين أنه يبدو لي مستحيلاً ربط النص الأدبي بالوضع الاجتماعي - اللغوي وشرح بنياته (الدلالية والسردية) إذا تخطينا المستوى الخطابي .

ولا يكفي استنتاج أن الأسلوب الأدبي لـ " الغريب " يشكل جزءاً من المؤسسة الأدبية " البورجوازية " وأن الماضي مظهر من مظاهر الأسلوب المؤسسي : " الماضي المركب التخيلي لـ " الغريب " كما يظهر تصويرياً ، متماثلاً مع النبوغ الأدبي لكامو ، هو عنصر من عناصر الواجهة الأيديولوجية الأدبية ، هو تشكيل للتوفيق في العمل التخيلي بين التصويرات المثالية وبعض استخدامات الفرنسية المدرسية الحاملة للمصالح الطباقية " (باليبار، ١٩٧٢ : ١٠٦ - ١٠٧) . والمقصود طبعاً هو المصالح الطباقية البورجوازية .

وحيث أن معظم الأدب الحديث تقريباً " بورجوازي " ، يبدو ضرورياً التلويح والتساؤل عن أية لهجات جماعية وأى خطابات (ليبرالية، فاشية، إنسانية - اشتراكية أو إنسانية - مسيحية) استوعبتها الرواية . ويبدو لي عقيماً إلى حد ما وصف جميع الأساليب في الأدب المؤسسي " بالبورجوازي " كما لو أنه ليس هناك فرق أيديولوجي بين الخطاب الكلاسيكي لشارل موراس والخطابات الرومانسية أو الرومانسية الجديدة . (إن علم اجتماع النص حين يحلل الصحافة اليومية والأسبوعية، يهتم أيضاً بالاختلافات الخطابية والخاصة باللهجات الجماعية : بين الفيجارو ولوموند، أورور وفرانس - سوار،

مينوت وليبيرا سيون. إن التحدث - مع لومانيتيه - عن الصحافة البورجوازية
عموماً يعتبر عقيماً من الزاوية النظرية.

والأسوأ من هذا العجز عن فهم السياق الاجتماعي - اللغوي
المتناقض، تلك الاستحالة المنهجية لشرح بنية الرواية. رينيه باليبار بقصرها
التحليل على الشكل النحوي وحده، الماضي المركب، لا تتمكن من شرح العالم
الدلالي لـ "الغريب" ولا تعاقباته السردية المختلفة ولا قسمته إلى جزئين. جميع
هذه العناصر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوضع الاجتماعي - اللغوي (بأزمة اللغة)
وبنية اللهجة الجماعية الإنسانية - المسيحية (لنص الغائي "المكتوب
مسبقاً") التي استوعبتها الرواية على مستوى التناص.

ولا تعنى هذه الملاحظات النقدية أن المنظور المطروح من جانب باليبار
مبتذل أو يمكن الاستهانة به. بالعكس: في حديثه عن اللهجات الجماعية
والخطاب، يجب على علم اجتماع النص أن يضع في حسبانها (أكثر مما
سبق) المظاهر المؤسسية للغة. عليه دائماً أن يسعى إلى الحوار مع منظرين
أمثال باليبار أو دوبوا أو بورديو.

٧ - نحو علم اجتماع للرواية الجديدة :

"المتلصص" Le Voyeur لالان روب جرييه

إن الرواية الجديدة، أكثر من روايات النصف الأول من القرن
العشرين، تفكر في خطابها الخاص وبنياتها النصية. وتستكمل بهذا
حركة نقدية ونقدية ذاتية بدأتها روايات بروست وجويس وكافكا وموزيل.
ويصر ممثلون لاتجاهات مختلفة في الرواية الجديدة مثل جان ريكاردو
وميشيل بوتور، في تحليلاتهم النظرية، على الصفة الانعكاسية لرواية
الطليلة: "الرواية تميل بطبيعتها ويجب أن تميل إلى توضيح نفسها [...]"
كتب ميشيل بوتور في مقابلة بين الكتابة الانعكاسية والنقدية وبين الأشكال
التقليدية "التي لا يمكنها أن تعكس نفسها وإلا أظهرت على الفور أنها غير
مناسبة وكاذبة [...]" (بوتور، ١٩٥٥، ١٩٦٠: ١١). بعد ذلك بكثير

وفى سياق مختلف ، ينقد جان ريكاردو ما يسميه عقيدة التعبير - التصوير مناديا بأدب واعٍ بإنتاجه النصي ، واعٍ بأنه لا يصور واقعاً شفافاً ولكنه ينتج نماذج لهذا الواقع على المستوى اللغوي : " جاعلة إذن من الكاتب صاحب "شيء يُقال" ، وتحجب عقيدة التعبير - التصوير الجامدة النص والأعمال الدقيقة التي تنتجها " (ريكاردو ، ١٩٧١ : ٢٢) .

إن النغمة غير الذاتية والموضوعية للروائي لم تعد مقنعة فى مجتمع أصبح فيه أى خطاب يدعى تطابقه مع الواقع مشبوها . وحين تُكتشف عرضية النص ، يختفى الإيمان بالـ " حكاية الحقيقة " ويفقد القارئ المحبط سذاجته من فرط الاستخدام السيء التجارى والسياسى للغة ، ويبدأ فى البحث عن أصل القصة وموضوعها . وهنا يجب على الروائي الذى يتكلم بسذاجة ، دون أن يكشف عن وجوده ودون التفكير فى وجهة نظره ، أن يواجه شكوك القارئ : « ويبدو له أنه يسمع القارئ ، الشبيه بالطفل الذى يستمع لأمه تحكى له لأول مرة حكاية ، يستوقفها متسائلاً : " من قال هذا ؟ " » (ساروت ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٦ : ٨٤) . وهذا السؤال يحيلنا إلى السؤال الذى ينهى كتاب " درجات " Degrés لميشيل بوتور : " من يتكلم ؟ " .

أى علم اجتماع للرواية الجديدة وأى تحليل اجتماعى لرواية روب جرييه أو بوتور يجب أن يأخذ فى اعتباره هذه المسائل الدلالية والسردية التى ي طرحها الروائيون أنفسهم . فى الماضى كان علم اجتماع الأدب يقفز فى معظم الأحيان العتبة اللغوية ليقوم علاقات مباشرة بين الموضوعات وشخصيات العالم الروائى و " الواقع " (المتماثل مع تصوير اجتماعى معين للواقع) .

واستمراراً للملاحظات النقدية للجزء السابق أود أن أعود إلى تحليل " المتلصص " Le Voyeur الذى قدمه جولدمان فى كتابه " من أجل علم اجتماع للرواية " . وينطلق جولدمان من الفكرة (التى ناقشناها فى الفصل السابق) القائلة بأن روايات روب جرييه تشهد على التشيؤ فى المجتمع

الرأسمالى المتطور حيث تُلقى الاستقلالية والمبادرة الفردية . فى " المتلصص" ، نجد أن جريمة القتل التى يرتكبها المسافر ماتياس فى جزيرة وهمية لا تثير أى رد فعل لدى السكان السليبين الذين يتركون القاتل يهرب متخفياً : " فى الحقيقة ، جريمة القتل هذه ، مثلها مثل فى " المحاولات " ، تدخل فى نظام الأشياء وحيث إن الفتاه الصغيرة المقتولة لا تشبه بقية سكان الجزيرة وتمثل عنصر تلقائية وعدم نظام فإن اختفائها يصل إلى حد أن يكون تخفيفاً عنهم" (جولدمان ، ١٩٦٤ : ٣١٢) . ويستبدل بنشاط الأفراد ، الأساسى فى رواية القرن التاسع عشر ، التنظيم المجهول للأشياء والذى " يتناسب " مع الترتيب الذاتى للرأسمالية الاحتكارية للدولة .

فى ملاحظتين هامشيتين تاليتين للنص الأساسى - يسعى جولدمان إلى أخذ تعدد معنى النص فى الاعتبار مع التأكيد على أن : " تلقائية " الفتاة ليست لها إلا قيمة حكائية وأن المقصود فى حالة القتل " هو فعل شىء خيالى بحت " (جولدمان ، ١٩٦٤ : ٣١٣) .

وبعيداً عن التساؤل فيما إذا كان ماتياس (المسافر) قتل أو لم يقتل الفتاه ، فإن الملاحظات التى أضافها جولدمان تبين شكاً أساسياً يشف عن نقطتى ضعف فى هذا المنهج الاجتماعى :

١ - إنه من المستحيل وغير المفيد ملء الفجوات واختزال الالتباسات النصية ، حيث الأولى بعالم الاجتماع أن يشرح تعدد وكثرة معانى النص .

٢ - التحليل الاجتماعى لا مقام له على المستوى المرجعى حيث تحيل "سلبية " الأبطال بشكل مباشر إلى سلبية الأفراد فى تشكيل اجتماعى - تاريخى معين .

منطلقاً من العلاقة المرجعية يحدث المنظر قطعاً يستبعد كل ما هو مهم فى الرواية : المصادقية والبنية الدلالية والمستوى اللفظى ووضع الراوى والبنية الفاعلية . إلا أن النص الروائى أو الدرامى (ونعنى هنا التحليل الأورنى لـ " نهاية حفلة " Fin de Partie) لا يمثل تطوراً اجتماعياً : فهو ينشأ فى وضع

اجتماعى ولغوى معاً معبراً عن مشاكل اجتماعية أو تناقضات اجتماعية على مستوى اللغة . ويبدولى أن چاك لينارد محققاً فى تحليله للبنية الدلالية " للغيرة " قبل الدخول فى التفسير الاجتماعى (لينارد، ١٩٧٣).

ومن الواضح أن عالم الاجتماع لا يستطيع الامتناع عن تفسير الوقائع الاجتماعية سواء كانت أدبية أو قضائية أو تاريخية : إن النصوص القضائية والأحداث التاريخية هى أيضاً قابلة للتفسير مثلها مثل الإنتاج التخيلى، حتى إذا كانت معانيها المتعددة من مقام مختلف. إلا أنه لا يمكن أن ينكر المظهر الأساسى للرواية أو الدراما أو القصيدة ألا وهو : الكتابة . ولأن بعض علماء الاجتماع اعتقدوا أنهم من الممكن أن يتخطوا العتبة اللغوية، فقد استطاع البعض الآخر إثبات استحالة التحليل الاجتماعى لقصيدة متعددة المعنى أو تأويلية (ليفريد ، ١٩٧٢ : ١٧٥) . وتظهر هذه الاستحالة كأسطورة بمجرد أن يستبدل بعلم الاجتماع المتجه للمستوى المرجعى علم اجتماع للنص .

أ - الوضع الاجتماعى - اللغوى: متابعة

كثيراً ما جرى الحديث ، فيما يخص روب جرييه عن أساطير. أسماء أعلام وانعكاس الرواية داخل الرواية نفسها Mises en abyme وعن استعارات وعن إنسانية ، وتشهد ندوة سيريزى فى ١٩٧٥ على ذلك . ولم نتساءل الآن عن الدور الذى يمكن أن تلعبه أزمة اللغة فى رواية مثل "المتلصص" حيث تتفكك الخطابات أحياناً فى التناقض أو عدم التجانس . ولقد كثر الحديث عن الأيديولوجية ونقد الأيديولوجية لدى روب جرييه : إلا أن المقصود هو معرفة أية أيديولوجية جماعية (أية لهجة جماعية وأى خطاب) يتم نقدها فى "المتلصص" ومن أية وجهة نظر.

ومع طرح هذه الأسئلة ، يبدولى من غير المجدى الانطلاق من الفكرة (المتلقاة) أنه هناك تيار أدبى متجانس يسمى " رواية جديدة Nouvau Roman ومعرفٌ على المستوى النظرى مثل ، على سبيل المثال، " الشكلية

الروسية " أو " الدادائية " . فى مقارنة " للتحول " La Modification لبوتور مع " المتلصص " Le Voyeur لروب جرييه نلاحظ من الوهلة الأولى أننا بصدد نصين متباينين تماما ، يقترب فيه الأول أكثر من " البحث " لبروست أكثر من بعض " الروايات الجديدة " الأخرى . وكان رولان بارت من أوائل من أصروا على هذا الاختلاف : «الرواية الأخيرة لبوتور ، " التحول " تبدو بالتفصيل عكس أعمال روب جرييه» (بارت ، ١٩٦٤ : ١٠٢).

ويبدو لى فيمايلى أنه من الأهم أن أبين كيف يستعيد روب جرييه ويطور بتفاعله مع أزمة اللغة، بعض الأفكار والتقنيات التى أدخلها بونچ وكامو وكتاب الطبيعة السورالية (بروتون) والمستقبلية (مارينتى). والمقصود هو إظهار أنه هناك علاقات واستمراريات تمر عن طريق " المدارس " و " الحكايات " و " التيارات " التى لها فى كثير من الأحيان أصول أيديولوجية أو تجارية.

إن النقد الذى يوجهه روب جرييه لسارتر وكاموفى " من أجل رواية جديدة " يمكن أن يستخدم كنقطة انطلاق لمقارنة كتابتين روائيتين متعارضتين على ما يبدو . وفى تعليق انتقادى على الأدق ، يعاتب روب جرييه : الكتاب " الوجوديين " على استكمالهم للتقليد الإنسانى عن طريق تطوير أسلوب " ذى توجه إنسانى " Anthropomorphe ، ويتجه إلى إدراك الذات الإنسانية وإلى المشاركة الإنسانية مع الواقع ومع الأشياء. وفيما يخص " الغريب " والعبث الذى من المفروض أنه يعبر عنه ، كتب روب جرييه : " العبث هو إذن شكل إنسانى مأساوى . هو ليس معاينة الفصل بين الإنسان والأشياء . إنه جدال حب يودى إلى جريمة عشق . العالم متهم بتواطئه فى جريمة قتل " (روب جرييه ، ١٩٦٣ : ٧١).

وليس المقصود هو معرفة ما إذا كان تفسير روب جرييه لـ " الغريب " صحيحاً أم لا (وبما أن الطبيعة بوصفها مرسلأ Destinateur تتسم باللامبالاة وبالمثل ميرسو بوصفه ذاتا، من الممكن التشكيك فى إمكانية تسمية

حدث يرجع للصدفة بـ " جريمة عشق " . والمقصود هو شرحه فى علاقته مع التطور الاجتماعى - اللغوى الذى يميل إلى زيادة اللامبالاة الدلالية وإلى ازدياد جميع الكلمات - القيمة (مثل الحقيقة ، العدالة ، الحب) وجميعبنى الدلالية والتركيبية المعبرة عن معان أخلاقية أو سياسية أو ميتافيزيقية. كيف نشرح نقد روب جرييه لرواية كامو؟

التعارض فى " الغريب " بين الأيديولوجية واللامبالاة ، بين المعنى واللامعنى له وظيفة بناءة (انظر الفصل ٤ ، ٦ ، د) : الخطاب الأيديولوجى المسيطر على الجزء الثانى من الرواية هو تأكيد دوجماتيقى لمعنى معين. وفى الوضع الاجتماعى - اللغوى الذى عاشه روب جرييه فى السنوات العشر التالية للحرب العالمية الثانية (صدرت رواية " المتلصص " فى ١٩٥٥) ، فقدت اللهجة الجماعية المسيحية - الإنسانية وخطاباتها مصداقيتها حتى بوصفها مواضع للنقد . وينطبق هذا على جميع اللغات الجماعية الأخرى التى تنادى بالإنسانية باسم الاشتراكية أو الليبرالية أو الراديكالية . وفى هذا الوضع فإن الروائى ليس بإمكانه إلا رفض " لغة مريضة " (سارتر) بأكملها ، حطمها التسويق والصراعات الأيديولوجية .

لم يعد مهماً بالنسبة لروب جرييه الاختيار بين أيديولوجيات متعارضة متعددة ، بين التشاؤم والتفاؤل : " المشكلة لم تعد الاختيار بين وفاق سعيد وتضامن تعيس . هناك من الآن فصاعداً رفض لأى تواطؤ " (روب جرييه ، ١٩٦٣ : ٨١) . ونتذكر أن سارتر تحدث فيما يخص بونچ عن " رفض التواطؤ " ، (سارتر ، ١٩٤٧ : ٣٨) عن رفض نقدى حاولت أن أشرحه فى ضوء الإفراغ التدريجى للغة من معناها وازدياد اللامبالاة الدلالية فى مجتمع السوق .

بالرغم من جميع الاختلافات التى تفصل روب جرييه عن كتاب مثل كامو وبونچ فهو يستكمل جهودهم لتخليص الكلمة من الخطابات الأيديولوجية والتجارية التى أفسدتها . ويمكن أن يتفق مع ما يطرحه كامو فى " أسطورة سيزيف " : " إن الأحكام القيمية تطرح هنا جانبا لحساب أحكام الواقع .

على فقط استنتاج النتائج مما تمكنت من رؤيته ولا أجازف بشيء يكون احتمالاً" (كامو، ١٩٤٢: ٨٤٠ - ٨٥).

هذه المحاولة من جانب كامو لاستبعاد الأحكام القيمية، جميع الأحكام الإيديولوجية، يجب بالضرورة أن تؤدي إلى البحث عن لغة محايدة، غير مبالية بالكلمات - القيم المزدراة. وبحث كهذا يتضمن رفض جميع أنظمة التصديق وجميع التصنيفات الجاهزة ومحاولة تخيل الأشياء (الطبيعة) مستقلة عن المصادقية الإنسانية. ونكتشف هكذا " الطبيعة بدون البشر " التي يتحدث عنها سارتر وكامو أو " الطبيعة الصامته " التي يتحدث عنها يونج. إن لامبالاة اللغة (إفراغها من المعنى) تظهر الأشياء التي يتحدث عنها روب جرييه لا يحيطها أى سر. إنها صامته، ويكتب عن ريمون روسيل: " كلما تكدست التفاصيل، التدقيق، تفاصيل الشكل والحجم، كلما فقد الشيء عمقه. إنه إذن تعميم دون إحاطة بأى سر: وهكذا فإنه لا يوجد شيء وراء الخلفية ووراء هذه السطحيات لا عمق، ولا سر، ولا نية مبينة " (روب جرييه، ١٩٦٣: ٨٩).

ولنؤكد على أن الرؤية الجديدة للأشياء التي طرحها روب جرييه لا يمكن شرحها عن طريق " إعادة اكتشاف للواقع ". إنها نتاج أزمة اللغة واللامبالاة الدلالية التي تنتهى بالتشكيك فى التصنيفات Taxinomies الجماعية القائمة وهدمها. إن روب جرييه إذ يرفض فى نقده للـ " معجم التشبيهي " وللإستعارات المبتذلة " وللتعبيرات مثل " جبل مهيب " أو " شمس قاسية "، لا يستبعد فقط وحدات لفظية مزدراة ولكن أيضاً تصنيفات دلالية يتعارض فيها العظيم مع السوقى، الشمس القاسية والغريبة مع الشمس الطيبة والرقيقة للوطن، شمس كل يوم المبتذلة مع شمس أو سترليتز، الخ. ومع استبعاد هذه التعارضات وكذلك التعارضات الدلالية الأكثر عمومية بين الكبير والصغير، الخير والشر، الطبيعى وغير الطبيعى، يعادى روب جرييه بشكل ضمنى

الخطابات الأيديولوجية التي تشكلها هذه التعارضات على المستوى الفاعلي. (ومن الخطأ أن نختزل نقد روب جرييه إلى نقد " للمعجم " ، للمستوى اللفظي).

ويظهر في هذا السياق بوضوح ، الاختلاف بين كامو وروب جرييه: كان كامو رافضاً للمعنى (الأيديولوجي) ، وازعاً في مقابله اللامبالاة (لا مبالاة الطبيعة) ، ويعتبر روب جرييه اللامبالاة الدلالية كأنها واقع مسلم به ، أو "أمر بديهي" . ويصبح الصراع ، في رواياته ، بين اللامبالاة والأيديولوجية (مشكلة العبث) ، ثانوياً أو يختفى تماماً . وبارت على حق حين يتحدث فيما يخص رواياته عن " صمت المعنى " وحين يضيف: " هناك تكرار قدرى بين لا معنى الأشياء ولا معنى المواقف والبشر " (بارت ، ١٩٦٤ : ٢٠٠).

إن رفض أنظمة التصديق الأيديولوجية ، رفض " التواطؤ " ، له رواد مهمين في أدب الطليعة . من قبل ازدهار السورالية الفرنسية بكثير ، من قبل ظهور الرواية الجديدة ، أطلق مارينيتي نداءً للطليعة داعياً لأن تتخلص من الكليشيهات والقوالب : " يجب إذن أن نهدم في اللغة ما تحتويه من صور قوالبية ، واستعارات باهتة اللون ، أى تقريباً كل شيء " (مارينيتي ، ١٩٠٩ ، ١٩٧٦ : ١٨٧).

ولكن إذا رفضنا " تقريباً كل شيء " في اللغة ، ننتهي بوضع ذات التلفظ موضع التساؤل ، حيث لا ينفصل وجودها عن الأساس اللفظي والدلالي للخطاب . وليس اكتشافاً بدون دافع للشئ أو للطبيعة هو الذي يشرح " الموضوعية " التي ينادى بها مارينيتي أو روب جرييه بل هي الأزمة اللغوية لذات فريسة لفقدان الكلمة لمعناها ولللامبالاة الدلالية . إنه النقد الجذري للذات الإنسانية (الأيديولوجية) ولخطاباتها هو الذي يدفع الطليعة لتفضيل الشئ : " المادة كانت دائماً موضع تأمل ذات لاهية ، باردة ، منشغلة للغاية بنفسها ، مليئة بالأحكام المسبقة من حكمة وهواجس إنسانية " . ويضيف مارينيتي رافضاً الخطاب الإنساني حول الأشياء : " المادة لا هي حزينة ولا هي مبهجة " (مارينيتي ، ١٩٠٩ ، ١٩٧٦ : ١٨٧) . الجبل لا هو

"عظيم" ولا هو "مهيب"، الشمس لا هي "قاسية" ولا هي "رقيقة"، إذا كان من الممكن أن نضيف شرحاً لروب جرييه.

لعل أندريه بروتون كان أول من ربط بين غياب المعنى واللامبالاة. وتظهر لامبالاة المادة والطبيعة بوضوح أكثر في مواجهة ذات تجد نفسها مجبرة على رفض معجم لفظي فاسد بأكمله: "لقد حاولت أن أدرب ذاكرتي على اللامبالاة، على الأمثال الخالية من الأخلاقيات، على الانطباعات المحايدة، على الإحصائيات الناقصة [...]" (بروتون، ١٩٢٤، ١٩٧٠: ١٥). وسنرى أن "المتلصص" هي "مثال خالٍ من الأخلاقيات" حيث تتولد الانطباعات المحايدة من لغة تطهرت من الكليشيهات الأيديولوجية: السياسية أو الدينية أو الأخلاقية أو الميتافيزيقية.

ب - تفاصيل: اللهجة الجماعية "العلمية"

بالرغم من الاختلافات الهامة التي تفصل كتابة روب جرييه عن كتابة كامو أو مارينيتي أو بروتون فمن المؤكد أن اكتشاف اللامبالاة والرغبة في رفض "الأحكام القيمية" هي عناصر مشتركة لدى هؤلاء الكتاب المتباينين. إن مركزية الذات الإنسانية لدى كامو والتي تجدها أيضاً لدى بروتون ومارينيتي لا يجب أن تمنعنا من التعرف على أحد الاتجاهات الأساسية للتطور الأدبي: وهو التحول التدريجي من الازدواجية القيمية إلى لامبالاة الوحدات الدلالية. المادة تصبح لامبالية بالإنسان الذي أفرغت لغته وتطهرت من جميع المعاني التقليدية التي اجتمع الرأى على خطئها.

تلك اللغة النقية، اللغة غير المبالية تشبه في كثير من الأوجه، لغة العلوم الطبيعية التي لا يمكنها أن تتحمل الأحكام القيمية الأخلاقية، السياسية أو الميتافيزيقية في خطاباته المتجهة إلى الكم Quantification. وليس صدفة أن تستوعب خطابات الطبيعة القاموس اللغوي للعلوم الطبيعية في محاولة لمحو آثار الميتافيزيقا القديمة وتشابهه في ذلك العلوم الاجتماعية المعاصرة (وبخاصة بعض التيارات الوضعية) التي ترغب في إزالة الأحكام الذاتية وجميع الأحكام القيمية حتى يتسنى تصوير المادة بشكل علمي.

وتتداعى للذاكرة تعليقات روب جرييه وكتابته عند قراءتنا لـ "البيان التقنى للأدب المستقبلي" : " احترسوا من إضفاء مشاعر إنسانية على المادة، استشعروا بالأحرى دفعاتها التوجيهية المختلفة ، قواها من ضغط ، من تمدد، من تماسك ومن تحلل وتدفقات جزئياتها فى الكتلة أو دوامات الكتروناتها . لا يجب إضفاء الدراما والصفة الإنسانية على المادة. إنها صلابة قطعة الحديد التى تهمنا فى حد ذاتها ، أى التحالف غير المفهوم وغير الإنسانى لهذه الجزئيات والإلكترونيات التى تستعصى على سبيل المثال على تغلغل القنبلة . إن حرارة قطعة الحديد أو الخشب تستهويننا أكثر من ابتسامة امرأة ودموعها " (مارينيتى ، ١٩٠٦ ، ١٩٧٦ ، ١٨٧) .

إن التشيؤ الذى يتحدث عنه جولدمان لا يكمن فى أن الكاتب الطليعى يصف الأشياء أكثر من الأشخاص ولكنه يسعى إلى الإفلات من اللغة الأيديولوجية (الإنسانية) بإصراره على اللامبالاة و " حيادية " الكلمة : على اللامعنى الذى يكشف عنه " الغريب " . وقد رأينا أن الاستخدام الأيديولوجى للغة يقابل اللامبالاه فى هذه الرواية . إن الاتجاه إلى لهجة جماعية علمية معممة (نحو الخطابات اللغوية ، البيولوجية أو الرياضية) يوأكب جهود الكتاب للتخلص من المعنى الأيديولوجى .

وعند القراءة المتمعنة " للمتلصص " نلاحظ أن القاموس اللغوى العلمى، الرياضى أو اللغوى يلعب دوراً هاماً . شكل الرقم ثمانية بالفرنسية مقلوباً على جنبه ، على سبيل المثال والذى يرمز فى رأى بعض النقاد للمسار الدائرى لماتياس، أو القيود التى تخيفه ، أو الأبدية ، توصف بدقة فى أسلوب " هندسى " : " كان رقم ثمانية بشكله مقلوباً على جنبه : دائرتين متساويتين . قطرهما يقل عن عشرة سنتيمترات، يتلامسان فى نقطة فى جنبهما " (روب جرييه ، ١٩٥٥ : ١٧) . وهذا النوع من الوصف الهندسى أو الرياضى ليس قليلاً فى نصوص روب جرييه . إن النصوص المنشورة فى مجموعة تحت عنوان " لحظيات " Instantanés هى نموذج مثالى لهذا . إن وصفاً لسلازم كهربائية (" فى دهاليز المتروبوليتان ") يعتبر مثلاً جيداً على ذلك : " [...]

السلم بأكمله يتابع صعوده ، يصعد في حركة منسقة ، مستقيمة ، بطيئة، غير محسوسة تقريباً ، مائلة بالنسبة للأجسام الرأسية " (روب جرييه، ١٩٥٩ : ٧٨). رغم النزعة الإنسانية التي تتضح في كلمات مثل " غير محسوس " ، نحن هنا أمام محاولة لتحديد وصف الجسم الإنساني بمساعدة معجم "هندسى".

لهذا المعجم وظيفة محددة : إنه يتجنب السقوط من جديد فى وصف أيديولوجى إنسانى : " كانت أفخاذ فيوليت منفرجة ولكنها على الأقل مضمومة كل منها على الجذع ، الكعبان يلامسان الجذر ولكن كل منهما ينفرج عن الآخر بكل اتساعه . أربعين سنتيمتراً تقريباً " (روب جرييه، ١٩٥٥ : ٨٤). هذا الوصف "لمشهد مثبت" والذي ما يزال يذكرنا بالوصف فى "لحظيات" (بخاصة "الغرفة السرية") يتجنب الأحكام القيميّة رافضاً المعجم الأخلاقى أو السيكلوجى للروايات التقليدية إلا أنه ليس أكيداً أن يكون مجرد أداة نقدية موجهة نحو الأيديولوجية. إن رفضاً نظامياً للأحكام القيميّة يمكن أيضاً أن يتحول إلى خطاب إيجابى يستبعد النقد عن طريق اللامبالاة . وسأعود إلى هذا فيما بعد .

إن استيعاب اللهجة الجماعية لا يسهل مجرد موضوعية الوصف (حياديته) ، بل يجعل فى نفس الوقت التأمل حول الوضع اللغوى ممكناً وكذلك التأمل الذاتى للخطاب الروائى الذى ينادى به كل من بوتور وريكاردو وروب جرييه (أنظر Supra). عن طريق إدراج قاموس اللغويات على خطاب راويه، يضيف الروائى بعداً جديداً لقصته : لغة شارحة "علمية" تسمح بوصف ونقد لغات الأبطال أو النصوص التى يقرأها بطله . ويلاحظ الراوى بخصوص مقال فى جريدة تحكى اغتصاب ومقتل فتاة شابة (مقالة يقرأها المسافر ماتياس ويعيد قراءتها مراراً وتكراراً : "الصفات" مريع ، "خسيس" و "شنيع" لا تفيد فى شىء ، فى هذا المجال " (روب جرييه ، ١٩٥٥ : ٧٦). ويظهر فى هذا التعليق نقد روب جرييه للغة الإنسانية المبتذلة.

فى مواقع أخرى من الرواية ، يفكر الراوى فى الخطابات غير المتجانسة لبعض الأبطال : " بدلاً من السرد الدقيق لأى حدث ، محدد ودقيق ، لم يكن هناك - كالعادة - إلا إشارات مشوشة لعناصر ذات طبيعة سيكولوجية أو أخلاقية ، غارقة فى قلب سلاسل لانهائية من النتائج والأسباب ، حيث تتلاشى مسئولية الأبطال " (روب جرييه ، ١٩٥٥ : ١٤٧) . غير مختزل على المستوى المعجمى ، على مستوى " القاموس اللفظى " ، فإن الخطاب " العلمى " (الذى له هنا إحياءات لغوية وحتى سردية) يجعل التأمل فى اللغة وأوضاع الأبطال (البطل والراوى) ممكناً فى النص . سنرى أن تفكك النص الذى يصنفه التعليق هو فى نفس الوقت تأمل حول وضع الراوى داخل لغة فريسة للزواج القيمى واللامبالاة .

على الرغم من أن رواية روب - جرييه تتسم بغياب الخطاب الأيديولوجى (الإنسانى أو المسيحى أو الاشتراكى) ، فإن " المتلصص " يمكن قراءتها على أنها محاكاة ساخرة لجنس أدبى معين : الرواية البوليسية . من ضمن السمات المميزة لهذا الجنس نجد فكرة أو الحكم المسبق بشفافية الواقع والفكرة المكتملة لها بأن الذات الفردية ، المفتش العبقري ، يمكنها أن تسيطر على هذا الواقع عن طريق فرضها النظام الذى تمثله عليه .

إلا أنه فى " المتلصص " ، كما فى " المحاولات " Les Gomme (١٩٥٣) تظهر الذوات (وبخاصة ماتياس ، المسافر) عاجزة عن فهم واقع معتم غامض ولا يعود غموضه إلى لغز مستعصى بل إلى لامبالاة الأشياء والأفراد . ولا يكتشف أى مفتش أو أى سلطة أخلاقية أو قضائية جريمة القتل التى اقترفها ماتياس الذى رسا بسفينته فى جزيرة خيالية حتى يبيع فيها ساعاته . وليس أكيداً أننا بصدد جريمة واقعية أو خيالية ، ارتكبها الرجال أثناء هلوسة . ولا يتم أبداً سد الفجوات التى تظهر فى نص متعدد المعنى ومتناقض .

فى حديث نشر ، بعد ظهور " المحاولات " و " المتلصص " بعشرين سنة ، يشرح روب - جرييه الوظيفة النقدية (المعادية للأيديولوجية) لنصه السردى

الناقص واللاأدرى (agnostique) . هذا النص السردي يستنكر البنية المغلقة والشفافة للرواية البوليسية التقليدية القائمة على فكرة أن " الواقع " يمكن فهمه بدءاً من نظام معين للتصديق : بمعنى أن الرواية التقليدية الجيدة تقدم كالتالى: لدينا مقاطع غير مرتبة ، مع فجوات ، شخص ما ، رجل بوليس ، عليه أن يرتبها وأن يملأ الفجوات وعند انتهاء الرواية تزول جميع مواضع الغموض . أى أن الرواية البوليسية هي رواية تتسم بشكل قوى بالأيدولوجية المسماة بالواقعية حيث لكل شىء معنى، معنى ما [...] . فى حين أن البنى السردية التى تهمنى هي بالتحديد البنى الفجوية " (روب جرييه ، ١٩٨ : ١٦) .

كيف نشرح هذا الاهتمام بالبنية الفجوية ؟ إنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنقد اللغة الأيدولوجية (المتمركزة حول الإنسان) وبالمبالاة اللغة العلمية: وبمجرد أن تصبح الدلالة الأيدولوجية مزدراة ، وبمجرد اكتشاف حيادية اللغة العلمية ، يصبح من المستحيل قبول نص سردي تفرض فيه ذات التلفظ مصداقية خاصة (معنى أيدولوجيا) على الواقع. وتصبح الرواية البوليسية التقليدية - التى تميز ، فى إطار تصنيف صارم ، بين الخير والشر ، الطبيعى والمرضى ، المجرم والرجل البرىء - فى موضع الشك .

وعن طريق بناء " نص سردي فجوى " لا يعتمد على المصداقية الأيدولوجية للرواية البوليسية بل على اللامبالاة واللاأدرية لراو " موضوعى " ، يجادل روب جرييه ، على مستوى التناس ، ضد جنس روائى قائم . إنه يجعل تاجراً رحالاً ، لا تلفت شخصيته الريفية (السادية) الانتباه فى جزيرة يسكنها أفراد لامبالين وغير معروفين ، يرتكب جرماً . هذا الجرم - حقيقى أو خيالى - لا يتم اكتشافه أبداً ، ليس فقط لأن الأبطال الآخرين لا يعتبرونه جرماً بل على وجه الخصوص لأنه تنقصه السلطة الأيدولوجية (الشرطة ، العدالة ، الكنيسة) القادرة على تعريف الجرم والمعاقبة عليه فى إطار خطاب ثنائى ، مانوى .

وتختلف رواية " المتلصص " فى هذا بشكل جذرى عن " الغريب " ، عن رواية تتسم بالتعارض بين اللامبالاة (الطبيعية) والأيدولوجية المانوية . لدى

كامو ، يتواجد الخطاب الأيديولوجي (الخاص بالعدالة) داخل الرواية ويبني الجزء الثاني منها عليه ، أما لدى روب - جرييه فإن الأيديولوجية (الـ "معنى") غائبة. إن " المتلصص " تشير إليها على مستوى التناص عن طريق المجادلة، بشكل ضمنى ، ضد الرواية البوليسية التي تجسد بوصفها جنساً أدبياً، أيديولوجية فردية (ليبرالية) ، إلا أنه ليست هناك أى ذات للتلفظ ولا أى فاعل يمثل الأيديولوجية داخل البنية الروائية . ولا مجال هناك لطرح مشكلة المعنى " الأيديولوجية " . وفى هذا فإن روايات روب - جرييه تختلف بشكل واضح عن روايات الفترة " الوجودية " ، حيث ينصب الاهتمام على العثور على مصداقية أيديولوجية مفقودة (" الغثيان " ، " اللامبالين " لموراخيا) أو على رفض مصداقية تعتبر قمعية (" الغريب ") .

وعلى أية حال فاللامبالاة الدلالية ، لدى روب جرييه تتعارض، كما لدى كامو وسارتر، مع الأيديولوجية: سواء أكان داخل الرواية أو على مستوى نظام الأجناس. فى هذه النقطة من المهم الإشارة إلى تحليلات " الغيرة " التى يظهر فيها چاك ليناردت ، وبشكل مقنع ، كيف أن هذه الرواية تنتقد أيديولوجية الرواية الاستعمارية (ليناردت، ١٩٧٣). ويكتب هذه الملاحظة فى تلخيصه لأحد البراهين الأساسية لكتابه: "لقد أوضحت، فى قراءة سياسية للرواية ، أن " الغيرة " تم تشكيلها بدءاً من مقاطع من خطابات أدبية ، ولا أدبية يمكن مطابقتها بعضها بالبعض الآخر (ليناردت ، ١٩٧٦ : ١٨ - ١٩) . نلاحظ إذن أن الخطاب الأيديولوجي يمكنه أن يتخذ أشكالاً مختلفة تماماً (أكثر عمومية أو أكثر خصوصية) وأنه يجب دائماً تعريفه فى ضوء النص المعنى. (كما نرى بالمثل أن التعبير "أيديولوجية بورجوازية " والذى ما يزال يستخدمه الألتوسيريون ، مبهم تماماً - دون أن يكون بالضرورة خاطئاً.) .

وختاماً أود أن أعود إلى فكرة اللهجة الجماعية العلمية : ذلك لأن روب جرييه ينتقد الأيديولوجية بدءاً من هذه اللهجة الجماعية ، لامبالاتها الدلالية وحياديتها (بخاصة فى كتاباته النظرية) . ولكن أية لهجة جماعية مقصودة

هنا ؟ هل يمكن أن نجعل هذا المفهوم أكثر تحديداً بالنسبة للوضع الاجتماعى اللغوى الذى عايشه روب جرييه؟

ويطرح بروس موريسست فى كتابه حول روايات روب - جرييه بعض الفرضيات الهامة حول استيعاب نصوص روب - جرييه للخطابات العلمية. ويقول أن الخطابات الرياضية قد أثرت فى المؤلف : " نتبين تشابهات عجيبة بين نصوص ذات أسلوب هندسى لدى روب - جرييه وبعض نصوص الكتب الرياضية المستخدمة فى المدارس ". ونقرأ فى " المتلخص " ص ١٩١ : " كان فاصلاً كليومتريا من الموديل العادى ، متوازى مستطيل يتصل بنصف اسطوانة من نفس السمك (وبزاوية أفقية) . الواجهتان الأساسيتان المربعتان تنتهيان فى نصف دائرة ... " ، الخ . كتاب مدرسى للصف السادس يحتوى هذا النص : " لافتة إشارية [...] تتكون من قاعدة متوازية مستطيلة تسند عاموداً اسطوانياً ، موضوع عليها حامل - لافتة على هيئة مكعب ... " الخ . (رياضيات وتمريبات تطبيقية لوبوسيه وهيميرى ، باريس ، ناتان ، ص ١٥٢) . هذا النوع من الوصف الدقيق أثر بشكل عميق فى نفسية روب - جرييه الشاب " (موريسست ١٩٦٣ : ٩٩) .

ولا يكفى البرهان البيوجرافى الذى يرجع هذا التناس إلى عمل روب - جرييه كمهندس وإلى خبرته فى العمل لدى المعهد القومى للإحصاء وإلى أبحاثه البيولوجية فى المعمل أو أعماله فى معهد الفواكه والمواالح الاستوائية. ولا يسمح هذا البرهان بتوضيح الظاهرة الاجتماعية الجماعية : أى أهمية الخطاب العلمى فى الآداب منذ مارينيتى ، موزيل ، بروتون وحتى روب - جرييه. إن التناس هو دائماً عملية اجتماعية ولا يمكن إحالته إلى التجارب الفردية (والتى لا أنفى أهميتها) .

إن الاهتمام بالخطاب اللامبالى والحيادى لعلوم الطبيعة (التى تستبعد الأحكام القيمية) هو نتاج لأزمة اللغة التى تميل إلى ازدياء جميع الأحكام القيمية التى يعتبرونها أيديولوجية أو خالية من المعنى.

ويتخذ هذا الاهتمام لدى روب - جرييه شكلاً محدداً حين يذكر كاتب "المتلصص" و "الغيرة" نظرية التمويه Falsification لكارل پوپر. وتبعاً لپوپر، فهو يعارض بين النظرية المفتوحة القابلة للتمويه وأيديولوجية الرواية البوليسية المبنية على فكرة الاتجاه الواحد والمعروف : " حين يقول پوپر، متبنياً أفكار أينشتين عن العلم، أنه يجب أن يكون " قابل للتمويه " (مصطلح غير محبب كثيراً فى الفرنسية) ، ويقصد بهذا أن النظرية العلمية يجب أن تحتل الخطأ على الأقل فى نقطة منها [...] . يجب على هذا الاندهاش أن يتوفر على الأقل فى نقطة منها . وهذه فكرة حديثة جداً ، تتعارض تماماً مع فكرة العلم فى القرن التاسع عشر ومع كثير من العلماء المعاصرين " (روب - جرييه، ١٩٨٣: ١٧).

ويتزامن التمويه مع توجه النظرية نحو التجربة الإمبريقية كما تُعرفها علوم الطبيعة ، إنها تتضمن الأحكام القيمية وتأكيداً لمبدأً قبيبر عن "الموضوعية العلمية" Wertfreiheit " (انظر الفصل الأول ، ٤ ، ك). وهذا المبدأ أساسى فى " العقلانية النقدية " لپوپر وهانز ألبرت . ولقد أكدت فى الفصل الأول على أن " الموضوعية العلمية " نبعت من أزمة القيم ومن التوسط عبر قيمة التبادل ، وفى إطار هذا المنظور فإنها تظهر مشابهة للامبالاة والتي يمكن أن نعرفها على أنها " موضوعية علمية " (موضوعية أو حيادية) دلالية. إن اهتمام روب - جرييه بنظريات پوپر ليس صدفة : إن الرواى الجديد يتفق مع الفيلسوف العقلانى حين يكون المقصود هو إزالة المخلفات المتافيزيقية الأخيرة وإيجاد لغة تسمح " باستبعاد الأحكام القيمية لحساب الأحكام الوقائعية " (كامو).

ج - العالم الدالالى : لامبالاة وتعدد معانى

ويجب أن نضع فى اعتبارنا أنه فى روايات روب - جرييه، لا تلتزم الخطابات العلمية بوظيفتها المعرفية الأصلية (من اكتشاف وتعريف للأشياء وللقوانين) بل تحصل على وظيفة جديدة . إنها تستخدم للتشكيك فى المعانى

القائمة عن طريق فصل الوحدات اللفظية ، الدلالية والسردية عن ملصاقتها الأيديولوجية .

وعلى المستوى اللفظي ، تكف " الكلمات " عن أن تعنى شيئاً ، تصبح لامبالية بالمعنى وتتحول إلى أشياء : إلى وحدات صوتية خالية من المعنى : ويتذكر الرحالة أن المرأة البدينة لم تقل " بعد المنحنى " ولكن شيئاً يشبه " بعد المنحنى - مما لم يكن يعنى شيئاً محدداً - أو كان بالأحرى خالياً تماماً من أى معنى " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ١١٥) .

وتكف الكلمات ، بوصفها انتزعت من حقل دلالي محدد ، عن العمل كوسائل اتصال : إنها تتجنس أو تتشياً ، ويمكننا فيما يخص روب - جرييه أن نردد ما قاله سارتر عن پونچ : إنه " يجنس " il naturalise القول ويحوه إلى مادة صوتية . ويلعب التشيؤ دوراً هاماً لدى روب - جرييه: ولكن ليس على الاطلاق على المستوى الإحالي الذي لم يتخل عنه جولدمان أبداً . إن الوصف الدقيق والمحايد للأشياء والأشخاص هو نتيجة للامبالاة الدلالية واللفظية التي يشرحها بدوره في ضوء أزمة اللغة وفي ضوء ازدهار الخطابات العلمية التي تستهدف الحيادية الأيديولوجية (" التحرر من القيمة ") ، الموضوعية والكمية .

إن تفكك نظام التصديق الدلالي الذي يقوم به روب - جرييه في إطار منظور نقدي يفيد إنتاج سيناريو الوضع الاجتماعي - اللغوي المعاصر ، في كثير من الأحيان ، حيث تختزل التعارضات الأيديولوجية (" الميتافيزيقية " حسب قول نيتشه) في سياق مزدوج القيمة ولامبالٍ . ومن المثير استنتاج أنه في " المتلصص " يترك حتى التمييز (التعارض) الأساسى بين " اليسار " و" اليمين " فريسة للامبالاة الدلالية . ويعطى الأبطال " ماتياس " تفسيرات تفصيلية ولكنها متناقضة (ويتشابهون في ذلك مع أبطال كافكا) : " لم يكن وصف للأماكن يحتوى على أخطاء مقصودة ليضلله أكثر ، فهو لم يكن في الواقع واثقاً من عدم اختلاط الإسهاب بعدد لا بأس به من التناقضات . وقد

كان لديه فى الكثير من الأحيان ذلك الانطباع بأن أحد الرجلين كان يستخدم تقريباً بشكل عفوى وبدعم اكتراث ، كلمات " إلى اليسار " و " إلى اليمين " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ١٢٥). إن موضوع التحليل الاجتماعى لـ " المتلصص " ليس السلبيه أو اللامبالاة الأخلاقية لسكان الجزيرة بل اللامبالاة اللغوية التى تكشف اختزال الذات على مستوى التلفظ وعلى مستوى المفوظ (أنظر أدناه).

وحيث إن السيميوطيقا (علم العلامة) قد عرفت المصدقية بأنها وجهة نظر تبدأ منها الذات فى تمييز الشئ عن الآخر (بييترو ، ١٩٧٥ : ١٦٢) فإنها تسقط فى التعسفى . ماتياس الذى أراد أن يبيع ساعاته بأسرع ما يمكن يستعلم من اثنين من بحارى الجزيرة . إلا أن المعلومات التى يحصل عليها بعد مناقشة طويلة، تخلو من أى معنى . تختفى المصدقية وتختزل اللغة إلى مساحتها الصوتية (" الطبيعية ") : " إلا أن خلافاً يظهر فى الأفق فى حين أنه فى بداية السير ، أخذ الرجلين فى الحديث معاً ، كل منهما كان يريد فرض وجهة نظره على ماتياس ، فى حين أن هذا الأخير لم يفهم وجه الاختلاف " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ١٢٦) . وبعيداً عن أن يكون نقطة البدء وأساس التصنيف والتعريف تصبح وجهة النظر نفسها لا - مبالية (In - différent).

ومن المهم هنا ملاحظة كيف تجد الذات نفسها مختزلة إلى شئ فى الوقت الذى تختفى فيه المصدقية . الصياد الملقز والذى لا يتذكره ماتياس ولكنه يتعرف (أو يتظاهر بالتعرف) فى الرحالة على " الزميل القديم " ، يدلى بخطاب غير مفهوم ويكتفى ماتياس بتسجيل أصوات مفككة وبملاحظة الحركات الخالية من المعنى: " صديقه الجديد القديم كان يتحدث بإيقاع سريع أكثر فأكثر ، مؤدياً بذراعيه حركات يُخشى من سعتها وعنفها على الزجاجة المليئة التى كان يمسك بها فى يده اليسرى . ومن ثم لم يعط ماتياس اهتماماً ، وسط هذا الهدير من الكلام غير المتجانس ، لتحديد إشارات نهائية عن الماضى المشترك الذى كان يربطه بهذا الشخص . كل انتباهه كان يكفى

بالكاد لمتابعة الحركات - المتباعدة أحياناً والمتقاربة أحياناً وغير المترابطة
فى أحيان أخرى - لليد الحرة وللتز النبىذ الأحمر " (روب - جرييه، ١٩٥٥ :
١٢٩).

ولهذه الفقرة مظهران هامان قد يساهم توضيحهما فى فهم أكثر
تنوعاً وأكثر تنظيماً لكتابه روب - جرييه . ويميل الخطاب المفكك الذى
"يجنس" اللغة عن طريق اختزال الكلمات إلى أشياء صوتية ، إلى تحويل
ذات التلفظ ، إلى شىء . فى نفس الوقت فى الحوار المذكور ، يسعى ماتياس
بدايةً لفهم حكاية مُحَدَّثه ولكن عند اكتشافه أن لغة الآخر غير مفهومة (غير
متجانسة) ، يركز انتباهه بالتالى على الأشياء : على يدى الصياد وعلى
زجاجة الخمر .

وهكذا فإن الذات الإنسانية بوصفها ذات التلفظ تجزأ وتختزل إلى
شىء أو أشياء متفرقة . وعملية الاختزال هذه تخضع لمنطق بسيط جداً : فى
وضع اتصال (أو عدم - اتصال) حيث يختلفى تجانس الخطاب مع
المصداقية ، لا يتبقى من الذات الإنسانية إلا الفرد العرضى ، الجسمانى ،
الخالى من أى تصميم . إلا أن الفرد العاجز عن تجسيد مصداقية وخطاب
معينين لا يعتبر ذاتاً حيث لا تنفصل الذاتية عن التجانس الدالى وعن
المصداقية وعن التصميم الخطابى .

يمكن إذن استنباط " الأسلوب الموضوعى " لروب - جرييه من هذا
الضمور للذات فى وضع اجتماعى - لغوى يتسم بالامبالاة . من بعد بروسست
والسورياليين الذين كانوا على دراية بتجزؤ الجسم الإنسانى ، يميل روب -
جرييه ، مثله مثل ماتياس لـ "موضعة" الفرد . حيث أصبح غير مفهوم أو
أخرس ، يوضع الفرد فى مصاف الأشياء : " يبدو الطفل متعباً ومشدوداً
معاً ، تميل رأسه للجانب الأيمن ، إلى حيث يميل قليلاً الجسم كله ، الورك
الأيمن عال وبارز أكثر من الآخر ، والقدم اليمنى لا تلمس الأرض إلا بطرفها
الأمامى ، ولا يظهر المرفق فى حين أن الطرف الأيسر ماوراء - الجذع " (روب
- جرييه، ١٩٥٥ : ٨٤ - ٨٥) . ونجد عدداً كبيراً من الوصف المماثل فى

"الغيرة ، فى " لحظيات " Instantanés أو فى " طوبولوجيا مدينة شبحية " حيث تخضع أجساد (أنثوية بخاصة) للتحليلات " الهندسية " .

إن الفرد الذى خرس وتحول إلى موضوع يصبح متعدد المعنى وقابلاً للتفسير . فى إطار هذا الوضع، لم يعد من الممكن تعريف الوجوه على أنها " ودودة " ، " معادية " أو " حزينة " . وتصبح مظلمة وتكف عن التعبير عن أى معنى مثلها مثل اللغة المختزلة إلى مساحتها الصوتية : كان تعبير الوجه بلا أى تغيير: ثابتاً ، صارماً ، شمعياً ، تقرأ فيه العدوانية ، أو الهم - أو مجرد الغياب - حسب ميول كل : وكان من حقنا أن نسبغ عليها أظلم النوايا (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٦٠) .

" دون تغيير " : الآن نفهم أفضل ، لماذا تبدو فى أغلب الأحيان المشاهد التى يصفها روب - جرييه " متجمدة " ولماذا تلعب الصورة الفوتوغرافية (لفيوليت / چاكلين ، فى المتلصص) واللوحة (فى " المتاهة ") دوراً هاماً فى نصوصه . إن التغيير ، هو دائماً تقريباً تغيير فى اتجاه شىء معين، الحركة لها فى أغلب الأحيان هدف ، غائية مستترة . إلا أنه لدى روب - جرييه لا يتفق تعدد الحركات والوجوه والأقوال مع سببية أو غائية معينة: لا نعرف لماذا يظهر وجه القهوجى الذى يلاحظه ماتياس صارماً أو ثابتاً ولا نعرف بأى حال إذا كانت " نواياه ظالمة " . مثله مثل الصياد ، هو لا - ذات ، فرد لا - مبالٍ ، إذن قابل للتفسير .

فرد كهذا بلا تصميم، بلا غائية من الصعب معرفة هويته . وليس غريب أن نجد فى المتلصص وفى بعض النصوص الأخرى لروب - جرييه، فى "الطوبولوجيا" مثلاً ، فرداً (فاعلاً) له أكثر من اسم . على سبيل المثال، تظهر ضحية ماتياس الحقيقية أو الخيالية، أحياناً تحت اسم فيوليت (مرتبطاً بالاعتصاب الذى يتخيله الرحالة) وأحياناً أخرى تحت اسم چاكلين . إن اسم چاكلين (أو چاكى ، ص ١٨١) يتفق، فى أغلب الأحيان مع " واقع " الجزيرة، فى حين أن اسم فيوليت يرتبط بالخيال السادى للرحالة والذى يمكن فيه لأى

شئ أن يثير منظر الفتاة الشابة، والأفخاذ المنفرجة والاعتصاب: " تعرف الرحالة من أول وهلة على فيوليت" (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ١٣٣).

وحتى هوية الصياد الذي يسمى جان روبين أو بيير هي الأخرى مبهمة وغير أكيدة ، مثلها مثل هوية فيوليت - چاكلين . پاتريسيا چونسون على حق فى ملاحظتها القائلة بأن " واقع " بعض المشاهد هو أيضاً فى موضع شك بفعل خلط الأسماء : " بالتالى لا شئ يتم تحديده أو شرحه ، بل تنطبع من هنا الأحداث التى تغلف هذا الشك حول هوية جان روبين - بيير بنفس الطابع غير الواقعى . ولا يمكن تفادى التشكيك ، وبخاصة فى مشهد المصباح فى الجزء الثالث، فى واقعية المشهد نفسه ، كما نجد أنفسنا مرغمين على التشكيك فى واقعية وهوية الشخصية المسئولة عن اختلاط الأسماء " . (چونسون ، ١٩٧٢ : ٩٤) وفى هذا الموضع ، نفكر فيما يقوله روب - جرييه نفسه عن الشخصية التقليدية : " إن رواية الشخصيات تنتمى بالفعل للماضى ، إنها تميز عصراً : ذلك الذى اتسم بإعلاء الفرد (روب - جرييه ، ١٩٦٣ : ٣٣) .

هذه الفكرة التى تبناها وطورها لوسيان جولدمان تبدو غير كافية حين يكون المطلوب شرح وظائف النص على المستوى الاجتماعى . لقد حاولت إذن أن أبين كيف تتفكك الذات الفردية حين يبدأ الأساس اللفظى والدلالى للذاتية فى التفتت، وتنتهى أزمة اللغة باختزال الذات الإنسانية إلى ذلك الفرد القابل للتبادل والمبادلة ، والذى تصبح هويته لامبالية وفى نهاية المطاف غير قابلة التعريف.

إن الهوية الذاتية التى يضعها روب - جرييه موضع التساؤل فى منظور نقدى ملغاة داخل اللغة المأزومة بفعل الخطابات الأيديولوجية وخطابات الدعاية: مثل السياسى أو " الناطق الرسمى " الذى يردد شعارات مقبولة وفى كثير من الأحيان ، خالية من المعنى أو متناقضة، المرأة التى تتحمس لـ "صابون غسيل ثورى" مع مصاحبة خطابها بابتسامة جامدة (مدفوعة

الأجر) تتحدث لغة ليست لغتها، لا دخل لها بهويتها (" برأيها الشخصى") حيث إنها لامبالية بالتجربة الخاصة وبالكيف : تماماً مثل قيمة التبادل التى تجسدها .

إن التلاشى التدريجى للأساسات اللفظية والدالية للذاتية يؤدى إلى تفكيك الذات على المستوى التركيبى والسردى. فالراوى و الفاعلون فى " المتلصص" عاجزون عن قص وإعادة إنتاج الواقع فى إطار خطاب متجانس. يجب الحذر من اعتبار تقسيم التركيب السردى لدى بعض الروائيين الجدد " أمثال روب - جرييه (" المتلصص " ، " فى المتاهة ") أو كلود سيمون (طريق فلندر) مجرد تكتيك جديد هدفه "إلغاء آلية" تلقى القارئ وتفسير شكلى كهذا (رائج دائماً) لا يراعى العمليات الاجتماعية والاقتصادية التى تؤدى إلى وضع اجتماعى - لغوى يحكمه الازدواج واللامبالاة الداليان.

د - لامبالاة ، تعدد معانى وبنى سردية

إن تحليل البنى السردية يتم دائماً على مستويين : مستوى التلفظ ومستوى الملفوظ . ويجب على تحليل التلفظ ألا يقتصر على خطاب الراوى: بل يجب أن يضع فى اعتباره الحكايات الثانوية (للأبطال) حتى يمكن ربطها بالحكاية الرئيسية . وسيتجه هنا تحليل الملفوظ، كما فى تفسير "الغريب"، إلى البنية الفاعلية للنص والتى أهملها كثيراً المتخصصون فى دراسة السرد، مثل چينيت (چينيت ، ١٩٧٢) الذى يميل إلى فصل البنى السردية عن القاعدة الدالية للخطاب . فى حين أن المشاكل الاجتماعية تظهر على المستوى الدالى (انظر الفصل ٤ ، ٢ ، أ) .

فى " المتلصص " تستكمل فى كثير من الأحيان حكاية الراوى الأساسية بحكايات ثانوية تشكل فى معظم الأحيان جزءاً من الحوار بين الرحالة وأحد سكان الجزيرة . ولقد سبق ذكر الحوار بين ماتياس والصيدان روبين أو بيير والذى تظهر لغته وكأنها " مفتقدة الدلالة " ، وكأنها خلت من

المعنى . كل ما يقصه الصياد على ماتياس ودعوته لياكل الكابوريا فى كوخه، متناقض أو ببساطة غير مفهوم وبدلاً من أن يوضح واقع الجزيرة ، فإن خطاب الصياد يجعله أكثر إبهاماً . ما يقوله عن چاكلين (فيوليت) يجعل حكايتها أكثر التباساً : " بعد أن هدأت ثورته قليلاً ، تحدث بكلمات غير صريحة ، عن الجرائم التى اقترفتھا الفتاة - دائماً هى نفسها - التى بدت للرحالة، فى هذه المرة الجديدة ، أكثر التباساً من المرات السابقة " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ١٤٦) . إن الواقعة الوحيدة التى تظهر من خلال الخطاب غير المتجانس لچان روبين هى كراهيته لچاكلين التى يصفها بـ " مخلوق جهنمى " وبـ "مصاصة دماء صغيرة " . ودوافع هذه الكراهية العنيفة لا تفسير لها .

فى " المتلصص " حيث يختزل الأبطال (البحارة) التعارضات عن طريق خلط " إلى اليسار " و " إلى اليمين " ، تصبح الكلمات تبادلية فيما بينها (لامبالية) والنصوص التى تدعى توضيح الماضى والحاضر تترك فريسة للتشتت وتعدد المعنى . وهى قابلة لأكثر من تفسير مثلها مثل الأشياء والوجوه المبهمة التى سبق ذكرها . وبدلاً من تنظيم وشرح " الواقع " مثلما هو الحال فى الروايات التقليدية أو البوليسية ، فإن خطاب بعض " الروايات الجديدة " يصبح عائقاً للشفافية .

إن لغة الأبطال "المفرغة من المعنى" تكتمل بفقدان ماتياس للذاكرة حيث لا يتمكن من استجماع ذكرياته وإعادة تشكيل ماضيه القريب (على المستوى السردي) : يومه فى الجزيرة . وتفشل جميع محاولاته للتوصل إلى دفع بالغيبة مقنع وإعادة تشكيل نشاطاته (حضوره وغيابه) بشكل يجعل الآخرين يعتقدون أنه لم يكن من الممكن أن يقتل فيوليت . بالرغم من جميع اجتهاداته كراو مذب ، لم يتمكن من تعليل غيابه الذى يلتقى فى النص مع الفجوة الشهيرة فى صفحة ٨٨ والتي تشكل فراغا أبيض فى النص الروائى . فى نهاية صفحة ٨٧ ، يختفى الرحالة من المجال البصرى للقارئ وبدلاً من الذهاب إلى مزرعة آل ماريك ليبيع لهم الساعات ، يتخذ طريقاً

ترايبيا يؤدي إلى حافة الجرف " حيث ترعى فيوليت الشابة ، الخراف " . ولا يذكر راوى الرواية إذا كان ماتياس قد التقى بفيلوليت / چاكلين، إذا كان قد تأملها أو قتلها . وهو غير متأكد حتى على الاطلاق فيما إذا كان قد ذهب حتى حافة الجرف أم لا ، لأننا نقرأ في نهاية صفحة ٨٧ التالي : " بعد بضعة مئات من الأمتار، تميل الأرض في منحدر خفيف ناحية التموجات الأولى للجرف . وماتياس ليس عليه إلا أن يترك نفسه لينزل " (روب - جرييه، ١٩٥٥ : ٨٧) . في بداية الجزء الثاني من الرواية يعود القارىء ليجد الرحالة في التقاطع الذي يعود إليه بعد غيابه غير المفسر حيث يلتقى بالسيدة ماريك التي تفترض أنه لم يجد أحداً في المزرعة...

وفي مواجهة غياب ماتياس والفجوة الروائية لا يهتم التحليل الاجتماعي والسيميوطيقى بالتساؤل عما إذا كان ماتياس قتل أو لم يقتل فيوليت - چاكلين بل بواقعة أنه عاجز عن تكوين نص دفع بالغبية وأن يملأ الفجوة بأسلوبه . مثل چان - روبين ، مثل الأبطال الآخرين للرواية ، يبدو غير قادر على حكي وإعادة إنتاج " الواقع " بشكل متسق . وفي محاولته لإعادة تكوين رحلته وإدراج الفجوة (غيابه) في نص متسق ، يختلط عليه الأمر داخل تفسيرات مشتتة ومتناقضة : " ويظل الثقب قائماً في الجدول الزمني " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٢٠٢) .

ويرتبط عجز ماتياس عن إعادة تكوين الواقع (ماضيه الخاص به) في إطار نص سردي متسق ارتباطاً وثيقاً بوضع اللغة في الرواية . إن ملفوظات الآخرين التي بإمكانها أن تساعد الرحالة بوصفه ذات التلفظ ، هي الأخرى مزدوجة القيمة والامبالية (مثل ملفوظات چان روبين أو بيير) وبالتالي قابلة لأكثر من تفسير . وهكذا فإن چوليان ماريك الذي ربما كان حاضراً (كمتلصص) مقتل فيوليت والذي يتهمه والده ، في نفس الوقت ، بأنه قتل " الفتاة " ، يساهم بتأكيداته المواربة والمبهمة في " تفكيك " قصة ماتياس : " لا . من اللحظة التي كذب فيها چوليان - بل بكل جرأة - بدا من المقبول إعادة تكوين السيناريو بشكل مختلف [...] . ما كان يحيله ماتياس إلى الغطرسة

كان فى الواقع استجداء . أو هل كان الشاب فى نيته أن ينومه مغناطيسياً؟" (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٢٠٠ - ٢٠١) . إن تواطؤ الشاب ماريك الذى يؤكد فى وقت ما أنه رأى الرحالة فى مزرعة أهله ، هو غير أكيد بالمرّة ولا يكفى ليكون شاهد ضمان لقصة ماتياس (قصة الدفع بالغيبة) . وفى موضع آخر من النص (ص ٢٢٧) لا يظهر جوليان ماريك على الاطلاق وكأنه متواطئ (وكانه مساعد لماتياس) : يبدو عليه أنه يريد أن يشى به "لحارس المدنى" .

"بدا من المقبول إعادة تكوين السيناريو بشكل مختلف" : مع راوى "المتلصص" ومع الرواة الآخرين لروب - جرييه (فى " المتاهة ") ، يسعى ماتياس إلى الفجوة الزمنية، التى هى فجوة فى روايته وذلك عن طريق اختلاق سيناريوهات محتملة . وفى كل مرة يفشل فيها فى محاولة إعادة التكوين ، يمكنه أن يقول مع الراوى فى " المتاهة " : " ولكن هذا المشهد لا يؤدى إلى شىء " (روب - جرييه . ١٩٥٩ : ١٧٩) .

وحتى الآن لم أتحدث إلا عن روايات الأبطال الموضوعة داخل الرواية الأساسية الشاملة للراوى . وحيث إن الراوى يتبنى فى أغلب الأحيان ، وجهة نظر ماتياس ، ليس غريباً أن لا تختلف مشاكل سرده كيفياً عنها لدى الرحالة .

وهو مثله مثل راوى " المتاهة " يبدو وكأنه اصطدم بواقع ولغة مبهمين وغير مباينين بأية مصداقية . ويعكس ماتياس الذى يتطلع لاتساق مستحيل فى محاولة لملء فراغات قصته ، يتقبل الراوى تعدد المعنى وقابلية الواقع الروائى لأكثر من تفسير . إنه لا يقيم ، لا يشرح بل يكتفى بأن يلاحظ، على طريقة العالم ، ما هو عليه الوضع . إنه لا يعرف أكثر من شخصيته الرئيسية التى يتبنى وجهة نظرها . ولا يجيب على السؤال الذى يمكن لماتياس أن يطرحه أو يمكن للقارىء أن يطرحه فيما يخص ماتياس : " لماذا وجد نفسه متوقفاً فى وسط الطريق ، عيونه مرفوعة إلى السحب ، ماسكا بيده مقود الدراجة المطلقى بالنيكل وباليد الأخرى حقيبة صغيرة من الفيبر ؟ وأدرك فقط

حينذاك هذا الخدر الذى كان سابحا فيه حتى هذه اللحظة (منذ متى؟) [..] " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٩٢).

وفى هذا الموضوع من النص ، هناك أكثر من تفسير محتمل: الخدر الذى فيه ماتياس يمكن أن يكون نتيجة لجريمة القتل التى ارتكبها لتوه ، أو نتيجة لمنظر ساد مفزع ومُرَبِّك أو بكل بساطة مجرد تأثير الضوء أو الحرارة ... إلا أن الراوى لا يقدم أيا من هذه التفسيرات السببية التى اعتاد عليها قارئ الروايات التقليدية . إنه يترك جميع التساؤلات المطروحة فى النص ، سواء من جانب الأبطال أو منه هو شخصيا ، معلقة .

وغير مُطلوب فى هذا الوضع ، ملء الفجوات واختزال تعدد معانى النص ووضع سبببات حيث لا توجد . وغير مُطلوب كذلك ما إذا كان ماتياس قتل " حقا " ثيوليت - چاكلين أو فيما إذا كانت جريمة القتل هذه هى فعل خيالى لفرد شيزوفرينى . جميع المحاولات للرد على هذه التساؤلات هى اختزالية بالضرورة ، حيث إنها لا تضع فى اعتبارها اللاأدرية الإرادية والمنظمة للراوى لدى روب - جرييه . وأعتقد أن نقاداً مثل أولجا برنال على حق فى إصرارهم على وظيفة " الفراغ " و " البياض " فى " المتلصص " ، "المحاوات" أو " الغيرة " (برنال ، ١٩٦٤) . ومن الخطأ الإصرار على إزالة الفراغ أو نفى وظيفته ، بل يجب شرحه .

إن وظيفة البياض ونفى الاتساق (أحادية المعنى) السردى يتم شرحه أولاً ، فى ضوء ملاحظة لروب - جرييه فى " من أجل رواية جديدة " : "القص أصبح فعلاً مستحيلاً" (روب - جرييه ، ١٩٦٣ : ٣٧) . - وهذه الجملة يجب شرحها بدورها ويمكن أن نقول فى المقام الثانى أن رفض تشكيل نص رواية يتجه إلى الوهمين المكملين لبعضهما : المعنى والشفافية (للاواقع) هو رد فعل لأزمة اللغة : لفقدانها التسويقي ، الأيديولوجى والعلمى ، لقيمتها (تقسيم العمل). اللغة بعد أن أصبحت مزدوجة القيمة ولامبالية ، لم تعد تسمح للنوات بمعرفة اتجاهها فى الواقع وبتملك الأشياء فى إطار نصوص سردية منظمة .متسقة .

لقد تعرضت هذه القصص لنقد جذرى فى روايات روبير موزيل وفرانس كافكا وچان پول سارتر وألبير كامو وچوزيف، ولم ينجح فى تحديد معنى الأمثلة المتعددة المعنى التى يحكيها له القس فى الكاتدرائية، وروكانتان يفقد الأمل فى منح أى معنى للأحداث المتفرقة التى تحدد وجود الماركيز دى رولبون: " ولا أى بصيص يأتى من جانب رولبون . بطيئة، كسولة، كئيبة، ترتضى الوقائع بصرامة النظام الذى أود أن أضفيه عليها، إلا أنها تظل خارجها " (سارتر، ١٩٣٨، ١٩٨١ : ١٩). فى روايات روب - جرييه، تُستبعد هذه المحاولات لفرض اتساق سردي على الواقع، ويتم الاعتراف بالشئ كما هو : على أنه لامبال بالمعنى الإنسانى . وفى نفس الوقت تتعرض الذات لاختزال يعلن عنه فى روايات موزيل وكافكا وسارتر وكامو: عاجزة عن معرفة إتجاهاتها فى الواقع التخيلى، إنها تترك فريسة لآليات مجهولة (خارج إرادتها) وتدخل فى إطار نظام الأشياء.

ويظهر اختزال الذات هذا بوضوح فى " المتلصص " على مستوى الملفوظ ، على المستوى الفاعلى، حيث الفاعل - الذات (ماتياس أو الرحال) مكلف " بمهمة " لا علاقة لها بـ " مهمة الخلاص " فى الروايات التقليدية: عليه أن يحقق ربحاً سريعاً وسهلاً نسبياً عن طريق بيع ساعات لسكان جزيرته التى نشأ فيها (لأشخاص كان يعرفهم أو يمكنه أن يعرفهم). " المهمة " التى تتحول لدى ماتياس إلى هاجس، لها إذن صفة اقتصادية والمرسل المسئول عن البرنامج السردى للرحالة هو المال أو قيمة التبادل . الفاعل - الموضوع المناسب لهذا المرسل هو الربح (أو المال فى شكل الربح) . وعلى هذا المستوى لا يمكن تحديد أى مرسل ضد (سلطة سياسية، أو أخلاقية أو اقتصادية) ، كما نستنتج كذلك غياب الذات الضد أو المعارض الذى يعمل على فشل المشروع الاقتصادى للرحالة. (لامبالاة السكان وغياب الزمن ليست إلا عوائق يمكن تخطيها).

(إلا أن غياب المرسل الضد والذات الضد، يتم " تعويضه " بظهور مرسل ثانٍ (" المرسل مع ") وبرنامج سردي ثانٍ يتعارض جزئياً مع الأول.

إن المرسل " الجنس " يكلف " البطل " بمهمة ثانية تكمن في اغتصاب وقتل الفتاة (ثيوليت أو چاكلين). ومسألة معرفة ما إذا كان هذا البرنامج الجنسي قد تحقق أكثر من مرة على المستوى الخيالي أو ما إذا كان الخيال كان قد انتهى بفرض نفسه على " الواقع " ، تعتبر غير ضرورية . المهم هو ، العلاقة بين هذين البرنامجين السرديين : المال والجنس.

وسنكتشف في البداية أن هذين البرنامجين يتعارضان مع بعضهما البعض على الأقل جزئياً : إن الرحالة الذي يحسب وقته بالدقيقة ، حسب المبدأ الأمريكي القائل بأن " الوقت من ذهب " لا يجب أن يتبع أهدافاً جنسية سادية ، مأسوسية أو أخرى . ومثله مثل ميرسو الذي يخضع لمرسل مزدوج (طبيعة الماء وطبيعة الشمس) ، ماتياس أيضاً يقع تحت سيطرة مبدئين متناقضين أحدهم يستبعد الآخر على المستوى الزمني ، ومثلها مثل ذاتية ميرسو فإن ذاتية ماتياس مقيدة بهذا التناقض الأساسى الذى يمنع الفاعل - الذات من الظهور على سجيته وتحقيق برنامج سردي متسق.

وفي مرحلة ثانية يمكننا استنتاج تكامل بين المبدئين: فبالرغم من أن المال والجنس لا ينتميان مثل الماء والشمس، لفاعل متجانس ومزدوج القيمة (الطبيعة) ، إلا أنهما يكملان بعضهما البعض فى أكثر من موضع . نحن فى الحالتين أمام مبدأ كمي ، تكرارى ولا مبالى بجميع " القيم الكيفية " (جولدمان) : أخلاقية ، سياسية ، جمالية ، ميتافيزيقية أو غيرها .

وتتفق الصورة السادية التى يتكرر ظهورها بلا توقف فى مخيلة ماتياس (الفتاة منفرجة الأفخاذ ، المربوطة للأرض بالحبال) مع المشهد التجارى (الخيالى فى البداية و " الواقعى " بعد ذلك) : " هناك مسألة حسابية تفرض نفسها: إذا كان يريد أن يبيع ساعاته التسع وثمانين كم من الوقت يتطلب بيع كل منها [...] وحاول ماتياس تخيل هذه البيعة المثالية التى لن تستغرق أكثر من أربع دقائق ، وصول ، المناداة على البضاعة، عرض البضاعة، اختيار السلعة ، دفع القيمة المكتوبة على الملصق، خروج " (روب - جرييه، ١٩٥٥ : ٣٤ - ٣٥) . إن الصفة التكرارية والآلية للبيع تزداد

طالما فهم الرحالة أنه فى سباق مع الزمن : " وضع الرحالة حقيبته الصغيرة على طرف المائدة الطويلة - انفتح القفل ، وارتفع الغطاء للخلف ، وانزاحت المفكرة ... " (روب - جرييه ، ١٩٦٦ : ١٥١ . ويزداد الإيقاع بسرعة فى الصفحات التالية ، حيث يشير استبعاد الفعل إلى سرعة العملية التى أصبحت آلية كليةً : " فناء أو باب على اليمين مطبخ ، فى وسطه المائدة الكبيرة البيضاء مغطاة بنسيج مشمع فيه ورود صغيرة ، صوت فتح القفل ، الخ " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ١٥٥) .

ما يميز مبيعات الرحالة ، بخلاف تكراريتها الآلية والتسلسلية ، هو لامبالاتها العاطفية والأخلاقية: بالنسبة لماتياس فإن القواعد العاطفية والاجتماعية ليست إلا أعذاراً ووسائل لزيادة الربح . إن حقيقة أن سكان الجزيرة هم " أصدقاء طفولته " لا تلعب أى دور فى تعامله معهم . مشاعره منافقة ، مجرد وسائل ترويح: " وما أن أطلق غبطته غير متقنة النفاق حتى خمدت من تلقاء نفسها " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٦٤) .

ونستنتج عن طريق مقارنة مخيلة الرحالة مع مخيلة السادى ، أوجه تشابه مثيرة . وكما سبقه ساد Sade ، فإن ماتياس يتخيل بلا توقف الاغتصاب الكامل: الحبال والخيوط التى تذكره بالأفخاذ المنفرجة والمقيدة لفيوليت . الصورة الأخيرة تلخص جميع الصور السابقة : " هى ، فى المقابل كانت لا تزال هادئة فى وضعها ، الأيدي مختلفة وراء ظهرها - تحتها ، فى أغوار الخصر ، الأفخاذ ممدودة ومنفرجة ، الفم متمد من الكمامة " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٢٤٦) .

فى وصفه شبه الهندسى للفتاة المتوقفة عن الحركة ، فى استعداد لأن تغتصب ، ليس هناك أى مجال للمتعة ، للعاطفة أو لأى حكم قيمي : " تستبعد هنا أى أحكام قيمية لحساب الأحكام الفعلية . " وإذا نظرنا له من وجهة نظر أخلاقية أو ثقافية ، يمكن أن نقول أن ماتياس هو لا - ذات : مثل ميرسو الذى لم تعد لامبالاته تتقبل التمييز بين الخير والشر ، الحب والكراهية .

والقوتان المحركتان (المُرسَلان) اللتان تسمحان بشرح وظيفة ماتياس
هما قوى اجتماعية غير ثقافية : المال والجنس يقعان فوق الخير والشر ،
الجمال والقبح ، الحب والكراهية . وفى هذا الصدد فإن الحتمية الاقتصادية
التي يرضخ لها ماتياس تكمل الحتمية الجنسية .

ومن قبل روب - جرييه بكثير ، أقام ألبرتو مورافيا علاقة بين المال
والجنس : " لقد أردت أن أفهم كيف يمكن شراء الجنس فى حين لا يمكن ،
مثلاً شراء العاطفة " (مورافيا ، ١٩٧٩ : ٣٢) . ومثله مثل المال ، فإن
الجنس لايبالى بقيم ، بتمييزات أو مصداقيات الثقافة ، أما العاطفة والحب
فبالعكس ، لا تنفصل عن هذه التمييزات (الأخلاقية ، الجمالية ، السياسية) .
وعن طريق الجمع بين المال والجنس فإن البغاء (الذى يتحدث عنه مورافيا)
يغض النظر عن جميع القيم الثقافية .

وينطبق هذا على ماتياس الذى يتحول بفعل الحتمية الاقتصادية -
الجنسية إلى آلة حاسبة : إلى لا - ذات . ولا نقصد هنا الرجوع إلى البرهان
الاقتصادي لجولدمان ، لأنه من البديهي أن عزل العوامل الاقتصادية
والجنسية غير ممكن إلا فى إطار وضع اجتماعى - لغوى وفى إطار لهجة
جماعية " علمية " تحكمها اللامبالاة الدلالية . وهذا ما سمح لكامو وفى منظور
أكثر طرفاً ، لروب - جرييه بغض النظر عن الأحكام القيمية والاتجاه إلى
" حيادية " و " موضوعية " قيمة التبادل .

وتسمح ازدواجية القيم واللامبالاة بوصفهما مفاهيم دلالية ، بربط
روايات كامو وروب - جرييه بالوضع الاجتماعى - اللغوى وبالمجتمع عموماً .
وبالرغم من أن هذه المفاهيم يمكن الربط بينها وبين مفاهيم الاقتصاد
السياسى مثل قيمة التبادل والتشيو ، إلا أنها غير قابلة للاختزال إلى هذه
الأخيرة وعدم قابليتها للاختزال يتفق مع عدم قابلية النص الأدبى نفسه
للاختزال : إنها تسمح بشرح بنى الرواية مثل " فى المتاهة " ، حيث لا مجال
هناك للاقتصاد أو المال . وواقع أن ماتياس هو رحالة تاجر ليس بالطبع

صدفة عابرة (وكذلك أيضاً صمت النقاد بهذا الشأن) ، لكنه غير ضروري في التحليل الاجتماعي . (إن ادعاء أن القوانين الاقتصادية لا تلعب أى دور فى نظام قيم مجتمع بنيته عبارة عن تجسيد لقانون السوق . هو سذاجة أو عنصر أيديولوج (Idéologème).

وفى إطار هذا السياق ، نفهم بشكل أفضل ، العلاقات (التي نوقشت كثيراً ولم تفسر أبداً) التي تجمع بين " المتلصص " و " الرحالة " . ومن المؤكد أن الرواية كان يجب أن تظهر فى البدء تحت عنوان " الرحالة " - Le Voyeur وأن الناشر هو الذى اقترح العنوان النهائى (لأسباب تجارية فى الأغلب) . وإذا وضعنا فى اعتبارنا ما قيل حتى الآن وواقعة أن ماتياس كثيراً ما ينظر إلى فتاة خيالية أو إلى رقبة رقيقة لامرأة ضعيفة التكوين (نظرته التقطت بشكل عابر الرقبة الرفيعة والسناعمة لامرأة شابة ... " ص ١٤٣) ، نستطيع أن نفهم تعبير موريس بلانشو " متلصص تجارة " Voyeur de Commerce هو أكثر من مجرد كلمة جيدة (بلانشو، ١٩٧٢ : ٦٥).

إن مسألة معرفة ما إذا كان ماتياس هو المتلصص أو جوليان ماريك هو الذى ربما قد شاهد جريمة القتل (موريسيت، ١٩٦٣ : ١٠٤) ، ليست لها أية أهمية . النظرة الخرساء هى أحد التيمات الأساسية فى الرواية ، فهى ترتبط بشكل وثيق بمشكلة اللامبالاة ولا يمكن إحالتها لفاعل معين (معرف مثل " المتلصص ") : " الخادمة كانت تنظر للأرض عند قدميها . الرئيس كان ينظر للخادمة . ماتياس رأى نظرة الرئيس . البحارون الثلاثة كانوا ينظرون لأكوابهم " (روب - جرييه ، ١٩٥٥ : ٥٧ - ٥٨) . النظرة الخالية من التعبير تتفق مع فقدان المصدقية واللغة الخالية من المعنى واللامبالية للأبطال .

وما يميز المتلصص ماتياس عن المتلصصين هو أنه يجمع فى برنامجه السردي المبدأ الاقتصادي (رحالة) مع المبدأ الجنسى (متلصص) وهو الوحيد الذى يجمع هذين المبدأين فى سياق يتسم باللامبالاة . إن الأزواج القيمي للعنوان ولعبة الكلمات (رحال - متلصص) تفسر فى ضوء الطابع

المزدوج لماتياس : وفى ضوء طاعته لمرسلين مكملين لبعضهما البعض محققا برنامجهما السردي المتناقض جزئيا . مرة أخرى ، المقصود هو فحص الوظائف النصية وليس الشخصيات و " هويتها " وأسماءها التى تضعها الرواية الجديدة فى موضع التساؤل .

فى كثير من المواضع يتشابه النموذج الفاعلى للمتخصص مع مثيله فى الغريب فى تجسيده لحتمية اقتصادية وجنسية معاً (إذاً غير اجتماعية) إن رواية روب - جرييه تمت بصلة لرواية كامو . مثله مثل روب - جرييه ، فإن كامو يبين فردا لامباليا ، فريسة لسببية عمياء ، للقوى الطبيعية : لحتمية طبيعة أسطورية (للماء وللشمس) تتفق فى " المتخصص " مع الحتمية المزدوجة للاقتصاد والجنس . وفى الحالتين فإن الذاتية الاجتماعية (الأخلاقية ، السياسية أو العاطفية) للفرد تستبعد اللامبالاة .

إلا أن اختلافاً هاماً يظل قائماً : فى رواية كامو يعارض الخطاب الأيديولوجى هذه اللامبالاة . فهو يعيد المعنى (المصدقية) بمناداة الفرد كذات وبمعاقبة لامبالاته . أما فى " المتخصص " ، يختفى الخطاب الأيديولوجى : لم تعد تطرح مسألة المعنى (القيمة) .

ه - نقد وموافقة فى " المتخصص "

يميل روب - جرييه وممثلو الرواية الجديدة الآخرين إلى اعتبار هذا الرفض للمعنى الأيديولوجى تقدما وعلى أنه عنصر نقدى . وأود أن أوضح فى النهاية ، أن هذا الرفض الذى تتميز به بعض تيارات العلم المعاصر ، يعانى من التباس أساسى : الرغبة فى ازدياء جميع الأيديولوجيات والقيم التى تنادى بها هو بالطبع فعل نقدى ، ولكن يبدو من المشروع التساؤل عما إذا كان النقد الشامل ، الكامل ليس مجرد تأكيد لما هو قائم . إن رواية كامو أظهرت بوضوح الصفة القمعية لأيديولوجية خاصة : للخطابات الإنسانية - المسيحية التى تجعل من ميرسو ذاتا مذنبه وتستوجب العقاب .

وروب - جرييه على حق بالطبع عند نقده ، فى الوضع الاجتماعى -
اللغوى الحالى ، العناصر الأيديولوجية Les Ideologèmes "للذات" ،
"للبلط" و " للمعنى" . وفى الحالتين تظهر اللامبالاة الدلالية على أنها أداة
نقدية قوية تسمح بازدياد مفاهيم لازمنية وقمعية .

إلا أن هذه اللامبالاة ليست لها نفس وظيفة الأزواج القيمي . فى
روايات كافكا ، بروست ، سارتر وموزيل فإن الأزواج الثقافى واللغوى هو
نقطة انطلاق بحث طويل يؤدي أو يجب أن يؤدي إلى (يفشل جوزيف)
اكتشاف دائرة أصيلة: للحقيقة الجمالية أو الأخلاقية أو السياسية. إن أبطال
بروست وسارتر يكتشفون الكتابة، أما أبطال كافكا وموزيل فيبحثون عن
الحقيقة، " القانون " أو "يوتوبيا الحالة الأخرى" . وحتى إذا اعتبرنا هذا
البحث على أنه أيديولوجى أو ميتافيزيقى فسنتعرف على صفته النقدية : إنه
نفى لما هو قائم، للواقع (الموصوف فى الروايات) .

لدى روب - جرييه ، يحدث العكس، إن نفى الأيديولوجيات فى
سياق اللامبالاة ، لا يولد أى نوع من البحث. فى رواية "المتلصص" فإن
الواقع والوقائعية مقبولان كما هما. وتحذف جميع الأحكام القيمية.

هناك شىء من الموافقة فى هذا الحذف : موافقة على الواقع وبخاصة
على لا - معنى قيمة التبادل التى تحكم تصرفات الرحالة. إن تقبل هذا
اللامعنى لا يستبعد فقط التجاوز النقدى لما هو قائم بل يتضمن تأكيدا لواقع
العلاقات الاجتماعية القائمة .

ومن المحتمل أن روب - جرييه سيعترض على هذا النقد لروايته قائلاً
بأن نصه ليس مع أو ضد المجتمع القائم وإنه بناء سردى ، خرج كاتبه عن
قوالب الروايات التقليدية دون أن يؤيد أو يولد أى شىء بالمرّة.

هذا هو بالتحديد الخطأ: مع حذف مسألة المعنى (البحث) فإن رواية
مثل "المتلصص" تؤكد بعض العلاقات القائمة والقوالب الاجتماعية: وليس
صدفة ، كما يبدو لى ، أن تختزل المرأة إلى موضوع جنسى وأن تظهر دائماً

على أنها سلبية مستكينة ، ضعيفة وخاضعة لإرادة الذكر . فى إطار هذا الوضع ليست هناك أية أهمية للتساؤل حول معرفة ما إذا كان ماتياس هو الذى قتل فيوليت - چاكلين أو هو الصياد (المتهم من قبل زوجته أو خطيبته) . وتؤكد هذا الشك رواية أحدث " طوبولوجيا مدينة شبحية " حيث الفكرة المهيمنة المتكررة هى الفتيات العاريات جزئياً أو كاملاً : يعيد نص روب - جرييه إنتاج بعض الأساطير التجارية للمجتمع الاستهلاكي بشكل لا - نقدى. مثلما فى " المتلصص " ، المرأة (عذراء سلبية فى أغلب) الأحيان هى موضوع النظرة الذكرية . هذه العلاقة بين الجنسين والمفضلة لدى روب - جرييه ليست تفضيلاً يمكن إهماله : فهو يؤكد وضعاً قائماً اجتماعياً سواء أراد أو لم يرد الكاتب .

وهنا تظهر الصفة الالتباسية للامبالاة: مع التأكيد على نفي المعنى والحيادية الدلالية، يعيد الروائى (أو المُنظر الوضعى) إنتاج بعض القوالب الاجتماعية المكتملة بعضها لبعض أو المتناقضة، بشكل غير واع أو بدون الاعتراف بذلك . وإذا كان قد نجح فعلاً فى استبعاد جميع الأحكام القيمة، فهو لا يعمل إلا على تأكيد قيمة التبادل اللامبالية بالثقافة . (ونكتشف هنا توازياً بين الـ " الموضوعية العلمية " لدى الوضعية الجديدة الاجتماعية أو الفلسفية واللامبالاة الروائية : فى الحالتين نحن بصدد استبعاد للأحكام القيمة، وفى الحالتين تتغلغل أحكام مسبقة، أساطير، عناصر أيديولوجية فى الخطاب الذى يتطلع للحيادية الأيديولوجية عن طريق تقليد لامبالاة السوق.) .

وفى الوضع الحالى، يصعب تقديم بديل بسيط أو مقنع لنقد الأيديولوجية لدى روب - جرييه. فالبحث عن بديل من هذا النوع ليس هو هدف الكتاب ، إلا أنى أعتقد أن الحل لن يكون فى محاولة إزالة الأحكام القيمة ومساءلة المعنى. وبدلاً من رفض هذا السؤال، وبدلاً من اعتبار القيم الاجتماعية القائمة على أنها لامبالية أو ببساطة أيديولوجية، يجب السعى وراء

خطاب نظري أو تخييلي، قادر على التأمل في أصل ووظيفة ومحتوى الحقيقة للقيم الاجتماعية التي أصبحت مزدوجة: للقيم الاجتماعية المتأزمة لأن نقد الحالة القائمة *Statu quo* يصبح مستحيلا حين تستبعد جميع الأحكام القيمة. هناك علاقة مباشرة بين اللامبالاة والموافقة.

الفصل الخامس النقد الاجتماعي والتحليل النفسي المجتمع والنفس لدى بروس

١ - مسائل منهجية

تتسم المناهج الاجتماعية والتحليلية النفسية التقليدية بمشكلة منهجية مشتركة : إنها تتجه إلى " المحتوى " ، إلى المستوى الخاص بالتيمة ، وتميل إلى إهمال البنى اللغوية للنصوص . وفى نوع من الربط مع الفصول السابقة أود أن أوضح أنه من الممكن الجمع بين المدخل الاجتماعي والمدخل التحليلي النفسي فى إطار علم اجتماع للنص يتجه إلى الوضع الاجتماعي - اللغوي ، اللغة الجماعية والبنى الدلالية والسردية للنص التخيلي .

فى المدخل الاجتماعي والتحليلي النفسي على حد سواء ، الذى ننادى به هنا ، يجب أن يستبدل بتعريف التشابه ، الذى يشكل الأساس المنهجي لكثير من الأبحاث فى هذا المجال تعريف اللهجة الجماعية . وبدلاً من وضع علاقات تشابه بين الشخصيات والأفعال والأشياء وبعض المفاهيم التحليلية النفسية مثل الكبت أو النكوص أو عقدة أوديب ، أود أن أطرح مشكلة الوظيفة النفسية (الاجتماعية) للبنى اللغوية التى يستوعبها النص الأدبي . بدلاً من طرح أسئلة تخص المعنى الرمزي " الخفى " للأبطال والبحث عن رموز جنسية (أمومية أو أبوية أو قضيبية) فى النص ، أود أن أفتح منظورا يتخذ فيه شكل معين للغة - لهجة جماعية ما - معنىً خاصاً بالنسبة لنفسية الكاتب وبعض أعضاء جماعته .

باختصار، المقصود هو إحلال مدخل وظيفي يستهدف العمليات اللغوية بدلا من المدخل الرمزي المحكوم بالتشابه . إن السؤال لم يعد معرفة فيما إذا كان، الحارس المشهور الموضوع أمام " القانون " فى " محاكمة " كافكا يرمز للأب ، بل أى وظيفة نفسية تملؤها الكتابة الكافكاوية . - إن التحليلات التالية يمكن قراءتها على أنها تكملة لنقد التشابه فى الفصل الثالث (الفصل ٣ ، ٢ ، ج) .

و حين كان ، النقد الجديد فى الستينات فى مركز المناقشات الأدبية، حاول چاك ليناردت أن يضع بعض التشابهات بين خطاب علم الاجتماع الأدبى والنقد النفسانى لشارل مورون (ليناردت ، ١٩٦٨) . وانطلاقا من التحليلات الأدبية لجولدمان ومورون ، يوضح كيف يمكن اعتبار حجة اجتماعية على أنها مماثلة لحجة تحليلية نفسية والعكس بالعكس .

ويستنتج تشابهات فى المجال الأدبى وفى مجال الوقائع خارج الأدب Extralittéraires : يقابل التصوير الجولدمانى للجانسينية على أنها رؤية مأساوية تعاني من التوترات بين القوانين الاجتماعية من جانب وبين القانون الإلى من الجانب الآخر والذي ينتج مفارقة "الرفض داخل الدنيوى" Re- fus Intramondain ؛ التمزق النفسى لراسين الشاب، فى تفسيرات مورون : فهو يقوم برحلة مكوكية بين عشقه للمسرح (" استثمار ليبيدى ") وبين الأنا العليا التى يمثلها دير پور - روايال وقائمة التحريمات التى يضعها .

وتظهر هذه التوترات والصراعات فى عالم التراچيديا الراسينية . ويصف مورون تقلبات عشق المحارم فى أعمال راسين والتى يقسمها إلى ثلاث مراحل:

١ - الدوافع الأوديبية للأبطال والمكبوتة فى وجود الممثلين ذوى النفوذ والساديين للأنا العليا .

٢ - فى تراچيديا ميثريدات Mithridate التى ، كما يقول مورون، تشغل وصفا مركزيا فى العمل، تنتصر الرغبة الأوديبية . ويكتب مورون نفسه فى هذا

الشأن : " [...] من الملاحظ أن "ميثريدات" تقدم لنا مثلاً لأوديب ليس فقط معترف به بل منتصر أيضاً " (مورون ، ١٩٥٧ : ٢٩) .

٣ - فى النهاية فإن النقد مستبطن على مستوى الأنا العليا وتتحول رغبة عشق المحارم إلى ماسوشية وعقاب ذاتى .

الجناس الشكلى بين هذا التصوير التحليلى النفسى والتصوير الاجتماعى للوسيان جولدمان قوى :

١ - فى التراچيديا الأولى لراسين (فى Bérénice ، مثلا) يحكم أفعال الأبطال الرفض الجذرى للعالم الاجتماعى الذى يربط جولدمان بينه وبين الأوضاع المتطرفة للجانسينية (انظر الفصل ٣ ، ٢ ، ج) .

٢ - فى "باجازيه" Bajazet و phigénie ولكن بخاصة فى "ميثريدات" Mithridate ، هناك إمكانية لعقد مساومة مع العالم . فى "الإله الخفى" تصور "ميثريدات" وكأنها "قمة الأمل الباطن وداخل الدنيوى" (جولدمان، ١٩٥٥: ٣٩٥) .

٣ - فى "فيدرا" (" تراچيديا مع انقلاب واعتراف " ، فى رأى جولدمان) ، فإن الرفض داخل الدنيوى والمثالى الإلهى مستبطن فى النهاية ، وفى نفس الوقت ، يتم تأكيد الوعى المأساوى .

ولسنا هنا بصدد نقد هذه التفسيرات التى تستبعد بشكل عشوائى المسرحيات الأولى لراسين (La Thébaïde, Alexandre) : جولدمان ومورون لا يذكرانها إلا سريعا . أعتقد أن من الأهم شرح بنية الخطابات التحليلية النفسية والاجتماعية التى تشكل " معنى " التراچيديا الراسينية على مستوى ما وراء النص ، وقد أصر كثير من النقاد فيما مضى على أن أساس هذه الخطابات هو التشابه .

ويبدو جيرار جينيت Gérard Genette صارما فى تحليله دراسة ليناردت حول العلاقات بين علم الاجتماع والتحليل النفسى فى النقد الأدبى (ندوة سيريزى ، ١٩٦٦) : " لدى دائماً هذا الانطباع بأننا فى دراسات

جولدمان، بصدد علاقة تشابه مصطنع في أغلب الأحيان . وأخشى أن تكون كلمة تماثل Homologie أكثر ملاءمة لتغطى لدى جولدمان تشابها فاحشا في بعض الأحيان " (جينيت ، ١٩٦٨ : ٣٩١) . وليس جينيت الوحيد في طرح مثل هذا النوع من الاعتراض (انظر كذلك بوازييس ، ١٩٧٠ : ٨٢ - ٨٤) .

وفرضية التشابه / التماثل بين الجانسينية وتراجيديا راسين لا تنقصها المعقولية . ويؤكد لها ليولوفنتال (انظر الفصل ٣ ، ٢ ، ب) في سياق نظري مختلف إلى حد ما . وأعتقد أن التشابه نفسه ، أكثر من الفرضية ذاتها ، وبوصفه عملية خطابية ووسيلة تدليل نظري ، غير قائم على أساس وطيدي .

وإذا فحصنا عن قرب هذه العملية التي تقيم روابط بين النظرية والتخييل ، نستنتج أننا بصدد نموذج معقد ذي أربع شرائح ، لم يوضحه لاجولدمان ولا مورون في أعمالهما :

١ - النص الفرويدي الشارح : فرويد متخذا كمنقطة انطلاق الدراما القديمة لسوفوكليس "أوديب ملكا" (وكذلك النصوص الأسطورية التي نبع عنها) أقام فرويد بالبديهة، نموذجا فاعليا (جريماس) وفاعليه الأسايين هم: اللاوعى، الأنا والأنا العليا . ويشكل هذا النموذج الفاعلى ، بوصفه قاسم التشبيه analogon للدراما أساس الخطاب الذى يهتم بتوضيح بعض عمليات الحياة النفسية للفرد .

٢ - تحول النص الشارح: يتشكل النص الشارح الفرويدي ويتحول لدى مورون فى إطار النقد النفسى الذى يدخل مفاهيم جديدة مثل الاستعارة الاستحواذية Métaphore obsédante والأسطورة الشخصية - Mythe per-sonnel .

٣ - تشابه بين النص والنص الشارح : يطبق مورون النموذج الخطابى لدى فرويد معيدا تفسيره ومستكملا له (بخاصة النموذج الفاعلى الثلاثى) على تراجيديات راسين . هذه العملية تتضمن بعض التشابهات بين الفاعلين الفرويديين (اللاوعى ، الأنا ، الأنا العليا) وبعض الفاعلين التراجيديين مثل

الامبراطورية، روما، السلطة، الحب، الخ . هذه التشابهات مجرد فرضيات وتختلف معقوليتها من تفسير لآخر . (وإذا بالغنا سنقول أنه بفضل جانبه الأسطوري ينتهي التحليل النفسى بإقامة تشابه بين الدراما القديمة و دراما القرن السابع عشر : لأن التحليل النفسى نابع من الخطاب الدرامى).

٤ - تشابه بين النصوص الشارحة : فى النهاية ، يوضح ليناردت تشابها بين النص الشارح الاجتماعى والنص الشارح التحليلى النفسى مع افتراض علاقات كنائية بين تحليلات مورون وتحليلات جولدمان : ارتباط أوديبى - رفض للعالم، انتصار الأوديبية - قبول داخل دنيوى، تسليح الأنا العليا - استبطان المثالى ، الخ (ويضع علاقات تشابه بين المفاهيم والفاعلين. ليناردت ، ١٩٦٨ : ٣٨١).

هذه التعليقات لا تستهدف إلغاء مبدأ التشابه من الخطاب العلمى : لا يمكن تشبيه العلم بأى وضعية منطقية تدعى تمكنا من استبعاد الأيديولوجية (أو " الميتافيزيقا ") عن طريق رفض جميع صور الخطاب وإدخال مفاهيم "معرفة بدقة " . إن أعمال مورون وجولدمان تظهر عقم وضعية من هذا النوع عن طريق إثبات أن مفهوم التشابه أو التماثل يمكن أن يكون مفيدا للنظرية طالما أن له وظيفة ملموسة وأساساً إمبيريقياً قوياً ، كما يظهر أن كذلك الحدود ونقاط ضعف التشابه الجزئى النظرى الذى يصبح غير مقنع إذا ترك للتأمل والتجريد (كما فى تحليلات جولدمان للرواية الجديدة التى لا تراعى البنى النصية ولا السياق الاجتماعى اللغوى).

بعكس جولدمان الذى أهمل كثيرا البنى اللغوية ، يسعى مورون إلى تعريف الاستعارات الاستحواذية للنصوص الأدبية لإظهار " صورة الأسطورة الشخصية " (مورون ، ١٩٦٣ ، ١٩٨٣ : ٣٢). ولكنه مثله مثل جولدمان، لا يسأل السؤال الأساسى حول معرفة أى بنى لغوية تربط العالم التخيلى (الأدبى) بالعالم الاجتماعى أو النفسى . وحقيقى أنه يعتبر من ضمن المتغيرات التى يجب على الناقد الأدبى أن يحللها "اللغة وتاريخها" : فى حالة أى عمل أدبى تصنف هذه المتغيرات إلى ثلاث مجموعات: الوسط

وتاريخه - شخصية الكاتب وتاريخه - اللغة وتاريخها " (مورون، ١٩٦٣، ١٩٨٣ : ١٢) . إلا أن مشكلة الوظيفة النفسانية لبعض البنى اللغوية (لبعض الخطابات) لا تطرح هنا . وبالرغم من اهتمامه " بالتداعيات " Associations والصور الأدبية (" الاستعارات الاستحواذية ") يعتمد مورون بشكل مبالغ فيه على التشابه حين يكون بصدد وضع روابط بين النص وسياقه النفسى .

التدليل " التشابهى " الذى قدمته أربع شرائح والذى، يبتعد تماماً - فى رأيى - عن ممارسة العلوم الاجتماعية ، لا يمكن إصلاحه فى إطار المناهج التقليدية حيث يؤدى وظيفة محددة وضرورية: إنه يساعد علماء النفس أمثال فرويد ومورون أو الفلاسفة - علماء الاجتماع أمثال لوكاتش وجولدمان على ربط النص الأدبى بالواقع . إن العلاقة نص - واقع هى إذن فى مفهوم هؤلاء الكتاب مثل علاقة تصوير وليس كعلاقة تناص .

إن محاولة ربط النص بسياقه تفشل فى كثير من الأحيان بسبب تجريده أو بسبب استحالة توضيح البنى النصية . لقد رأينا إلى أى حد كانت فكرة جولدمان ، بأن سلبية الأبطال فى " المتلصص " «تتفق» مع التشيؤ الرأسمالى، هى تبسيطية : إن مشاكل اللغة والسرد (المفضلة لدى الروائيين) مغيبة .

التشابه الخاص بالتيمة الذى يفترضه جولدمان يظهر غير ضرورى، أى كأنه زائد ، حين نتخذ كنقطة انطلاق لامبالاة وتشيؤ اللغة الذى يعتبره كتاب مثل كامو أو بونچ أو بيكيت كمشكلة أساسية لكتابتهم .

ومع طرحنا هنا لقراءة اجتماعية وتحليلية نفسية معاً " للبحث " لمارسيل بروسست أود أن أظهر أنه من الممكن اختزال وظيفة التشابه (دون الإزالة التامة) وتأكيد الأساس الإمبريقى للتدليل بدءاً من فرضيتين منهجيتين:

١ - إن العلاقة بين النص المجتمع يجب فهمها على أنها عملية تناص يظهر فيها النتاج الأدبى وكأنه تحول اللغات التخيلية وغير التخيلية، المتحدثة أو المكتوبة .

٢ - اللغات التي تحاكي بسخرية وتقلد أو تنتقد فى رواية أو فى دراما تقوم بوظائف جمالية ونفسية واجتماعية معاً وتحليل هذه الوظائف يسمح بإظهار بنية النص فى مجملها ، (بتعبير آخر : بنية " البحث عن الزمن المفقود " يتم شرحها ، على ضوء اللغات والخطابات التي استوعبتها الرواية .) .

ولقد حاولت فى الماضى أن أوضح فى " البحث " لمارسيل بروسست ، أن حديث الصالونات بوصفه لغة جماعية للطبقة المرفهة (Veblen) ، يلعب دوراً هاماً بشكل خاص . أنه مقلد وتتم محاكاته بسخرية على مستوى التناص ، حيث توضح وظائفه بعض المظاهر البنيوية للرواية .

ولم يعد السؤال هو معرفة كيف " تصور " و " تعكس " الرواية الواقع الاجتماعى للجمهورية الثالثة ولكن ماهى الوظائف الاجتماعية والنفسية لحديث الصالونات بوصفه لهجة جماعية : بوصفه لهجة جماعية للطبقة المرفهة ولجتمع الصالونات الباريسى فيما حول ١٩٠٠ . والمقصود فى إطار المنظور المتبنى هنا توضيح أن هذه الوظائف تكمل بعضها البعض فإن المشاكل النفسية (النرجسية) يمكن شرحها فى إطار بنية اجتماعية خاصة .

وفى نفس الوقت يتخلى السؤال التقليدى حول معرفة كيف يظهر عصاب névrose الكاتب من خلال النص على مستوى التيمة عن مكانه لبحث سيميوطيقى ووظائفى معا ، يستهدف وظيفة البنية النصية فى التطور النفسى للكاتب .

٢ - حديث ونرجسية

دون التأكيد على أن علاقات المحارم بين الراوى مارسيل وأمه أو بين بروسست وأمه والتي يصر عليها بعض النقاد مثل ميلر (١٩٥٦) أو دوبروفسكى (١٩٧٤) ، ليست على درجة من الأهمية ، أعتقد أنها لا يمكنها أبداً ، كما هى ، أن توضح بنية الرواية . ليس إلا عن طريق توضيح الوظيفة النصية لعشق المحارم ، نتمكن من استخراج أهميتها بالنسبة للرواية . وفى هذا السياق لا يمكن لتحليل التيمات أن يكون الا نقطة بداية ووسيلة .

إن الأبحاث الخاصة بحياة بروست لموروا Maurois أو بينتر Painter تميل إلى تأكيد الفرضية القائلة بأن العلاقات بين بروست وأمه كانت قوية بشكل خاص (بينتر، ١٩٦٦ : ٨٨). كما تبين كذلك كيف تظهر في الرواية علاقات عشق المحارم، بخاصة في " من جهة سوان " (Du Côté de chez Swann) (كومبراي Combray) حيث يستخدم مارسيل جميع الوسائل التي يضعها الوضع الأسرى تحت تصرفه ليتأكد من "امتلاك" الأم التي يسعى إلى تحريرها من سيطرة الأب . ويبدو لي مانفريد شنايدر (Manfred Schneider) على حق في إصراره على الوحدة الفاعلة في دور الأم والجدة في البحث حيث تشكلان معا فاعلا أموميا يعارض في كثير من الأحيان عالم الأب (شنايدر ، ١٩٧٥).

ولن يكون هنا التشابه للوقائع البيوغرافية والقصصية هو مركز النقاش بل واقعة أن عالم عشق المحارم هو في الوقت نفسه عالم الكتابة والأدب. إن العالم الأمومي لكومبراي هو كذلك عالم راسين، كورنى، أوجستين تييرى ، مدام دي سيفيينيه وچورچ صاند . إن العاطفة التي يكنها الراوى مارسيل لأمه وجدته كثيرا ما تختلط بالرغبة في الكتابة: في الأدب الذي تقرأه المرأتان أو تتلوانه عليه . إن العلاقات بين الأم والابن التي تصفها مدام دي سيفيينيه لاتذكر فقط ولكنها تعاش من جانب الراوى.

وفى إطار هذا السياق فإن "فرنسوا لوشمبى" -Francois le Cham- pi لچورچ صاند، إحدى الروايات المذكورة فى " البحث " ، تلعب دوراً هاماً بشكل خاص ، على مستوى التحليل النفسى . وأهميتها ترجع من جانب إلى وظيفتها فى رواية بروست ومن جانب آخر إلى إشكالياتها الخاصة بعشق المحارم والتي لا يفصح عنها أبداً الراوى لدى بروست.

فى ذات ليلة وبالضبط قبل مجيء أحد الزوار (لشارل سوان) قرر أهل مارسيل أن أمه لن تتكمن من الصعود إلى حجرته لتقبله وتلقى عليه تحية المساء ، والأب، المسئول المباشر عن التفرقة بين الأم والابن ، هو الذى يدلى بهذا الرفض : " لا ، أترك أمك ، لقد ألقيتم تحية المساء على بعضكما بما

يكفى، هذه الحركات مضحكة. هيا. إصعد! " (بروست ، ١٩٥٤ : ٢٧). إلا أن مارسيل لا يتراجع عن مقصده الأصلي وهو أن تصعد أمه إلى حجرته، وينتهي أهله إلى الإذعان لرغباته وصفوطه . ويذهب والده إلى حد السماح لزوجته بالبقاء طول الليل مع ابنه: " ماما بقيت هذه الليلة فى حجرتى [...] "(بروست ، ١٩٥٤ ، ١ : ٨٣) . وتعيد عليه مرة أخرى، قراءة رواية صائد " فرانسوا لوشمبى " . واختيار هذا النص ليس صدفة : لأنه يسرد حكاية يتيم ينتهى بالزواج من أمه التى تبنته وهى طحانة أما الطحان المعادى الذى كان قد طرده بعد أن عرف أنه ينافسه على زوجته، فيموت .

وبعض الفقرات فى " فرانسوا لوشمبى " يجب قراءتها موازاة مع فقرات تتناسب معها فى " البحث " . فمثله مثل مارسيل ، يرغب فرانسوا فى قبلة الأمومة : " حسنا ، إنه ... إنه أنك تقبلين جانى كثيراً وأنت لم تقبلينى أبداً منذ أن ودعنا بعضنا " (صائد ، ١٩٦٢ : ٢٥٦) . ومثله مثل الأب فى رواية بروست ، " الأب " (الطحان بوصفه أب بالتبنى) مسئول عن التفرقة المؤقتة بين " الأم " و " الابن " : " إن الأمور لم تكن تتبدل إلا من أسوأ لأسوأ ، ويقسم بلانشيه بأنها تحب هذه السلعة الآتية من مستشفى وأنه يرتبك عند رؤيتها وأنها إذا لم تطرد هذا اليتيم دون نقاش ، يعدها بأنه سيوليه بضربة على رأسه تؤدى بحياته وسيطحنه مثل الحبة " (صائد ، ١٩٦٢ : ٢٨٦ - ٢٨٧) .

ويتم فى الروائيتين التغلب على المقاومة الأبوية وتجتمع " الأم " " بابنها " . فى " البحث " يتحقق عشق المحارم على المستوى الرمزي وفى " فرانسوا لوشمبى " يصبح مقبولا أخلاقيا بفعل إننا بصدد ابن بالتبنى .

أحد العناصر الأخرى الهامة هو اسم الأم المتبنية لشمبى واسمها مادلين بلانشيه ويمكننا أن نتساءل فى إطار هذا السياق، مع كليف جوردون فيما إذا كانت الذكريات والمشاعر التى تثيرها " لامادلين " (فى بداية ونهاية " البحث ") ليست رغبات عشق المحارم متسامية : « فى مشهد لامدلين فإنها

هي التي تطرد " تقلبات الحياة " (١ ، ٤٥) . إنه مشهد عصابي: وأعراضه هو استبدال لامادلين* بالأم» (جوردون ، ١٩٨٠ : ١٥٤) .

هناك إذن علاقتان متميزتان بين رغبة المحارم والكتابة: الأولى مباشرة وتظهر بوضوح في القراءة الأمومية لـ "فرانسوا لوشمبي" والثاني وساطي بفعل " الذاكرة اللاإرادية " التي يمكن اعتبارها ، من جانب ، على أنها أساس الكتابة الپروستية ومن جانب آخر على أنها شكل متسامي للخيال المحارمي .

هذا التفسير للعلاقات بين الأم والابن في " البحث " يمثل أهمية خاصة بوصفه يساهم بشكل قاطع ، في شرح النرجسية التي تتخذ مكانة مركزية في الرواية الپروستية . لأن نشوء النرجسية لا تنفصل عن رغبات المحارم لدى الابن ويلاحظ فرويد ، فيما يخص العلاقة الشبقية بين الأم والابن، أنها لا تعرف المنافسة والعداء اللذان يميزان العلاقات الحميمة الأخرى : " الاستثناء الوحيد يمكن أن يكون العلاقة بين الأم والابن والتي لا تشوبها منافسات تالية ، ولكن الذي يدعمها هو أنها أصل اختيار الموضوع الجنسي " (فرويد ، ١٩٦٧ : ٤٠) .

في " البحث " كما في العديد من النصوص البيوغرافية حول پروست، يمكن أن نستنتج ، أن نشوء النرجسية (في رغبة المحارم) يكملها نشوء اللواط " نشوء اللواط الذكورية يتخذ في أغلب الحالات ، الشكل التالي : يحصل الشاب لفترة طويلة ، على تركيز قوى بشكل خاص، بمعنى عقدة أوديب، على الأم . وفي نهاية فترة البلوغ، تأتي أخيراً اللحظة التي عليه أن يستبدل فيها بالأم موضوعاً جنسياً آخر. وهنا يحدث للتطور انقلاب غير منتظر: الشاب لا يتخلى عن أمه بل يتماثل معها [...] " (فرويد ، ١٩٦٧ : ٤٠) .

التماثل مع الأم لا يجلب فقط البحث اللواطى " للابن " ولكنه يتضمن أيضاً - وهذا على وجه خاص من الأهمية هنا - دوام رغبة المحارم والتي

بوصفها رغبة نرجسية ، موضوعها الآن . إن الذات النرجسية تعيد إنتاج الوضع المحارمى السابق ذكره بلا توقف، حيث إنها تسعى إلى إثارة رغبة الآخرين والتي ترفض تحقيقها بما إنها تستمر فى الخضوع لتابو عشق المحارم.

لقد حاولت فى " رغبة الأسطورة " Le Désir du mythe (١٩٧٣) أن أبين كيف يحاول مارسيل فى أكثر من مناسبة ، أن يجعل من نفسه موضوع حب للآخرين (لجيلبرت، لأوديت سوان، لمدام دى جيرمانت). وفى كل مرة تبدأ فيها الإنسحابة المحبوبة والمرغوبة فى الاهتمام به وفى كل مرة تجعل منه موضوعا لرغبتها ، يفقد مارسيل اهتمامه بها . فهو لا يريد إلا رغبة الآخر وليس تحقيق هذه الرغبة التى إما أن يقف حيالها فاعلون Acteurs " أبويون " ، أو يعترض طريقها هو نفسه بنفسه.

ويوضح مصطفى صفوان العلاقة بين رغبة المحارم والنرجسية بوصفها رغبة فى الرغبة : " بتعبير آخر ، إن الرغبة فى الأم تستند لرغبة فى رغبتها: وحيث إن هذه الرغبة الأخيرة تظل مبهمة بالنسبة للذات (وكذلك أيضا بالنسبة للأم نفسها ، حيث إنها فى اللاوعى) والرغبة فى الرغبة ترجع إلى رغبة فى أن يكون مطلوباً . [...] الرغبة فى الرغبة والتى هى رغبة فى أن يكون محبوباً ، تتخذ شكل المُتَمَم [...] عن طريق تحديد استثمار ما لصورة المرأة والتى وصفتها النظرية التحليلية على أنها نرجسية " (صفوان، ١٩٦٨ : ٢٦٥).

وأعتقد أن تفسير المشهد الخاص بالصيادة الصغيرة يجب وضعه فى إطار هذا السياق التحليلي النفسى . وهذا المشهد على وجه خاص من الأهمية لأنه يظهر الصفة النرجسية لحب مارسيل ولأنه يبين أن الراوى البروستى (مثل أغلب أبطال " البحث ") لا يعرف موضوعات جنسية حقيقية فإن الأشخاص التى يدعى حبها ليست إلا ذرائع لرغبته النرجسية . يسافر مارسيل مع مدام دى فيلباريزيس ويقابل إبان رحلة قصيرة للريف ، صيادة شابة تجلس على جسر. وكما هو الحال دائماً، ينبهر مارسيل بتعذر الوصول

(الظاهرى) إلى المحبوبة غير المعروفة : " وتبدولى دخيلة هذه الصيادة لا تزال موصدة فى وجهى ، وأشك فيما إذا كنت قد تغلفت إليها ، حتى بعد أن لاحظت انعكاس صورتى خلسة على مرآة نظرتها [...] " (بروست ، ١٩٥٤ ، ٧١٦ : ١).

وكلمات " انعكاس " و " مرآة " لها أهمية خاصة هنا ، لأنها تظهر البنية النرجسية (" الإيجازية ") Elliptique للرغبة . كما تسمح فى الوقت نفسه بوضع علاقة بين النرجسية و " النظام الخيالى " للاكان : مرحلة من التطور الفردى الذى يتسم بتطابق الطفل مع الآخر . هذا التطابق يسمح للطفل بالوصول إلى الوحدة على هيئة صورة المرآة (لاكان ، ١٩٦٦ ، ١ : ٩٥).

فى الفقرة التالية تظهر الصفة النرجسية للرغبة البروستية بوضوح : إنه مصاحب برغبة فى أن يكون مطلوباً . مارسيل يسعى إلى الحصول على إعجاب ورغبة الآخر . ويقول الراوى عن الصيادة الصغيرة : " هذا ماكنت أريده ، أن تعرف كيف تأخذ فكرة عظيمة عنى . ولكنى حين نطقت بالكلمات "ماركير" و"الحصانين" شعرت فجأة براحة كبيرة لقد شعرت أن الصيادة ستتذكرنى وأنه مع خوفى من عدم استطاعتى لقيائها مرة أخرى ، كان جزء من رغبتى فى لقائها يتبدد " (بروست ، ١٩٥٤ ، ٧١٦ : ١).

وتشبع الذات نفسها فى الرغبة النرجسية إلا أننا لسنا بصدد إشباع مباشر ، مثلما فى مشاهد الشبقية - الذاتية فى بداية كومبراي ، بل إشباع غير مباشر يستخدم الآخر (إعجابه) كحافز . إن الذات النرجسية لا تستهدف امتلاك الموضوع (الفتاة الشابة) ولكنها الأنا : الموضوع ليس إلا ذريعة .

ومن الطريف استنتاج أن البنية الإيجازية للرغبة النرجسية تظهر فى جميع المجالات الأخرى فى الرواية البروستية ، حيث نجد أشياء غير شبقية مثل بالبيك (Balbec) ، فينيسيا أو بعض الصالونات المنيعة يتم تحويلها إلى شبقية : الراوى يرغب فيها دون أن يرغب فى امتلاكها . وامتلاكها يؤدى دون تغيير إلى الإحباط وخيبة الأمل .

وفى إطار هذا السياق، يتضح لنا أكثر ما يقصده بروسست فى خطاب لمدام دى بيبسكو حيث يتحدث عن دوام الرغبة (بيبسكو ، ١٩٦٥ : ٨٧) : إن الرغبة النرجسية التى تمتد أصولها إلى رغبة عشق المحارم ، تستعصى على الإشباع ، لأن موضوعها المكبوت والمنسى هو الأم المحرمة .

ويحصل مشهد " الصيادة الصغيرة " على معنى ثانوى حين يوضع بالمقارنة مع طموحات ورغبات الصالونات: رغبات المتحذلق (Snob) ، الغندور (Dandy) وكثير الكلام (causeur) . إن الارتباط بين الرغبة النرجسية وحديث الصالونات (اللغة الجماعية للطبقة المرفهة) يلتقى بالارتباط بين التحليل النفسى وعلم اجتماع النص . ومثل كثير الكلام، الذى يتحدث ليلمع ، لكى يحصل على إعجاب الآخرين حيث تعكس نظرتهم صورته المرغوب فيها ، فإن راوى " البحث " يسعى لإرضاء نرجسيته فى الحديث : " إلا أنى حين نطقت بكلمة " ماركيزة " و " حصانين " شعرت فجأة براحة كبيرة . "

وهنا تستنتج أن الحذلق والغندرة والحديث ، تقوم فى " البحث " بوظيفة نفسية خاصة : إنها تُمكن تحول الرغبة النرجسية التى تتخلص من السياق الشبقى - الذاتى لتحقيق فى سياق الاتصال الطبقي الراقى .

" الغندور نرجسى " ، هذا ماكتبه جوليان P.Jullian فى كتابه حول روبير دى مونتسكيو : " فهو يريد أن يعكس صورته فى العيون المعجبة ويبحث فى البورتريه عن مجاملات مرآته " (جوليان ، ١٩٦٥ : ٦٤) . وما يقوله جوليان عن مونتسكو يمكن تكراره بخصوص مارسيل بروسست نفسه فهما يسعيان من خلال الاتصال بالطبقة الراقية، إلى إشباع لرغبتهما التى تتسم بطابع انعكاسى، إيجازى: الرغبة فى إعجاب الآخرين أو الرغبة فى الرغبة، فى أن يكون مطلوباً . بالنسبة لمارسيل كما بالنسبة لبروسست نفسه، فإن الاتصال بمجتمع الطبقة الراقية يصبح هدفاً فى حد ذاته - على الأقل لفترة معينة. مثل غنادر القرن التاسع عشر، فإن مارسيل " من جانب جرمانت " لا

يمكنه تخيل حياة بدون مجتمع ودون مناقشة . فنراه فقد صبره بعد تأخير السيد شارلو لظروف طارئة ، ليحكي له ما حدث فى صالون دى جرمانت الذى تركه لتوه . ونحن فى الفقرة التالية ليس فقط أمام " افتقاد للحديث " يغيظ الراوى ، ولكن أمام "سكّره من الكلمات " يشعر بها وهو ينتظر: " كانت لدى رغبة ملحة فى أن يستمع السيد دى شارلو لحكاياتى والتى كنت أتحرق أن أحكيها له لدرجة أنى تحسرت بشدة حين فكرت أن سيد المنزل ربما يكون نائما وأنى على أن أعود للمنزل أزيل آثار سكرتى من الكلام " (بروست ، ١٩٥٤ ، الكتاب الثانى : ٥٥٢) .

التطور اللاحق لمارسيل يحكمه اكتشاف الفن والكتابة : مثل كاتب "البحث " ، ينتهى بالتخلى عن مجتمع الطبقة الراقية . وفى الوقت نفسه ، يتخلى عن قول هذا المجتمع بوصفه خاطئا وغير أصيل ويستبدل به الكتابة المرتبطة بشكل وثيق (بوصفها إنتاجاً للمعانى) باللاوعى وبالذاكرة اللاإرادية : " لقد طرحت جانبا أكثر من أى شىء آخر تلك الأقوال التى تنتقيها بالأحرى الشفاة وليست الروح ، تلك الأقوال المليئة بالسخرية ، كما يقال فى الحديث وبعد حديث طويل مع الآخرين نستمر فى توجيه الحديث بشكل مصطنع لأنفسنا [...] " (بروست ، ١٩٥٤ ، الكتاب الثالث : ٨٩٧) .

ويبقى شرح الوظيفة النفسية التى تحققها (بالنسبة للكاتب وبالنسبة للراوى) هذه القطيعة فى الاتصال مع مجتمع الطبقة الراقية والتى أصبحت نهائية مع اكتشاف الكتابة . وأود أن أوضح هذه الوظيفة بالموازاة مع تحول ثانٍ وأخير للرجسية البروستية .

فى حين أن التحول الأول للرغبة للرجسية يحرر الذات من تثبيتها الخاص بعشق المحارم عن طريق توجيه الرغبة إلى الاتصال وإلى الآخرين ، فإن التحول الثانى (الذى يتزامن مع المرحلة الثالثة لتطور مارسيل) يلغى بشكل ما العملية التى أطلقها التحول الأول : " لاشىء فى الآخرين " ، هذا ماكتبه بروست فى إحدى مذكراته التى نشرت بعد وفاته حيث نقرأ التالى : "صمت اتصال مع / النفس [...] عدم نسيان : / كتاب وحدة و / كتاب

مجتمع [...] كذب الصداقة / لأنه لاشيء في الـ // الآخرين [...] الواقع في / الذات " (پروست ، ١٩٧٦ : ٧١ ، ٩٨ ، ١٠١) . ونجد تأكيدات مماثلة في البحث : " الكتب الحقيقية يجب أن تكون الأطفال وليس تلك الخاصة بالنهار الساطع والحديث الكثير ولكنها تلك الخاصة بالظلام والصمت " (پروست ، ١٩٥٤ ، الكتاب الثالث : ٨٩٨) .

وإذا تبيننا وجهة نظر تحليلية نفسية يمكن أن نقول إن القطيعة مع النرجسية الاتصالية، نرجسية " الانعكاس " والتوجه ناحية الآخرين، تتضمن رجوعا إلى نقطة البداية : إلى استثمار الليبيدو إلى أنا الكاتب ، إلى لاوعى الذاكرة اللاإرادية ، عن طريق الإنتاج الأدبي . (ومن هنا فإن تطور الكاتب پروست يمكن اعتباره موازيا لتطور الراوى .) وأثناء هذه العملية فإن الشبقية - الذاتية البسيطة المقدمة في كومبراي تخلق مكانها للتأمل الذاتى للكاتب . وتظهر فى هذا السياق، العودة إلى كومبراي (إلى عالم لامادلين) فى " الزمن المستعاد " Le Temps Retrouvé تظهر وكأنها عودة للأُم متسامية عن طريق الكتابة .

ولنأخذ كنقطة انطلاق نظرية النرجسية كما طورتها بعد فرويد، ميلانى كلاين Melanie Klein (١٩٤٨) وهانز كوهوت Hans Kohut (١٩٧٣) ، من الممكن توضيح التفسير شبه المنتشر والقائل بأن النرجسية الپروستية تتزامن مع شكل معين من العودة للطفولة (النكوص) . على الرغم من أنه يجوز ، فيما يخص الزمن المستعاد التحدث عن عودة إلى العالم الأمومى للطفولة ، إلا أنه يجب مراعاة أن الذات (الراوى) لا تعود إلى مرحلة النرجسية الشبقية - الذاتية المحكومة بالارتباط بالأم ، ففي نهاية الرواية يتطابق مع أنا مثالية أو Ichideal (فرويد) : التى تخص الكاتب .

لم تعد الوحدة النرجسية للفنان هى وحدة الطفل الوحيد فى كومبراي . لم تعد الأم هى موضوع رغبة الفنان ، بل الأنا المثالية التى تتبع أصولها من الأدب : " أكثر مدارس الحياة صرامة " . وتظهر النظريات بعد - الفرويدية عن النرجسية هذا التطور ، حيث يكتب عنها جيورجيو ساسنيللى (Giorgio

(Sassanelli) هذه الملاحظة : " إن اختزال جميع أشكال النرجسية إلى النرجسية الثانية والمعرفة على أنها تماثل للأنثى مع موضوع أصبح مثاليا ، تظهر بوضوح لدى عدد من كتاب مدرسة كلاين " (ساسنيللي ، ١٩٨٢ : ٤٧).
- لقد حاولت فى هذا القسم أن أصف تحول النرجسية الابتدائية (المحارمية والشبقية - الذاتية) إلى النرجسية الثانوية الموجهة نحو الكتابة.

٣ - من التحليل النفسى إلى علم اجتماع النص

فى " ازدواجية القيم الروائية " (١٩٨٠) ، حلت بالتفصيل الوظائف الاجتماعية للثنائية قول/ كتابة لدى فرويد ، ولا يمكن أن أستعيد هنا إلا بعض حجج هذا الكتاب التى تكمل التحليلات النفسية . إن المشكلة الرئيسية هى العلاقة بين العناصر الفردية (النفسية) والعناصر الجماعية (الاجتماعية) التى لفتت من قبل انتباه جان پول سارتر فى "مسألة منهج" حيث يقصد التأليف بين تناول جماعى مع وجهة نظر فردية (سارتر ، ١٩٦٠).

أما لدى جولدمان ، فتستند الحجة إلى بعض التشابهات بين الأحداث التاريخية والأحداث الدرامية ، بين انقلابات الجانسينية وانقلابات التراجيديا الراسينية ، لدى مورون فإن النموذج الفاعلى للتحليل النفسى (اللاوعى ، الأنا ، الأنا العليا) ينعكس على العالم القصصى حيث يتوافق بعض الفاعلين والفاعلين الجماعيين للخطاب التحليلى النفسى مع أبطال العالم المأساوى ، وفى النهاية يظهر ليناردت توازيات بين النصوص الشارحة التحليلية النفسية والنصوص الشارحة الخاصة بعلم الاجتماع (الماركسية).

وانطلاقا من الفكرة القائلة بأن حديث مجتمع الطبقة الراقية هو لغة جماعية استوعبتها الرواية على مستوى التناس ، ليست بحاجة لافتراض تشابه بين الرواية والواقع والتخييل لا يتماثل مع التصوير . وعلى الرغم من اجتهادات علم اجتماع النص لاستبدال مفهوم التناس بالفكرة التقليدية للتصوير (انظر الفصل ٤ ، ٧). إلا أنه يستحيل عليها التخلّى نهائيا عن فكرة المحاكاة Mimésis . ومثلها مثل علم اجتماع الأدب التقليدى فإنها لا

تتمكن من التخلي عن الفرضية القائلة بأن بعض العمليات في العالم التخيلي تتفق مع مشاكل وتناقضات في الواقع الاجتماعي - التاريخي . إلا أن المنظور المنهجي يتغير جذريا ، حيث لم تعد " العملية " Processus تعنى مثلما لدى لوكاتش جولدمان أو مورون ، أحداثا أو أفعالا إنسانية ، بل عمليات (تداخل) نصية ولغوية.

والبنية الدلالية للبحث يحكمها التعارض الأساسي (والمشكّل للبنية) بين القول Parole والكتابة écriture ، بين الحديث (السرد) والكتابة. ومن المهم إذن استكمال التفسير التحليلي النفسي لهذا التعارض بتفسير اجتماعي.

في الرواية مثلما في مجتمع الصالونات الذي يصفه كتاب مثل أبيل هرمانت Abel Hermant يظهر الحديث على أنه لغة جماعية تنتج خطاباتها إلى الآخر، إلى الآخرين . فالمتحدث يرى أن جميع القيم الجمالية، الأخلاقية أو السياسية المجسدة في خطابه ، تصبح حججا للنجاح الاجتماعي. فهو يسعى إلى التأثير في الآخرين ليزيد من مكانته الاجتماعية، أي طلب الآخرين. جمالية اللغة بالنسبة له ، بعيدا عن أن تكون هدفا في حد ذاتها ، هي وسيلة للتألق، لإظهار براعته البلاغية واستعراض " قدرته الرمزية " (بورديو). وتتشابه في ذلك الخطابات الصالونية مع خطابات الدعاية التي تخضع جميع القيم الكيفية (الجمالية، الأخلاقية أو السياسية) لقيمة التبادل: للربح.

في الحديث الاجتماعي كما يظهر في الصالونات الباريسية حوالي أعوام ١٩٠٠ ، فإن الأدب ، الفن والعلم هي سلع تبادلية، يهمل المتحدث قيمتها الاستعمالية (الكيف). ويظهر القاموس اللغوي للحديث حسب وصف أبيل هرمانت للمجتمع الراقى ، على أنه سلعة ثقافية تبادلية تخضع لقوانين خارجية . ويكتب مثلا عن سيدة من المجتمع الراقى : " كانت تمتلك القاموس اللغوي للفلاسفة وهذا ما كان يجعلها مريحة للمتحدث [...] " (هرمانت، d . S : ١٣٧).

لقد كان أدورنو من أوائل من اكتشفوا العلاقة بين الحديث وقيمة التبادل وما وصفه بخصوص الاتصال عامة ، يظهر بشكل خاص فى حالة اللغة الجماعية للمجتمع الراقى الذى تحكمه القوانين الخارجية للتبادل : "إن الاتصال هو فى الواقع تأقلم النفس مع المنفعة التى تندرج عن طريقها تحت نمط السلع وما نسميه اليوم معنى Sens يشارك فى هذا المسخ " (أدورنو، ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ : ١٠٤).

والذين يؤكدون أن المتحدث يسعى لإظهار النواحي الجمالية للغة هم بدون شك على حق، إلا أنهم يجهلون أن " جماليته " ليست إلا وهما باطلا. لأنه لا يهتم بصفة اللغة نفسها (مثل الكاتب) : إنه يستخدمها ليضمن نجاحه فى عيون الآخرين . إن المبدأ الكامن فى بلاغته البراقة هو " الكينونة - من أجل الآخر " Être - pour - un - autre والذى استنبطه أدورنو من التوسط عبر قيمة التبادل.

وفى هذه المرحلة من التحليل ، يبدو لى من الممكن وضع ارتباط بين الحجة التحليلية النفسية وحجة علم اجتماع النص ، مع إظهار كيف تتحقق نرجسية المتحدث (المتحذلق أو الغندور) فى الاتصال والتبادل بوصفه Exchange of ideas أى تبادل أفكار.

وتوجد النرجسية فى جميع الأوساط الاجتماعية، وتظهر أشكالها المتطرفة بكثرة فى المجتمع الراقى للمتحذلقين والغنادر المرفهين إلى حد يمكنهم من تخصيص جزء هام من وقتهم لعبادة نواتهم . فى حالة پروست نحن بصدد الوسط الاجتماعى لأصحاب الإيرادات البورجوازيين والنبلاء والذين يعتبرون ضاحية سان - چيرمان مركزاً للعالم والحديث البراق كعنصر لا غنى عنه للنجاح الاجتماعى.

الأشكال المتطرفة إذن للنرجسية (الحذقة والغندرة) تميز " الطبقة المرفهة " Veblen والتى يشكل الرأسمال المتراكم أساسها الاقتصادى. إن وجود صاحب الإيراد ، والذى يتساوى فى أهميته فى " البحث " مع أهميته

فى الواقع الاجتماعى لمارسيل بروسى الذى كان يتعش من أسهم والتزامات عائلية، هو أحد الملامح المميزة للوضع الاجتماعى - الاقتصادى للجمهورية الثالثة . ويكتب كل من أزيما Azéma ووينوك Winock هذه الملاحظة بهذا الشأن : " يخشون من الإنتاج الزائد ، يرفعون من شأن المثل الاجتماعى لصاحب الريع " (أزيما ، وينوك ، ١٩٧٠ : ١٢٩) .

إن الحجة التحليلية النفسية المرسومة هنا لاتقوم فقط على أساس التشابه بين شكل من الاتصال (الحديث) وبين توسط قيمة التبادل ولكن على الفرضية المعقولة القائلة بأن الأساس الاجتماعى - الاقتصادى للطبقة المرفهة يجب أن يظهر فى حياتها الثقافية . كما أنها تنطلق فى الوقت نفسه من فكرة أن الفرد مارسيل بروسى وجد فى اتصال مجتمع الطبقة الراقية الشكل اللغوى المثالى الذى سمح له بإشباع نرجسيته المحارمية (على الأقل لفترة معينة) . (بروسى لم يكن الوحيد الذى عمل على اللهجة الجماعية للطبقة الراقية ، فهناك مثال آخر وهو أعمال أوسكار وايلد Oscar Wilde حيث يتم التعبير عن المجتمع الراقى من خلال "الحديث الذكى" " Witty Talk " الروائى أو الدرامى) .

وفى هذا السياق يمكننا أن نتساءل لماذا مارسيل بروسى هو الذى يصف فى " البحث " مجتمع الصالونات حوالى الأعوام ١٩٠٠ . ويمكننا أن نتساءل لماذا لم يكتب شقيق بروسى رواية مماثلة أو لماذا لم يكتب روبير دى مونتسكيو (لواطى مثل بروسى) " البحث " . ويبدو مستحيلا الإجابة على هذه الأسئلة بشكل مرضٍ .

ذلك لأن النظرية (بخاصة علم الاجتماع) لا تنظر إلى المفرد بوصفه حالة فريدة ، لكن بوصفه تجسيدا لبعض الميول العامة . ولن يمكنها أبداً الإجابة على سؤال لماذا بروسى هو الذى كتب " البحث " وليس غيره، لن يمكنها أبدا القول فيما إن كان يمكن استبدال كرامويل أو نابليون الأول بأى أفراد آخرين من ذلك العصر. إلا أنها يمكنها إظهار العلاقات الوظيفية بين نفسية معينة والوضع الاجتماعى - اللغوى الذى نشأت فيه . وفى النهاية

يجب تحليل ذلك الشكل الخطابى الآخر، فى البحث، والذى يوضع فى مقابل الحديث: الكتابة.

وفى سياق تحليلى نفسى ، يمكن اعتبار الكتابة على أنها أساس الأنا المثالية (Ichideal) التى يتوجه إليها الكاتب والراوى . وبوصفها إنتاجاً أدبياً أو فنياً فإنها تشكل جزءاً من العالم الأمومى لكومبراى والذى يضعه الراوى فى كثير من الأحيان فى تعارض مع عالم صالونات صاحبة سان - چيرمان.

فى السياق الاجتماعى : تظهر الكتابة على أنها القيمة الجمالية المستعادة : البديل الأصيل للحديث الذى أصبح وسيطاً بفعل قيمة التبادل . بتعبير آخر : يوافق التعارض المشكل للبنية بين القول والكتابة ، التعارض بين قيمة التبادل وقيمة الاستعمال على المستوى الاجتماعى .

ولقد سبق أن حاولت أن أبين كيف تقسم الثنائية قول / كتابة (بوصفها " صمت القول " و " وحدة ") الرواية بأكملها . إن النقد الجذرى للحديث الصالونى يودى (بشكل مفارق) إلى نقد القول السردى للرواية التقليدية وإلى رفض القص التعاقبى ، الخطى الذى يضعه پروست فى موضع التساؤل ، مثله مثل السببية السردية للرواية . هذا النقد يولد كتابة تداعٍ écriture associative (رأسية أو مقطعية) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بلا وعى الذاكرة اللاإرادية . (وتظهر هذه العملية بوضوح فى " أسماء بلدان: الاسم (" Noms de pays: le nom ") فى نهاية الكتاب الأول من الرواية) .

ويكمل پروست قائلاً : " عند وجهة النظر هذه ، ربما سيكون كتابى مثل كتاب تأملى لسلسلة من " روايات اللاوعى " [...] " (پروست ، ١٩٧١ : ٥٥٧) . يقوم على التداعى ، تأملى ومتضامن مع الحلم (مع التجربة الحلمية) . إن رواية پروست هى محاولة للقطيعة مع الحديث على المستوى السردى ، التركيبى - الكلى Macrosyntaxique . ويظهر المقطع والمشهد الحلمى كبدايل للنص السردى البلازكى والذى يخضع لقوانين السببية السردية .

على المستوى المعجمي، يأخذ فروست جانب الاسم Le Nom الوحيد والذي لا يقبل التبادل الذي يضعه في مقابل الكلمة Le Mot الزائفة والمجردة للحديث . إن الاسم بارتباطه الوثيق بعمليات اللاوعي واستدعاءات الذاكرة الإرادية ، فهو يجسد دوافع الفطرة الفنية والتي يعتبرها فروست كبديل للذكاء الاجتماعي . فروست عن طريق إظهاره للاسم بوصفه دالاً فإنه يضعف المساحة المفهومية للوحدات المعجمية (المدلول) ، كما أنه يشكك في الوقت نفسه في مساحتها المرجعية : فهي لا تصبح تعنى بالمقارنة بالواقع (مثل الكلمات) لكن بالمقارنة مع النفسية الفردية: بالمقارنة باللاوعي (وعلى غرار سقثو وكافكا، وهسه وموزيل وچويس فإن فروست يدخل بعض التعريفات التحليلية النفسية في نص الرواية . ودون أن يقرأ فرويد، يستخدم فروست كلمة " اللاوعي " ويصف في " السجينة " ، فعلاً ناقصاً، ومن هنا يبدو لي أن هناك نوعاً من الموازنة بين التطور الروائي للجزء الأول من القرن العشرين وتطور التحليل النفسي).

وإذا تركنا المنظور التحليلي النفسي إلى علم الاجتماع، نستنتج أيضاً أن الاكتشاف الفروستي للكتابة يتضمن عودة إلى كومبراي. ولكن في هذه الحالة ليست كومبراي العالم الأمومي " للمادلين " (مادلين)، إنما هي عالم العائلة البورجوازية (قرب ١٩٠٠) إحدى الدوائر الأخيرة للمجتمع بعد - الليبرالي والتي لم تصب قيمتها التوسط الانحطاطي لقيمة التبادل.

ويحق السؤال فيما إذا كانت مناداة فروست بفن وأدب مستقلين، لا تؤيد عنصراً أيديولوجياً بورجوازياً بامتياز. وبالتأكيد هو كذلك ونجاح "البحث" يرجع - على الأقل جزئياً - إلى فكرة أن الأدب هو " أكثر مدارس الحياة صرامة " و " الحكم الصادق الأخير " : في المجتمع الدنيوي للبورجوازية فإن هذه التأكيدات لا تعمل إلا على تعليل ذروة المجد المؤسسية للفن . كما نستنتج كذلك أن كتاباً معاصرين مثل روب - جرييه يرفضون اعتبار الدائرة الجمالية على أنها قيم أصيلة، للمعنى . وتتقابل القيمة النقدية " للبحث " على الأرجح مع رفضها للغة ولاتصال منحطين بفعل قوانين العرض والطلب ومع مناداتها بدال غير قابل للتبادل، بالاسم.

الفصل السادس جماليات التلقى وعلم اجتماع القراءة

١ - إنتاج وتلق

كل ما قيل فى الفصول السابقة يخص بنية النص وإنتاجه الاجتماعى. وفى الوقت الحالى فإن مدخلا كهذا يحبذ الإنتاج والمُنتج، ربما يعتبر قد تجاوزه بعض المنظرين الذين اكتشفوا القارىء والجمهور.

ولا يمكن وصف هذا الاكتشاف الذى يشكل نقطة انطلاق "جماليات التلقى" الألمانية، على أنه موضة جديدة، هوس فكرى جديد. فهذا التفسير بسيط للغاية بل ومفرط فى التبسيط. إن ظاهرة "جماليات التلقى" -Rezep-tionsästhetik لمدسة كونستانس والتى أصبحت، خلال السبعينات، التيار السائد للنقد الأدبى الألمانى، يجب شرحها من منظور اجتماعى.

إن تدهور الذات الفردية والذى سبق تناوله فى تحليلات "الغريب" و"المسافر" يظهر كذلك فى المجال النظرى: إن مفاهيم مثل العبقرية، التفرد، الكاتب، الإبداع والشخصية تسقط فى طى الإهمال فى وضع اجتماعى - لغوى يبدأ فيه مفهوم الذات يمثل مشكلة سواء على مستوى التلفظ -énoncia-tion (للاوى) أو على مستوى الملفوظ (للبلط). كما أصبح أيضا مفهوم البطل إشكاليا مثله مثل الفرد فوق العادى.

إن الكاتب بوصفه فرداً متفرداً وشاذاً، يفقد "هالته" (بودلير) فى إطار وضع تُدان فيه الأيديولوجية الفردية للعصر الليبرالى، فى الحياة اليومية والثقافية. ونجد ألتوسيريين مثل إتيان باليبار وبيير ماشرى كثيرا ما

يضعون كلمة " كاتب " بين قوسين للإشارة إلى مسافة دلالية . ويفضلان
"النص " الذي يُظهر اللاوعي الأيديولوجي لمنتجه (انظر الفصل ٢ ، ٢ ، د) .
وبالموازاة يكتشف ممثلو جماليات التلقى الألمان ، القارئ المجهول - Le lec-
teur anonyme مستبدلين بذلك تحليل المجهول الجماعي (والمجرد في كثير
من الأحيان) بتحليل الخصوصية الفردية .

ويوافق احتجاب الكاتب بوصفه مبدعا (والذي سبق أن تناوله بالتحليل
والتر بنيامين) استبعاد عملية الإنتاج في مجتمع فريسة للتشيؤ (أنظر
الفصل الأول ، ٤ ، ي) . وبموازاة الهيدجريين والهيدجريين الجدد الذين
يتسألون الكينونة (sein) الأونطولوجية للأشياء حيث تاهت عن أعينهم
عمليات الإنتاج التقنية والاقتصادية التي تمنح الأشياء وجودها . فإن ممثلي
جماليات التلقى (ياوس Jauss ، ايزير Iser) لا يلاحظون في النص الأدبي إلا
" ما هو عليه " ويتجاهلون عملية الإنتاج التناسية التي نبع منها .

وأود أن أوضح في هذا الفصل الأخير من الكتاب:

١ - أنه من المستحيل فهم التلقى أو القراءة دون اعتبار للإنتاج وللظروف
الاجتماعية للإنتاج .

٢ - أن جماليات التلقى لمدرسة كونستانس نشأت من بعض التحريفات التي
فرضتها على نظريات القراءة لحلقة براغ اللغوية .

٣ - أن علم إجتماع القراءة كما تطور على يد جوزيف چورت Joseph Jurt
في ألمانيا وچاك ليناردت Jacques Leenhardt في فرنسا وبييريوجا
Pierre Józsa في المجر ، يمكن اعتباره (على الأقل في بعض المواضع)
كبديل لجماليات التلقى .

٤ - وفي النهاية فإن العلاقة بين الإنتاج والتلقى لا يمكن تحليلها إلا في إطار
علم اجتماع للنص . (وسأعود في هذه النقطة إلى تحليلي للغريب لأببير كامو) .

٢ - نظرية القراءة فى حلقة براغ اللغوية

لقد سبق أن ذكرنا فى الفصل الرابع (الفصل ٤ ، ٣) محاولة جان موكا روفسكى Jan Mukarovsky لوضع سوسولوجيا للأساليب الأدبية عن طريق وضع اللغة والبنى اللغوية فى المركز . مدركاً لصفة تعدد معانى النص الأدبى ، يتفق موكاروفسكى مع الشكليين الروس ، مجتهداً لوضع علم اجتماع للكتابة . واضعاً فى اعتباره تعدد المعنى الأدبى يحذر موكاروفسكى من اختزال النص إلى نظام مدلالات موحد : إلى " معادل أيديولوجى " أو إلى " رؤية للعالم " .

فهو منطلقاً من الفكرة الأساسية (والتي ستتخذها بعد ذلك جماليات التلقى) بأن النص الأدبى لا يمكن أن يتطابق مع أى من تفسيراته . متبنياً وجهة نظر التلقى والقراءة غير المكتملة دائماً ، يؤكد على الخطورة الناشئة من أية محاولة (ماركسية أو مثالية) لوضع أى تماثل بين بنية النص الأدبى المتعددة المعنى ورؤية كونية جماعية .

أية محاولة من هذا النوع تتسم بذاتية تميل من خلالها " التأملات حول ما يسمى بفلسفة بعض الأعمال الأدبية تصبح تفسيرات لفلسفة المنظر ، موضحة بنصوص للشاعر الذى يتم تحليله " (موكاروفسكى ، ١٩٦٦ : ٢٤٦) .

يدرك موكاروفسكى تماماً أن الأعمال الأدبية والأعمال الفنية عموماً تنتج انطلاقاً من بعض القواعد الجمالية وأنها لا يمكن فصلها عن مجموع القواعد الاجتماعية (الأخلاقية ، السياسية أو التشريعية) . إلا أن هذه النظرة الاجتماعية لعالم القواعد الجمالية لا يمنع من الاعتراف بالفجوة بين النص الأدبى متعدد المعنى وبين معناه التاريخى المتغير ، المتعدد .

وحسب رأى مفكر براغ (الذى توفى سنة ١٩٧٥) فإن العمل الأدبى بوصفه واقعة سيميولوجية ، هو من جانب علامة مادية متعددة المعنى ومن جانب آخر تجسيد أو تفسير لهذه العلامة عن طريق الوعى الجماعى لأعضاء جماعة اجتماعية معينة . ويسمى العمل المجسد أو المفسر " الموضوع

الجمالى " والذى يتفق محتواه الدلالى مع نظام قيم ونظام قواعد الجماعة التى تلقتة : «كل عمل فنى يعتبر علامة مستقلة بذاتها تتكون من:

- ١ - " العمل المادى " والذى له قيمة رمزية حساسة .
- ٢ - من " الموضوع الجمالى " الذى له جذوره فى الوعى الجماعى ويتخذ موضع " المعنى " .
- ٣ - من علاقة مع موضوع مشار إليه والذى لا يستهدف وجوداً خاصاً معروفاً - بقدر ما هو علامة مستقلة بذاتها - بل السياق الشامل لكل الظواهر الاجتماعية (علوم، فلسفة، دين، سياسة، اقتصاد) لوسط معين» (موكاروفسكى، ١٩٦٦: ٨٨).

وتظهر القراءة إذن فى إطار المنظور الذى بنسبه موكاروفسكى، على أنها عملية جماعية غير قابلة للاختزال إلى ردود الفعل الجمالية للقراء الأفراد على الرغم من أن القراءة (لرواية أو قصيدة) هى فى الأغلب دائماً فردية، فهى لا تنفصل عن نظام قواعد الجماعة أو الجماعات التى ينتمى إليها الفرد.

ويتضح أكثر دور الوعى الجماعى فى حالة التلقى الدرامى ذى المظهرين الأساسيين : الموضوع الجمالى بوصفه " معنى " لإحدى المسرحيات يتحقق عن طريق الإخراج وعن طريق تفسيرات الجمهور. وهكذا فإن إخراج بارو Barrault لـ "بيرينيس" Bérénice (فى ١٩٥٥) يطرح على الجمهور تفسيراً مختلفاً عنه فى القرن السابع عشر وعنه حديثاً لدى روجيه بلانشون Roger Planchon (١٩٦٦) . وفى الحاليتين فإن الموضوع الجمالى المتولد عن جماعة المتفرجين يتأثر بشدة، بخيال وتفسيرات المخرج والذى يتأثر بدوره بالقواعد الجمالية لوسطه وعصره.

ويبدو لى من الضرورى هنا أن أقوم ببعض الملاحظات النقدية وأن أحاول أن أنواع من تحليلات موكاروفسكى . لأنه يبدو لى أنه ينطلق، مرة

أخرى، من فكرة مجتمع متجانس نسبياً مع افتراض أن الموضوع الجمالي (التفسير الجماعي للرواية أو الدراما) يتحول كلما تحول الجمهور التاريخي.

ويمكننا أن نضع في مقابل هذه الفكرة (الدوركهايمية بالأحرى) فكرة المجتمع غير المتجانس، الذي يتسم بالصراعات والذي لا يشكل جمهوره جماعة متجانسة أو كتلة متماسكة بل مجموعة من الصراعات المتمسكة بسلاسل من القيم والقواعد الجمالية المختلفة والمتعارضة أحياناً.

وفي إطار هذا الوضع فإنه لا مجال هناك للحديث عن موضوع جمالي موحد ومتجانس، يتقبله مجتمع بأكمله لعصر ما: كل جماعة تميل إلى وضع موضوعها الجمالي الخاص بها والمرتبط بشكل وثيق بمصالحها الاجتماعية - الثقافية وبأيديولوجيتها (انظر الفصل ٤، ٤، ب). هذا الموضوع الجمالي يتغير مع الوقت حسب تغير المصالح والوضع الاجتماعي للجماعة المعنية. خلال الستينات على سبيل المثال، حاول بعض الماركسيين في أوروبا الشرقية إعادة تفسير نصوص كافكا من أجل إظهار صفتها النقدية وإظهار أنها لا تتعارض مع الواقع "الاشتراكي". وفي الوقت الحالي، لم يعد هذا التفسير (الذي أخذ به في فرنسا، روجيه جارودي، ١٩٦٨) رائجاً في الدول الشرقية، إلا أنه يمكن أن "يتحقق" يوماً ما.

ومع تقبلنا للتمييز الذي طرحه موكاروفسكي بين العمل المادي والموضوع الجمالي، علينا بالتالي إضفاء بعض التغيير الطفيف على وصفه بأن نضيف للتصوير التعاقبي Diachronique (التاريخي) للموضوع الجمالي منظوراً تزامنياً Synchronique يُستبدل فيه بالموضوع الجمالي الوحيد، الساري لمجتمع بأكمله أو عصر بأكمله، أكثر من موضوع جمالي متنافس. (ونتذكر بخصوص هذا الموضوع أن تيودور أدورنو يسعى إلى دحض التفسير الهيدجري للشعر الغنائي لهولدرلين عبر مناداته بتفسير إنساني - للموضوع الجمالي. ومع تبني منظور موكاروفسكي يمكن أن نقول فيما يخص هولدرلين أنه في المجتمع الألماني في الخمسينات والستينات، كان

هناك على الأقل موضوعان جماليان متنافسان . أحدهما وجودى والآخر إنسانى ومادى . (انظر الفصل ٣ ، ٣ ، ب) .

من بين العناصر التى تساهم فى تغيير الموضوع الجمالى يجب احتساب الأدب نفسه: التطور الأدبى . وحسب رأى موكاروفسكى فإن الأدب لا يحيا إلا بفضل مقدرته المجددة، بفضل معارضته الدائمة للقاعدة الجمالية الرائجة. ويعكس بعض الممارسات الاجتماعية الأخرى (السياسية، الاقتصادية أو التشريعية) فإن الفن يجب أن يعارض ويتجاوز القاعدة الجمالية القائمة. وشرعيته ونجاحه ، فى المجتمع الحديث ، ترتبط بشكل وثيق بالتجديد : بنفى ما هو قائم .

ويكتب موكاروفسكى الملاحظة التالية فى مقارنة بين نظام القواعد الجمالية واللغة وبين إبداع الفنان الفردى والقول ملاحظاً : " إن المهمة الأساسية لمعارضة المعيار الجمالى القائم تكمن فى معارضة آلية القول [...] " (موكاروفسكى ، ١٩٧٤ : ١٣٢ - ١٣٣) . ويعكس الشكليين الذين كان لديهم ميل إلى إهمال العلاقة الجدلية بين المعيار الجمالى والمعايير الاجتماعية الأخرى ، فهو يؤكد على أهمية التجديد الفنى من أجل تحول نظام المعايير عموماً " يظهر العمل الفنى كعامل مساعد فى عملية تحول القيم " (موكاروفسكى ، ١٩٧١ : ٣٣) .

وعن طريق تحقيقه لتغيرات فى نظام القيم الجمالى فإن الإنتاج الفنى (الأدبى) يساهم أيضاً فى تحول الموضوعات الجمالية. لقد طرح بروتون والسورياليون، فى مناداتهم بالانتماء للرومانسية وبخاصة لچيرار دى نرقال، على الجمهور قراءة جديدة للنصوص الرومانسية. ثم نجد بعد ذلك، ممثلى الرواية وقد طرحوا إعادة قراءة لپروست، چويس، سقيفورييمون روسيل ، مساهمين بذلك فى تحول الموضوعات الجمالية المتصلة بنصوص هؤلاء الكتاب . نرى إذن أن الإنتاج بوصفه عملية تناسية وبوصفه إعادة قراءة يؤثر باستمرار على تكوين الموضوع الجمالى: على التلقى .

وقد حاول كذلك فيليكس فوديسكا Felix Vodicka (عضو آخر فى حلقة براغ اللغوية) فى إطار منظور جان موكاروفسكى ، أن يصف التطور الأدبى والذى هو نفسه فى مفهومه عبارة عن تحول للموضوعات الجمالية جنبا إلى جنب مع المعارضة الفنية للمعيار الجمالى السائد. إن تاريخ الأدب، فى نظر فوديسكا يلتقى مع تاريخ الموضوعات الجمالية.

وبعكس موكاروفسكى الذى يهتم على وجه الخصوص بمسألة معرفة كيف يستوعب النص الأدبى المعايير الجمالية ويتحول بها (بالتيمة أو النوع أو الأسلوب)، فإن فوديسكا يتساءل حول دور الجماعات الاجتماعية التى يُعتبر أعضاؤها مسئولين عن تحول المعايير والموضوعات الجمالية.

ويذكر فى البداية الكُتَاب أنفسهم الذين يقومون من خلال إنتاجهم ونقدهم بإحداث تغييرات على قدر قل أو جل من الأهمية ، فى مجال المعايير الجمالية. إنهم هم الذين ينتجون نماذج ذات صفة معيارية . فالسوريالية يتم تعريفها بدءً من " نادجة" والرواية الوجودية بدءً من "الغثيان" والرواية الجديدة بدءً من "المحاوات" أو "الغيرة" أو "المتلصص".

إن الإنتاج الأدبى فى حد ذاته ، له إذن صفة معيارية على مستوى القراءة ، حيث إنه يوجه الجمهور إلى بعض النماذج المعروفة الذى تستخدم كمعايير فى حالة تعريف أو تفسير أو نقد نصوص تالية . (وإذا اتخذنا المنظور المؤسسى الذى طرحه چاك دوبوا Jacques Dubois ورينيه باليبار René Balibar ، يمكننا أيضا أن نتحدث عن مؤسسة النماذج الأدبية.) (انظر الفصل ١ ، ٤ ، أ.)

وعلى قدر أهمية " الأعمال النموذجية " وعلى حد قول فوديسكا، فإن البلاغات المعيارية وبيانات الطليعة (المستقبليين أو السورياليين أو التعبيريين) والكتابات المنبرجة مثل " من أجل رواية جديدة " لآلان روب - جرييه، هى على نفس القدر من الأهمية . وقد سبق ذكر التأثير الذى يمكن أن تنتجه هذه الكتابات فى مجال القراءة. وهكذا فإن آليات " الروائيين الجدد " طورت

بشكل واضح موقف جمهور معين فى مواجهة الرواية والأدب بشكل عام: بدلا من التطابق مع البطل أو الاهتمام بسلوكية الشخصيات، فإن " القارئ الجديد " يتجه إلى آليات السرد ويجد متعة فى المشهد الاستعارى والكنائى الذى يمنحه النص الذى يدعى أنه ليس إلا " سطح " بدون " عمق ميتافيزيقى " .

وفى النهاية، فإن ثوديسكا يقترب من علم الاجتماع الإمبريقي للأدب فى تحليله لوظيفة النقد الأدبى فى عملية التلقى . وحسب رأى ثوديسكا فإن النقد الأدبى يضع نفسه (ويجب أن يضع نفسه) على مستوى الموضوع الجمالى فى الحديث عن النص الأدبى . ويكتب عن النقد الفردى: " واجبه يقتضى التحدث عن العمل بوصفه موضوعا جماليا [...] " (ثوديسكا، ١٩٧٥ : ٧٥) . ويظهر الناقد هنا وكأنه الناطق الرسمى والذى لديه كافة المعلومات والذى يفيد جمهوره بالمعلومات حول قيمة النص متبنيا وجهة نظر النظام المعيارى الرائج . بتعبير آخر: الناقد يتحدث باسم جماعة وباسم قيمها وتقع على عاتقه مهمة توضيح معايير القراءة الجماعية للنص والتى تولد مايسميه موكاروفسكى " الموضوع الجمالى " . وهكذا تساهم بشكل قاطع جماعات النقد الأدبى المختلفة فى تطور هذا الموضوع الجمالى . وأعتقد أن علماء الاجتماع الإنجليز والأمريكان على حق فى تسميتهم بـ " قادة الذوق " Taste leaders .

هناك فكرة على درجة خاصة من الأهمية طورها ثوديسكا ألا وهى "آلية الموضوعات الجمالية " . ومثلما تفقد الكتابة قدرتها المجددة فى اللحظة التى تتحول فيها صورها البلاغية الثورية بفعل انكشافها وتقليدها إلى قوالب، يمكن لنمط معين من القراءة أن يصبح " آليا " .

وإذا استبدلنا بنماذج الأدب التشيكي التى يقدمها ثوديسكا نماذج فرنسية ، يمكننا أن نذكر فيما يخص هذا الموضوع القراءات الوجودية ليونسكو، بيكيت ، كافكا أوريمبووالتي استبدلت بها فى الستينات قراءات "بنيوية " أو " سيميوطيقية " . معرفة ما يعنيه النص (" الوضع الإنسانى " ،

" عبثية العالم " ، الخ .) والذي كان مركز النقاش يخلى الساحة لسؤال كيف
يعنى النص بوصفه " كوكبه من الدوال " (بارت ، ١٩٧٠ : ١٢).

ولنقل كخاتمة إن هذا المفهوم لآلية القراءة والذي يتناسب، من جانب
الإنتاج، مع آلية الكتابة، مازال ألى للغاية . الحجة الشكلية القائلة بأن
الجمهور يعتاد على طريقة معينة لرؤية الأشياء والتي تظهر على أنها " آلية " ،
هى سيكولوجية للغاية وتتجه بشكل مفرط نحو التجربة الفردية . ولا تأخذ فى
الاعتبار بشكل كافِ التحولات الاجتماعية - الاقتصادية والاجتماعية -
اللغوية التى تحدثت عنها فى محاولة توضيح التحول التاريخى من الرواية
" الوجودية " (من " الغريب ") إلى الرواية الجديدة .

٣ - من براغ إلى كونستانس

جماليات التلقى

إذا انطلقنا من تأويلية هانز جورج جادامر Hans Georg Gadamer
وعلم اجتماع المعرفة لكارل مانهايم Karl Mannheim والشكلية الروسية
ونظريات حلقة براغ اللغوية ، فإن جماليات التلقى يمكن اعتبارها كمحاولة
لتطوير بعض نظريات موكاروفسكى و فوديسكا . وبالطبع فإن هذه الطريقة
لتقديم جماليات التلقى - وبخاصة تناول هانز روبرت ياوز Hans Robert
Jauss - ليست " موضوعية " ولا ضرورية . وفى إطار سياق مختلف يصبح
من الممكن توضيح العلاقة بين ياوز وجادامر أو بين ياوز و كارل مانهايم
والذى سنتطرق إليه فى هذا الفصل.

وفى تقديمى لجماليات التلقى على أنها استمرار للبنوية البراغية، أود
أن أوضح اختلافا أساسيا بين المدرستين . بعكس موكاروفسكى الذى لم تكن
لديه أية نية لرفض التحليل الاجتماعى للنص الأدبى ، فإن ياوز يضع
مشاكل المعنى (المعنى التاريخى) على مستوى مجال القراءة فقط (التلقى).
ويدعى إمكانية تأسيس كل تاريخ الأدب على عملية التلقى ، على القراءات
المتتابعة : " يلزم لتجديد التاريخ الأدبى، استبعاد الأحكام المسبقة

للموضوعية التاريخية وتأسيس الجمالية التقليدية للإنتاج والتصوير على أساس جماليات الأثر المنتج والتلقى " (ياوس ، ١٩٧٨ : ٤٦) .

وعلى غرار موكاروفسكى ، ينطلق ياوس من فكرة أن الفن الحديث (فن ما بعد العصور الوسطى) يعارض باستمرار المعيار الجمالى القائم: سواء على المستوى الشكلى أو الموضوعى . من " تريسترام شاندى " لستيرن وحتى "مدام بوفارى" لفلوبير ، تعارض الرواية المعيار الجمالى السائد عن طريق وضع البنية السردية موضع التساؤل أو عن طريق إدخال موضوعات لا تقبلها الأخلاق الرسمية، مثل الزنا .

وبفعل تفضيل التجديد الذى يعتبره الشكليون (شكوفسكى) القوة الدافعة للإنتاج الفنى الحديث ، يخيب الفن والأدب بالضرورة ظن القارئ الفردى والجمهور بشكل عام . وفى مواجهة نص أدبى صادر لتوه يتوقع الجمهور نماذج مقننة (أو قابلة للتسويق) ، فى حين أن الكاتب يسعى لمخالفة ونقد المعيار الجمالى الراجح . وتدخل - من ثم - طريقته الجديدة فى الكتابة فى اشتباك مع ما يسميه ياوس (على غرار مانهايم) أفق الانتظار أو Erwartungshorizont .

وأفق الانتظار كما عرفه ياوس لا يختزل إلى التجربة الجمالية للقارئ : " إذا كانت السلطة الإبداعية للأدب توجه مسبقا بهذا الشكل تجربتنا أفليس ذلك فقط من واقع أنه فن يقطع عن طريق تجديد أشكاله، آلية التلقى اليومى [...] . إن العمل الأدبى الجديد لا يتم تلقيه والحكم عليه فقط على أساس تعارضه مع خلفية الأشكال الفنية ولكن أيضا بالمقارنة مع خلفية تجربة الحياة اليومية " (ياوس ، ١٩٧٩ : ٧٥ - ٧٦) .

أفق الانتظار له إذن على الأقل أربع مكونات أساسية:

أ - معرفة كتابة كاتب معترف به و " متلقى " (" الأسلوب الموضوعى "

لروب - جريبه ، مثلا) .

ب - تجربة القارئ في مجال جنس معين (هؤلاء الذين اعتادوا على تقنية " الروائيين الجدد " سيقرأون رواية جديدة صادرة حديثا بمنظور معين).

ج - معرفة الأدب بشكل عام (هؤلاء الذين على معرفة بالطليعة السورالية أو المستقبلية أو التعبيرية سيبدون مرونة أكثر تجاه الرواية الجديدة عن أولئك القراء الذين لم يقرأوا أبدا نصا طليعيا).

د - الحياة خارج الأدب - النفسية والاجتماعية - للقارئ.

ويطلق ياوس على الفجوة الموجودة في كثير من الأحيان بين كتابة أحد الكتاب وبين أفق انتظار القراء ، المسافة الجمالية . هذا المفهوم يسمح بتمييز ثلاثة ردود فعل على الأقل لدى القارئ الممكن : أ) تجاه نص تكون كتابته معروفة للقارئ (رواية بوليسية تقليدية ، مثلا) فهو يجد تأكيدا لأفق انتظاره (معياره الجمالي) وينتهي من الكتاب يصاحبه شعور بالرضا ، ب) وفي محاولته لقراءة " المتلصص " لروب - جرييه على أنها رواية بوليسية عادية ، سيخيب أملة وسيصدم أو يسخط ليقول مع بيير دو بواديفر (Pierre de Boisdeffre) أن كل قارئ يكسبه روب - جرييه " هو قارئ فقده الأدب الروائي " ج) وينتمى إلى قلة (غير -) سعيدة (un -) happy few تجمع بين الذكاء وبعض من المرونة ، وسيدعن لأن يتعلم شيئا وسيرى " أفق انتظاره " يتغير .

ومن الواضح أن مفهوم المسافة الجمالية له صفة معيارية في نظرية ياوس: النص الأيديولوجي أو القابل للتسويق الذي يتكيف مع قوالب إحدى الثقافات بدلا من الاعتراض عليها ، هو أقل شأنًا من النص النقدي، غير امتثالي. ونص كهذا يمكنه أن يستثير من جانب القراء ، عملية يسميها انصهار الأفاق Horizontverschmelzung .

إن النص المجدد الذي يتطلب قراءة " متمكنة " و"خلاقة" ، يغير باستمرار الموضوع الجمالي الذي يتناسب معه في التاريخ. وكلما ظهر مدخل نقدي جديد (سواء كان ظاهريا، سيميوطيقيا، اجتماعيا أو تحليليا نفسيا)

فهو يولد قراءة جديدة لـ " المحاكمة " لكافكا أو " البحث " لبروست، مساهما في التحول اللانهائى للموضوعات الجمالية المناسبة.

وهذا التحول للموضوع الجمالى هو ما يود ياوس أن يوجه إليه تاريخ الأدب وعلم الاجتماع الأدبى . ويكتب هذه الملاحظة عن موكاروفسكى: "وحسب هذا التفسير الجديد والجسور الذى أعطاه موكاروفسكى للمساحة الاجتماعية للفن ، فإن العمل الأدبى لا يمثل بنية مستقلة عن تلقيه ولكنه يمثل " موضوعا جماليا " فقط ولا يمكن وصفه إلا من خلال سلسلة تجسيدياته المتتالية " (ياوس ، ١٩٧٨ : ١١٨) . (ويعرف فوديسكا تجسيد النص على أنه تفسير من جانب الجماعة التى تجعل منه موضوعا جماليا) .

ومن هنا أعتقد أن تناول ياوس ينكشف عن صفته الاختزالية والأيدولوجية . وبعكس موكاروفسكى الذى سعى بالتمييز بين الرمز المادى (الأثر " Artefakt " وبين الموضوع الجمالى إلى توضيح الجدلية اللانهائية بين النص وقراءاته ، فإن ياوس يستبعد البنية النصية وإنتاج النص من مجال البحث . وتتخذ كلمة " فقط " فى النص المذكور (" Nur " فى الأصل ، ياوس ، ١٩٧٠ : ٢٤٧) أهمية خاصة : فهى تمنع علم اجتماع النص من وصف وشرح عملية الإنتاج على أنها عملية اجتماعية ، أيديولوجية تجسد مشاكل وتناقضات ومصالح جماعية .

ولو كان ياوس على معرفة حقيقية بالأعمال الكاملة لموكاروفسكى لكان أكثر حرصا وتحفظا فى الاستدلال . ذلك أن هذه الأعمال لم تترجم إلى الألمانية إلا جزئيا واختيار النصوص المترجمة يشهد على مصداقية شديدة التأثير بجماليات التلقى والتى تزامن ازدهارها مع ترجمة كتابات موكاروفسكى فى السبعينات . ونحن هنا أمام مشكلة تأويلية ليست غريبة على أتباع جادامر ...

ولنتذكر محاولات موكاروفسكى لشرح كتابة جان نيرودا Jan Neruda بمنظور اجتماعى (الفصل ٤ ، ٣) ، ونتذكر اجتهاداته لتصوير اللغات المختلفة على أنها عمل تناص يلعب فيه استيعاب المعايير الاجتماعية دوراً

هاما . والنص بالنسبة لموكاروفسكى ليس مجرد بناء يمكن شرحه أو "تجسيده"، أثر دلالى ممكن " " Wirkungspotential" , Iser .

إن القيم والقواعد الاجتماعية فى العالم الأدبى تتجسد على مستوى اللغة. وكفيتوسلاف شفاتيك Kvétoslav Chvatik على صواب عندما يشرح فى كتابه عن البنيوية التشيكوسلوفاكية : " النمط الثالث للمعايير . والذى يظهر فى العمل الفنى هى المعايير الأخلاقية والاجتماعية والأيدولوجية التى تحدث تأثيرات فنية فى بنية العمل " (شفاتيك ، ١٩٨١ : ١٤٤) . وموكاروفسكى نفسه يوافق هذا التفسير القائل بأن علم الاجتماع يهتم على حد سواء ببنية العمل وإنتاجه والموضوع الجمالى، حيث يكتب هذه الملاحظة: " هناك قيم جمالية ملازمة لبنية العمل الفنى . ومن المستحيل استبعادها والحكم على بنية العمل مجردة منها " (موكاروفسكى، ١٩٧١ : ٣) .

ويتم فى جماليات التلقى، لأسباب أيديولوجية، تحطيم التوازن بين الإنتاج والتلقى الذى وضعته حلقة براغ : إن مدرسة كونستانس، عن طريق وضع نظرية التلقى فى مواجهة الجماليات المادية (الماركسية) وجماليات النظرية النقدية، تأمل فى أن يتحرر الفن المستقل من قبضة علم الاجتماع. فالبنسبة لها مثلما بالنسبة للجماليات التقليدية يقع " العمل الفنى " نفسه فوق الخضم الاجتماعى والأيدولوجى والاقتصادى. وانطلاقا من هذا النقد الشامل يمكننا أن نقدم الحجج الآتية ضد مدخل ياوس:

أ - ياوس على حق فى إصراره على أنه من المستحيل تحديد أو تعريف المعنى الشامل للنص والذى يعتبر متعدد المعنى والذى يفرض تفسيرات متناقضة على المستوى التعاقبى والتزامنى . إلا أنه مخطىء حين يؤكد (فى عمل أحدث) أنه من المستحيل التوصل إلى وصف بنيوى، "موضوعى" للنص الأدبى : " لأن التركيب المنطقى للأنتروبولوجيا البنيوية يتوقف على الالتصاق أو أنظمة التصديق مثلما هو الحال فى نظم العلامات الثنائية فى السيميوطيقا [...] " (ياوس ، ١٩٧٧ : ٥٦) .

هذه الفكرة ليس فيها أية ثورية : إنها موقع مشترك للسيميوطيقا (برييتو، جريماس ، كريستيغا) والذي سبق ذكره هنا فيما يخص مفاهيم الالتصاق أو المصداقية Pertinence والتصنيف Taxinomie (الفصل ٤ ، أ). وبالرغم من أهميتها المنهجية إلا أنها لا يجب أن تمنعنا عن البحث والعثور على ثوابت دلالية وسردية فى النص الأدبى.

هذه الثوابت يمكن استخراجها من خلال خطابات غير متجانسة تماما تتجه إلى نظم فى الالتصاق والتصنيف واللهجات الجماعية المختلفة. ونجد مثلا لهذه الثوابت فى التجزئة السردية الثنائية لـ " الغريب " وكذلك التعارض الدلالى بين الماء والشمس والذي له وظيفة بناءة (مُشكلة للبنية) . وهناك ثوابت أخرى من هذا النوع استخراجها جريماس فى تحليلاته لأعمال برنانوس Bernanos (١٩٦٦) وفى دراسته الهامة عن " صديقان " لموياسان (١٩٧٦ أ) حيث لا يمكن اعتبار التعارضات الدلالية بين الحياة والموت، السماء والماء كبنى اعتباطية . إنها ملازمة للموضوع وغير محتمل أن يكف الاعتراف بها فى غضون خمسين سنة. (فى " البحث " لپروست، مثلا، لا يمكن التشكيك فى بعض التعارضات مثل الحديث/ الكتابة أو الحياة/ الفن).

وبعيدا عن السعى من خلال هذه الملاحظات إلى إثبات أحادية المعنى للنصوص المقصودة ، فإنى أسعى إلى توضيح تعدد معناها والذي هو نسبى دائما بوصفها لا تزال محدودة بثوابت دلالية وسردية . إن التفسير النقدى - سواء كان اجتماعيا، سيكولوجيا أو سيميوطيقيا - عليه أن يحاول القيام بالرحلة المكوكية بين ثوابت النص ومتغيراته : بين انغلاقه وانفتاحه، أحادية معناه وتعددده. وفيما يخص جمالية التلقى التى تميل إلى إهمال الثوابت مع إبراز المتغيرات فمن الواجب ذكر ماكتبه برتيل مالبرج Bertil Malmberg عن " التفكيك " لدريدا : " إنه واقعى إذن هذا المبدأ القائل بالبنى العامة (العميقة) و الكليات اللغوية والذي يشرح إمكانية الترجمات وكذلك التحولات فى داخل اللغات " مالبرج ، ١٩٧٤ : ١٩٦).

بتعبير آخر : فإن الثوابت والكليات الدلالية للنص هي التي تسمح بالترجمات والتفسيرات المقارنة ، القابلة للتحقق من أمرها والتي يمكن نقدها، وإذا لم توجد الثوابت لفقد النقد الأدبي سبب وجوده: ومعه جميع العلوم الاجتماعية التي لها دخل بالنصوص متعددة المعنى. إن المحلل النفسى وعالم الاجتماع وعالم التاريخ والقانونى عليهم كثيرا تحليل وشرح نصوص لا يقل تعدد معناها عنه فى النصوص الأدبية. (كل هذا لا يعلل الفكرة المواربة للجماليات " الماركسية - اللينينية " القائلة بأن النص الأدبى " يعبر " عن معنى أيديولوجى محدد . ولن يمكن استبعاد الجدل بين الثابت والمتغير، العالمى والشاذ: لا على حساب النسبية ولا على حساب الدوجماتيقية.) .

ب - وفى استبعاده لعملية الإنتاج (نشأة البنية النصية) من مجال البحث، لم يتمكن ياوس من شرح التلقى والقراءة. كيف السبيل ، مثلا، لشرح نجاح رواية مثل دون كيخوت إذا تجاهلنا معنى المحاكاة الساخرة لرواية الفروسية فى وضع اجتماعى - لغوى معين ؟ كيف نشرح تلقى " الغريب " فى فرنسا وفى بعض الدول الأخرى إذا كنا نجهل الوظائف الاجتماعية للبنى الدلالية والسردية ؟ (وسأعود إلى ذلك فيما بعد .) .

وعلى الرغم من أن ردود الفعل لنص (أدبى أو غيره) تكون فى كثير من الأحيان مستقلة عن سياق نشأته ، إلا أنها لم تكن أبداً مستقلة عن بنيتها: إنها المسائل الدلالية والأساليب السردية هي التي توضح ردود فعل القراء . وحين يرفض بيير دو بوادفر أن يعتبر نصوص روب - جرييه على أنها إسهامات جديدة فى الأدب الروائى ، فهو يعبر عن حكم قيمى تقليدى ورجعى ، وهذا الحكم القيمى يظل غير مفهوم طالما لم يتم ربطه بالمشاكل الدلالية والسردية للرواية الجديدة والتي هي فى الوقت نفسه (كما حاولت أن أوضح) مشاكل لغوية - اجتماعية وأيديولوجية . ويمكننا أن نقول مع موكاروفسكى إن الموضوع الجمالى لا ينفصل أبدا عن المعايير والقيم الملازمة للعلامة المادية .

والبنى النصية التي تتفاعل معها القراءة (الفردية والجماعية على حد سواء) هي الأخرى بدورها لا تنفصل عن سياق الإنتاج، ومن المستحيل شرحها دون اعتبار الوضع اللغوي - الاجتماعي الذي نشأت فيه . التعارض الدلالي بين الكتابة / التحديث والذي يقسم " البحث " لا ينفصل عن النقد الذي يوجهه پروست لحديث الصالونات في بعض الأعمال التي تكمل روايته ولا ينفصل عن نقد اللغة الجماعية لمجتمع الصالونات والذي نجده لدى كتاب من نفس العصر. وهكذا فإن التلقى الأدبي يرتبط دائما بالإنتاج عبر البنى النصية.

ج - ولقد شد انتباهنا بعض النقد الموجه لياوس وبخاصة في ألمانيا الشرقية حول واقع أن أفق الانتظار هو مفهوم أدبي أكثر مما هو اجتماعي أو تاريخي وأنه بالتالي لا يمكن أن يستخدم لوضع علاقة بين الحياة الأدبية والحياة الاجتماعية (ناومان ، ١٩٧٥). في ألمانيا الفيدرالية انتقد جوزيف چورت الصفة الأدبية (الجمالية البحتة) لأفق الانتظار : " لقد اعترف ياوس نفسه في مقالته : " المنظور الجزئي لمنهج جماليات التلقى " - (Die Partiali- tat der Rezeptionsästhetischen Methode) بأن مفهومه الخاص بأفق الانتظار يتسم بأصله داخل الأدبي Intralittéraire، كما أنه يهمل إلى حد ما التداخلات خارج الأدبية Extralittéraire . ويضيف " [...] وليس ياوس غير مدرك لردود الفعل الاجتماعية للحدث الأدبي : عن طريق فعل التلقى فإن التجربة الأدبية يمكنها أن تدخل في ممارسة الحياة - (Lebensprax " is للقارئ، وتشكل مسبقا رؤيته للعالم وتؤثر بالتالي على سلوكه الاجتماعي. إلا أن المجتمع ليس حاضرا فقط كمجال فعل بالنسبة للمتلقى بعد قراءته، فهو بدوره نشط ويتدخل بسبل متعددة في عملية التلقى نفسها " (چورت، ١٩٨٣: ٢١٧).

ونرى أنه بالرغم من جداله ضد الجماليات التي تؤكد استقلال العالم الأدبي. يهمل ياوس العناصر الاجتماعية التي تحدد وتوضح طريقة قراءة

معينة. ولذلك فهو يختلف عن كارل مانهايم الذى اعتبر " المنظورات " و " رؤى العالم " كتعبير عن مصالح ومشاكل جماعية ، ولم يكن ليفكر أبدا فى تعريف أى مفهوم جماعى للواقع على أنه ظاهرة ثقافية خالصة أو فلسفية . بالنسبة لمانهايم فإن بنية التفكير تشهد ، بخلاف المشاكل الفردية ، على " تطلعات الجماعة إلى السلطة الاقتصادية والاجتماعية " (مانهايم ، : ٨٩). فى حالة مانهايم كما فى حالة موكاروفسكى، يجعل ياوس من المفاهيم الاجتماعية " جماليات " و " مثاليات " .

د - وبإمكاننا أن نقدم حججاً مماثلة ضد تعريف " الجمهور الأدبى " لدى ياوس. ويعترف ياوس بنفسه فى رد فعله إزاء النقد الاجتماعى والماركسى، أنه من الواجب إعطاء مساحة اجتماعية أو نقدية اجتماعية لمفهوم " أفق الانتظار " : " لن أسعى إلى الاعتراض بأن مفهوم " أفق الانتظار " كما عرضته مازال محسوسا فيه أنه تطور فى إطار المجال الوحيد للأدب، وأن شفرة المعايير الجمالية لجمهور أدبى محدد كما سنعرض له هنا يمكنه ويجب أن يتكيف اجتماعيا ، وفق ما تنتظره تحديدا الجماعات والطبقات ويجب أن يتفق مع مصالح وحاجات الوضع التاريخى والاقتصادى والتى تحدد هذه الانتظارات " (ياوس ، ١٩٧٨ : ٢٥٨).

واللافت فى هذا المقطع بشكل خاص هو نوع من التوفيقية : يسعى ياوس إلى استيعاب الحجج النقدية وتحبيدها دون مراعاة وقعها داخل نظريته. وإذا كان الجمهور بالفعل متناقضا ، وإذا كانت الشفرات الجمالية محددة بفعل المصالح الجماعية ، لا نرى سبب انفلات المعايير الجمالية للكاتب، المعايير الجمالية التى يرضخ لها الإنتاج، من هذا التحديد . لأن الكاتب لا ينتج إلا بوصفه قارئاً للنصوص الأدبية وغير الأدبية وإنتاجه هو عملية تناص لغوية - اجتماعية (انظر نقدى لياوس فى زيمبا ، ١٩٧٨).

لم يحقق أبدا ياوس نفسه مشروعه (ولكن هل كان هناك مشروع؟) لتحليل المعايير والقيم الجماعية التى تحدد القراءة فى مجتمع متناقض

تتواجد فيه " موضوعات جمالية " متنافسة. فى كتابه: " التجربة الجمالية والتأويل الأدبى " - Ästhetische Erfahrung und literarische Hermeneutik (١٩٧٧) حيث ينادى بـ " المتعة الجمالية "، لا يتحدث إلا عن "الجمهور" بشكل عام. ومن أجل إمكانية تصوير العلاقات بين القراءة (القراءات) ومختلف سلالم القيم المتواجدة فى مجتمع ما، يجب التخلّى عن جماليات التلقى وتبنى منظور فتحه حديثا علم اجتماع القراءة. من بعد روبير إسكاربيت ، نجد منظرين على الأخص مثل جوزيف چورت وچاك ليناردت وپير يوجا حاولوا تطوير علم اجتماع كهذا . ويبدو لى أنه يقدم بعض البدائل الملموسة لتأويلية ياوس المثالية.

٤ - من علم اجتماع الجمهور إلى علم اجتماع القراءة

إسكاربيت ، چورت و ليناردت

يمكن اعتبار سوسولوجيا الكتاب التى طورها روبير إسكاربيت كرباط بين جماليات التلقى وعلم اجتماع القراءة التى نادى بها كتاب مثل چورت و ليناردت. ومع مراعاة الجانب التأويلى - تعدد المعنى للنص الأدبى - يسعى إسكاربيت إلى إدخال مشكلة التلقى فى سياق اجتماعى وبدلا من الرجوع إلى الجمهور عموما أو إلى جمهور افتراضى يسعى مثل ياوس إلى توضيح وظيفة الكتاب فى علاقتها مع العمليات الاجتماعية والاقتصادية.

ومن قبل جماليات التلقى بكثير، سعى إسكاربيت إلى الإجابة على سؤال كيف يبقى العمل الأدبى متجاوزا سياق نشأته: كيف نشرح أن تظل تراچيديات راسين تمثل معنى فى المجتمع المعاصر، مستقلة إذن عن الجانسيانية التى نبعت عنها (حسب رأى جولدمان)؟ وكيف يظل عمل إسبانى أو إنجليزى يمثل معنى فى سياق اجتماعى مختلف، حين يترجم إلى الفرنسية أو الألمانية؟

إن شرح عملية التلقى التى قدمها إسكاربيت تذكرنا بنظريات حلقة براغ وبمدرسة كونستانس . انطلاقا من النص المترجم ، يستنتج إسكاربيت أن المعنى هو عملية حوارية يُمنح النص خلالها مدولا جديدا يتناسب مع

معايير وقيم الجماعة التي تلقته: " إلا أن الترجمة التي تقوم على أساس نقل عمل من مجال اجتماعي إلى مجال آخر ، تفترض ليس فقط تغييرا لشفرة الدلالية الفكرية بل أيضا أدوات جمالية جديدة . وبالتالي فإن ما يتم نقله عن طريق الترجمة ليس إلا جزءاً من الإبداع الأدبي والباقي تشكله الجماعة المتلقية " (إسكاربيت، ١٩٦١ : ٨٨) .

ونجد هنا نفس فكرة موكاروفسكى وفوديسكا بأن المعنى الأدبي هو صيرورة ، عملية تناص تربط مجال الإنتاج بمجال التلقى . ولذلك فإن الرغبة القائمة حديثاً في إعادة ترجمة " البحث " لمارسيل بروسست و " الغثيان " لسارتر إلى الألمانية هو دليل على رغبة جماعية في " إعادة صياغة " و"إعادة تعريف " الموضوع الجمالي في إطار سياق اجتماعي وثقافي متغير . وإذا تبيننا وجهة نظر القراءة ووجهة نظر الترجمة بالتحديد ، يمكننا أن نقول إن عملية المعنى لا تتم أبداً وأن (إعادة) خلق النص تستمر على مستوى التلقى والترجمة.

وأعتقد أن علينا فهم التعريف الخاص بـ " خيانة إبداعية " والذي أدخله إسكاربيت في العديد من أعماله . في ضوء السياق الذي رسمناه هنا . والمقصود هو قدرة النص متعدد المعنى على " خيانة " سياقه الأصلي وأن يعنى في إطار سياق ثقافي - اجتماعي وتاريخي - اجتماعي جديد .

إن المترجم الذي ينقل نصاً غربياً إلى لغته الأم وهو يجهل الإيحاءات الثقافية لسياق الإنتاج ، يخون المعنى الأصلي ، إلا إنه يخونه في أغلب الأحيان بشكل إبداعي ، حيث إنه يسمح للنص بمعنى في إطار سياق جديد يمكن أن يبتعد عن أصله: " المترجم ، الخائن : Traduttore , Traditore . ليست مقولة بلا جدوى بل تأكيد على واقع ضروري ، كل ترجمة هي خيانة ولكنها خيانة يمكنها أن تكون خلاقة حين تسمح للدال أن يعنى شيئاً حتى إذا أصبح المدلول الأصلي خالياً من المعنى " (إسكاربيت، ١٩٧٠ : ٢٧) . بتعبير آخر : الترجمة (طريقة الترجمة) يمكن أن تضمن بقاء نص يتوقف دائماً

على العلاقة الديناميكية ، التاريخية بين " الرمز المادى " غير المتغير و الموضوع الجمالى المتغير.

وأعتقد أنه فى وصفه المتعدد لهذه العلاقة، يميل إسكارييت كثيراً جداً إلى تأكيد لا أدريه جماليات التلقى القائلة بأنه لا يمكن معرفة المعنى الأصلي للنص الأدبى . وحسب إسكارييت فإنه من الممكن جدا دراسة الدال (أو الدوال) للنص، ولكن يظل المعنى التاريخى أو الأصلي لهذا الدال مختلفيا: " من الممكن دائما إبعاد الدال عن شفرته مع بعض الدقة ولكن هذا مستحيل بالنسبة للمدلول . لأنه يعتمد على مجموعة بأكملها من الإيحاءات المختفية ومن التجارب المنسية وعلى نظام من البديهيات التى لا توصف والتى ينتجها كل مجتمع لاستعماله الخاص " (إسكارييت، ١٩٧٠ : ٢٧) . (انظر أيضا اسكارييت، ١٩٧٦ : ١٢٧) .

وبديل هذه اللأدرية التى تنتهى باستبعاد عملية الإنتاج والمعنى التاريخى للنص من مجال البحث ، يبدو أنه التمييز بين (" الدلالة السابقة ") و (" المعنى الحالى ") الذى طرحه الألماني - الشرقى المتأنجلز روبير وايمان (Weimann ، ١٩٧٢ : ٩٨ - ٩٩) . وحسب وايمان فإنه من المشروع تماما التمييز بين المعنى الأصلي للنص وبين تفسيراته (" تجسيدات " على حد قول فوديسكا) التالية. ودراسة هذه التجسيدات لا تستثنى الدراسة الاجتماعية لعملية الإنتاج : للمعنى الأصلي . لأدرية إسكارييت (والتى يشارك فيها ياوس) لها نتائج هامة بالنسبة لعالم الاجتماع وعالم التاريخ : إذا كان من المستحيل تعريف المعنى التاريخى - الأصلي للحدث الأدبى (معنى إنتاجه) فبالتالى من المستحيل كذلك توضيح المعنى الأصلي لبعض الوثائق التاريخية. وهل نستنتج بالتالى أن المعنى الاجتماعى - التاريخى " لإعلان الاستقلال " Declaration of Independence للولايات المتحدة، غير معروف، وأنه من المستحيل شرح دستور الجمهورية الخامسة فى ضوء السياق الاجتماعى - السياسى الذى نشأ فيه؟ اللأدريون الراديكاليون يمكنهم أن يتمسكوا (ولديهم حق) بأنها نصوص متعددة المعنى، أعادت الحكومات والنظم التالية

تفسيرها وأنه من المستحيل بالتالى العثور على معناها الأول. واستنتاج كهذا سيؤدى إلى نهاية العلوم الاجتماعية التى ستجبر على التخلّى عن السؤال حول معرفة أى مصالح اجتماعية وسياسية تتجسد فى " إعلان الاستقلال " أو فى دستور الجمهورية الخامسة... إن تعدد معنى النص الأدبى الحديث - والذى هو فى حد ذاته اجتماعى - عليه ألا يمنع عالم الاجتماع من طرح هذا السؤال فى مجال الأدب والذى لا يحلق فوق المجتمع.

ويهتم إسكارييت فى مجال الإنتاج مثلما فى مجال التلقى بنظام الاتصال والتوزيع أكثر من نص الكاتب والقارىء ، وفى دراسته للتلقى يطرح سؤال أى جماعات من القراء تقرأ لأى كتاب وأية كتب . ويهمل الأسئلة المكملة حول معرفة كيف تقرأ بعض الجماعات نصا معيناً وأية سلاسل قيمية (أية أيديولوجيات) تؤثر على قراءتهم.

وفى تحليله للتلقى يتوقف إسكارييت ، فى أغلب الحالات ، عند حدود الوقائع التى لم يتم شرحها . وهكذا فهو لا يشرح لماذا ترفض البورجوازية الصغيرة بعض الكتاب (المختلفين تماما) مثل سارتر وكامو وساجان : " هناك شهرات بل أمجاد " ملعونة " . كما هى حالة الثلاثى " سارتر - كامو - ساجان " بالخصوص والذى مثل حسب أبحاثنا ، لفترة طويلة بالنسبة للبورجوازية الصغيرة الفرنسية الفكرة المبتذلة Stériotype للأدب " المنحرف " . ولقد استوجبت جائزة نوبل لتخليص كامو " (إسكارييت ، ١٩٧٠ : ١٥٥) .

ولكن لماذا تصادر البورجوازية الصغيرة كامو؟ ما هى العلاقة بين البنية الدلالية والسردية لرواية مثل " الغريب " وبين النصوص الشارحة لقراء البورجوازية الصغيرة ، الموظفين ، الطلبة أو العمال ؟ ولا يبدى إسكارييت اهتماماً بهذه الأسئلة الخاصة بالنص وشروح النص لدى القارىء بوصفها بنى أيديولوجية. ويطرح السؤال فى سياق مختلف تماماً ، من جانب چورت وليناردت ويوجا .

يوضح چورت فى تحليله لتلقى چورچ برنانوس من جانب النقد الصحفى فى فرنسا أنه بعيداً عن أن يكون كلاً متجانساً كما تود أن تقنعنا

بذلك جماليات التلقى ، فإن الجمهور الأدبي يعيد إنتاج الصراعات السياسية لعصر ما . وبدلاً من الحديث عن النقد بصفة عامة، يميز بين جماعات أيديولوجية : " لقد صنفنا إذن التفاعلات، حسب التوجيهات السياسية للصحافة، إلى ثمانى تيارات أيديولوجية (أقصى اليمين، يمين، بورجوازية، كاثوليكية ، معتدلين ، وسط أدبي ، يسار راديكالى ، يسار اشتراكى ويسار شيوعى) . وقد استطاع تحليلنا توضيح تجانس كبير إلى حد ما بين التفاعلات فى داخل هذه التيارات المذكورة واستطعنا استنتاج أن الأحكام الأدبية تتأثر بشدة بالافتراضات الأيديولوجية الخاصة " (چورت، ١٩٨٣ : ٢١٨).

والتمييز الشامل الناتج من بحث چورت هو بين نمطين من التفاعل : هناك فى البداية النقد الذى يسميه چورت " قضائى " Judicative وهو نقد يحكم على الأعمال بدءاً من مثل أعلى جمالى (كثيراً ما يكون ضمناً)، ثم لدينا نقد " شارح " يتوجه إلى كلية النص من أجل فهمه وشرحه للجمهور .

وفى إطار هذا التعارض الشامل بين نمطين من النقد، أمكن التمييز بين جماعات أيديولوجية لها "أفاق انتظار" مختلفة تماماً . وفى تلخيص لنتائج تحليله ينتهى چورت إلى أن فرضية يابوس القائلة بأن أفق الانتظار هو ذلك الخاص بعصر بأكمله لم يتم تأكيدها: "[...] أمكن تحقيق الفرضيات الأساسية لجماليات التلقى، حيث تفترض كما رأينا، أفق انتظار يتكون تقريباً من التجارب والمعارف الأدبية فقط. وهذه الفرضية لم تتأكد من خلال تحليلنا. إن أحكام المفسرين لا تحددها فى المقام الأول مقاييس جمالية، إن مقاييس التنوق هى فى أغلب الأحيان من نوع خارج الأدب - Extralitté- raires إن المقاييس الجمالية تستخدم فى العديد من الأحيان لتعزيز حكم أيديولوجى مسبق " (چورت، ١٩٨٣ : ٢١٩).

ما هى سلالم القيم وما هى الأيديولوجيات المقصودة هنا؟ حسب چورت فإن هناك فى قلب النقد " القضائى " ، مقياساً جمالياً نابعاً من عنصر

أيديولوجي Idéologème عقلاني خاص " بالوضوح " : والمقصود به مسلمة التجانس التي تستهدف بخاصة الحبكة الروائية مستكملاً لتقليد القرن السابع عشر والذي بدأه هويه Huet الذي أكد قائلاً: " إن الرواية يجب أن تشبه جسداً مكتملاً " (هويه ، ١٦٧٠ : ٤٤). هذا النقد ينادى " بالوضوح " و" الأناقة " الأسلوبية. وتنطلق من مثال عالم أدبي مستقل وتدين أية محاولة من الكاتب للتشكيك في استقلال الشخصيات والأدب عموماً .

وبعكس النقد " القضائي " فإن النقد " الشارح " يظهر أكثر تفتحاً للتجديد وللتشكيك في الأشكال الجمالية المقدسة لدى جزء من البورجوازية على مدى العصور . ويمكننا القول بأن ممثلي هذا النقد يميلون إلى إقامة علاقة بين " التفرد " ومعارضة القاعدة بدلاً من مطابقتها بمثل أعلى قائم .

وانطلاقاً من فكرة أن نصوص برنانوس تتضمن نقداً قاسياً لمجتمع السوق والتوسط عبر قيمة التبادل (انظر الفصل ١ ، ٤) ، يشرح ياوس تلقي هذه النصوص في جماعات أيديولوجية معينة. ويوضح أن العمل في مجمله استقبل بشكل مناسب من جانب اليمين المتطرف الذي يرفض النظام الرأسمالي بزعم مناصرته لبعض القيم البالية ، إلا أنه حكم عليه بسلبية شديدة من جانب ممثلي اليمين البورجوازي (من البورجوازية الرجعية الكبيرة) التي اعتبرته - ولها حق في ذلك نفيًا لمجتمع السوق .

وعلى الرغم من أهمية الأرقام (٢٥ ٪ من التقارير) فإن النقد الكاثوليكي ليس أكثر تفضيلاً لعمل برنانوس من اليمين البورجوازي . ويشرح چورت هذا الاستقبال السلبي بواقع أن " كاثوليكية " برنانوس تتسم بازدواج شديد ، على الرغم من أن الكاتب يعلن إيمانه ببعض القيم الكاثوليكية والمسيحية (مثل الفقر) إلا أن نصوصه تميل إلى التشكيك في القيم الرسمية للكنيسة : " [...] يظهر ممثلو المراتب الاجتماعية الكنسية والثقافية ، في عالمه الروائي ، في ضوء نقدي في حين أن الأفراد الذين يشغلون مواقع هامشية في المراتب الاجتماعية يمثلون القيم الأصيلة ، برنانوس يظهر في عمله فساد الوضع القائم " (چورت ، ١٩٧٩ : ٢٢٥ - ٢٢٦) .

ويشرح هذا الاتجاه النقدي لبرنانوس لماذا استقبل مؤلفه بشكل جيد من أغلبية ممثلي الصحافة الليبرالية: من "المعتدلين" و"الوسط الأدبي". فليست مشاكل الكاثوليكية هي التي تهم النقاد "المعتدلين" للوسط "ولكنه التفتح النقدي والحوارى لنص يشكك فى المراتب والمعايير القائمة.

ونستنتج مع چورت أن نقد اليسار (الراييكالى، الاشتراكى والشيوعى) ليس مهما فى العدد (٦, ٨ ٪ من تقارير الجماعات الثلاث). إلا أن هذا الصدى الضعيف لا يستثنى نوعاً من الحظوة لحساب الكاتب: إن تقارير هذه الجماعة من النقاد ليست دائماً سلبية تماماً فى رأى چورت الذى يسعى إلى شرح "صمت" اليسار فى حالة برنانوس وينتهى إلى أن هذا الصمت يرجع إلى الإشكالية الكاثوليكية التى وضعها الكاتب فى قلب عمله. وفى اللحظة التى تم فيها تقديم هذا المؤلف على أنه يشكل جزءاً من "الأدب الكاثوليكى"، لم يثر إلا اهتماماً ضعيفاً وسط نقاد اليسار. وإذا تمعنا فى هذه النتائج (التى لم يكن من الممكن تقديمها هنا بشكل تفضيلى) نستنتج أن ردود الفعل النقدية للعمل الأدبى تحركها فى أغلب الأحيان أيديولوجيات ومصالح جماعية.

ومن الطريف فى حالة برنانوس أن نرى الأحكام السلبية تاتى من مجموعتين أيديولوجيتين تؤيدان النظام القائم: الكنيسة الكاثوليكية الرسمية واليمين المحافظ. ونجد فى الجانب الآخر أنه قد تكون "حالف نقدى" تنتمى إليه مجموعات أيديولوجية متباينة من مفكرين ليبراليين وأقصى اليسار وأقصى اليمين: أولئك الذين يتبنون موقفاً نقدياً تجاه النظام القائم.

ويمكننا أن نستنتج فى النهاية، فى عودة إلى المسائل المنهجية، أن أفق الانتظار المتجانس الذى يرجع إليه ياوس، لا وجود له وأن القاعدة الجماعية التى يأتى ذكرها كثيراً لدى موكاروفسكى وفوديسكا تنتمى دائماً لجماعة معينة وليس للمجتمع بأكمله.

ويتميز تحليل ليناردت وبيير يوجا عن تحليل چورت فى نقطة أساسية: موضوعه ليس النقد الأدبى ولكنه القراءة بوصفها ظاهرة جماعية،

أيدولوجية. فى " قراءة القراءة " Lire la Lecture (١٩٨٣) وفى مواضع أخرى، المقصود إقامة علاقات بين الأحكام الأدبية وبعض السلالم القيمة ("مبحث القيم ") الجماعية. وعلى غرار چورت، يبين يوجا وليناردت أن الجمهور (الفرنسى أو المجرى) ليس متجانسا ولكن هناك مصالح جماعية متعارضة أحيانا تتجسد على مستوى نظام القراءة.

وتأكيدا لنقد چورت لجماليات التلقى ، يشرح مؤلفا " قراءة القراءة " فى بداية عملهما : " لقد توصلنا على كل الأحوال إلى إثبات أن نفس الروايات تتم قراءتها بطرق مختلفة متعددة [...] . وبنفس الطريقة التى يوضح بها علم اجتماع الرواية العلاقات القائمة بين البنية الروائية والبنى الاجتماعية والنظم الأيدولوجية ، يمكننا أن نستتبط بدءاً من معطيات بحثنا، السمات الخاصة للنظم الأيدولوجية الحاكمة لوعى القراء ووظيفة هذه النظم فى قلب الجماعات والطبقات المكونة للمجتمع فى مجمله " (ليناردت / يوجا ، ١٩٨٣ : ٣٥) .

ويميزان مثل چورت ، مختلف أساليب القراءة ، طرق القراءة ، الاختيارات الخاصة بمباحث القيم Axiologique الجماعية والتى يسميها نظم القراءة . وتتناسب مع القراءات " القضائية " و " الشارحة " لدى چورت ، ثلاث طرق قراءة فى " قراءة القراءة " ، تتسم كل منها بموقف يتخذه القارئ الفرد فى مواجهة النص مستقلا عن سلم القيم أو الأيدولوجية التى يتبناها :

- ١ - الطريقة الوقائية Factuel أو الظواهرية Phénoménal والتى تتسم بغياب التقييم النقدى، حيث يكتفى القارئ بإعادة إنتاج الوقائع .
- ٢ - الطريقة التطابقية - العاطفية Identificatoire- émotionnel يحكمها الحكم القيمي العاطفى أو الاجتماعى ، القارئ يؤيد أو يلوم الشخصيات .
- ٣ - الطريقة التحليلية - التركيبية analytico-synthétique تتسم بمحاولة شرح سلوك الشخصيات دون تأييدها أو إدانتها، يسعى القارئ إلى شرح سببية الأحداث .

ويكتب ليناردت الملاحظة التالية فيما يخص طرق القراءة المختلفة وذلك فى مقالته " مقدمة لعلم اجتماع القراءة " : " إن التمييز الموضوع بين مختلف طرق القراءة يتسم بتحديد مواقف فكرية خالصة منفصلة عن أى استثمار قيمى axionomique (ليناردت ، ١٩٨٠ : ٤٩) . ويمكننا أن نتساءل هنا إذا كان ممكنا بالفعل فصل " طرق القراءة " عن " نظم القراءة " : لأن التطابق العاطفى لا ينفصل أبدا على نحو ما عن سلم القيم الأيديولوجى وطريقة تصوير وشرح المقطع الحدثنى هو فى أغلب الأحوال محكوم بالتصاق أيديولوجى (انظر الفصل ٤ ، ٢ ، ب) .

وتقوم العلاقات بين طرق ونظم القراءة فى مؤلف يوجا وليناردت على الوجه التالى: " فى حين أن طرق القراءة هى إعدادات لشكل القراءات فإن نظم القراءة تظهر استثمارات القيم المنتقلة عبر هذه الأشكال " (ليناردت ، يوجا ، ١٩٨٣ : ٩٧) .

واستئنفا لتصنيفهما " للطرق " ، يميز الكاتبان أربعة نظم للقراءة تحكمها أحكام قيمية مختلفة يتسم النظام الأول (Système I) حسب الكتاب أنفسهم " كإمكانية مفكرة " تقييم روابط وظيفية بين الوسائل والأهداف دون التشكيك فى النظام الاجتماعى الذى يحدد (للأفراد وللأبطال الروائيين) الوسائل والأهداف معا . ويعكس هذا النظام القيمى " البراجماتى " فإن النظام الثانى (Système II) يتأسس على قيم ثقافية أو أخلاقية محددة . يميز الكاتبان متغيرين (IIA , IIB) : " ونعنى بالنظام IIA جميع الإجابات حيث تتكون إدانة ولوم أو نقد يتأسس على عدد من القيم تقوم بوظيفة المثل الأعلى . ويمكنها أن تكون قيماً ثقافية ، حرية ، وعى ، مجتمع ، فى كلمة واحدة قيم جميع التوجهات الكبيرة بالفعل فى حضارتنا [...] . النظام IIB يدين وفى كثير من الأحيان بشكل أكثر عنفاً من النظام IIA ، سلوكاً يتهم بالضعف ، بالليوننة ، بالتردد ، ويوضح غياب القوة والإصرار لدى شخصيات تُدان باسم اتساق أخلاقى معين " (ليناردت / يوجا ، ١٩٨٨ : ٩٩) . وفى

النهاية النظام الثالث (Systeme III) والذي يتفق فى كثير من الوجوه مع طريقة القراءة التحليلية - التركيبية أو الاجتماعية حيث إنه يميل إلى أن يستبدل بالأحكام القيمة للنظم التقليدية (IIB, IIA) شروحاتاً سببية أو "اجتماعية".

وفى هذا السياق حيث تتداخل طرق ونظم القراءة، يحلل ليناردت ويوجا التلقى الفرنسى والمجرى لرواية " الأشياء " لچورچ بيريك ورواية أندرا فياش Endre Fejes " مقبرة الصدا " . ولكى لا نتعدى إطار هذا الكتاب على أن أكتفى بتقديم مبسط للتلقى الفرنسى لرواية بيريك.

هذه الرواية التى ظهرت فى ١٩٦٥ تحت العنوان الفرعى " حكاية من الستينات " تحكى عن زوجين شابين من علماء الاجتماع النفسى تتنازعهما التسهيلات التى يمنحها عمل غير مقيد ، على الرغم من أنه مجز والانبهار بالسلع الاستهلاكية التى يمنحها البذخ الجديد كما تجسده المجلات الرائجة. وعليهما أن يختارا ولا يعرفان . والسفر إلى تونس يمثل بالنسبة لهما محاولة للخروج من الحيرة. إلا أنه ليس هناك أى شىء فى هذه التجربة يُصور كأنه خيار حقيقى: ويعودان إلى باريس متخليين عن نوع من الحياة " الحرة " التى هى امتداد للمراهقة ليدخلا فى عمل عادى، مبتذل . ويحصلان على جزء كبير من الأشياء التى تمنياها ولكن كل شىء يفقد مذاقه " (ليناردت، ١٩٨٠: ٤٦).

وبدون اعتبار قراءتهما " قراءة طبيعية "، يحلل الكاتبان ردود الفعل النقدية لمائة وواحد وعشرين قارئاً فرنسياً (ولمائة وخمسة وأربعين قارئاً مجرياً) لرواية چورچ بيريك . وأسئلة بحثهما تتركز على الأخص على موقف القراء إزاء البطلين : چيروم وسيلقى . والمقصود إثارة ردود فعل إيجابية أو سلبية تجاه سلوك الشخصيات : " أى منهما مقبول أكثر ؟ چيروم أم سيلقى؟ " هل نجح چيروم أو سيلقى فى حياتهما؟ " - " أى اختلاف يوجد بين حياتهما فى باريس وفى صفاقس؟ " ، الخ.

ونستنتج من خلال تبيننا لوجهة نظر منهجية أن البحث الإمبريقي المقدم في "قراءة القراءة" هو أكثر تعقيدا منه لدى چورت الذى كان بإمكانه الاعتماد على التوجهات السياسية للصحف فى تعريف السلالم القيمية لمختلف جماعات النقاد . وأما ليناردت ويوچا فإنهما يستنتجان فى بداية كتابهما أن ردود فعل الصحافة الفرنسية إزاء رواية بيريك إيجابية وأنه هناك اتفاق بين اليمين واليسار فيما يخص هذا الموضوع . ونظام القيم القائم وراء هذا الاتفاق يحكمه مفهوم المثل الأعلى المتمركز فى النظام IIA (السابق ذكره) : " وكملحظة أخيرة نقول إنه إذا كان هذا التماسك موجودا فإنه يتفق مع النظام التقييمى للقراءة الذى يسود فيه كما سنرى مفهوم المثل الأعلى " (ليناردت / يوچا ، ١٩٨٣ : ٥٩) . وأغلب النقاد والقراء يتفقون على استنتاج غياب المثل الأعلى فى سلوك چيروم وسليقى .

ثم يوضح الكاتبان أن تلقى الرواية من جانب الجمهور الفرنسى أكثر تباينا من ردود الفعل لدى نقاد الصحافة . ويميزان ست مجموعات مهنية - اجتماعية تظهر سلالها القيمية المتعارضة فى كثير من الأحيان ، على مستوى القراءة : أ : المهندسين ، ب : أنصاف المثقفين ، ج : الموظفين ، د : التقنيين ، هـ : العمال ، و : صغار التجار . وبعين لاستحالة اعتبار مجموع الإجابات المعطاه من أعضاء جماعة ما على أنها رؤية للعالم (جولدمان) متماسكة ، يحاول الكاتبان على الأقل تكوين رؤية جماعية بدءاً من المعطيات التى حصلوا عليها . وأعتقد أن الفرضية الجولدمانية وراء هذا الإجراء القائلة بأن الجماعات تتطلع دائما إلى التجانس دون الوصول إليه أبدا ، هى جائزة جدا . وتطلق انجارى Graziella Pagliano Ungari هذه الملاحظة فيما يخص الوعى الممكن ورؤية العالم فى مجال القراءة : " يجب إنن فى الأبحاث حول انتشار وتلقى الرسالة الأدبية ، مراعاة الوعى الممكن لدى المتلقين فى نفس الوقت [...] (Pagliano - Ungari ، ١٩٧٧ : ١٤٢) .

والقراءة فى حالة المهندسين تحركها قيم فردية متأزمة : يدرك المهندسون أنه من الصعب ومن المستحيل فى كثير من الأحيان تحقيق هذه

القيم (الحرية، الإستقلال الفردي) فى إطار النظام القائم، ويرفضون فى نفس الوقت الاعتراف بفشلهم الشخصى ويتبنون موقفا ساخرا تجاه شخصيات رواية بيريك . وينتقدون چيروم وسيلفى لائمين عليهما سلبيتهما و غياب المبادرة والاستقلال والدافعية لديهما . وينادون ببعض القيم الفردية التى أصبحت إشكالية : " لقد لاحظنا أنه من الأسهل على المهندسين طرح قيم "تيمية عن معارضة استقرار النظام بمواجهته عبر حقل من التناقضات حيث يمكن للفرد إذا استطاع ذلك أن يحقق نفسه عبر الضرورة (ليناردت/ يوجا، ١٩٨٢ : ١٢١) .

أما أعضاء الجماعة ب (أنصاف - المثقفين) فيشبهون فى كثير من المواضع، چيروم وسيلفى : مثلهم مثل شخصيات الرواية، يتلقون تأثيرات نظام ثقافى اجتماعى يعترضون عليه فى سخط عاجز . ويعكس المهندسين فهم لا يرون فى العمل وسيلة لتحقيق الذات . وحيث إنهم تتنازعهم رغبتهم الخاصة غير المشبعة ورفضهم للنظام فإنهم يقرأون " الأشياء " لبيريك بمنظور تراچيدى : " شاعرين بأنهم مأخوذون فى عجلة النظام ولكنهم واعون بذلك فإن المجيبين أنصاف - المثقفين يستهويهم بسهولة الهروب فى يوتوبيا المتوحشين الجدد حيث " كل شىء كان سيسير على ما يرام لو ... " والتى تشهد فى النهاية على استقلال يشعر المرء بعجزه عن تجاوزه " (ليناردت/ يوجا، ١٩٨٢ : ١٢٩) .

وفى تطوير للتعارض بين الفرد والعالم (" الإرادى " لدى المهندسين و "المساوى " لدى أنصاف - المثقفين)، فإن الموظفين يقرأون " الأشياء " بدءاً من مفهوم للعالم يتكون من تعارض دلالى بين الصبيانية والنضج . فى انتقادهم لچيروم وسيلفى اللذين ينسيان نفسيهما فى الجرى وراء أحلام صبيانية ، فهم ينادون بموقف " ناضج " يتوقف على التخلّى عن رغبات الطفولة والمراهقة والاندماج - نون سعادة - بالنظام الاجتماعى القائم .

وبعكس الموظفين الذين يخضعون للاندماج فإن التقنيين ينظرون لإشكالية " الأشياء " فى إطار " إمكانية عقلانية " من نوع النظام الأول

للقراءة (Système) . فهم يقيمون علاقات بين الوسائل والأهداف، و يلومون على بيريك أنه جعل نجاح الشخصيات ممكنا بالرغم من أنهم تنقصهم المبادرة وبالرغم من سلبيتهم : " إنه لغريب جدا ، مديراً ! إنها استحالة أن يغير شخص عمله أكثر من مرة وأن يصبح مديراً ؟ ... إنه يغيظنى " (ليناردت/ يوجا، ١٩٨٣ : ١٤٤) . ويستنتج التقنيون أن سيلقى وچيروم (الذين وصلا لمركز الإدارة) غير جديرين بهذا النجاح .

أما ردود فعل الجماعتين الأخرين (العمال وصغار التجار) فهي طريفة بشكل خاص حيث إنها تضع فى مواجهة اللامبالاة الأيديولوجية والأخلاقية للأبطال ،سلالم قيمية محددة . ويميل نظام القيم البراجماتى للمهندسين والتقنيين لأن يُستبدل به أحكام قيمية للنظام الثانى .
.Système II

والمثير فى حالة مجموعة العمال ، هو التجانس بين نظام القيم ونظام القراءة : " وإذا كانت إجابات مجموعة التقنيين من خلال وضعهم التوسطى لا تمثل إلا نسيجا غير منسق من الأوضاع المتناقضة والتي حاولنا استنباط وظيفتها، فإنه فى المقابل تظهر مجموعة العمال الأكفاء على أنها تعطى، إذا لم يكن بديلا ثقافيا وذهنيا حقيقيا " للأيديولوجية السائدة " فعلى الأقل مجموعة فى غاية الصرامة من المواقف " (ليناردت/ يوجا، ١٩٨٣ : ١٤٥) .

أية مواقف تلك المعنية ؟ بعكس المجموعات الأخرى والتي تواجه مشاكل چيروم وسيلقى على المستوى الفردى وفى كثير من الأحيان فى إطار نظام من القيم الفردية (المهندسين)، فإن العمال يواجهون الإشكالية فى مجملها التي يقدمها بيريك، فى إطار منظور جماعى . وبهذا المنظر ينتقدون " الإنسانية " المجردة للأبطال الذين يعلنون رفضهم لحرب الجزائر دون أن يتطابقوا مع أى قوة اجتماعية ملموسة ودون التحرك على المستوى السياسى فإن الحرية الفردية فى نظر العمال تُسجل بالضرورة فى إطار فعل سياسى جماعى . وهذا المفهوم للفعل الجماعى يُستكمل بفكرة أن العمل هو الأساس

الوحيد للنجاح الاجتماعى المرتبط ارتباطا وثيقا بالفعل الجماعى وحياة الأسرة.

فى إطار هذا السياق ليس من الغريب أن لا يفهم بعض العمال تطلعات الأبطال ، فى حين نجد آخرين يلومون فرديتهم و رغبتهم فى المستحيل . چيروم وسيلفى " يريدان الكثير بالمقارنة بما يمكن أن يحصلوا عليه " . عن طريق دراسة ردود فعل العمال لـ " حكاية من الستينات " ، نفهم أفضل لماذا لم يتضامنوا مع الطلاب الثائرين فى ١٩٦٨ : لقد كانوا واقعيين . وكذلك صغار التجار ولكن بشكل مختلف تماما . وقراءتهم الجماعية للرواية متجانسة مثلها لدى العمال ، ولكنها تشهد على نظام قيمى فردى ، يتحول فيه العمل إلى نمط فردى . وهناك قيمتان يتميز بهما صغار التجار : المهنة التى يجب ممارستها " بضمير " والإرادة التى تنقص چيروم وسيلفى . وعلى الرغم من الموقف الأخلاقى الذى يفرض إدانة للسلبية غير المسئولة والحالة للشخصيات ، فإن صغار التجار يتفهمون رغبة الحرية لدى سيلفى وچيروم : ويتميزون فى هذه النقطة عن العمال الواقعيين . إلا أن تفهمهم وتعاطفهم يرتبط ارتباطا وثيقا بخيبة أمل جماعة أصبحت هامشية فى المجتمع الحديث: إنهم يعرفون أن رغبات الزوجين الشابين وهمية .

ونضيف فى النهاية أن أنصاف - المثقفين وحدهم يجسدون فى قراءتهم أحكاماً وقيماً تستهدف تجاوز النظام القائم . أما الجماعات الأخرى فإنها تميل إلى تأييد نظام القيم الرائج . إن أهمية " قراءة القراءة " تكمن فى تجاوز الإشكالية الأدبية : فى توضيح بعض السلالم القيمية الجماعية المتواجدة فى قلب مجتمع متباين وتتجسد على مستوى القراءة .

٥ - القراءة كعملية تناسية

كاموفى الاتحاد السوفيتى

لقد سبق أن ذكرنا التوجه الخاص بالتيمة فى تحليلات ليناردت ويوجا : إن اهتمامات بحثهم تنصب بشكل خاص على العلاقات الاجتماعية والعاطفية

بين أبطال النص السردي والقراء ، وعلى الرغم من أهمية بحث ضخم كـ "قراءة القراءة" (إنه الوحيد من نوعه في هذا المجال الاجتماعي) ، إلا أنه يهمل البنية الخطابية (الدلالية والسردية) للرواية. هناك سؤال واحد للبحث يرجع بشكل مباشر لمشكلة السرد ، إلى واقع أن الرواية هي إعادة تشكيل دلالية وسردية للواقع : " لو كنت في مكان الكاتب كيف كنت تنهى هذه الرواية؟" وأعتقد أن طريقة القراءة والنقد لإحدى الروايات تتوقف بشكل خاص على تكوينها الدلالي والسردى : على طريقة الكاتب (أو الراوى) فى سرد "الأشياء".

ولكى أوضح هذه الفكرة سأستند إلى تحليل لتلقى ألبير كامو فى الاتحاد السوفيتى الذى نشرته إيميلى تول Emily Tall فى " دراسات فى الأدب المقارن " : " كامو فى الاتحاد السوفيتى ، بعض المهاجرين الجدد يتكلمون " Camus in the Soviet Union : Some Recent Emigrés Speak . وعلى الرغم من تواضع بحث تول بالمقارنة مع أبحاث يوجا وليناردت ، فإنها تبين إذا ما تمت قراءتها فى ترابط مع تحليلي " للغريب " ، إلى أى حد يمكن للمشاكل الدلالية والتركيبية للرواية أن توضح تلقيها وقراءتها المتباينة. وبالتالي ليس تحليلا لتلقى كامو : بل مجرد رسم تخطيطي للمشاكل التى يجب أن يأخذ بها أى تحليل من هذا النوع.

ويمكن لنقطة البداية أن تكون موقف السلطات السوفيتية تجاه أعمال كامو وفيما يخص السياسة الرسمية تكتب إيميلى تول التالى: " تتأرجح السياسة السوفيتية الرسمية تجاه كامو وعلى طول سنوات ، بين تسامح غير متعاطف وعداء مكشوف " (تول ، ١٩٧٩ : ٢٤٦).

وإلى جانب النقاد وموظفى الرقابة ، تميز تول العديد من الجماعات والتي من بينها على الأخص المثقفون الليبراليون والنقاد وكذلك أعضاء آخرون من " الإنتلجنسيا الذين يتعاطفون مع كامو . هناك نطاق من القراء لا ينتمون إلى " الماركسية - اللينينية " الرسمية ويميلون إلى إصدار أحكام

سلبية حول أعمال كامو : الذين يؤيدون بدون تحفظ التقدم الاقتصادي والتقنى والذين يؤمنون بالنهضة الدينية لروسيا . ويستنتج تول فى تحليل لردود فعل هاتين الجماعتين : " من الواضح أن هؤلاء الذين - من بين النقاد - يتجهون بأملهم إلى العلم ، التكنولوجيا ، الاقتصاد وتطور الأشكال " الحقيقية " للديمقراطية ، لا يؤيدون كامو ، والآخرين الذين ينتظرون من المستقبل نهضة دينية أو قومية ، لا يوجد تآلف بينهم وبين كامو " (تول ، ١٩٧٩ : ٢٤٥) .

وبعكس چورت وليناردت ويوجا لم تتمكن إيميلى تول من إجراء أبحاثها " ميدانيا " فى الاتحاد السوفيتى : كما يشير إليه عنوان بحثها وكان عليها أن تكتفى بتحليل ردود فعل " المهاجرين الجدد " فى الولايات المتحدة . وعلى الرغم من هذا التحديد (المفروض من النظام السوفيتى) أعتقد أن دراستها تطرح أسئلة هامة تخص أسباب القراءات الجماعية المختلفة .

وهكذا فإن مسألة معرفة لماذا تتبنى ثلاث جماعات من القراء متباينة جدا - الماركسيون اللينينيون الرسميون ، أولئك الذين ينادون بالتقدم الاجتماعى وأولئك الذين ينتظرون نهضة دينية فى روسيا ، موقفا عدائيا أو محاذرا تجاه كامو ، هى مسألة اجتماعية بالدرجة الأولى . وفى رأى أنه تستحيل الإجابة الشافية طالما لا تراعى البنى الدلالية والسردية لنص كامو .

ومن أجل شرح ردود الفعل السلبية هذه يجب مراعاة واقع (تم تحليله فى الفصل الرابع) أن " الغريب " ونص فلسفى مثل " أسطورة سيزيف " ينتقدان البنية الدلالية والفعلية للخطابات الأيديولوجية . ويرفض كاتبهما الاعتراف بوجود غائية تاريخية (مسيحية أو ماركسية) وأن التاريخ يتطور فى اتجاه هدف محدد وأنه يمكن أن يتمثل فى إطار جملة واسعة سردية .

واضح بشكل ضمنى وفى كثير من الأحيان أن نصوص كامو تجادل ثلاثة خطابات أيديولوجية مختلفة على الأقل : الخطاب المسيحى - الإنسانى الذى يسعى إلى تصوير التاريخ الإنسانى فى إطار أخرويات مؤسسية ،

والخطاب الإنساني - العقلاني والذي تتحكم في غائتيه فكرة التقدم، الخطاب "الماركسي - لينيني" الموجه نحو هدف مجتمع بدون طبقات.

ويشكل هذا الأخير جزءاً من اللغة الجماعية الرسمية للاتحاد السوفيتي ويلعب دوراً هاماً في جماليات " الواقعية الاشتراكية " . وصحيح أن الإثنين الأولين هما ، على الأقل في الاتحاد السوفيتي ، خطابات متعارضة، إلا أنهما يتفقان مع " الماركسية - اللينينية " حين يتوقف الأمر على مقابلة التاريخ " الحقيقي " باللامبالاة واللاأدرية لدى كامو.

ومن الممكن بالطبع قراءة " الغريب " لكامو في إطار جمالية ماركسية على أنها " ثورة ضد المجتمع الرأسمالي للإنساني " . ومسألة معرفة لماذا لم يختر الماركسيون - اللينينيون في الاتحاد السوفيتي قراءة كهذه كان الأولى بها أن تحول كامو إلى " مناصر للطبقة العاملة " وإلى " كاتب تقدمي " ، لالتقى إجابة إلا على المستوى الخطابي : إن نقد كامو للقصة الغائية المسيحية (" القصة المكتوبة مسبقاً ") يتضمن نقداً للغائية الهيكلية والماركسية على المستوى البنيوي، ويسير الحزب الواحد بالشعب في اتجاه مراحل أعلى وأعلى من التطور الاجتماعي: ولا يجب على أحد أن يشك في هذا (والذي يعتبر بناءً خطابياً لم يتم الجدل حوله أبداً) . ويقصد بناءً خطابياً مماثل لما قدمه المحامي العام في المحكمة الذي عليه أن يحاكم ميرسو.

وليس غريباً على الإطلاق التوصل، مع إيميلي تول ، إلى أنه على الأخص الفرد اللاأدري الباحث عن الحقيقة ، هو الذي يؤيد نصوص كامو. إن الذي لم يتطابق مع أي خطاب أيديولوجي قائم مسبقاً، يجد لدى كامو الاستفهام النقدي الذي يطرحه هو نفسه : « فيلسوف موسكو الذي تذكر أنه "ترك المسمى ماركس الشاب ليتجه إلى الوجودية مع بقاءه لا أدرياً " شعر بنفسه منجذياً إلى البحث مثله لدى كامو عن أخلاق دنيوية [...] » (تول، ١٩٧٩ : ٢٤٢).

وتتخذ كلمة " بحث " أهمية خاصة في هذا السياق : فالباحث يتجنب فحاً هاماً للنظام الأيديولوجي: الغائية والمونولوج. وبالفعل فإن نص كامو تم

إدراكه على أساس أنه ضد هذا الانغلاق الأيديولوجي، وتلقيه الإيجابي أو السلبي لا ينفصل عن مفهومه النقدي : عن إنتاجه في إطار وضع اجتماعي - لغوي خاص .

ومن الجائز بدون شك الاعتراض على الصفة التصويرية للبحث المنشور لإيميلي تول التي حلت ردود فعل قليل من المهاجرين الروس في الولايات المتحدة . في إطار المنظور الذي حاولت فتحه قبل أن أنهى الفصل الأخير من كتابي هذا ، فإنه لا يقصد التساؤل حول الأسس الإمبريقية للأبحاث ولكن توضيح العلاقة الوثيقة القائمة بين الإنتاج والتلقي وضرورة مراعاة البنى النصية (الدلالية والتركيبية) عند شرحنا لأي تلقٍ .

ولقد نشر حديثا ، كلاوس هايتمان Klaus Heitmann كتابا حول التلقي الفرنسي لأعمال كامو يتساءل فيه عن آليات التطابق لدى القراء الشباب . والسؤال الرئيسي لبحثه : " هل أعتبر ميرسو نموذجا ممكنا للتطابق بالنسبة لي ؟ " ، يستهدف ، مثله مثل أغلب الأبحاث التي تمت مناقشتها هنا ، المظاهر التيمية (" المحتوى ") للرواية . وتقع الإجابات على نفس المستوى : " [...] حصلت على خمس وأربعين إجابة . ثلثها فقط يعبر عن تعاطف ، بمعنى إعجاب دون تحفظ بفكر البطل وسلوكه ، في حين أن عشرة من المشاركين عبروا عن خلاف تام ، والباقي حسب مظاهر الشخصية متفرقين بين موافقين ومستنكرين (هايتمان، ١٩٨٣ : ٥٠٦) .

ويعكس مثل هذا التناول التيمى (والذي في حالة هايتمان يهمل الاختلافات الأيديولوجية) فإن سوسيوولوجيا النص كما تكونت هنا تتجه إلى عملية التناص التي تربط بين شروط الإنتاج والنص نفسه وبين شروط التلقي والقراءة . إنها تسعى إلى فهم النص الأدبي والنصوص الشارحة لدى القراء كبنى خطابية تدخل في حوار مجسدة مواقف ومصالح جماعات معينة .

قائمة المصطلحات

(١)

Quantification	اتجاه إلى الكم
Cohérence événementielle causale	اتساق حدثي سببي
Appareils ideologiques d'État	أجهزة إيديولوجية
Univoque	أحادي
Monologique	أحادي الصوت
Monopole du langage	احتكارية اللغة
Ambivalence des valeurs	ازدواج القيم
Ambivalence carnavalesque	ازدواج القيم الكرنفالي
Omissions	استبعادات
Métaphore obsédante	استعارة استحواذية
Aliénation	استلاب
Fonctionnarisation	استيظاف
Mythe personnel	أسطورة شخصية
Problématique	إشكالي
Interdépendance	اعتماد متبادل
Horizon d'attente	أفق انتظار
Clergé	اكليروس
Cléricalisme	اكليروسة
Pertinence	التصاق
Automatisation	آلية
Allégorique	أمثولي
Allégorie	أمثولة
Selections	انتقاعات
Pertinences	أنظمة تصديق
Reflet	انعكاس
Elliptique	إيجازي
Mimétique	إيمائي

(ب)

Programme narratif	برنامج سردي
Antihéros	بطل ضد
Dimension paradigmatique	بعد افقى
Structuralisme génétique	بنائية توليدية
Structures macrosyntaxiques	بنى تركيبية كبيرة
Structure significative	بنية دلالية
Structure lacunaire	بنية فجوية
Structure paratactique	بنية متوازية

(ت)

Herméneutique	تأويلي
Juxtaposition	تجاور
Autolimitation	تحديد ذاتي
Analyse actantielle	تحليل فاعلي
Analytico - synthétique	تحليل - تركيبى
Péripétie	تحول
Neutralisation	تحييد
Fiction	تخييل
Associations	تداعيات
Hiérarchique	تراتبى
Chronologie	ترتيب زمنى
Syntaxique	تركيبى
Composition paratactique	تركيب قائم على جمل منفصلة متوازية
Synchronique	تزامنى
Commercialisation	تسويق
Analogie	تشابه
Réification	تشيو
Classification / taxinomie	تصنيف

Diachronique	تعاقبي
Polyphonie	تعدد أصوات
Polysémie	تعدد معنى
Pluralité du texte	تعددية النص
Altérité du moi	تغاير الأنا
Désémantisation	تفريغ من المعنى
Désintégration du sujet individuel	تفكيك الذات الفردية
Composition (macro -) syntaxique	تكوين (كلى -) تركيبى
Énonciation	تلفظ
Réception	تلقى
Homologie	تماثل
Non - identité	تمايز
Institutionnalisé	تم تطويعه للمؤسسة
Intertextualité	تناص
Mise en théorie	تنظير
Autorégulation	تنظيم ذاتى
Subordinations	توابع
Simple parallélisme des structures	توازى بسيط للابنية
Médiation par la valeur d'échange	توسط عبر قيمة التبادل
Synthèse	توليف
Courants	تيارات

(ث)

Subcultures	ثقافات فرعية
Cultures subalternes	ثقافات محكومة
Dichotomies	ثنائيات

(ج)

Esthétique	جماليات
------------	---------

(ج)

Diégèse	حكائية
Dialogique	حوارى
" Artefact "	حيلة فنية

(ف)

Parataxis	خطاب الفصل
Métadiscours	خطاب شارح
Discours - conception	خطاب مفهوم
Discursif	خطابى

(د)

Signifiant	دال
Narratologie	دراسات السرد
Sémantique	دلالى
Sphères d'action	نوائر فعل

(ذ)

Sujet	ذات
Antisujet	ذات ضد
Anthropomorphe	نو توجه انسانى

(ر)

Capitalisme d'organisation	رأسمالية نظامية
Narrateur omniscient	راو عالم بكل شىء
Essayiste	رسائلى

Traité	رسالة
Vision du monde	رؤية العالم
Roman - éducatif	رواية تعليمية
Roman - essai	رواية - رسالة
Roman psychologique de la désillusion	رواية سيكولوجية لخيبة الأمل

(س)

Narration	سرد
Narratif	سردي
Contexte	سياق

(ش)

Explication	شرح
-------------	-----

(ص)

Devenir	صيورة
---------	-------

(ض)

Rections internes	ضوابط داخلية
-------------------	--------------

(ط)

Utopique	طوباوى
----------	--------

(ع)

Transphrastique	عبر جملى
Transindividuel	عبر فردى
Contingent	عرضى
Raison instrumentale	عقل أدواتى
Sociologie de la littérature	علم اجتماع الأدب
Sociologie du texte	علم اجتماع النص
Sociosémiotique	علم علامة اجتماعى
Sémiotique discursive	علم علامة استدلالى
Faire taxinomique	عملية تصنيفية
Idéologème	عنصر إيدىولوجى

(غ)

Téléologie	غائية
Non hypotactique, non hiérarchique	غير مرتب فى نسق تراتيبى

(ف)

Actantiel	فاعلى
Individu charismatique	فرد كاريسىمى
Hypothèse	فرضية
Action intersubjective	فعل متبادل بين الذوات
Pensée apologétique	فكر تبريرى
Philosophie Scolastique	فلسفة مدرسية
Compréhension	فهم
Actants	فواعل جماعية
Métalinguistique	فوق لغوى

(ق)

Analogon	قاسم تشبيه
Récit	قص
Coupure épistémologique	قطع معرفى

(ك)

Écriture associative	كتابة تداع
Monolithique	كتلوى
Pars pro toto	كل فى الجزء
Totalité cohérente	كلية متسقة

(ل)

Non - sujet	لا - ذات
Anachronique	لازمى
Non - entité	لا - كينونة
Indifférence	لامبالاة
Insignifiante	لامعنى
Anomie	لامعيارية
Jargon élitare	لغة نخبوية
Pertinent	لصيق
Sociolecte	لهجة جماعية
Idiolecte	لهجة خاصة

(م)

Manichéen	مانوى
Quête imaginaire	مبحث متخيل
Principe de la substitution métonymique	مبدأ الإحلال على نمط المجاز المرسل
Principe de l'hétérogénéité	مبدأ غياب التجانس
Hiérarchisé	مبنى على التدرج
Polysémique	متعدد المعنى

Anthropocentriste	متمركز حول الانسان
Controverses	مجادلات
Synecdoque	مجاز مرسل
Société urbaine	مجتمع حضري
Société rurale	مجتمع ريفي
Contenu	محتوى
Démystifiant	محطم للأسطورة
Approche	مدخل
Signifié	مدلول
Dénotatif , référentiel	مرجعي
Destinateur	مرسل
Destinataire	مرسل إليه
Antidestinateur	مرسل ضد
Codestinateur	مرسل مع
Anthropocentrisme	مركزية الذات الانسانية
Logocentrisme	مركزية العقل
Contrepoint romanesque	مزج روائى
Parcours narratif	مسار سردي
Adjuvant	مساعد
Heuristique	مساعد على المعرفة
Sujétions	مسندات
Hypostasié	مشخص
Fragmentaire	مشرذم
Opposant	معارض
Lexical	معجمي
Aporétique	معضلي
Norme	معياري
Normatif	معياري

Épopée féodale	ملحمة إقطاعية
Catégorie	مقولة
Énoncé	ملفوظ
Légitimiste	مناصر للسلطة الشرعية
Perspective	منظور
Actoriel	مؤدى للفعل
Objet	موضوع
Objectivité (Wertfreiheit)	موضوعية

(ن)

Noblesse de robe	نبلاء الرداء
Noblesse d'épée	نبلاء السيف
Narcissisme	نرجسية
Tendances fatales	نزعات جبرية
Dévaluation	نزاع القيمة
Nominalisme	نزعة اسمية
Esthétisme	نزعة جمالية
Pulsion mimétique	نزعة مقلدة
Systematique	نسقى
Genése	نشأة
Métatexte	نص شارح
Textuel	نصى
Systeme	نظام
Subsysteme	نظام فرعى
Systemes Combinatoires	نظم تركيبية
Isotopie	نظير
Sociocritique	نقد اجتماعى للنصوص
Psychocritique	نقد نفسى

(ن)

Régression	نكوص
Typique	نمطى
Modèle actantiel	نموذج فاعلى
Générique	نوعى

(هـ)

Marginal	هامشى
Hégémonie culturelle	هيمنة ثقافية

(و)

Réalisme critique	واقعية نقدية
Classème	وحدة تصنيفية
Syntagme phrastique	وحدة جمالية
Monosémie	وحدة دلالة
Monade	وحدة قائمة بذاتها
Positif	وضعى
Néopositivisme	وضعية حديثة
Conscience fausse	وعى زائف

(ى)

Prise de conscience	يقظة وعى
---------------------	----------

ببليوجرافيا شارحة

ملاحظة: هذه ببليوجرافيا لا تدعى لنفسها الشمول. فلأن التوجه كان إلى قراء ناطقين بالفرنسية، فقد تم حذف عدد كبير من النصوص الهامة المنشورة في إسبانيا، تشيكوسلوفاكيا وفي هولندا. ونفس الشيء بالنسبة للمنشورات الانجليزية، الألمانية أو الإيطالية التي ليس لها أهمية واضحة بالنسبة للمسائل الواردة في هذا الكتاب. لذا فضلنا المنشورات باللغة الفرنسية. كما أن ببليوجرافيا لا تذكر إلا الكتب.

١- ببليوجرافيات

"Bibliografia classificata di Sociologia della Letteratura"
in Quaderni di Sociologia, XVII, 1, 1968 (Torino), L. Benzi,
M, Marchetti.

هذه الببليوجرافيا الواسعة لها صفة نوعية ودولية. وحيث إنها وضعت منذ خمسة عشر عاما فهي لم تحتفظ في الوقت الحالي إلا بالقيمة الوثائقية والتاريخية. ورغم قدم هذه الببليوجرافيا إلا أنها تحتوي على عناوين هامة لا يجب نسيانها.

"Bibliographie" , in R. Escarpit (ed,) 1970: Le Littéraire
et le social (Paris, Flammarion).

هذه الببليوجرافيا في اتجاهها إلى أعمال مدرسة بورديو - ILTAM
- تحبذ التيار الإمبريقي في علم اجتماع الأدب.

"Bibliographie" , in P, Burger (éd.), 1978: Seminar: Lit-
eratur und Kunstsoziologie (Frankfurt, Suhrkamp).

هذه الببليوجرافيا رغم صفتها الانتقائية - حيث تستبعد الأعمال الاجتماعية السيميوطيقية - فهي تستكمل تلك التي وضعتها مدرسة بورديو من حيث إنها تتجة إلى المداخل الجدلية. والجزء الأول منها مخصص للمناقشات التي دارت بين كل من أدورنو و بنيامين في الثلاثينيات.

"Bibliography", in J. Wolff, 1981: The Social Production of Art (London, Macmillan).

هذه الببليوجرافيا يمكن أن يطلع عليها أولئك المهتمون بتطورات علم اجتماع الأدب والفن في بريطانيا والولايات المتحدة.

٢- مقدمات و مختارات:

BORDONI, Carlo (1972), 1974: Introduzione alla sociologia della Letteratura (Pacini, Pisa).

مقدمة تتجه بشكل خاص نحو النظريات الجدلية والمادية للوكاش وجولدمان، إلا أنها تأخذ باعتبارها تأثيرات بنيوية ليفي شتروس على النقد الاجتماعي. والجزء الأخير من الكتاب مخصص للرواية أثناء الثورة الصناعية. BÜRGER, Peter (éd.) 1978: Seminar: Literatur-Und Kunstsoziologie (Frankfurt, Suhrkamp).

هذه المختارات التي تحبذ المداخل الجدلية دون أن تهمل علم اجتماع الأدب الإمبريقي تحتوي على إسهامات هامة في علم اجتماع الأدب والفن: أدورنو، كوهلر، سيلبرمان.

وتنقسم إلى ستة أجزاء كل منها يقدم على حدة في إطار منظور منهجي.

BURNS, Elizabeth et BURNS, Tom (éd), 1973: Sociology of Literature and Drama (London, Penguin).

رغم قدمها فإن هذه المختارات يمكن أن تكون ذات نفع بالنسبة للمهتمين بعلم اجتماع المسرح - جورفيتش، سيمبل، بورنس، وبالطبيعة - بود جيولي مانجيني -، وبعلم اجتماع الجمهور الأدبي : الجزء الخامس.

CONIO, Gerard (éd), 1975: Le Formalisme et le futurisme russes devant le marxisme (Lausanne, Éditions L'Age d'Homme)

هذه المجموعة تحتوى على وثائق على قدر كبير من الأهمية عن العشرينات. وهى تقدم الحجج الأساسية للمستقبليين والشكليين والماركسيين. حيث يعرض كتاب أمثال، ايخنبوم، تينيانوف، جورلوف وبوليانسكى، نظرياتهم، مستهدفين أحيانا التوليف بين المنهج الشكلاى وعلم الاجتماع الماركسى. هذا الكتاب يستكمل ذلك الذى نشره جوتتر فى ألمانيا.

COSER, Lewis A., 1963: Sociology through Literature (Englewood Cliffs, Prentice Hall).

إسهام هام فى علم اجتماع المحتويات حيث يتجه إلى فهم المجتمع بشكل أفضل عن طريق تحليل النصوص الأدبية على مستوى التيمة والمستوى الوثائقى. إلا أن النصوص عند هذا المستوى تختزل إلى وظيفتها المرجعية وبهذا يتم إغفال ألياتها النصية وتعدد معانيها.

DUBOIS, Jacques, 1978: L'institution de la Littérature. Introduction à une sociologie (Paris / Bruxelles, Nathan/ Labor).

مقدمة قوية جدا، تتخذ من مؤسسة الأدب نقطة انطلاق. بدءاً من مفهوم المؤسسة يحلل الكاتب مشاكل الإنتاج والمشروعية والتلقى ووظيفية آداب الأقليات. ويجمع الجزء الأخير من الكتاب عناصر تحليل مؤسسى لثلاثة نصوص: "المال" لزولا وقصائد لما لارميه و"نهاية الحفل لبيكيت"

DUCHET Claude(éd.) ,1977: Sociocritique (Paris, Nathan).

هذا الكتاب أعد من مؤتمر حول علم اجتماع الأدب، وهو عمل ليس له صفة الاتساق. فهو يحتوى أحيانا على أعمال مجده تتجة نحو المشاكل النظرية ومفهوم الأيديولوجية - الجزء الأول - ونحو التحليل النقدى الاجتماعى للنص - الجزء الثانى - ثم نحو مشاكل الاتصال والمؤسسة: الجزء الثالث.

ESCARPIT, Robert(1958), 1968: La Sociologie de la Littérature(Paris, PUF /Que sais - je?).

يدرس المؤلف وضع الكاتب الحديث ومصير واستمرارية الكتاب في مجتمع متغير وردود فعل الجمهور، وهو يفضل نظام الاتصال ويهمل البنى النصية.

ESCARPIT. Robert (éd.) 1970: Le Littéraire et Le social. Eléments pour une sociologie de la littérature (Paris, Flammarion).

هذا العمل يمكن قراءته على أنه بيان (منفستو) مدرسة بورديو التي يهتم أعضاؤها بشكل خاص بالاتصال الأدبي: النجاح واستمرارية الكتاب، والمظاهر المؤسسية للاتصال الأدبي إلى جانب أدب الجماهير وعلم اجتماع المحتويات اللذين قدمهما هنري زلما نسكى.

HALL, John, 1981: The Sociology of Literature (London/New York, Longman).

إن قيمة هذا الكتاب تكمن في تناوله لنظام الاتصال الأدبي. كما نجد فيه تحليلاً لوظيفة الفنان في المجتمع الحديث، وكذلك وظائف النقد والنشر والأدب الذي يطلق عليه الشعبي. إلا أن العمل يعيبه العديد من نقاط الضعف النظرية. فالمؤلف حين يطابق على سبيل المثال، بين "ال" بنيوية ومقدمة نشرها كولر في الولايات المتحدة، فهو يحول المدخل البنيوي إلى نوع من الكاريكاتور.

LAURENSEN, Diana et SWINGEWOOD, ALan ,1972: The Sociology of Literature (London, Paladin).

يتخذ العمل كنقطة انطلاق نظريات لوكاتش وجولدمان ويحتوى على تحليلات مفصلة لوضع الكاتب في المجتمع الحديث.

LINK, Jürgen et LINK- HEER Ursula, 1980: Literatursoziologisches Propädeutikum (München,Fink/UTB).

مقدمة ضخمة ومفصلة، تعيد إنتاج مقتطفات من نصوص اجتماعية "كلاسيكية" ومعاصرة، جامعة بذلك بين المختارات الاجتماعية والمقدمة لعلم اجتماع الأدب.

ويتجنب الكتاب كثيرا في سعيهم للتوليف بين المدخل الاجتماعي والمدخل السيميوطيقي، تلك الصفة الاعتباطية والمجردة لعلم اجتماع الأدب التقليدي. وموضوع الكتاب هو نظام الاتصال الأدبي في مجمله.

SCHARFSHWERDT, Jürgen, 1977: Grundprobleme der Literatursoziologie (Stuttgart, Kohlhammer).

هذا العمل يمكن أن يفيد المهتمين بالتطور التاريخي لعلم اجتماع الأدب، بدءاً من نظريات روسو، كونت، توكيفل، مانهايم وشونكينج. ويهمل المؤلف بالكامل البنى النصية ويتجه في تقديمه للنظريات المعاصرة إلى المناقشة الألمانية فقط لا غير. بيليوجرافيا.

WOLFF, Janet, 1981: The Social Production of Art (London, Macmillan).

لأن يكون مقدمة بالمعنى التقليدي للكلمة فإن هذا الكتاب يمكن قراءته كتقديم للمشاكل الأساسية لعلم اجتماع الفن والأدب وبخاصة: الثلاثة الأولى: "البنية الاجتماعية الإبداعية الفنية"، "الإنتاج الاجتماعي للفن"، "الفن كأيدولوجية". يسعى المؤلف إلى الجمع بين بعض المناهج الجدلية والمادية وبين المداخل التأويلية الفرنسية والألمانية: ريكور، جدامر، ياوس.

ZIMA, Peter V., 1980: Textsoziologie. Ein Kritische Einführung (Stuttgart, Metzler).

هذا العمل هو محاولة لوضع أسس علم اجتماع الفن مع إدخال بعض المفاهيم السيميوطيكية والسيميوطيقية الاجتماعية على النظرية النقدية التي وضعها أدورنو وهوركهايمر.

والفصل الأخير مخصص لمشاكل نقد الخطاب.

٣ - نظرية وجماليات

ADORNO, Theodor W.(1970), 1947: Théorie esthétique(trad. M.Jimenez),(Paris, Klincksieck).

هذا العمل الذى نشر بعد وفاة أدورنو يمكن قراءته كتوليف بين التحليلات الاجتماعية النقدية والجمالية فى كتابه "ملاحظات عن الأدب". وينادى أدورنو بفرن مستقل ونقدى قادر على الإفلات من الآليات الإدماجية للاتصال الأيديولوجى والخاضع للسوق. كما يحاول أيضا إدراج النزعة الإيمائية، غير المفهومية للفن فى نظريته. هذه المحاولة التى تولد نوعاً من الكتابة ذات جمل قصيرة منفصلة، لا سببية ولا - تراثية، تنبهنا - على الأقل جزئياً - إلى صعوبة هذا النص.

ADORNO, Theodor W. et HORKHEIMER, Max (1947), 1974: Dialectique de la raison (Paris, Gallimard).

يحاول هنا المؤلفان توضيح الصفة الأسطورية والقمعية على حد سواء للعقلانية الأوروبية منذ أن تطورت بدءاً من عصر التنوير. ويوضحان كيف أن العقلانية تنبع من الأسطورة ومن سيطرة الإنسان على الطبيعة وكيف أنها تتحول إلى ميتولوجيا، وبتيجة الفكر النقدي فى هذا السياق إلى المحاكاه الفنية. ويحتوى العمل على فصل على قدر خاص من العمق حول ما يسميه الكتاب "الصناعة الثقافية".

ALTHUSSER, Louis, 1965: Pour Marx (Paris, Maspero).

يطرح المؤلف قراءة جديدة لكتابات ماركس والتى يحاول أن يفصلها عن المثالية التاريخية لهيجل وفيخته. ويتضح نقده للمفاهيم "الأيديولوجية" مثل الذات والشخصية والتاريخ بشكل ملموس فى دراسته عن مسرح بريخت والذى، حسب رأى المؤلف، يخرج المشاهدين من "الأيديولوجية التلقائية التى يحيا فيها الناس".

ARVON, Henri 1970 : L'Esthétique marxiste (Paris, PUF).

يربط المؤلف بين كتابات ماركس وانجلز حول الفن وبين الجماليات الماركسية المعاصرة. ويتطرق إلى مشاكل العلاقة بين "الشكل" و "المحتوى"، وكذلك المشاكل التي تتعلق بالفن الثوري والمسرح الثوري والواقعية الاشتراكية. ويحلل في الفصل الأخير الجدل الذي دار بين بريخت ولوكاتش حول الواقعية.

BAKHTINE, Mikhail, 1978: Esthétique et théorie du roman (Paris, Gallimard)

يسعى المؤلف إلى إثبات أن الرواية - على الرغم من وجود روايات "أحادية الصوت" - هي نوع متعدد الأصوات ، متعدد الخطابات في مقابل جدية وسلطة المونولوج. ويوضح كيف أن مختلف "الأصوات" الروائية تمثل الواقع في الوقت نفسه الذي تمثل فيه. وقد حاول باختين بدء من الرواية وضع جماليات وفلسفة لتعدد الأصوات وللغيرية.

BARTHES, Roland, 1952: Le degré zéro de l'écriture (Paris, Denöel)

يعد بارت من أوائل من حللوا المظاهر المؤسسية للفن. وهو يصف في هذا العمل العملية التي تؤدي إلى الفردانية الجذرية للكتابة بعد تفكيك البلاغات المعيارية والأساليب المقننة.

GBENJAMIN, Walter, 1971: Œuvres I - II (trad. M. de Gandillac), (Paris, Denoël)

. هذه المختارات من النصوص تحتوى على رسائل هامة مثل « العمل الفني إبان عصر إعادة إنتاجه التقني» وقضايا علم اجتماع اللغة»، إلخ. ووجهة النظر التي يتبناها بنيامين هي على وجه خاص من الأهمية بالنسبة لذلك النقد الخاضع للسوق الذي يسعى لإحياء «الهالة» المنحدرة. أما تحليلات بنيامين لقصائد «أزهار الشر» فيمكنها أن تصبح نقطة انطلاق لعلم اجتماع النص: يوضح بنيامين كيف يتم تدمير «الهالة» بفعل العمليات الأسلوبية.

BÜRGER, Peter, 1974: Theorie der Avantgarde (Frankfurt, Suhrkamp).

يسعى بورجر، منطلقاً من النموذج السوربالي للطليعة ، إلى اظهار أن أدب الطليعة يمكن فهمه فى إطار علم اجتماع للمؤسسة الأدبية. وفى رأى بورجر فإن السوربالية الفرنسية والطلائع الأوروبية الأخرى تم إدراجها داخل مؤسسة الفن بالرغم من اجتهادها لتحطيم هذه المؤسسة.

EAGLETON, Terry, 1976: CRITICISM and Ideology (London, NLB).

يسعى إيجلتون مستلهما النظريات الأتوسرية التى طورها ماشرى إلى وضع نظرية مادية للأدب. وعلى الرغم من الاختلافات التى أدخلها بين الأيديولوجية عموما والأيديولوجية الجمالية وأيديولوجية الكاتب. إلا أن تحليلاته الأدبية لجوزيف كونراد و إليوت وجيمس جويس لم تتجاوز إطار علم اجتماع المحتويات حيث يتم إهمال البنى النصية.

FÜGEN,Hans Norbert,1964: Die Hauptrichtungen der Literatursoziologie und ihre Methoden(Bonn, Bouvier).

على الرغم من اعتباره فى كثير من الأحيان على أنه منفستو علم الاجتماع الإمبريقى للأدب ، إلا أن هذا العمل لايمثل فى الوضع الحالى إلا مجرد القيمة الوثائقيه. والموضوعية القبيرية التى يحاول تطبيقها على أبحاثه العلمية الخاصه، لم تمنع فوجن من تقديم صورة كاريكاتورية للجماليات الماركسية التى يطابق بينها وبين جماليات لوكاتش الشيخ. وحيث إنه يهمل النص الأدبى فهو يتجه بشكل خاص إلى علم اجتماع المؤلف. ببليوجرافيا.

GOLDMANN, Lucien, 1959: Recherches dialectiques (Paris, Gallimard).

يقدم جولدمان فى هذه المجموعة من المقالات، بعض المفاهيم الأساسية لعلم اجتماع الأدب الماركسى: حيث يشرح التشيؤ والبنية الدالية ورؤية العالم. ويلى الجزء النظرى عدد من التحليلات التطبيقية.

GOLDMANN, Lucien, 1970: Marxisme et sciences humaines (Paris, Gallimard).

تستكمل رسائل هذه المجموعة ، فى كثير من المواضع، مقالات كتاب «أبحاث جدلية». ويحدد المؤلف فى بداية الكتاب مصطلحاته فى « نشأة وبنية» و«علم اجتماع الأدب : الوضع ومشكلات المنهج» و«ذات الإبداع الثقافى» الخ.

GREIMAS ,Algirdas Julien, 1970,1983: Du Sens I, Du Sens II (Paris, Seuil).

على الرغم من أننا لسنا بصدد عمل حول علم اجتماع الأدب التقليدى، إلا أن هذين الكتابين يمثلان أهمية خاصة بالنسبة لعلم اجتماع النص، حيث يوضح المؤلف كيف أن البنى الدلالية والسردية للخطاب تحكمها تصنيفات وأنماط قيم اجتماعية.

GREIMAS, Algirdas Julien, 1976: Sémiotique et sciences sociales (Paris, Seuil).

يبور المؤلف فى هذه المجموعة من المقالات السيميوطيقا الخطابية فى مجال العلوم الاجتماعية. ويوضح فى المقالة الأولى، أن كل خطاب يحقق مشروعاً أيديولوجياً يظهر من خلال بنيته الفاعلية. حيث يحلل جريماس بالتفصيل الوظائف الفاعلية لخطاب تشريعى.

GUNTHER, Hans(éd.) , (1937),1976: Marxismus und Formalismus(München, Hanser).

تمثل النصوص الماركسية والشكلية المنشورة فى هذا الكتاب قيمة تاريخية منهجية على حد سواء. والمهتمون بالتوليف بين السيميوطيقا وعلم الاجتماع سيكتشفون أن بعض القضايا التى يثيرها توليف من هذا النوع طرحها خلال العشرينات والثلاثينات كتاب أمثال مدفديف أرفاتوف وكونراد..

HAUSER, Arnold, 1982:Histoire Sociale de l'art et de la littérature I- IV (Paris, Le Sycomore).

إن عمل هوسر هو من المحاولات الأولى لوضع ترابط بين وضع الفنان والإنتاج الفنى والنظم المعيارية للجمهور. ويوضح هوسر مستلهما بعض أفكار

كارل مانهايم وجورج لوكاتش أن المشاكل الاجتماعية ليست خارجية بل
كامنة في الإنتاج الفني.

JIMENEZ, Marc, 1973: Adorno: art, ideologie et théorie
de L'art (Paris, 10/18)

مقدمة جيدة للنظرية الجمالية لأدورنو تساعد على فهم أفضل لهذا
النص الصعب. وفي نهاية الكتاب فهرس للمفاهيم الأدورنية.

JIMENEZ, Marc, 1983: Vers une esthétique négative.
Adorno et la modernité (Paris, Le Sycomore).

عمل مفصل للغاية يعود الفضل إليه في وضع الجماليات الأدورنية في
مقابل النظريات الجمالية للوكاتش وجولدمان وبنيامين وماركوز. وفي معظم
الأحيان يتخذ المؤلف جانب أدورنو ضد الجماليات الكلاسيكية - الهيكلية
للكاتش وجولدمان. ببليوجرافيا.

KRISTEVA, Julia, 1969: Semeiotike. Recherches pour
une Sémanalyse (Paris, Seuil).

على الرغم من كون الكتاب مجموعة من المقالات حول مسائل علم
علامة نقدي مستلهم من باختين ودريدا ولا كان، فإن الكتاب يمكن قراءته
كمساهمة لا يمكن إغفالها في مجال علم اجتماع النص. ويظهر التناص في
مقالة «باختين، الكلمة، الحوار والرواية» على سبيل المثال، كمفهوم سوسيو
سيميوطيقى.

LOTMAN, Youri et OUSPENSKI, Boris (éd.), 1976:
Travaux sur les Systèmes de signes. Ecole de Tartu
(Bruxelles, Éditions Complexe).

يقدم أعضاء مدرسة تارتو - لوتمان، أوسينسكي، پياتجورسكي،
إيقانوف وتوپوروف - في هذه المجموعة أطروحاتهم حول سيميوطيقا الثقافة
والتاريخ والنص. ويوضحون أن التاريخ والثقافة يمكن اعتبارهما كأنظمة
علامات وأن الأفعال الإنسانية والتاريخية تتجه صوب هذه الأنظمة ويتم تقديم
السيميوطيقا كـ "علم صعوبات الاتصال والسيطرة عليها".

LÖWENTHAL, Leo, 1980: Schriften, I- II (Frankfurt Suhrkamp).

تتطرق كتابات ليولوفنتال إلى تيمات شديدة التنوع فى علم الاجتماع والجماليات. وأعتقد أن إسهاماته فى علم اجتماع المسرح والأدب الخاضع للسوق هى على وجه خاص من الأهمية. فى "كتابات" نجد كذلك مقالاتين منهجيتين هامتين:

"Zur gesellschaftlichen Lage der Literaturwissenschaft" حول معرفة الأدب

"Aufgaben der Literatursoziologie" مهام علم اجتماع الأدب

LUKÁCS, Georges, 1972: Ästhetik I- IV (Berlin/ Neuwied, Luchterhand).

هذه الجماليات هى محاولة نسقية لبلورة بعض المقولات الهيكلية فى سياق مادى. وحيث أن نظرية لوكاتش الشيخ تتجه صوب الفكر التقليدى لهيجل ومارك فهى تعادى الطليعة الأوروبية وتحبذ فى المقابل - بشكل غير جدلى - "الواقعية النقدية" لبلازك، سكوت، كيلر وتوماس مان.

MACHEREY, Pierre, 1966: Pour une Théorie de la production littéraire (Paris, Maspero).

منطلقا من النظريات الألتوسرية، يسعى ماشرى إلى إظهار كيف أن نصوص فيرن وبلزك، على سبيل المثال، تستنكر الأيديولوجية التى يدافع عنها المؤلفان. أما نظرية الانعكاس التى يحاول بلورتهما، فلا تأخذ باعتبارها البنى النصية ويعيبها التجريد اللغوى المجازى والمتعدد المعنى غالباً.

MEDVEDEV, Pavel N. (1928), 1976: Die formale Methode in der Literaturwissenschaft (Stuttgart, Metzler).

يؤدى نقد المنهج الشكلى لك "شكلانية" الروسية إلى نظرية عن الاتصال الأدبى والأنواع. وتتركز هذه النظرية حول فكرة أن النص الأدبى لا

ينفصل عن سياقه الاتصالي وأن الأنواع أو الأجناس هي وقائع أيديولوجية
تعبر عن أوضاع ومصالح جماعية.

MUKAROVSKY, Jan, 1974: Studien zur strukturalistischen
Ästhetik und Poetik (München, Hanser).

هذه المجموعة من المقالات المنشورة خلال الثلاثينات والأربعينات تقدم
الأفكار الأساسية للجماليات السيميولوجية التي بلورها موكا روفسكى. كما
تبين كذلك أن المعايير اللغوية التي يتفاعل معها الإنتاج الأدبي هي في الوقت
نفسه معايير اجتماعية وأن اللغة تربط بهذا الشكل بين الأدب والمجتمع.

PÊCHEUX, Michel, 1975: Les Vérités de la Palice
(Paris, Maspéro).

منتقدا بعض النظريات الدلالية الشكلية - لفريج على سبيل المثال -
يسعى المؤلف إلى بلورة نظرية مادية للخطاب. وانطلاقا من الفرضية
الأتوسرية القائلة بأن الأيديولوجية تخاطب الأفراد كذوات يوضح المؤلف إلى
أى مدى تحدد البنى الخطابية الخاصة للمؤسسات: الأيديولوجيات الذاتية.

PRIETO, Luis J., 1975: Pertinence et pratique. Essai de
sémiologie (Paris, Minuit).

عمل رئيسى بالنسبة لعلم اجتماع النص، من حيث أنه يظهر الصفة
الاجتماعية والأيديولوجية لنظام التصديق والتصنيف. ويوضح المؤلف إلى أى
حد يخضع بناء موضوع أى علم اجتماعى لنظام التصديق الاجتماعى
الأيديولوجى ويوضح كذلك أن الخطاب الأيديولوجى هو خطاب يقدم موضوعه
ونظام تصديقه على إنهما طبيعيان

REVAULT D' ALLONNES, Olivier, 1971: La Création
artistique et les promesses de la liberté (Paris Klincksieck).

إنطلاقا من بعض فرضيات الجماليات الجدلية، يوضح المؤلف أن الفن
وبخاصة فن الطبيعة، يظهر تناقضات وتحديدات المجتمع الحديث ويظل غير
متصالح مع عالم ينفية.

SILBERMANN, Alphons, 1973: Empirische kunstsoziologie. Eine Einführung mit komentierter Bibliographie .(Stuttgart.Enke).

متجها صوب فرضية فيبير الخاصة بالـ «موضوعية»، يحاول المؤلف وضع اجتماع للاتصال الفني يميل إلى استبعاد بنية العمل الفني كما يستبعد في الوقت نفسه النقد الجمالي والاجتماعي. بيليوجرافيا.

TERTULIAN, Nicolas, 1980: Georges Lukàcs. Étapes de sa pensée esthétique(Paris,le Sycomore).

مقدماً لتطور الفكر الجمالي للوكاتش بدءاً من فصول الجماليات النسقية المثالية التي كتبها في فترة هايدلبرج (١٩١٢ - ١٩١٧) وحتى الجماليات الكبرى الختامية (١٩٦٣)، يشرح المؤلف المفاهيم الأساسية ونشأتها في وضع اجتماعي تاريخي معين.

TODOROV, Tzvetan, 1981: Mikhail Bakhtine: le principe dialogique, suivi de Écrits du Cercle de Bakhtine(Paris, Seuil).

يقدم تودوروف في هذا العمل الذي يجمع بين المقدمة الطويلة والمختارات والمفاهيم الأساسية لفكر باختين: المبدأ الحوارى، نظريه الملفوظ التناس، إلخ توضح المختارات إلى أى حد اعتبر كل من باختين وقلوشينوف اللغة الأدبية وغير الأدبية بنية حوارية وبالتالي اجتماعية.

WILLIAMS, Raymond, 1961: The Long Revolution (London, Pelican).

يسعى المؤلف لبلورة نظرية ماركسية عن الاتصال الأدبي، انطلاقاً من تحليل مادي للثقافة في الجزء الأول من كتابه - the Analysis of culture - ويحاول في الجزء الثانى وضع علم اجتماع للجمهور وللأدب الشعبى ولظهور الـ "Standard English" وللأشكال المسرحية والروائية. والجزء الأخير مخصص للثقافة البريطانية فى الستينيات.

WILLIAMS, Raymond, 1977: *Marxism and Literature* (Oxford, Oxford University Press), (trad. fr. à paraître: Paris, Le Sycomore).

يسعى ويلىمى فى هذا العمل إلى توسيع نظريته عن الثقافة من أجل شرح اللغة الأدبية والأشكال والأنواع. وعلى الرغم من الأفكار المثيرة التي تحتويها دراسته إلا أنها لم تشرح أبدا البنى النصية على المستوى الاجتماعي.

ZIMA, Pierre V., 1973: *Goldmann. Dialectique de L'immanence* (Paris, Editions Universitaires/ Delarge).

إنها مقدمة الفلسفة وجماليات لوسيان جولدمان حيث تقارن بين "البنوية التوليدية" والماركسية الألتوسرية والنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت.

ZIMA, Pierre V., 1974: *L'Ecole de Francfort. Dialectique de la Particularité* (Paris, Editions Universitaires/ Delarge).

هذه المجموعة من المقالات تقدم فلسفة مدرسة فرانكفورت وجمالياتها بالمقارنة مع أزمة الفردية والليبرالية في العشرينات والثلاثينيات. ويتم شرح مفاهيم أساسية مثل "النفي" و "الاستقلالية" و "الهالة" على ضوء هذه الأزمة.

ZIMA, Pierre V., 1978: *Pour une Sociologie du Texte Littéraire* (Paris , 10/18).

يسعى المؤلف لبلورة علم اجتماع للبنى النصية انطلاقا من المواقع الفلسفية والاجتماعية لمدرسة فرانكفورت. والمجموعة يجب قراءتها على أنها نقد للمناهج القائمة: الشكلية والبنوية والماركسية. إلا أن البدائل التي يقدمها المؤلف تظل أولية.

٤ - علم اجتماع الإنتاج والنصوص والأجناس.

ADORNO, Theodor W., 1958 - 1974 *Noten zur Literatur I - IV* (Frankfurt, Suhrkamp).

تتركز مقالات أدورنو حول فكرة الفن النافى، القادر على الإفلات من

الاتصال الأيديولوجي والخاضع للسوق لكـ "صناعة الثقافية"، إنها إذن محاولات لإظهار المساحة النقدية، "محتوى الحقيقة" للنصوص التي يتم تحليلها.

ADORNO, Theodor W., (1955), 1976: *Prismen. Kulturkritik und Gesellschaft* (Frankfurt, Suhrkamp).

هذه المجموعة تستكمل في كثير من المواضع كتاب "ملاحظات حول الأدب" إلى جانب التعليقات الأدبية حول كافكا وبروست وقاتيري. ونجد في هذا الكتاب نصوص علم اجتماع ومقالات عن الموسيقى: عن باخ، شونبرج والجاز.

BAKHTINE, Mikhail, 1970: *L'Oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au Moyen Age et sous la Renaissance* (trad. par A. Robel), (Paris, Gallimard).

عمل على قدر خاص من الأهمية بالنسبة لعلم اجتماع النص: حيث يوضح المؤلف كيف أنه في نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة، يتشعب الأدب الروائي ببعض أشكال الكرنفال الشعبي. كما يوضح كذلك أن هذا التشعب بالأشكال الكرنفالية هو عملية لغوية ونصية. ويحتوي الكتاب على تحليلات مفصلة للازدواج القيمي والضحك والهزل لدى رابليه.

BAKHTINE, Mikhail, 1970: *la Poétique de Dostoievski* (trad. par I. Kolitcheff), (Paris, Seuil).

هذا العمل يعتبر تكملة لكتاب المؤلف حول رابليه، حيث يدرس فيه باختين الازدواج القيمي وتعدد الأصوات الكرنفالية واللذين يسعى لشرحهما في ضوء التراث الكرنفالي للأدب الروائي. وفيما يخص هذا التفسير، يمكننا أن نتساءل عما إذا كان من الممكن شرح الازدواج القيمي وتعدد الأصوات وازدواج الشخصية في الرواية الحديثة من ناحية التطور الأدبي فقط.

BALIBAR, Renée, 1974: *Les Français fictifs* (Paris Hachette).

تحلل المؤلفة بعض النصوص الأدبية - فلوبير، كامو - بالمقارنة مع المؤسسات المدرسية. وهى توضح كيف أن بعض الأشكال الأسلوبية الشائعة فى التعليم المدرسى تظهر فى الأدب المقنن، وكيف أن هذا الأدب يؤثر بدوره فى التعليم. وعلى الرغم من كثرة حديث باليبار عن "الـ" بوجوازية عموماً، إلا أن هذا العمل ربما كان من أهم الإسهامات فى علم اجتماع النصوص المستلهم من المجموعة الألتوسرية. الكتاب يحتوى على مقدمة طويلة كتبها كل من بيير ماشرى وإتيان باليبار.

CASTELLA, Charles, 1972: Structures romanesques et vision sociale chez Maupassant (Editions de L'Age d'Homme, Lausanne).

تحليل تفصيلى للأعمال الروائية لموباسان وهو يستلهم جماليات لوكاتش الشاب والبنويوية التوليدية للوسيان جولدمان على وجه الخصوص. إنها محاولة لربط البنى الروائية برؤية العالم لدى موباسان.

DUVIGNAUD, Jean, 1965: Les Ombres collectives. Sociologie du théâtre (Paris, PUF)

يطبق دوڤينييو فى هذا العمل الهام حول علم اجتماع المسرح، بعض المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع الدوركهايمى على الأدب المسرحى فى العصور القديمة وعصر النهضة. ويمثل مفهوم «غير المسمى» أهمية خاصة بالنسبة لدراسته حيث يستخدم المؤلف هذا المفهوم لتوضيح ظهور الفرد الهامشى - المجنون أو المجرم - على المسرح.

DUVIGNAUD, Jean, 1971: Spectacle et société (Paris, Denoël/Gonthier).

يحلل المؤلف وظائف المسرح فى المجتمع الحديث مستلهما علم الاجتماع الدوركهايمى وغيره ويتساءل حول مستقبل المسرح بعد أن استنتج أن أجهزة الإعلام اغتصبت لنفسها بعض الوظائف الدرامية التى كانت تخص المسرح

.GOLDMANN, Annie,1984: Rêves d'amour perdus. Les femmes dans le roman du 19 siecle (Paris, Denoël/Gonthier).

يتجة تحليلها إلى دور المرأة في روايات بلزاك، فلوبيير، ستاندال وجوتيه حيث ترسم المؤلفة خطوات تحول تحرير المرأة مع شرح العقبات التي صادفتها ثورة المضطهدات. وتستنتج كذلك أن الازدهار كان أصعب بالنسبة للمرأة في القرن التاسع عشر عنه في القرن الثامن عشر. تدرس كخاتمة لهذا الكتاب دور المرأة على ضوء مفهوم التشيؤ.

GOLDMANN, Lucien, 1955: Le Dieu caché. Etude sur la vision tragique dans les "Pensées" de Pascal et dans le théâtre de Racine (Paris, Gallimard).

مستلهما أعمال لوكاتش الشاب، يقيم جولدمان علاقات بين رؤية العالم المساوية الجانسينية لطبقة نبلاء الرداء في القرن السابع عشر وبين البنية المساوية المتناقضة «للأفكار» ومسرح راسين. ويوضح كيف أن تطور هذا المسرح يعيد إنتاج تحولات الجانسينية التي نتجت عن الصراعات بين نبالة الرداء وقوى الملكية والكنيسة.

GOLDMANN, Lucien, 1964: Pour une sociologie du roman (Paris, Gallimard).

إنطلاقاً من «نظرية الرواية» للوكاتش الشاب، يسعى جولدمان لإعادة تفسير الفجوة الروائية بين الوعي الفردي والمجتمع، بين الذات والموضوع، وذلك في سياق مادي وجدلي. في هذا السياق يظهر السعى الروائي كبحت فردي منحدر عن قيمة أصيلة كيفية في واقع خاضع لقوانين قيمة التبادل ويحلل جولدمان بالتفصيل روايات مالرو. ويفسر في نهاية كتابه روايات روب - جرييه الأولى ويسعى لشرحها في ضوء مفهوم التشيؤ.

GOLDMANN, Lucien, 1970: Structures mentales et création culturelle(Paris, Anthropos).

هذه المجموعة من المقالات تحتوى على نقد لفلسفة التنوير وكذلك على تحليلات لأدب الطليعة:چينيه، كومبروفيتس وسارتر. ومثلما فى أعماله السابقة، يسعى جولدمان إلى وضع تماثلات بين البنى الأدبية والبنى الاجتماعية.

KÖHLER, Erich(1956),1974: L' Aventure chevaleresque,Idéal et réalité dans le roman courtois (trad. E. Kaufholz), Paris, Gallimard).

يبين كوهلر إلى أى حد تمثل رواية البلاط، السلطة الإقطاعية والملكية القائمة، بصورة مثالية. ويبين فى الوقت نفسه كيف أن طموحات طبقة الفرسان تعبر عن نفسها فى البنية الروائية المحكومة بالسعى. وفى إرهابته لبرنامج علم الاجتماع النفسى يوضح فى الفصل الأخير أن هناك علاقة وثيقة بين التغيرات الاجتماعية والثنائية السردية لروايات كريتيان دى تروا.

KRISTEVA, Julia, 1974: la Révolution du langage Poétique (Paris, Seuil).

متخذة أشعار مالارميه ولوتريامون كنماذج لكتابة الطليعة فى نهايات القرن التاسع عشر، توضح كريستيفا كيف أن المشكلات الاجتماعية تتغلغل فى النص التخيلى حتى المستوى الدلالى. وحيث إنها توصلت إلى أن نصوص مالارميه لا تحيل فى شىء إلى التفاعلات الاجتماعية السياسية للجمهورية الثالثة فإنها بالتالى اتجهت إلى البحث عن التناقضات الاجتماعية والسياسية على مستوى الكتابة متعددة المعنى.

LEENHARDT, Jacques, 1973: Lecture politique du roman. "La Jalousie" d'Alain Robbe- Grillet (Paris, Minuit).

متخليا عن التحليل التشابهى والتميمى الذى نادى به لوسيان جولدمان، يبين لهناردت أن "الغيرة" يمكن قراءتها كرد فعل للرواية الاستعمارية ويربط فى دراسته بين البنى الدالية للرواية والوضع السياسى والاجتماعى للعصر. ويسعى بالتوازى للجمع بين المدخل الاجتماعى والمدخل التحليلى النفسى.

LUCKACS, Georges (1920),1923 : La Théorie du roman (Paris, Denoël/ Gonthier).

حيث إنه تعتبر المقدمة نظرية لتحليل فلسفى لأعمال دوستوسكى فإن هذا العمل للوكاتش يمكن اعتباره مع عمل باختين - كنقطة انطلاق لعلم اجتماع الرواية المعاصر. لوكاتش واضع الرواية فى إطار منظور هيجلى كنوع يشهد على الاستلاب فى المجتمع البورجواي الحديث، فإنه يربط بين الأنماط الروائية المختلفة وأشكال الوعى المقابلة لها.

LUCKÁCS, Georges (1934), 1969: Balzac et Le réalisme français (Paris, Maspero).

هذا العمل يمكن قراءته كتطبيق للنظرية اللوكاتشية عن الواقعية. حيث يظهر بلزاك كاتب قادر على بناء شخصيات ومواقف وأحداث نمطية: حيث يقيم توليفات بين الخاص والكونى تجعل من كلية السياق الاجتماعى شفافة ومفهومة.

MOUILLAUD, Geneviève, 1972: leRouge et le Noir de roman possible (Paris, Larousse). Stendhal. Le roman possible.

مستلهمة البنيوية التوليدية للوسيان جولدمان والمناهج التحليلية النفسية فى نظرية الأدب تهتم مويو بالمظاهر الشكلية لروايات ستانداى وبالعناصر النصية التى تخلق ما تسميه "الوهم الواقعى" وأيضاً بنشأتها الاجتماعية. وللأسف فإن التوليف المأمول بين التحليل الشكلى والتحليل الاجتماعى لا يتم.

NEUSCHAFER. Hans- Jorg, 1976: Populärromane im 19. Jahrhundert (Munchen, Fink/ UTB).

مطبقة للمنهج الاجتماعى النقدى على الروايات الشعبية لجول فيرن ودوما الابن وإرنست فيندو، يظهر المؤلف العناصر الأيديولوجية وأساطير الحياة اليومية التى تغلغت فى النص الروائى. ويدرس فى الجزء الثانى من الكتاب "الانبهار بالتقنيات" لدى فيرن «وأساطير العصر الصناعى» لدى زولا.

RUNCINI, Romolo, 1968: *Illusione e paura nel mondo borghese. Da Dickens a Orwell* (Bari. Laterza).

يوضح المؤلف كيف أن بعض أساطير الثقافة وخاصة أساطير الفرد المستقل والمغامرة، يشكك فيها نوع من الأدب يظهر عجز الذات الفردية في عالم تحكمه ضغوط الإنتاج من أجل السوق. ضياع البطولة الذي ينعيه كارلايل وإخفاقات الداندية *dandysme* لدى وايلد وكذلك انمحاء الفرد لدى هوكسلي وأورويل، كل ذلك يشهد على فشل المبادرة الفردية.

SZONDI. Peter (1956), 1969: *Theorie des modernen Dramas* (Frankfurt, Suhrkamp).

بالموازاة مع روتشيني وجولدمان اللذين يقدمان سقوط الفرد في الرواية، فإن سوندي يحلل انزواء الفردية والحوار والحدث الدرامي في المسرح الحديث: لدى ايبسن، ستريند برج وما ترلينك وكذلك في الطبيعية والوجودية والتعبيرية لدى بريخت، بيراندلو وأونيل.

WATT. Ian, 1957: *The Rise of the Novel . Studies in Defoe, Richardson and Fielding* (London, Penguin).

يدرس المؤلف ازدهار الرواية الانجليزية في ضوء أربعة مفاهيم أساسية يربطها بالسياق الفلسفي للعصر: الفردية الاسمية، العقلانية والواقعية. وتوضع هذه المفاهيم في التحليلات التاريخية التطبيقية بالمقارنة مع علم النفس والفردية الروائية اللذين يفضلان الدائرة الخاصة. ويدرس تطور النوع من وجهة نظر القراءة وعلم اجتماع الجمهور.

ZERAFFA, Michel, 1969: *La Révolution romanesque* (Paris, 10/18).

يوضح زرافا من خلال تحليله لعدد كبير من الروايات في العشرينات - خمسينات، بروست دويس باسوس، كافكا، دوبلن وغيرهم، كيف أن الموضوعية والواقعية بوصفهما من دعائم الرواية التقليدية يحل محلها الذاتية الروائية. والمونولوج الداخلي و"تيار الوعي" وتنحل الأشكال التقليدية وتحل معها أشكال جديدة تتفق مع سقوط المبادرة الفردية

ZERAFFA, Michel, 1971: Roman et Société (Paris, PUF).

مستلهما نظريات لوكاتش وجولدمان، يصف المؤلف تفكك الأشكال الروائية التقليدية لدى الروائيين فى الجزء الأول من القرن العشرين - ويبين أن سقوط الذات الفردية فى الرواية يواكب - فى الرواية الجديدة والروايات الامريكية لسالينجر أو بورو - إستحالة التواصل الإنسانى.

ZIMA, Pierre V., 1980: L'Ambivalence romanesque. Proust, Kafka, Musil (Paris, Le Sycomore).

واضعاً البحث لبروست فى سياق النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، يسعى المؤلف لشرح بنيتها. وينتج طولها وصفها التداعية والمتوازية عن تفكيك القص التقليدى: التركيب السردى. ويرجع ضعف المبدأ التركيبى إلى الازدواج الدلالى النابع من التوسط عبر قيمة التبادل والذى يجمع بين قيم متعارضة مع بعضها البعض ويجد الازدواج القيمى طريقه داخل الرواية من خلال الأحاديث واللهجة الجماعية لطبقة المرفهين أى طبقة مجتمع الصالونات. ويقارن المؤلف فى كتابه بشكل نسقى بين رواية بروسست ورواية رجل بدون صفات لموزيل ورواية المحاكمة لكافكا.

ZIMA. Pierre v., 1982: l'Indifférence romanesque. Sartre, Moravia, Camus (Paris, le Sycomore).

هذا التحليل للامبالاة فى الرواية يمكن قراءته كتكملة لكتاب الازدواج الروائى ويتم تقديم أزمة القيم الاجتماعية واللغوية على حد سواء والتي تمثل خلفية الكتابة الوجودية كتحول تدريجى من الازدواج القيمى إلى اللامبالاة الدلالية. ويمثل هذا التحول فى "الغثيان" السبب الرئيسى وراء شعور الغثيان الذى يجتاح روكنتان فى مواجهة «البريق الثقافى» وفى مواجهة ظهور طبيعة خيالية. ويشير هذا التحول لدى مورافيا وكامو إلى إنطواء الذات وتشبيؤ السببية السردية.

ه - علم اجتماع التلقى والاتصال

BAKHTINE, Mikhaïl et VOLOCHINOV, Valentin (1929), 1977: Le Marxisme et la philosophie de langage. Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique (trad. M. Yaguello), (Paris, Minuit).

استكمالاً لبعض فرضيات باختين ومدقيف حول الصفة الحوارية للغة، ينتقد المؤلفان فردانية وعقلانية اللغويات التزامنية لسوسور ويوضحان إلى أي حد تتسم العلامات اللفظية بالأيدولوجية وتظهر الصفة الأيدولوجية والصراعية للاتصال.

BOURDIEU, Pierre, 1979: La Distinction (Paris, Minuit).

على الرغم من أن هذا الكتاب لا ينظر للأدب كإنتاج نصي إلا أن المؤلف يأتي بإسهام هام في علم اجتماع الفن عن طريق إظهار أن التصنيفات التراتبية (الهيركية) من موضوعات اجتماعية ودوائر اجتماعية تتفق مع معايير جماعية تم تطويرها للمؤسسة وتتفق أولاً وأخيراً مع مصالح طبقية معينة. أنظر بخاصة الفصل الخامس.

BOURDIEU, Pierre, 1980: Questions de sociologie (Paris, Minuit).

في الفصل الخاص بـ «تحويلات الأذواق» يحلل المؤلف ما يسميه «المجال الفني». ويمكن مقارنة تحولات هذا المجال بالتحويلات في مجالات أخرى تم تطويرها للمؤسسة وتحكمها قوانين السوق. ويوضح المؤلف كيف أن التحويلات في مجال معين - أي تتابع الموضوعات والمدارس - لا تشكك في صحة قواعد اللعبة. المجال بوصفه دائرة اجتماعية تم تطويرها للمؤسسة.

BOURDIEU, Pierre, 1982: Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques (Paris, Fayard).

يوضح المؤلف في هذا العمل الهام بوجه خاص بالنسبة لعلم اجتماع النص، المظاهر المؤسسية للخطابات والتي يربط بينها وبين المصالح الطبقية.

ويوضح مثلما فى أعماله السابقة إلى أى حد يرتبط التصنيف بالمصالح الجماعية وبآليات السوق. ويحلل فى مقاله حول «اللغة المعترف بها» فعالية ومشروعية الخطاب بالمقارنة مع مفهوم «السلطة الرمزية»

BOURDIEU, Pierre et DARBEL, Alain (1966), 1969:

L'Amour de l'art. Les musées et leur public (Paris, Minuit).

يدرس المؤلفان المجال الفنى وتبادل الثروات الرمزية مع وضع المتحف فى مركز أبحاثهما. ويحاولان شرح الحس الجمالى وهيبة الثروات الثقافية بالمقارنة مع آليات السوق والمعايير والثقافات الطبقية.

CORSINI, Gianfranco, 1974: L'Istituzione letteraria

(Napoli, Liguori).

مستلها بعض فرضيات بورديو وانطلاقا من الاتصال كاتب نص - قارئ ، يسعى كورسينى لتوضيح دور المدرسة والتربية فى المجال الأدبى. ويوضح انطلاقا من الفكرة القائلة بأن الاتصال هو مجال اجتماعى مخصص لفئات مميزة الى أى حد تحافظ المؤسسات على وهم أن المؤلف هو المتحدث باسم المجتمع كله فى حين أنه يتحدث بشكل عام باسم جماعه معينة.

DELLA VOLPE, Galvano, 1972: Critica del gusto

(Milano, Feltrinelli).

فى محاولة لإظهار المجتمع والمشكلات الاجتماعية فى النص الأدبى، يقيم المؤلف، الذى يندد بالوضعية وينادى بعلم «مادى» للأدب، علاقات اجتماعية بين الأعمال الفنية وتلقيها الاجتماعى المتغير.

ESCARPIT, Robert et ROBINE, Nicole, 1966: Le Livre

et le conscrit (Paris, Cercle de la librairie, Bordeaux, ILTAM).

يمثل الكتاب نتائج بحث حول القراءة لدى الشباب المتطوع فى الجيش. وتظهر الدراسة علاقة بين مستوى التعليم وإدراك الكتاب المعاصرين حيث أن المتطوعين الذين لم يستكملوا دراستهم الأساسية كانوا على دراية أقل بالأدب المعاصر من دراسى التعليم العالى.

ESCARPIT, Robert, 1976: *Théorie générale de l'information et de la communication* (Paris, Hachette).

يحاول اسكاربيت - معتبرا النص الأدبي كدال متعدد المعنى قابل لتفسيرات غير متجانسة - أن يصف وظيفة النص داخل نظام الاتصال إلا أن المجتمع يظل في تحليلاته خارج النص المفسر.

GEDIN, Per, 1977: *Literature in the Market Place* (London, Faber & Faber).

دراسا للوضع الاجتماعي - الاقتصادي للكتاب الأدبي السويدي يستنتج المؤلف أن مستوى المعيشة المرتفع لا يؤدي بالضرورة إلى انتشار الثقافة الأدبية على المستوى الشعبي، بل بالعكس فالأدب في مجتمع الرخاء يميل إلى أن يصبح من شأن صفوة ينظر إليها بحذر أولئك الذين ينفقون أموالهم في متع غير ثقافية.

HOGGART, Richard (1957), 1981: *The Uses of Literacy. Aspects of Working Class Life with Special Reference to Publications and Entertainments* (London, Penguin).

يحلل المؤلف نتائج نشر الثقافة على المستوى الشعبي وما يسميه «أدب الجماهير» mass literacy . ويوجه بحثه إلى الثقافة وقراءات الطبقة العاملة في بريطانيا وبخاصة في شمال إنجلترا، ويستنتج في النهاية أن الأدب الشعبي يجب أن يرتبط بشكل وثيق بثقافة الجماعات التي يخاطبها . أنظر خاصة الفصل السابع:

"Invitations to a Candy - Floss World: The Newer Mass Art."

HOHENDAHL, Peter-Uwe (éd.), 1974: *Sozialgeschichte und Wirkungsästhetik* (Frankfurt, Fischer-Athenaum).

تجمع هذه المختارات بعض النصوص الكلاسيكية عن الجمهور الأدبي وتغيراته التاريخية. إلى جانب الإسهامات المعروفة لشوكينج واسكاربيت

ولوكاتش وكوسيك وسارتر سيجد القاريء أيضا مقالات ألمانية شرقية لثايمان ونومان وكذلك نقدا لجماليات التلقى لياوس كتبها وارنكن. ببليوجرافيا.

JAUSS, Hans Robert(1970), 1974: Pour une esthétique de la réception (trad. Cl. Maillard), (Paris, Gallimard).

ناقدا لعلم اجتماع الأدب الماركسى ولنظرية التفسير الداخلى ينادى ياوس بتاريخ للأدب يقوم على تحليلات التلقى والقراءة.

JURT, Joseph, 1980: La Réception de la littérature par la critique journalistique. Lectures de Bernanos (1926-1936), (Paris, Jean-Michel Place).

هذا العمل ربما كان الأول الذى يقيم علاقات نسقية بين النقد الأدبى والجماعات الأيديولوجية. ويوضح من خلال تحليلات دقيقة لتلقى برنانوس فى النقد الفرنسى، أن ردود فعل هذا النقد لاتنفصل عن الأيديولوجيات والمصالح الجماعية.

LEENHARDT, Jacques et JOZSA, Pierre, 1983: Lire la lecture. Essai de sociologie de la lecture (Paris, Le Sycomore).

يقارن المؤلفان بين تلقى رواية فرنسية ورواية مجرية فى كل من فرنسا والمجر. حيث يظهران بجانب الاختلافات القومية أهمية مباحث القيم الجماعية بالنسبة للقراءة ويوضحان كذلك أن علم اجتماع القراءة لايمكنه أن يتقبل فكرة وجود أفق إنتظار متجانس.

MUKAROVSKY, Jan, 1970: Kapitel aus der Asthetik (Frankfurt, Suhrkamp).

جامعا بين المدخل الجماعى والمدخل السيميوطيقى يميز موكاروفسكى بين البنية المحكومة بمعايير اجتماعية - جمالية وبين التفسيرات الجماعية التى لا تتطابق أى منها مع النص متعدد المعنى.

NAUMANN, Manfred (éd.), (1973), 1975: Gesells-

chaft, Literatur, Lesen. Literaturrezeption in theoretischer Sicht (Berlin-Est/Weimar, Aufbau-Verlag).

انطلاقاً من جماليات التلقى لياوس وايسر والتي يعيب عليها المؤلفون كونها لاتأخذ باعتبارها الاختلافات الاجتماعية للجمهور والعناصر الاجتماعية والأيدولوجية التي تحدد « أفق الانتظار » يسعى المؤلفون إلى بلورة نظرية مادية وجدلية عن القراءة. وعلى الرغم من إثارة البدائل التي يطرحونها مع التأكيد على العلاقة الجدلية بين الإنتاج والتلقى، إلا أنها تظل يعيبها الدوجماتيكية الماركسية - اللينينية المعادية للبنية المفتوحة للأدبيات النقدية الحديثة.

PROKOP, Dieter, 1974: Massenkultur und Spontaneität. Zur veränderten Warenform der Massenkommunikation im Spatkapitalismus (Frankfurt, Suhrkamp).

ناقداً لأدب الجماهير في إطار منظور مادي وجدلي، يوضح پروكوب كيف يتوجه الجمهور في المجال الثقافي إلى قيمة التبادل التي تنتهي سطوتها إلى حجب قيمة الاستعمال: أي القيمة الجمالية.

ROSENGREN, Karl Erik, 1968: The Sociological Aspects of the Literary System (Stockholm, Natur och Kultur).

في تحليل إمبريقي لتأثير النقد الأدبي على ترجمة الكتب الأجنبية في السويد، يدرس المؤلف الوظيفة الاجتماعية للنقد الأدبي وينادي على المستوى المنهجي بالموضوعية أو الـ "Wertfreiheit" الخاصة بعلم الاجتماع الإمبريقي للأدب ويحاول استبعاد جميع الأحكام الجمالية من مجال بحثه.

SCHUCKING, Levin (1931), 1961: Die Soziologie der literarischen Geschmacksbildung (Bern/München, Francke).

هذا العمل قد أصبح « كلاسيكياً » في مجال علم اجتماع الجمهور، هو تحليل للمؤسسات - الأسرة، المدرسة، النقد الأدبي - وتأثيرها على القراءة و« ذوق » الجمهور. ويوضح المؤلف أن التلقى، بعيداً عن كونه من شأن

الجمهور عموماً، تسيطر عليه مجموعات محدودة يسميها قادة الذوق geschmackstragertypen أى أولئك الذين يقودون تطور الذوق فى وضع تاريخى معين.

VODICKA, Felix, 1975: Struktur der Entwicklung, (Munchen, Fink).

إنطلاقاً من جماليات جان موكاروفسكى وبخاصة مفهوم الموضوع الجمالى ، يحلل فوديسكا التطور الأدبى فى إطار منظور التلقى والقراءة. ويشرح فى هذا السياق دور الناقد الأدبى الذى يجب حسب رأى المؤلف - أن يتحدث باسم الجماعة التى تتلقى العمل الفنى مع إظهار الموضوع الجمالى المتفق مع معايير وقيم هذه الجماعة.

WINCKLER, Lutz, 1973: Kulturwarenproduktion. Aufsätze zur Literatur - und Sprachsoziologie (Frankfurt, Suhrkamp).

يوضح المؤلف فى تحليل آليات السوق الأدبى إلى أى حد تمر عملية الإنتاج الفنى دون لفت الأنظار إليها فى سياق تظهر من خلاله الأعمال كموضوعات استهلاك ورواج. ويظهر تفوق قيمة التبادل على قيمة الاستعمال فى الثقافة الخاضعة للسوق. ويقيم فى الجزء الثانى والثالث من كتابه «علاقات بين الإنتاج الجمالى» ويتساءل حول العلاقات بين اللغة والمجتمع.

أعمال جماعية وأعداد من مجلات متخصصة فى علم

اجتماع الألب (باللغة الفرنسية)

- Le Structuralisme génétique. L'Œuvre et l'influence de Lucien Goldmann, éd. A. Goldmann e.a., Paris Denoël/Gonthier, 1977.

- Essais sur les formes et leurs significations, éd. A. Goldmann et S. Nair, Paris, Denoël/Gonthier, 1981.

- Littérature, idéologies, société, Littérature (Larousse), n°1,1971.
- Codes littéraires et codes sociaux, Littérature (Larousse), n°12,1973.
- Histoire / Sujet, Littérature (Larousse), n°13,1974.
- L'Institution littéraire I,Littérature (Larousse), n°43,1981.
- L'Institution littéraire II, Littérature (Larousse), n°44,1981.
- Texte et idéologie, Degrés (Bruxelles), n°24-25, 1980-1981.
- Inédits de Lukács, L'Homme et la société (Paris, Anthropos), n°43-44, 1977.
- Présences d'Adorno, Revue d'Esthétique (Paris, 10/18), n°1,1975.
- Walter Benjamin, Revue d'Esthétique (Toulouse, Privat), n°1,1981.
- Sociologie de la littérature. Recherches récentes et discussions, Revue de l'Institut de Sociologie (Bruxelles), n°3, 1969.
- Critique sociologique et critique psychanalytique (Bruxelles,Éditions de l'Institut de Sociologie de l'ULB), 1970.
- Hommage à Lucien Goldmann, Revue de l'Institut de Sociologie (Bruxelles). n°3-4, 1973.

- Le Social, l'imaginaire, le théorique ou la scène de l'idéologie, Revue des Sciences Humaines, Lille, mars, 1977.

- L'Effet de lecture, Revue des Sciences Humaines, Lille, janvier-mars, 1980.

- Sémiotique et discours littéraire: interférences, Revue des Sciences Humaines, Lille , novembre-décembre, 1985: numéro spécial consacré aux rapports entre la sociologie et la sémiotique littéraire.

مكتبات مكتبة العرب

www.library-arab.com

Littérature citée

- ADORNO, Theodor, W. (1958), 1969 : « Der Artist als Statthalter », in *Noten zur Literatur I* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. (1958), 1969 : « Rede über Lyrik und Gesellschaft », in *Noten zur Literatur I* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. (1961), 1970 : « Versuch, das *Endspiel* zu verstehen », in *Noten zur Literatur II* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. 1964 : *Jargon der Eigentlichkeit. Zur deutschen Ideologie* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. 1965 : « Parataxis. Zur späten Lyrik Hölderlins », in *Noten zur Literatur III* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. 1967 : « Thesen zur Kunstsoziologie », in *Ohne Leitbild. Parva Aesthetica* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. (1970), 1974 : *Théorie esthétique* (trad. M. Jimenez), (Paris, Klincksieck).
- ADORNO, Theodor, W. 1974 : « George », in *Noten zur Literatur IV* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. 1975 : *Dialectique négative* (trad. : Groupe de trad. du Collège de Philosophie), (Paris, Payot).
- ADORNO, Theodor, W. (1955), 1976 : « George und Hofmannsthal. Zum Briefwechsel », in *Prismen. Kulturkritik und Gesellschaft* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. e.a. (1949-1950), 1973 : *Studien zum autoritären Charakter* (Frankfurt, Suhrkamp).
- ADORNO, Theodor, W. et HORKHEIMER, Max. (1947), 1974 : *Dialectique de la raison* (trad. E. Kaufholz), (Paris, Gallimard).
- ALTHUSSER, Louis, 1968 : *Pour Marx* (Paris, Maspero).
- ALTHUSSER, Louis, 1976 : « Idéologie et appareils idéologiques d'État », in *Positions* (Paris, Éditions Sociales).
- ARVON, Henri, 1970 : *L'Esthétique marxiste* (Paris, PUF).
- AZEMA, Jean-Pierre et WINOCK, Michel, 1970 : *La Troisième République. Naissance et mort* (Paris, Calmann-Lévy).
- BAKHTINE, Mikhaïl (1965), 1970 : *L'Œuvre de François Rabelais et la culture populaire au Moyen Age et sous la Renaissance* (Paris, Gallimard).
- BAKHTINE, Mikhaïl (1963), 1970a : *La Poétique de Dostoïevski* (Paris, Seuil).
- BAKHTINE, Mikhaïl, 1968 : « L'Énoncé dans le roman », in *Langages*, décembre.
- BAKHTINE, Mikhaïl, 1977 : « Problema avtora », in *Voprosy filosofii* 30.
- BAKHTINE, Mikhaïl, 1979 : *Die Ästhetik des Wortes* (éd. R. Grübel), (Frankfurt, Suhrkamp).

- BAKHTINE, Mikhaïl et VOLOCHINOV, Valentin, 1977 : *Le Marxisme et la philosophie du langage* (Paris, Minuit).
- BALIBAR, Étienne et MACHEREFY, Pierre, 1974 : « Sur la littérature comme forme idéologique », in *Littérature*, n° 13.
- BALIBAR, Renée, 1974 : *Les Français fictifs* (Paris, Hachette).
- BALIBAR, Renée, 1972 : « Le passé composé fictif dans *L'Étranger* d'Albert Camus », in *Littérature*, n° 7.
- BALZAC, Honoré de (1844), 1968 : *Les Paysans* (Paris, Gallimard).
- BARTHES, Roland, 1964 : *Essais critiques* (Paris, Gallimard).
- BARTHES, Roland, 1970 : *S/Z* (Paris, Gallimard).
- BARTHES, Roland, 1973 : *Le Plaisir du texte* (Paris, Gallimard).
- BAUDELAIRE, Charles (1887), 1975 : « Fusées », in *Œuvres complètes I* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- BAUDRILLARD, Jean, 1972 : *Pour une critique de l'économie politique du signe* (Paris, Gallimard).
- BEAUVOIR, Simone de, 1969 : *La Force de l'âge*, I, II (Paris, Gallimard).
- BECKETT, Samuel (1957), 1972 : *Fin de partie/Endspiel* (éd. bilingue), (Frankfurt, Suhrkamp).
- BENJAMIN, Walter (1936), 1971 : « L'Œuvre d'art à l'ère de sa reproductibilité technique », in *Œuvres II : Poésie et Révolution* (Paris, Denoël).
- BENJAMIN, Walter (1939), 1971 : « Sur quelques thèmes baudelairiens », in *Œuvres II : Poésie et Révolution* (Paris, Denoël).
- BENJAMIN, Walter (1928), 1973 : « Programm eines proletarischen Kindertheaters », in *Über Kinder, Jugend und Erziehung* (Frankfurt, Suhrkamp).
- BENJAMIN, Walter (1938), 1974 : *Charles Baudelaire. Ein Lyriker im Zeitalter des Hochkapitalismus* (Frankfurt, Suhrkamp).
- BERNAL, Olga, 1964 : *Alain Robbe-Grillet : le roman de l'absence* (Paris, Gallimard).
- BIBESCO, Marthe-Lucile (1928), 1956 : *Au bal avec Marcel Proust* (Paris, Gallimard).
- BLANCHOT, Maurice (1955), 1972 : « Sur le faux jour du dehors éternel », in *Les Critiques de notre temps et le Nouveau Roman* (Paris, Garnier).
- BOUAZIS, Charles, 1970 : « La Théorie des structures d'œuvres : problèmes de l'analyse du système de la causalité sociologique », in *Le Littéraire et le social* (éd. R. Escarpit), (Paris, Flammarion).
- BOURDIEU, Pierre, 1979 : *La Distinction* (Paris, Minuit).
- BOURDIEU, Pierre, 1982 : *Ce que parler veut dire* (Paris, Fayard).
- BRECHT, Bertolt (1938), 1973 : « Die Brecht-Polemik gegen Lukács », in *Die Expressionismusdebatte. Materialien zu einer marxistischen Realismuskonzeption* (éd. H.-J. Schmitt), (Frankfurt, Suhrkamp).
- BRETON, André (1924), 1969 : *Manifestes du surréalisme* (Paris, Gallimard).
- BRETON, André (1924), 1970 : *Point du jour* (Paris, Gallimard).
- BRETON, André (1935), 1972 : *Position politique du surréalisme* (Paris, Gallimard).
- BRETON, André (1944), 1965 : *Arcane 17* (Paris, 10/18).
- BURGER, Peter, 1974 : *Theorie der Avantgarde* (Frankfurt, Suhrkamp).
- BURGER, Peter, 1977 : *Aktualität und Geschichtlichkeit. Studien zum gesellschaftlichen Funktionswandel der Literatur* (Frankfurt, Suhrkamp).
- BURNIER, Michel, 1966 : *Les Existentialistes et la politique* (Paris, Gallimard).
- BUTOR, Michel (1955), 1960 : « Le Roman comme recherche », in *Répertoire I* (Paris, Minuit).
- BUTOR, Michel, 1960 : *Degrés* (Paris, Gallimard).
- CALVET, Louis-Jean, 1975 : *Pour et contre Saussure* (Paris, Payot).
- CAMUS, Albert (1942), 1962 : *L'Étranger*, in *Théâtre, récits, nouvelles* (Paris, Gallimard/Pléiade : édition citée).
- CAMUS, Albert (1944), 1962 : *Le Malentendu*, in *Théâtre, récits, nouvelles* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- CAMUS, Albert (1942), 1965 : *Le Mythe de Sisyphe* (Paris, Gallimard/Pléiade).

LITTÉRATURE CITÉE

- CAMUS, Albert (1951), 1965 : *L'Homme Révolté* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- CAMUS, Albert, 1965 : *Essais* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- CERVANTÈS, Miguel de (1605-1615), 1965 : *El Ingenioso Hidalgo Don Quijote de la Mancha* (Madrid, Espasa-Calpe/Austral).
- CHVATIK, Květoslav, 1981 : *Tschechoslowakischer Strukturalismus* (München, Fink).
- COMTE, Auguste, 1830-1842 : *Cours de Philosophie positive I-VI* (Paris, Rouen Frères).
- COQUET, Jean-Claude, 1973 : *Sémiotique littéraire* (Tours, Mâme).
- COSER, Lewis A., 1963 : *Sociology through Literature* (Englewood Cliffs, Prentice Hall).
- COURTES, Joseph, 1976 : *Introduction à la sémiotique narrative et discursive* (Paris, Hachette).
- DERRIDA, Jacques, 1967 : *L'Écriture et la différence* (Paris, Seuil).
- DESTUTT DE TRACY, Antoine, 1801-1815 : *Éléments d'idéologie I-V* (Paris, Rouen Frères).
- DOUBROVSKY, Serge, 1974 : *La Place de la Madeleine* (Paris, Mercure de France).
- DUBOIS, Jacques, 1978 : *L'Institution de la littérature. Introduction à une sociologie* (Bruxelles/Paris, éd. Labor/Nathan).
- DUCHET, Claude (éd.), 1979 : *Sociocritique* (Paris, Nathan).
- ĐURIŠIN, Dionýz, 1976 : *Vergleichende Literaturforschung* (Berlin-Est, Akademie-Verlag).
- DURKHEIM, Émile (1897), 1960 : *Le Suicide. Étude de Sociologie* (Paris, PUF).
- DUVIGNAUD, Jean, 1965 : *Les Ombres collectives. Sociologie du théâtre* (Paris, PUF).
- DUVIGNAUD, Jean, 1971 : *Spectacle et société* (Paris, Denoël/Gonthier).
- ECO, Umberto, 1966 : « James Bond : Une combinatoire narrative », in *Communications* n° 8.
- ECO, Umberto, 1973 : *Segno* (Milano, Isedi).
- ESCARPIT, Robert, 1958 : *Sociologie de la littérature* (Paris, PUF).
- ESCARPIT, Robert, 1961 : « La Définition du terme " Littérature " » in *Actes du III^e Congrès de l'Association Internationale de Littérature Comparée* (Utrecht).
- ESCARPIT, Robert (éd.), 1970 : *Le Littéraire et le social* (Paris, Flammarion).
- ESCARPIT, Robert, 1976 : *Théorie générale de l'information et de la communication* (Paris, Hachette).
- FAYE, Jean-Pierre, 1972 : *Théorie du récit. Introduction aux langages totalitaires* (Paris, Hermann).
- FITCH, Brian, 1972 : « L'Étranger » d'Albert Camus. *Un texte, ses lecteurs, leurs lectures* (Paris, Larousse).
- FREUD, Sigmund, 1914 : « Zur Einführung des Narzissmus », *Gesammelte Werke*, Bd. X (Frankfurt, Fischer).
- FREUD, Sigmund, 1967 : *Massenpsychologie und Ich-Analyse* (Frankfurt, Fischer).
- FÜGEN, Hans Norbert, 1964 : *Die Hauptrichtungen der Literatursoziologie und ihre Methoden* (Bonn, Bouvier).
- GARAUDY, Roger, 1968 : « D'un réalisme sans rivages », in *Esthétique et invention du futur* (Paris, 10/18).
- GENETTE, Gérard, 1968 : « Discussion » à propos de Jacques Leenhardt : « Psycho-critique et sociologie de la littérature », in *Les Chemins actuels de la critique* (Colloque de Cerisy), (Paris, 10/18).
- GENETTE, Gérard, 1972 : « Discours du récit », in *Figures III* (Paris, Seuil).
- GOETHE, Johann Wolfgang (1821), 1963 : *Maximen und Reflexionen* (München, DTV).
- GOLDMANN, Lucien, 1955 : *Le Dieu caché* (Paris, Gallimard).
- GOLDMANN, Lucien (1956), 1970 : *Racine* (Paris, L'Arche).
- GOLDMANN, Lucien, 1959 : « La Réification », in *Recherches dialectiques* (Paris, Gallimard).
- GOLDMANN, Lucien, 1964 : *Pour une sociologie du roman* (Paris, Gallimard).
- GOLDMANN, Lucien, 1970 : *Structures mentales et création culturelle* (Paris, Anthropos, 1970).

LITTÉRATURE CITÉE

- GOLDMANN, Lucien et ADORNO, Theodor W., 1973 : « Discussion extraite des Actes du Colloque », *Deuxième Colloque International sur la Sociologie de la Littérature, Royumont*, in *Revue de l'Institut de Sociologie*, n° 3-4 (Bruxelles).
- GORDON, Clive, 1980 : *Aspects of Structure in Proust's « A la recherche du temps perdu »* (Cambridge/Trinity College, Thèse).
- GRAMSCI, Antonio, 1976 : *Arte e folklore* (Roma, Newton Compton).
- GREIMAS, Algirdas Julien, 1966 : *Sémantique structurale* (Paris, Larousse).
- GREIMAS, Algirdas Julien, 1970 : *Du Sens* (Paris, Seuil).
- GREIMAS, Algirdas Julien, 1976 : *Sémiotique et sciences sociales* (Paris, Seuil).
- GREIMAS, Algirdas Julien, 1976a : *Maupassant. La sémiotique du texte : exercices pratiques* (Paris, Seuil).
- GREIMAS, Algirdas Julien et COURTES, Joseph, 1979 : *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage* (Paris, Hachette).
- GÜNTHER, Hans, 1981 : « Michail Bachtins Konzeption als Alternative zum Sozialistischen Realismus », in *Semiotics and Dialectics. Ideology and the Text* (éd. P. V. Zima), (Amsterdam, Benjamins).
- HABERMAS, Jürgen, 1973 : *La Technique et la science comme idéologie* (Paris, Denoël/Gonthier).
- HEGEL, Georg Wilhelm Friedrich (1835), 1964 : *Introduction à l'esthétique (Esthétique I)* et 1965 : *La Poésie (Esthétique VIII)*, (Paris, Aubier-Montaigne).
- HEGEL, Georg Wilhelm Friedrich (1807), 1970 : *Phänomenologie des Geistes* (Frankfurt, Suhrkamp).
- HEITMANN, Klaus, 1983 : « Camus' Fremder : ein Identifikationsangebot für junge Leser? Ein empirisches Rezeptionsprotokoll », in *Cahiers d'Histoire des Littératures Romanes*, n° 3-4.
- HERMANT, Abel, s.d. : *Souvenirs du Vicomte de Courpière – par un témoin* (Paris, Flammarion).
- HORKHEIMER, Max, 1974 : *Notizen 1950-1969 und Dämmerung. Notizen in Deutschland* (Frankfurt, Fischer).
- HUET, Pierre Daniel, 1670 : *Traité de l'origine des romans* (reproduction de l'original avec une trad. allemande), (Stuttgart, Metzler).
- HUME, David (1740), 1965 : « That Politics May be Reduc'd to a Science », in *Essential Works of David Hume* (éd. R. Cohen), (Bantam Books, New York).
- JAKOBSON, Roman et LÉVY-STRAUSS, Claude, 1962 : « Les Chats de Charles Baudelaire », in *L'Homme – Revue française d'anthropologie*, II/1.
- JAUSS, Hans Robert, 1970 : *Literaturgeschichte als Provokation* (Frankfurt, Suhrkamp).
- JAUSS, Hans Robert, 1975 : « Zur Fortsetzung des Dialogs zwischen "bürgerlicher" und "materialistischer" Rezeptionsästhetik », in *Rezeptionsästhetik* (éd. R. Warning), (München, Fink).
- JAUSS, Hans Robert, 1977 : « Goethes und Valérys Faust. Versuch, ein komparatistisches Problem mit der Hermeneutik von Frage und Antwort zu lösen », in *Unjetnost Riječi*, n° spécial, 1977 (Zagreb).
- JAUSS, Hans Robert, 1977a : *Ästhetische Erfahrung und literarische Hermeneutik I* (München, Fink).
- JAUSS, Hans Robert, 1978 : *Pour une esthétique de la réception* (trad. Cl. Maillard), (Paris, Gallimard).
- JOHNSON, Patricia J., 1972 : *Camus et Robbe-Grillet. Structure et techniques narratives dans « Le Renégat » de Camus et Le Voyeur de Robbe-Grillet* (Paris, Nizet).
- JONES, Emmet, 1968 : *Panorama de la Nouvelle Critique en France* (Paris, PUF).
- JULLIAN, Philippe, 1965 : *Robert de Montesquiou. Un Prince 1900* (Paris, Perrin).
- JURT, Joseph, 1979 : « Für eine Rezeptionssoziologie », in *Cahiers d'Histoire des Littératures Romanes*, n° 1-2.
- JURT, Joseph, 1980 : *La Réception de la littérature par la critique journalistique. Lectures de Bernanos (1926-1936)*, (Paris, Jean-Michel Place).

- JURT, Joseph, 1983 : « " L'Esthétique de la réception ". Une nouvelle approche de la littérature? », in *Lettres Romanes* (Université Catholique de Louvain), n° 3.
- KOFLER, Leo, 1970 : *Abstrakte Kunst und absurde Literatur* (Wien, Europa-Verlag).
- KÖHLER, Erich, 1977 : « Gattungssystem und Gesellschaftssystem », in *Cahiers d'histoire des Littératures Romanes*, n° 1.
- KÖHLER, Erich, 1981 : « *Can vei la lauzeta mover*. Überlegungen zum Verhältnis von phonischer Struktur und semantischer Struktur », in *Semiotics and Dialectics* (éd. P. V. Zima), (Amsterdam, Benjamins).
- KOHUT, Heinz, 1975 : « Formen und Umformungen des Narzissmus », in *Die Zukunft der Psychoanalyse* (Frankfurt, Suhrkamp).
- KOSELLECK, Reinhart, 1959 : *Kritik und Krise* (Freiburg, Alber).
- KOSIK, Karel, 1970 : *Dialectique du concret* (Paris, Maspero).
- KOTT, Jan, 1972 : « Kapitalismus auf einer öden Insel », in *Marxistische Literaturkritik* (éd. V. Zmegač), (Frankfurt, Fischer/Athenäum).
- KRESS, Gunther et HODGE, Robert, 1979 : *Language as Ideology* (London, Routledge & Kegan Paul).
- KRISTEVA, Julia, 1969 : *Séméiotikè. Recherches pour une sémanalyse* (Paris, Seuil).
- KRISTEVA, Julia, 1974 : *La Révolution du langage poétique* (Paris, Seuil).
- LACAN, Jacques, 1966 : « Le Stade du miroir comme formateur de la fonction du Je », in *Écrits I* (Paris, Seuil).
- LADMIRAL, Jean-René, 1981 : « Entre les lignes, entre les langues », in *Revue d'Esthétique*, n° 1.
- LEENHARDT, Jacques, 1968 : « Psychocritique et sociologie de la littérature », in *Les Chemins actuels de la critique* (Colloque de Cerisy), (Paris, 10/18).
- LEENHARDT, Jacques, 1973 : *Lecture politique du roman. « La Jalousie » d'Alain Robbe-Grillet* (Paris, Minuit).
- LEENHARDT, Jacques, 1976 : « Projet pour une critique », in *Robbe-Grillet. Colloque de Cerisy*, vol. II (Paris, 10/18).
- LEENHARDT, Jacques, 1980 : « Introduction à la sociologie de la lecture », in *L'Effet de lecture, Revue des Sciences Humaines* (Lille), n° 1.
- LEENHARDT, Jacques et JOZSA, Pierre, 1983 : *Lire la lecture* (Paris, Le Sycomore).
- LEIBFRIED, Erwin, 1972 : *Kritische Wissenschaft vom Text* (Stuttgart, Metzler).
- LETHEN, Helmut, 1971 : « Walter Benjamins tesen voor een materialistische kunsttheorie », in *De auteur als producent, Sunkschrift* (Nijmegen).
- LOTMAN, Iouri, 1973 : *La Structure du texte artistique* (Paris, Gallimard).
- LOTTMAN, Herbert, R., 1978 : *Albert Camus* (Paris, Seuil).
- LÖWENTHAL, Leo, 1957 : *Literature and the Image of Man* (Boston, Books for Libraries Press).
- LÖWENTHAL, Leo, 1961 : « Biographies in Popular Magazines », in *Literature, Popular Culture and Society* (Englewood Cliffs, Prentice Hall).
- LÖWENTHAL, Leo (1932), 1980 : « Zur gesellschaftlichen Lage der Literaturwissenschaft », in *Schriften I. Literatur und Massenkultur* (Frankfurt, Suhrkamp).
- LÖWENTHAL, Leo (1948), 1980 : « Aufgaben der Literatursoziologie », in *Schriften II. Literatur und Massenkultur* (Frankfurt, Suhrkamp).
- LEVIN, Harry, 1945 : « Literature as an Institution », *Accent*, n° 6.
- LUHMANN, Niklas, 1973 : *Zweckbegriff und Systemrationalität* (Frankfurt, Suhrkamp).
- LUKÁCS, Georges (1911), 1974 : *L'Âme et les formes* (Paris, Gallimard).
- LUKÁCS, Georges (1920), 1963 : *La Théorie du roman* (Paris, Gonthier).
- LUKÁCS, Georges (1923), 1960 : *Histoire et conscience de classe* (Paris, Minuit).
- LUKÁCS, Georges (1934), 1969 : *Balzac et le réalisme français* (Paris, Maspero).
- LUKÁCS, Georges (1947), 1967 : « Goethe und seine Zeit », in *Faust und Faustus. Ausgewählte Schriften II* (Reinbek, Rowohlt).
- LUKÁCS, Georges (1949), 1967 : « Thomas Mann », in *Faust und Faustus. Ausgewählte Schriften II* (Reinbek, Rowohlt).
- LUKÁCS, Georges (1948), 1974 : « Erzählen oder beschreiben? », in *Begriffsbestimmung*

LITTÉRATURE CITÉE

- mung des literarischen Realismus* (éd. R. Brinkmann), (Darmstadt, Wissenschaftliche Buchgesellschaft).
- LUKÁCS, Georges, 1972 : *Ästhetik I-IV* (Neuwied/Berlin, Luchterhand).
- MACHEREY, Pierre, 1966 : *Pour une théorie de la production littéraire* (Paris, Maspero).
- MACHEREY, Pierre, 1979 : « Histoire et roman dans *Les Paysans* de Balzac », in *Sociocritique* (éd. Cl. Duchet), (Paris, Nathan).
- MALLARMÉ, Stéphane, 1945 : « Variations sur un sujet », in *Œuvres Complètes* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- MALMBERG, Bertil, 1974 : « Derrida et la sémiologie : Quelques notes marginales », in *Semiotica*, 11 : 2.
- MANNHEIM, Karl, 1980 : *Strukturen des Denkens* (Frankfurt, Suhrkamp).
- MARIN, Louis, 1975 : *La Critique du discours. Sur la « Logique de Port-Royal » et les « Pensées » de Pascal* (Paris, Minuit).
- MARIN, Louis, 1978 : *Le Récit est un piège* (Paris, Minuit).
- MARINETTI, Filippo Tommaso (1909), 1976 : *Manifeste du futurisme*, in *Marinetti. Poètes d'aujourd'hui* (éd. G. Lista), (Paris, Seghers).
- MARX, Karl (1857-1858), 1968 : « Grundrisse ». 1. *Chapitre de l'Argent* (Paris, 10/18).
- MARX, Karl (1844), 1971 : *Die Frühschriften* (Stuttgart, Kröner).
- MARX, Karl, ENGELS, Friedrich et LASSALLE, Ferdinand (1859), 1969 : « Die Sickingen-Debatte », in *Marxismus und Literatur I* (éd. F. Raddatz), (Reinbek, Rowohlt).
- MATORÉ, Georges, 1951 : *Le Vocabulaire et la société sous Louis-Philippe* (Genève, Droz).
- MAUROIS, André, 1949 : *A la recherche de Marcel Proust* (Paris, Hachette).
- MAURON, Charles, 1957 : *L'Inconscient dans l'œuvre et la vie de Racine* (Gap, Ophrys).
- MAURON, Charles (1963), 1983 : *Des Métaphores obsédantes au mythe personnel* (Paris, Corti).
- MEDVEDEV, Pavel N. (1929), 1976 : *Die Formale Methode in der Literaturwissenschaft* (Stuttgart, Metzler).
- MESCHONNIC, Henri, 1979 : « Situation de Sartre dans le langage », in *Obliques « Sartre »*, n° 18-19.
- MILLER, Milton, 1956 : *Nostalgia. A Psychoanalytic Study of Marcel Proust* (Boston, Houghton Mifflin).
- MORAVIA, Alberto (1929), 1980 : *Gli Indifferenti* (Milano, Bompiani).
- MORAVIA, Alberto, 1979 : *Le Roi est nu. Conversations en français avec Vania Luksic* (Paris, Stock).
- MORRISSETTE, Bruce, 1963 : *Les Romans de Robbe-Grillet* (Paris, Minuit).
- MORSON, Gary Saul, 1978 : « The Heresiarch of META », in *PTL*, n° 3.
- MUKAŘOVSKÝ, Jan, 1941 : « Poznámky k sociologii básnického jazyka », in *Kapitoly z české poetiky I* (Praha, Melantrich).
- MUKAŘOVSKÝ, Jan, 1966 : *Studie z estetiky* (Praha, Odeon).
- MUKAŘOVSKÝ, Jan, 1970 : *Kapitel aus der Ästhetik* (Frankfurt, Suhrkamp).
- MUKAŘOVSKÝ, Jan, 1971 : *Cestami poetiky a estetiky* (Praha, Československý Spisovatel).
- MUKAŘOVSKÝ, Jan, 1974 : *Studien zur strukturalistischen Ästhetik und Poetik* (München, Hanser).
- MUSIL, Robert (1952), 1969 : *L'Homme sans qualités I-III* (Paris, Seuil).
- MUSIL, Robert, 1978 : *Gesammelte Werke I-IX* (Reinbek, Rowohlt).
- NAUMANN, Manfred (éd.), 1975 : *Gesellschaft-Literatur-Lesen* (Berlin-Est, Aufbau-Verlag).
- NIETZSCHE, Friedrich (1885), 1980 : *Jenseits von Gut und Böse. Vorspiel einer Philosophie der Zukunft*, Werke Bd. IV (München, Hanser).
- PAGLIANO-UNGARI, Graziella, 1977 : « Le Dialogue œuvre-lecteur », in *Le Structuralisme génétique. L'Œuvre et l'influence de Lucien Goldmann* (éd. A. Goldmann e.a.), (Paris, Denoël/Gonthier).

- PAINTER, George D., 1966 : *Marcel Proust I-II* (Paris, Mercure de France).
- PARSONS, Talcott, 1951 : *The Social System* (Glencoe, Free Press of Glencoe, Ill.).
- PÊCHEUX, Michel, 1975 : *Les Vérités de La Palice* (Paris, Maspero).
- PONGE, Francis (1942), 1965 : *Le Parti pris des choses* (Paris, Gallimard).
- PONGE, Francis (1967-1968), 1983 : *Nioque de l'Avant-Printemps* (Paris, Gallimard).
- PONZIO, Augusto, 1981 : *Segni e contraddizioni. Fra Marx a Bachtin* (Verona, Bertani Editore).
- POSNER, Roland, 1969 : « Strukturalismus in der Gedichtinterpretation. Textdeskription und Rezeptionsanalyse am Beispiel von Baudelaires *Les Chats* », in *Sprache im technischen Zeitalter*, n° 29.
- PRIETO, Luis J., 1975 : *Pertinence et pratique* (Paris, Minuit).
- PRIETO, Luis J., 1981 : « L'Idéologie structuraliste et les origines du structuralisme », in *Zeichenkonstitution. Akten des 2. Semiotischen Kolloquiums*. Regensburg, 1978 (éd. Anne-Marie Lange-Seidl, Bd. I), (Berlin/New York, De Gruyter).
- PROPP, Vladimir (1928), 1965 : *Morphologie du conte* (Paris, Seuil).
- PROUST, Marcel, 1954 : *A la recherche du temps perdu I-III* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- PROUST, Marcel, 1971 : *Contre Sainte-Beuve* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- PROUST, Marcel, 1976 : *Le Carnet de 1908. Établi et présenté par P. Kolb*, Cahiers Marcel Proust (Paris, Gallimard).
- RABELAIS, François (1535), 1965 : *Gargantua* (Paris, Gallimard/Folio).
- RASTIER, François, 1972 : « Systématique des isotopies », in *Essais de sémiotique poétique* (éd. A. J. Greimas), (Paris, Larousse).
- REBOUL, Olivier, 1980 : *Langage et idéologie* (Paris, PUF).
- RICARDOU, Jean, 1971 : *Pour une théorie du nouveau roman* (Paris, Seuil).
- RICARDOU, Jean, 1978 : *Nouveaux problèmes du roman* (Paris, Seuil).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1955 : *Le Voyeur* (Paris, Minuit).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1959 : *Dans le labyrinthe* (Paris, Minuit).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1962 : *Instantanés* (Paris, Minuit).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1963 : *Pour un nouveau roman* (Paris, Gallimard).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1972 : *Nouveau Roman : hier, aujourd'hui* (Paris, 10/18).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1976 : *Topologie d'une cité fantôme* (Paris, Minuit).
- ROBBE-GRILLET, Alain, 1983 : « Entretien », in *Littérature*, n° 49.
- ROCHE, Maurice, 1975 : *Opéra Bouffe* (Paris, Seuil).
- ROMEIN, Jan, 1976 : « De historische zetting van het *Communistische Manifest* », in *Historische lijnen en patronen. Een keuze uit de essays* (Amsterdam, Querido).
- ROSENGREN, Karl Erik, 1968 : *Sociological Aspects of the Literary System* (Stockholm, Natur och Kultur).
- ROSENTHAL, Bianca, 1977 : *Die Idee des Absurden: Friedrich Nietzsche und Albert Camus* (Bonn, Bouvier).
- RULOFF-HÄNY, Franziska, 1976 : *Liebe und Geld. Der Trivialroman und seine Struktur* (Stuttgart, Artemis).
- SAFOUAN, Moustapha, 1968 : « De la structure en psychanalyse », in *Qu'est-ce que le structuralisme?* (éd. F. Wahl), (Paris, Seuil).
- SAND, George (1850), 1962 : *François le Champi* (Paris, Garnier).
- SARRAUTE, Nathalie, 1956 : *L'Ère du soupçon* (Paris, Gallimard).
- SARTRE, Jean-Paul (1938), 1981 : *La Nausée* (Paris, Gallimard/Pléiade).
- SARTRE, Jean-Paul, 1947 : *Critiques littéraires (Situations I)*, (Paris, Gallimard).
- SARTRE, Jean-Paul, 1960 : « Question de méthode », in *Critique de la raison dialectique* (Paris, Gallimard).
- SASSANELLI, Giorgio, 1982 : *Le Basi narcisistiche della personalità* (Torino, Boringhieri).
- SCHMITT, Hans-Jürgen (éd.), 1973 : *Die Expressionismusexaltation* (Frankfurt, Suhrkamp).
- SCHNEIDER, Manfred, 1975 : *Subversive Ästhetik. Regression als Bedingung und Thema von Marcel Prousts Romankunst* (Tübingen, Niemeyer).

LITTÉRATURE CITÉE

- SILBERMANN, Alphons, 1967 : « Kunst », in *Fischer-Lexikon Soziologie* (éd. R. König), (Frankfurt, Fischer).
- SOLLERS, Philippe, 1973 : *H* (Paris, Seuil).
- TALL, Emily, 1979 : « Camus in the Soviet Union. Some Recent Emigrés Speak », in *Comparative Literature Studies*, n° 3.
- TOCQUEVILLE, Alexis de (1856), 1952 : *L'Ancien régime et la révolution* (Paris, Gallimard).
- TODOROV, Tzvetan, 1975 : « La Lecture comme construction », in *Poétique*, n° 24.
- TODOROV, Tzvetan, 1979 : « Bakhtine et l'altérité », in *Poétique*, n° 40.
- TODOROV, Tzvetan, 1981 : *Mikhaïl Bakhtine : le principe dialogique*, suivi de *Écrits du Cercle de Bakhtine* (Paris, Seuil).
- TODOROV, Tzvetan (éd.), 1965 : *Théorie de la littérature. Textes des formalistes russes* (Paris, Seuil).
- TYNIANOV, Iouri (1927), 1965 : « De l'évolution littéraire », in T. Todorov (éd.), 1965.
- VEBLEN, Thorstein, 1970 : *Théorie de la classe de loisir* (Paris, Gallimard).
- VODIČKA, Felix, 1975 : « Die Rezeptionsgeschichte literarischer Werke », in *Rezeptionsästhetik* (éd. R. Warning), (München, Fink).
- VODIČKA, Felix, 1976 : *Die Struktur der literarischen Entwicklung* (München, Fink).
- VOLOCHINOV, Valentin N. (1930), 1981 : « La Structure de l'énoncé », in T. Todorov (éd.), 1981.
- WATT, Ian, 1957 : *The Rise of the Novel. Studies in Defoe, Richardson and Fielding* (London, Penguin).
- WEBER, Max (1904-1905), 1964 : *L'Éthique protestante et l'esprit du capitalisme* (Paris, Plon).
- WEBER, Max (1917), 1973 : « Der Sinn der "Wertfreiheit" der Sozialwissenschaften », in Max Weber, *Soziologie. Universalgeschichtliche Analysen. Politik* (éd. J. Winckelmann), (Stuttgart, Kröner).
- WEBER, Max (1921), 1976 : *Wirtschaft und Gesellschaft I-III* (Tübingen, J. C. B. Mohr : édition citée), (trad. fr. *Économie et société*, Paris, Plon, 1971).
- WEIMANN, Robert : « Literarische Struktur und Literaturgeschichte : Die Sprache der Kunst », in *Marxistische Literaturkritik* (éd. V. Žmegač), (Frankfurt, Fischer/Athenäum).
- WILLIAMS, Raymond, 1977 : *Marxism and Literature* (Oxford, Univ. press).
- ZALAMANSKY, Henri, 1970 : « L'Étude des contenus, étape fondamentale de la sociologie de la littérature contemporaine », in R. Escarpit (éd.), 1970.
- ZIMA, Pierre V., 1978 : *Pour une sociologie du texte littéraire* (Paris, 10/18).
- ZIMA, Pierre V., 1980 : *Textsoziologie. Eine kritische Einführung* (Stuttgart, Metzler).
- ZIMA, Pierre V., 1980a : *L'Ambivalence romanesque. Proust, Kafka, Musil* (Paris, Le Sycomore).
- ZIMA, Pierre V., 1982 : *L'Indifférence romanesque. Sartre, Moravia, Camus* (Paris, Le Sycomore).
- ZIMA, Pierre V., 1981 : « Les Mécanismes discursifs de l'idéologie », in *Revue de l'Institut de Sociologie*, n° 4 (Bruxelles).

الفهرست

٥	مقدمة للقارئ العربي
١١	مقدمة
	الجزء الأول
	مناهج ونماذج
١٦	الفصل الأول : مفاهيم اجتماعية أساسية
	١ - تقديم
	٢ - علم الاجتماع والفلسفة
	٣ - علم الاجتماع وعلم النفس
	٤ - مفاهيم اجتماعية أساسية
	أ - النظام الاجتماعي والمؤسسة
	ب - الوعي الجماعي، معايير وقيم
	ج - تقسيم العمل، الدور والتضامن
	د - اللامعيارية
	هـ - الطبقة الاجتماعية
	و - الوعي الطبقي والأيدولوجية
	ز - القاعدة والبنية الفوقية
	ح - الأيدولوجية والعلم

ط - أيديولوجية وتوسط عبر قيمة التبادل

ى - التشيؤ والاستلاب

ك - الموضوعية

الفصل الثانى: المناهج الإمبريقية والجدلية فى علم اجتماع الأدب ٤١

١ - الموضوعية وعلم الاجتماع الإمبريقي للأدب

٢ - نماذج جدلية

أ - الجماليات الهيكلية والنماذج الجدلية فى علم اجتماع الأدب

ب - الكلية والنمطى عند لوكاتش

ج - الكلية ورؤية العالم عند جولدمان

د - نقد أدورنو لجماليات هيجل

هـ - النقد والأيديولوجيا عند ماشرى

٦٣ الفصل الثالث: علم اجتماع الأجناس الأدبية

١ - نظام الأجناس والنظام الاجتماعى

٢ - علم اجتماع المسرح

أ - الدراما والامعيارية ، سوسيولوجيا المسرح لجان دوفينيو

ب - تحولات الفردية ليولوفنتال

ج - رؤية العالم فى المسرح : «الإله الخفى» للوسيان جولدمان

د - المسرح ونقد الأيديولوجية : بيكيت وأدورنو

٣ - نحو علم اجتماع للنص الشعري

٤ - من والتر بنيامين إلى شارل بودلير ، هالة وصدمة

ب - تيودور أدورنو ، الشعر كنقد

٤ - علم اجتماع الرواية

أ - الرواية الواقعية حسب جورج لوكاتش

ب - " فلاحون " بلزاك : من لوكاتش إلى ماشرى

ج - من لوكاتش إلى جولدمان . من أجل علم اجتماع للرواية

د - ميخائيل باختين : الكرنفال وازدواج ورواية

الجزء الثانى : علم اجتماع النص

الفصل الرابع : نحو علم اجتماع للنص

١ - تقديم

٢ - علم الدلالة والتركيب كوظائف اجتماعية

أ - المستوى المعجمى والدلالى

ب - المستوى السردى

٣ - الوضع اللغوى الاجتماعى

٤ - لهجات جماعية وخطابات

أ - اللهجات الجماعية

ب - خطاب (أيديولوجية)

٥ - التناس كفقولة اجتماعية

٦ - نحو علم اجتماع للنص الروائى : «غريب» كامو

أ - الوضع الاجتماعى اللغوى

ب - اللهجة الجماعية ، الخطاب والتناس

ج - ازدواج دلالى ولامبالاة : العالم الدلالى لـ «الغريب»

د - اللامبالاة والبنى السردية

٧ - ملاحظات منهجية . «غريب» رينيه باليبار

٧ - نحو علم اجتماع للرواية الجديدة: «المتلصص» لآلان روب جرييه

أ - الوضع الاجتماعي اللغوي

ب - التناس: اللهجة الجماعية " العلمية "

ج - العالم الدلالي : لامبالاة وتعدد معاني

د - اللامبالاة وتعدد المعاني والبنى السردية

هـ - النقد والموافقة في " المتلصص "

الفصل الخامس : النقد الاجتماعي والتحليل النفسي: ٢٧٣
المجتمع والنفس عند مارسيل بروس

١ - مسائل منهجية

٢ - حديث ونرجسية

٣ - من التحليل النفسي إلى علم اجتماع النص

الفصل السادس : جماليات التلقى وعلم اجتماع ٢٥٩
القراءة

١ - إنتاج وتلقي

٢ - نظرية القراءة في حلقة براغ اللغوية

٣ - من براغ إلى كونستانس : جماليات التلقى

٤ - من علم اجتماع الجمهور إلى علم اجتماع القراءة: سكاربيت،
جورت ولينارديت

٥ - القراءة كعملية تناسية: كاموفي الاتحاد السوفيتي

٣٣١

٣٤١

٣٧١

قائمة المصطلحات

بيوجرافيا شارحة

قائمة المراجع

نقد أدبي

- ١ - الخطاب الروائي
 - ٢ - النظرية الأدبية المعاصرة
 - ٣ - اللغة والابداع الأدبي
 - ٤ - شفرات النص
 - ٥ - محمد مندور تنظير النقد الأدبي
 - ٦ - النقد الأدبي
 - ٧ - البعد الإنساني في رواية النكبة
 - ٨ - اللغة المكتوب واللغة المنطوقة
 - ٩ - النقد الاجتماعي
- ميخائيل باختين
رامان سلدن
ترجمة د . جابر عصفور
د . محمد العبد
د . صلاح فضل
د . محمد برادة
ترجمة : د . هدى مصطفى
صبحى نبهان
د . محمد العبد
بيير زيم
ترجمة : عايدة لطفي
- نحو علم اجتماع للنص الأدب

مكتبة
الحسينية
البحرية

www.library-tarab.com

رقم الايداع

١٩٩١/٥٩٣٧

I.S.B.N

977.5091 - 08 - 1

 **International Press**
٢٤٧٤٢٠٩ مدينة الصحفيين ت - شارع جمال الشاهد

مكتبات
مكتبة العرب

www.library-arab.com

مكتبات مكتبة العرب

www.library4arab.com

هذا الكتاب

هذا الكتاب عام ١٩٨٥، ومن ثم فرار حديث إلى حد كبير، بتلك التطورات الأخيرة في ميدان النقد الأدبي بعمق ومن منظور نقدي، ولذلك فإن موقفه من هذه التطورات واضح سواء بالقبول أو بالرفض أو التعديل.

بيير لازيمان، مؤلف هذا الكتاب، إستاذ بمعهد الأدب العام في جامعة جريغين بهولندا، وصاحب المؤلفات العديدة في النقد الأدبي، يتناول في هذا الكتاب من مفهوم للنص الأدبي، لا باعتباره بنية مغلقة ينبغي البحث عن تجريدها المثالي، وإنما ككيان حي ملموس يعيش حياته عبر قوانينه الخاصة ولكنه يحمل في بعض القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التي يعيش في إطارها، يشرح ويتلقى. ومن هنا فإنه يطلق على منهجه هذا «علم اجتماع النص الأدبي» وإن كان يستفيد، إنضاج هذا المنهج بمناهج أخرى مثل السيميوطيقا والبنوية والتحليل النفسي.

إنها محاولة جريئة وأصلية نحو انضاج علم اجتماع للنص الأدبي.

" الناشر "

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع



قرش جننيه
١٩٥٥